الحياة الأدبية

في العصر الجاهلي

تأليف
د. محمد عبد المنعم خفاجي
الأستاذ والعميد بجامعة الأزهر

دار الجيل
بيروت

الطبعة الأولى
١٤١٢هـ - ١٩٩٢م

مقدمة

هذه هي الطبعة الثالثة لكتاب « **الحياة الأدبية في العصر الجاهلي** » تصدر بعد الطبعتين السابقتين بوقت طويل، وبعد أن نفذت نسخ الكتاب، وتعذر الحصول عليه.

وفي هذه الطبعة زيادات كثيرة عن الطبعتين السابقتين، وفيها تحقيقات عديدة أضفناها إلى الكتاب.

ولا يمكنني أن أنوه بالجهد الذي بذلته، والعبء الذي حملته، في سبيل إصدار الكتاب في هذا الحجم الكبير.

ولكني أعتمد على ثقة القراء وتقديرهم.

ومن الله أستمد التوفيق، وأطلب العون، وألتمس السداد، وما توفيقي إلا بالله.

المؤلف

تمهيد
الأدب وأطواره

- ١ -

يطلق الأدب فنفهم منه بادىء ذى بدء معناه ، الذى يدور حول الجيد البليغ من الكلام نثره ونظمه .

فالأدب هو كل كلام عبر عن معنى من معانى الحياة ، وجلا صورة من صورها بأسلوب جميل ، ولفظ بديع ، فتثير معانيه العاطفة ، وتستثير بلاغته الأعجاب . فالكلام لا يكون أدباً إلا إذا اشتمل على : معان تبعث عواطف القارىء والسامع ، وعلى ألفاظ جميلة تؤدى بها هذه المعانى والأفكار ، وإلا إذا لاءم الذوق ، ووافق الطبع ، وأثر فى النفس ، وصور لك الأشياء كما تجدها أنت حين تخلو إليها وتفكر فيها .

ومبعث الجمال فى الكلام قد يكون فى معانيه ودقتها وعمقها وروعتها ، وقد يكون فى ألفاظه وسحرها وفصاحتها وعذوبتها أو فخامتها ، وقد يكون فى ألفاظه ومعانيه جميعاً ، وذلك أتم لبلاغة الكلام ، وأجمع لسحره وتأثيره ، وأدعى لخلوده وبقائه على أمد العصور .

وبعد فجودة الأدب هى مقياس حظه من القبول والاعجاب والخلود ، وإنما تتأتى الجودة بحسن المعانى وتخير ما يتصل منها بالموضوع وما يناسبه فى دقة وحسن ترتيب ، وبحسن الألفاظ والأساليب والملاءمة بين الألفاظ والمعانى ، وعلى أى حال فإن أجود البيان نثره ونظمه ما صدر عن الطبع ، وجاء عفو القريحة من غير تكلف ولا استكراه ولا إغراب .

ومتى كان الكلام جيداً على هذا النحو ، فهو الذى نسميه أدباً ، ونعنى بحفظه وروايته وتدوينه .

- ٢ -

وقد مرّت كلمة أدب بأطوار تاريخية مختلفة فى نشأتها اللغوية(١) مما نلم به فى هذا المقام . .

ا ـ وردت كلمة أدب فى الشعر والنثر المأثورين عن العصر الجاهلى :

١ - قال الأعشى :

جروا على أدب منى بلا نزق   ولا إذا شمرت حرب بأغمار(٢)

٢ ـ وقال عتبة بن ربيعة لابنته هند عن أبى سفيان : «يؤدب أهله ولا يؤدبونه» ؛ وقالت له : «سآخذه بأدب البعل»(٣)

---

(١) راجع الجزء الأول من العصر الجاهلى للرافعى ، ومقالات فى الأدب للزيات ، والأدب الجاهلى لطه حسين ، والرد عليه للغمراوى وخضر حسين ـ وأصول النقد الأدبى للشايب ، ولسان العرب مادة «أدب» ، وخزانة الأدب فى بيت سهم بن حنظلة : «حسن ذا أدبا» ، وكذلك ترجمته فى الاغانى ، ٢٧ : ٢ أمالى المرتضى ، ١٤٥ :٣ شرح الحماسة للتبريزى ،وقصيدة كعب بن سعد التى فيها «شب وهو أديب» فى المفضليات ، وترجمته فى الخزانة وشرح أمالى المرتضى (مع ملاحظة أن القصيدة فى الجمهرة منسوبة لمحمد بن كعب الغنوى - ص ٢٧٤ - وفى الخزانة والسيوطى والعينى لكعب بن سعد الغنوى) ، وترجمة مزاحم العقيلى فى الخزانة والأغانى، وبيته «الأديب المذال» ، و١٣ شرح أدب الكاتب للجواليقى ، و١٠٤ :٢ الأمالى فى حديث عتبة مع ابنته هند ، وحديث قيس بن زهير فى الأغانى وأمالى المرتضى ١٤٩ : ١، و١٦٠ :٧ شرح الكامل ، ٦٣ :٣ شرح الكامل للبيت «أبعد ستين عندى يبتغى الأدبا ؟» ، من قصيدة جاهلية لامرأة ، وص ١٧ ج ٦ تاريخ الطبرى «يؤدبنى الحجاج» ، ونهج البلاغة ، والأدب الصغير والأدب الكبير لابن المقفع ؛ ورسالة عبد الحميد الكاتب إلى الكتاب .

(٢) البيت من قصيدة للأعشى فى شريح راجع ص ١٤ من الروائع العدد الخامس الخاص بالأعشى .

(٣) ١٠٤ :٢ الأمالى

٣ — وقال النعمان لخطباء العرب الذين أوفدهم إلى كسرى : فلا يكونن ذلك منكم فيجد فى آدابكم مطعنا » (١) . وقال فى رسالته إلى كسرى :

«وقد أوفدت أيها الملك رهطا من العرب لهم فضل فى أحسابهم وآدابهم» (١)

٤ — وورد فى شعر جاهلى لامرأة : أبعدَ ستّين عندى يبتغى الأدبا ؟

وهى فى كل هذه النصوص لاتخرج عن المعنى الخلقى المعروف .

ب ـ وجاء الإسلام بعد ظلمات من الجهل والضلالة والجاهلية ، فنجد كلمة أدب تتردد فى نصوص إسلامية كثيرة منها :

١ — جاء فى الحديث الشريف « أدبنى ربى فأحسن تأديبى ، وهو حديث مشهور ، ويبدو أن التأديب هنا بمعنى التهذيب الخلقى ، ولكن إذا رجعنا إلى الرواية فى أصل ورود الحديث وهى(٢) أن أبا بكر قال لرسول الله (ص) ما سمعت أفصح منك فمن أدبك ؟ فقال رسول الله (ص) : «أدبنى ربى فأحسن تأديبى » ، نجد أن التأديب هنا بمعنى التعليم وهو طور من أطوار كلمة أدب المشهورة بيننا الآن .

٢ — وفى حديث مشهور يروى عن عمر بن الخطاب : « طفق نساؤنا يأخذن من أدب نساء الأنصار » .

وعلى الجملة فالأدب فى كل هذه النصوص بمعنى الخلق الكريم واصطناع السيرة الحميدة ، ودلت هذه الكلمة على ذلك فى العصر الجاهلى ، كما دلت عليه فى صدر الإسلام ، قال الجواليقى م ٥٤٠ ه فى شرح أدب الكاتب :

والأدب الذى كانت العرب تعرفه هو ما يحسن من الأخلاق وفعل المكارم (٣) » .

---

(١) ١٦٩:١ العقد ط ١٩٣٥ القاهرة المطبعة التجارية

(٢) راجعها فى ص ٣٤ من الأدب العربى وتاريخه فى عصرى صدر الإسلام والدولة الأموية للمرحوم محمود مصطفى ط ١٩٣٧

(٣) ١٣ شرح أدب الكاتب للجواليقى ، ص ٢٧ شفاء الغليل للشهاب الخفاجى ط ١٢٨٢ ه

ج ـ ثم جاء عصر بنى أمية . ووردت كلمة أدب ورددت فيه كثيراً :

١ ـ من ذلك ما أنشده الجاحظ :

وإنى ـ على ما كان من عنجهيتى ولوثةِ أعرابيتى ـ لأديبُ (١)

٢ ـ وقول كعب بن سعد الغنوى :

حبيب إلى الزوار غشيان بيته جميل المحيا شبَّ وهو أديب

٣ ـ وقول سالم بن وابصة الأسدى الشاعر من قصيدته التى ذكرها صاحب الحماسة (٢) :

إذا شئت أن تُدْعى كريما مكرما أديبا ظريفا عاقلا ماجدا حرا
إذا ما أتت من صاحب لك زَلَّة فكن أنت محتالا لزلته عذرا

٤ ـ وروى صاحب اللسان (٣) فى مادة « أدب » لمزاحم العقيلى ـ وهو شاعر أموى ـ قوله فى صفة الإبل :

وهن يصرِّفن النوى بين عالج ونجران تصريفَ الأديب المذلل (٤)

٥ ـ وقال بعض الفزاريين :

كذاك أدَّبتُ حتى صار من خلقى أنى وجدتُ مِلاكَ الشيمةِ الأدبا

٦ ـ وقال سهم بن حنظلة ، ويظهر لى أنه أموى :

---

(١) البيت فى ص ١٢٦ ج ١ البيان والتبيين ط ١٩٢٧ . العنجهية : الحمق والجهل . اللوثة : الحمق أيضاً ، والمراد بكل ذلك جفاء الأخلاق

(٢) ١٦ ج ٢ ديوان الحماسة الطبعة الثالثة ١٩٢٧ بمطبعة السعادة . وسالم بن وابصة تابعى وأبوه وابصة صحابى جليل ، وبعض هذه الأبيات فى الأمالى ص ٢٢٤:٢ طبع دار الكتب .

(٣) ٢٠٠ ج ١ اللسان

(٤) رمل عالج : جبال متصلة يتصل أعلاها بالدهناء بقرب اليمامة وأسفلها بنجد وتتسع اتساعا كثيرا . النوى : الوجه الذى ينويه المسافر من قرب أو بعد وهى مؤنثة لا غير .

لم يَمنع الناسُ منى ماأردتُ ، ولا أعطيهمو ماأرادوا حسنَ ذاأدبا(١)

٧ ـ وألف ابن المقفع م١٤٣ هـ كتابين له ، سماهما . الأدب الكبير والأدب الصغير ، وفى الأدب الصغير تتردد كلمة أدب كثيرا (٢) ، وكذلك فى الأدب الكبير .

٨ ـ ومن خطبة للحجاج : هذا أدب ابن نهية (٣) أما والله لأؤدبنكم غير هذا الأدب » .

٩ ـ ومن رسالة لعبد الحميد الكاتب : أحب (أمير المؤمنين) أن يعهد إليك عهدا . . يحملك منه أدبه ، ويشرع لك عظته » .

وهى فى كل ذلك بالمعنى الخلق العام المعروف .

ولكن وردت نصوص أخرى فى هذا العصر منها :

١ ـ قال عبد الملك بن مروان الخليفة الأموى لمعلم ولده : أدبهم برواية شعر الأعشى .

٢ ـ وقال معاوية : اجعلوا الشعر أكبر همكم وأكثر آدابكم(٤) .

٣ ـ ووجدت طبقة المعلمين ، الذين كانوا يؤدبون الناشئين من أبناء الخلفاء والأمراء والولاة ، ويعلمونهم الأخبار واللغة والشعر وغيره ، وأطلق عليهم لقب « الأدباء » و « المؤدبين » ، مما يدل على أن الكلمة كانت تستعمل بمعنى التعليم .

٤ ـ وقال عبد الحميد الكاتب من رسالته للكتاب : « فتنافسوا يا معشر الكتاب فى صنوف الآداب » .

---

(١) وينسب البيت لطفيل الغنوى وهو جاهلى (١٣ شرح أدب الكاتب ط القدسى ١٩٣٥ ، ٢٧ شفاء الغليل ط ١٢٨٢)

(٢) ص ٥٦ و ٥٣ و ٤٠ وسواها من الأدب الصغير ط ١٩١١ .

(٣) رجل كان على شرطة البصرة قبل الحجاج

(٤) ٤١ جـ ٢ وفيات الأعيان

٥ - وفى الأدب الصغير لابن المقفع م ١٤٣ هـ « جل الأدب بالمنطق ، وكل المنطق بالتعليم ، ليس حرف من حروف معجمه ، ولا اسم من أنواع أسمائه ، إلا وهو مروى متعلم مأخوذ من إمام سابق من كلام أو كتاب » .

٦ - وقال محمد بن على بن عبد الله بن عباس المتوفى عام ١٢٥ هـ : كماك من علم الأدب(١) أن تروى الشاهد والمثل .

وهى فى أغلب هذه النصوص كلها ليست بالمعنى الخلقى المعروف ، إنما هى تدل على ما كان يلقيه المعلم إلى طلبته من الشعر والقصص والأخبار والأنساب وكل ما من شأنه أن يثقف نفس الصبى ويهذبها من أنواع العلوم المختلفة الخاصة باللغة والشعر وما يتصل به .

ومن ذلك كان منشأ الكلمة المشهورة : « حرفة الأدب » ، وأول من قالها الخليل(٢) ، وذلك لأنهم كانوا يتكسبون بالتعليم .

فكلمة « أدب » فى العصر الأموى كانت تطلق : على المعنى الخلقى المعروف ، وعلى رواية أشعار العرب وأخبارها وأيامها وأنسابها ، أو تعليمها للناشئين والمتعلمين .

وثقافة الكاتب - وهو أخص من الأديب - تجدها مبسوطة فى رسالة عبد الحميد الكاتب إلى الكتاب .

د - وجاء عصر بنى العباس ، فنشأت دراسات فى النحو والصرف والعروض واللغة والبلاغة ، وشملت كلمة « أدب » هذه الدراسات جميعها ، كما كان يطلق لفظ الأدباء على الكتاب والشعراء لتكسبهم بالأدب ، ويقول الجواليقى

---

(١) فى القرن الأول كانوا يطلقون على موضوعات علم الأدب : علم العرب ، أما اصطلاح علم الأدب فقد وجد فى القرن الثانى .

(٢) ٥٢٩ ثمار القلوب للثعالبى

فى شرح أدب الكاتب(١) ، « اصطلح الناس بعد الإسلام بمدة طويلة على أن يسموا العالم بالنحو والشعر وعلوم العرب « أديباً » ، ويسموا هذه العلوم الأدب ، وذلك كلام مولد ، لأن هذه العلوم حدثت فى الإسلام » .

ولما اشتدت حركة التأليف وقويت النهضة العلمية استقلت هذه العلوم بنفسها وبحوثها وانعزلت عن الأدب، وأصبحت منذ منتصف القرن الرابع كلمة أدب تدل على الكلام الجيد من المنظوم والمنثور وما يتصل به ويفسره من الشرح والنقد والأخبار والأنساب وعلوم العربية ؛ شملت الشعر كما شملت النثر الذى أجاد فيه فحول الكتاب فى هذا العصر أيضا ، كما شملت النقد الذى بدأ ينمو فيه . وكذلك الغناء(٢) ، قال ابن خلدون : « وكان الغناء فى الصدر الأول من أجزاء هذا الفن ـ الأدب ـ لما هو تابع للشعر ، إذ الغناء إنما هو تلحينه ، وكان الكتاب والفضلاء من الخواص فى الدولة العباسية يأخذون أنفسهم به حرصا على تحصيل أساليب الشعر وفنونه(٣) » ، وصار لفظ الأدباء من ذلك الحين لا يطلق إلا على الشعراء والكتاب ، فانفردوا به ، وزال عن العلماء جملة لاستقلال العلوم يومئذ وضعف الرواية ونضوب مادتها ، حتى قيل . ختم تاريخ الأدب بثعلب والمبرد . وألفت فى الأدب بهذا المعنى كتب مشهورة : كالبيان والتبيين لأبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ م ٢٥٥ هـ ، والكامل لأبى العباس محمد بن يزيد المبرد م ٢٨٥ هـ ، وكتاب العقد الفريد لابن عبد ربه الأندلسى م٣٢٨ هـ ، والأمالى لأبى على القالى م٣٥٦ هـ ، وكذلك الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى م ٣٥٦ هـ ، وسواها من أصول كتب الأدب ومصادره الأولى ، وكان الذين يقومون بدراسة علوم الأدب وروايتها

---

(١) ١٣ و ١٤ شرح أدب الكاتب للجواليقى ، ٢٧ من شفاء الغليل للشهاب الخفاجى ط ١٢٨٢ هـ

(٢) ٢٤ : ١ تاريخ آداب العرب للرافعى

(٣) ٤٨٩ المقدمة ط ١٩٣٠ بالمطبعة الأزهرية

يسمون « المؤدبين » ، إلى أن كان القرن الرابع الهجرى وانتشرت العجمة وضعفت العصبية العربية فانتهى عهد المؤدبين حتى قيل : ختم تاريخ الأدب بالمبرد ٢٨٥ هـ وثعلب م٢٩١هـ(١) ، وصار لفظ الأديب يطلق على الشاعر أو الكاتب أو الناقد فحسب ، وأصبح الأدب يدل كما قدمنا حتى اليوم على الجيد من الكلام المأثور شعراً ونثراً وما يحتاج اليه من التفسير وتبيين مافيه من مظاهر الجمال أو القبح ؛ وأصبح النحوى أو العالم بأصول البلاغة أو بأوزان الشعر وقوافيه لايستطيع أن يسمى نفسه أديباً(٢) .

ويقول ابن خلدون فى حد الأدب : هذا العلم لاموضوع له وإنما المقصود منه عند أهل اللسان ثمرته وهى الإجادة فى فنى المنظوم والمنثور على أساليب العرب ومناحيهم ، فيجمعون لذلك من كلام العرب ما عساه تحصل به الملكة من شعر عالى الطبقة وسجع متساو فى الإجادة ومسائل من اللغة والنحو مبثوثة مع ذكر بعض من أيام العرب وذكر المهم من الأنساب الشهيرة والأخبار العامة (٣) .

والخلاصة أن :

١ - كلمة أدب وردت فى نصوص جاهلية وإسلامية بمعنى الخلق الكريم

---

(١) راجع ١٢٢ : ٥ معجم الأدباء الشعر فريد رفاعى

(٢) وذلك بعد أن كان اسم النحوى مرادفا لاسم الأديب حتى إن بعض العلماء قد ألف فى تراجم النحويين كتبا سميت باسم طبقات الأدباء كما فعل ابن الانبارى فى كتابه « نزهة الألبا فى طبقات الأدباء » والفرزدقى القيروانى م ٤٧٩ هـ فى كتابه : « شجرة الذهب فى معرفة أئمة الادب » وهو تراجم للغويين والنحويين ، ولم يكن النحوى هو من عرف القواعد فحسب بل كان النحوى هو من عرف القواعد وحفظ أشعار العرب وعلم تخريجها وحفظ أيامهم وخطبهم وحكمهم ومساجلاتهم (راجع ص ٦٨ مشكلة اللغة العربية للاستاذ محمد عرفه ط ١٩٤٦)

(٣) ٤٨٨ المقدمة لابن خلدون .

٢ - وأنها وردت في العصر الأموى بمعنى الخلق الكريم ، والتعليم والتثقيف اللذين يقودان إلى الكريم الفاضل من الأخلاق ، ثم استعملت فى رواية النثر والشعر لأنهما يدعوان إلى الفضائل ومكارم الأخلاق .

٣ - وأنها فى صدر العصر العباسى إلى منتصف القرن الثالث استعملت بمعنى التعليم أيضاً ، وأصبحت فيه كلمة أدب تطلق على : رواية الشعر وما يتصل به من الأخبار والانساب وعلوم اللغة والعربية ، وعلى تعليمها (١) ، ثم استقلت هذه العلوم فأصبح الأدب منذ منتصف القرن الرابع لا يطلق إلا على الجيد المأثور من الشعر والنثر حتى العصر الحديث(٢) .

وأطلق لقب الأدباء على الشعراء والكتاب لتكسبهم بالأدب كما كان يتكسب المؤدبون بصناعة التعليم .

ويجب أن يلاحظ مع ذلك أن كلمة أدب فى العصر العباسى كانت تطلق من أواخر القرن الثالث أحيانا عند العظماء والكبراء وحاشيتهم وعلى سبيل التجوز على ما يشمل الثقافة العامة من غناء وسمر ، وحسن أدب المنادمة والحديث وخدمة الخلفاء والملوك ، والبراعة فى الصيد وفى لعب النرد والشطرنج ، وقيل لهذه العلوم : آداب رفيعة وهى قريبة من الفنون الجميلة عندنا اليوم ، وكان الأديب يقابل لفظ المثقف . ومن هذا يمكننا أن نقول إن للأدب معنيين مختلفين : الأدب بمعناه الخاص وهو الكلام الجيد الذى

---

(١) ففى القرن الثانى كان تطلق كلمة الادباء والمؤدبين على المعلمين ، ومن ذلك كان منشأ الكلمة المشهورة «حرفة الادب» ، وأول من قالها هو الخليل أحمد م ١٧٤ ﻫ ، وإنما سموا بالادباء لانهم كانوا يتكسبون بالتعليم

(٢) يقول الرافعى: لم ينتصف القرن الرابع حتى كان لفظ الادباء قد زال عن العلماء جملة وانفرد به الشعراء والكتاب لاستقلال العلوم يومئذ ، على ما كان من ضعف الرواية ونضوب مادتها ، حتى قالوا : ختم تاريخ الادباء بثعلب والمبرد ٢٦٦ : ١ الرافعى .

يحدث فى نفس قارئه وسامعه لذة فنية شعراً كان أو نثراً ، والأدب بمعناه العام وهو ما يشمل الثقافة العامة التى تكوّن الرجل وترقى به إلى مستوى عقلى ممتاز .

– ٣ –

هذا ولقلة اطلاع بعض المستشرقين ومن تابعهم من أدبائنا ، زعموا أن كلمة الأدب لم ترد فى نص جاهلى أو إسلامى ، ولما قيل لهم إن الحديث « أدّبنى ربى » ينفى ما ذهبتم إليه ، قالوا إنه حديث ضعيف . ثم قالوا : وإذا كانت كلمة « أدب » لم ترد فى نص جاهلى أو إسلامى موثوق به وبصحة روايته ، وليست مع ذلك فى اللغة العبرية والسريانية كما يؤيده الباحثون فى اللغات فمن أين إذا اشتقت هذه الكلمة وكيف استعملت فى اللسان العربى ؟ اختلفوا فى الإجابة عن ذلك السؤال :

١ ـ فبعض الباحثين يذهبون إلى أن كلمة « أدب » بالفتح مأخوذة من كلمة « أدب » بسكون الدال بمعنى الدعاء يقال : أدب القوم يأدبهم أدبا : إذا دعاهم إلى المأدبة لتناول الطعام(١) ، واسم الفاعل منه « آدب(٢) » قال طرفة الشاعر الجاهلى الفحل :

نحن فى المشتاة ندعو الجَـفَـلى لا ترى الآدبَ فينا ينتقر(٣)

ويجمع على « أدبة » ، ومنه قول الإمام على رضى الله عنه : « أما إخواننا بنو أمية فقادة أدبة (٤) » .

فقد تولدت كلمة « أدب » إذاً من كلمة « أدْب » بمعنى الدعاء(٥) ، فالأدب

---

(١) ١:٢٠٠ اللسان (٢) ١:٢٠١ اللسان
(٣) الجفلى : الدعوة العامة . النقرى : الدعوة الخاصة . انتقر : دعا النقرى
(٤) ٢:٢٠١ اللسان (٥) ويذكر ذلك الجواليقى فى شرح أدب الكاتب (ص ١٣) . كما يذكر وجها آخر لاشتقاق كلمة أدب وهو أنها مأخوذة من الادب

يدعو إلى المحامد والأدْب دعاء إلى الطعام ، وفى اللسان ما يؤيد ذلك قال ابن منظور م ٧١١ هـ فى اللسان : « والأدب : الذى يتأدب به الأديب من الناس ، لأنه يأدِب الناس إلى المحامد وينهاهم عن المقابح(١) .

وأخذ كلمة « أدَب » من الأدب بالسكون رأى يعوزه الحجة ، فضلا عن أن الكلمة لم تنقل بنصها وسكون دالها والمعهود استعمال الكلمة عند نقلها من معنى إلى معنى بهيئتها وشكلها (٢) .

٢ ـ ويرى الاستاذ نلينو من المستشرقين أن كلمة « أدَب » مشتقة من كلمة « آداب » جمع « دأب » بعد أن دخلها القلب المكانى(٣) ، ومع مرور الزمن تنوسى الأصل وتوهم أنها جمع « أدب » .

ويضعف هذا أن « دأب » لم تجمع على آداب ، وأن هذا الرأى مجرد حدس وظن .

٣ ـ وقيل إن كلمة « أدب » أخذت عن بعض اللهجات العربية من غير اللهجة القرشية(٤) وهى لهجات كانت لاتزال موجودة فى العصر الإسلامى ثم ذاعت الكلمة بين الجميع ثم نقلت من المعنى الخلقى إلى المعنى الاصطلاحى

= وهو العجب فكأنه الشيء الذى يعجب منه لحسنه ، ولأن صاحبه الرجل الذى يعجب منه لفضله (١٣و١٤ شرح أدب الكاتب)

(١) راجع : ٢٠٠ : ١ اللسان

(٢) وفى اللسان (٢٠١ ج ١) الادب مصدر قولك أدب القوم يأدبهم أدبا إذا دعاهم إلى طعامه والآدب الداعى إلى الطعام ، وقال سيبويه : قالوا المأدبة كما قالوا الدعاء وقيل المأدبة من الادب. وفى اللسان أيضا : الادب: الظرف وحسن التناول (٢٠٠ ج١ اللسان)

(٣) ص ١٨ الادب الجاهلى لطه حسين

(٤) ص ٢٠ من المرجع نفسه

المعروف فى العصر الأموى للمناسبة بين المعنيين ، قالوا : وهذا رأى قريب إلى العقل وهو أشبه بالصواب .

٤ ـ وهناك من الباحثين من يفرض أن كلمة أديب مأخوذة من لغة السومريين إذ كان معناها عندهم (إنسان) ، وبقيت فى لغة العرب كما كانت فى الأصل مراداً بها معنى الانسانية ، وغيرت فى اللغات السامية الأخرى من أديب إلى آدم (١) .

وكل هذه الفروض والتأويلات ترينا مدى تخبط هؤلاء وهؤلاء .

إن كلمة أدب قد وردت فى نصوص جاهلية وإسلامية وأموية بنصها حينا وبمادتها حينا آخر ، وإذا كان بعض اللغويين لم يرووا هذه النصوص ولا هذه الكلمة عن العصر الجاهلى كابن منظور فانها مبثوثة فى كتب الأدب وسواها فارجعوا إليها إن شئتم .

ولا حاجة لنا ـ بعد وجود هذه النصوص فى الأدب الجاهلى ـ إلى أن نبنى على استنتاج لا يؤيده الدليل آراء هى من صنع الوهم والخيال .

— ٤ —

وبعد فالأدب مظهر للبلاغة ، وصورة من صور التفكير والخيال والعاطفة والإحساس والشعور والذوق والفهم والحياة ، وهو وسيلة المصلحين والمرسلين وأصحاب الدعوات العامة ، ولا يستغنى عنه إنسان فى العصر الحديث . فالصحافى والقاضى والمحامى والنائب والوزير والأمير والكاتب والمصلح والواعظ والمرشد وغيرهم فى حاجة ماسة إلى الأدب وتأثيره وقوته فى التعبير والاقناع وإثارة المشاعر فى نفوس الجماهير والطبقات .

هذا والأدب العربى من أغنى آداب الأمم جميعاً ، ولا يزال كما

---

(١) راجع الفصل الاول من الباب الاول من كتاب أصول النقد الادبى للشايب

كان حافلا بأسباب القوة والبلاغة ، وعاملا كبيراً فى المجتمعات العربية وإصلاحها .

— ٥ —

وينقد الدكتور طه حسين رأي من يذهب إلى أن كلمة أدب مشتقة من الأدْب بمعنى الدعوة إلى الطعام كما ينقد رأي نالينو الذى ذهب إليه من أن الكلمة مأخوذة من آداب جمع دأب(١) ويذهب إلى أن الكلمة ـ أدب ـ استعملت فى عصر بنى أمية بمعنى التعليم بطريق الرواية على اختلاف ألوان هذه الرواية(٢) ، وأنها قد دخلت فى لغة قريش إبان العصر الأموى حيث انتقلت إليها من إحدى اللهجات العربية الغير القرشية التى ضاعت (٣) .

ويقول : إن الأدب فى القرن الثانى والثالث والرابع كان يدل على ما يؤثر من الشعر والنثر ، وما يتصل بهما لتفسيرهما من ناحية ، ولنقدهما من ناحية أخرى(٤) . . وهذا هو مدلول الأدب الآن عندنا ، وعند الأمم الأجنبية القديمة والحديثة على السواء(٤) . . فالأدب عنده هو مأثور الكلام ، والأديب يستطيع ألا يتجاوز مأثور الكلام نظما كان أو نثراً ، ولكن مؤرخ الأدب لا يستطيع أن يكتفى بمأثور الكلام ولا بما يتصل به من علوم ، وإنما هو مضطر إلى أن يدرس تاريخ العقل الإنسانى ، فيلم بتاريخ العلوم والفلسفة والفنون وسواها(٥) .

ويدخل طه حسين النقد فى الأدب ، ويخالفه هيكل فى ذلك ، فيخرج النقد عن الأدب ، بدعوى أن القصيدة مثلا تغلب فيها الذاتية أى تظهر فيها شخصية الشاعر وميوله وأهواؤه ، أما النقد فتغلب عليه الموضوعية ، أى تنمحى أو تكاد تنمحى فيه شخصية الناقد ولا تظهر فيه إلا أصول النقد وموازينه الدقيقة ، وهو من أجل هذا ـ عند هيكل ـ إلى أن يكون علما أدنى منه إلى أن يكون أدبا . . من حيث يرى طه حسين أن الذاتية هى المؤثر

(١) ١٨ و ١٩ الأدب الجاهلى لطه حسين طبعة ١٩٢٧
(٢) ص ٩، المرجع (٣) ٢١ المرجع
(٤) ص ٢٤ المرجع (٥) ٢٦ المرجع

الأول فى النقد ، وأن الذوق هو المسيطر على الناقد ، فالذاتية هى الظاهرة فى النقد لا الموضوعية ، فهو كالقصيدة مثلا سواء بسواء ، فمن الغلو - كما يقول طه حسين - أن يقصر لفظ الأدب على الشعر والقصة والرسالة دون ما يمس هذه الآثار كلها من النقد ؛ ويرى هيكل أن التاريخ الادبى ليس من الأدب لأنه علم ، ولكن طه حسين يقول: إن كلمة الأدب لها معنيان : أحدهما خاص وهو يدل على الشعر والنثر الفنى وكل كلام يقصد به إلى الجودة و إلى إحداث المتعة الفنية فى نفس القارىء أو السامع ، والثانى عام يعمـــد إليه الذين يريدون تاريخ الآداب وهو يدل على كل ما تنتجه النفس الإنسانية من ثقافات، فالأدب بمعناه الخاص عند طه حسين يدخل فيه النقد والتاريخ الأدبى و بعض كتب التاريخ و بعض كتب الفلسفة أحيانا .

- ٦ -

وأدب لغة أية أمة من الأمم هو ذلك الفن البليغ من مأثور شعرها ونثرها بما يصدر عن الطباع ، ويؤثر فى النفوس ، ويثير العواطف ، ويدعو إلى الإعجاب والاستحسان ، وما يتصل بذلك من شرح ونقد وقصص وأخبار وأنساب وثقافة عامة تعين على فهم الآثار الأدبية وتذوقها ، ولذلك يقول ابن خلدون م ٨٠٨ هـ فى مقدمته : الأدب هو حفظ أشعار العرب وأخبارها والأخذ من كل علم بطرف ، وقد سبقه إلى ذلك ابن قتيبة م ٢٧٦ هـ فقـال : « من أراد أن يكون عالما فليلزم فنا واحداً ، ومن أراد أن يكون أديبـاً فليتسع فى العلوم » (١) .

وأهم مصادر الأدب العربى : البيـان والتبيين للجاحظ والكامل للمبرد والأغانى للأصفهانى، والأمالى للقالى، وأمالى ابن الشجرى، والعقد الفريد لابن

---

(١) ٤٨٨ المقدمة ط المطبعة الأزهرية. وهو مسبوق بكلام عبدالحميد الكاتب فى رسالته إلى الكتاب حيث يقول منها فى ثقافة الكاتب : « قد نظر فى كل فن من فنون العلم فأحكمه وإن لم يحكمه أخذ منه بمقدار ما يكتفى به »

عبد ربه، ويتيمة الدهر، ومعجم الأدباء لياقوت م٦٢٦ ه، ووفيات الأعيان لابن خلكان م ٦٨١ ه، وزهر الآداب للحصرى م ٤٥٣ ه، وبغية الوعاة للسيوطى م ٩١١ ه ونفح الطيب للمقرى وقلائد العقيان للفتح بن خاقان، والمستظرف للأبشيهى من علماء القرن التاسع الهجرى، وثمرات الأوراق لابن حجة الحموى م ٨٣٧ ه، وسواها من الكتب والمصادر.

-- ٧ --

أما تاريخ أدب اللغة العربية، فهو علم جديد حديث النشأة، ابتكره الإيطاليون فى القرن الثامن عشر(١)، وعنى به المستشرقون فى القرن التاسع عشر، ونقله عنهم المغفور له الأستاذ حسن توفيق العدل إثر عودته من ألمانيا عام ١٨٩٢ وقيامه بتدريسه فى مدرسة المعلمين العليا ودار العلوم؛ ثم سار على أثره جورجى زيدان فى كتابه «تاريخ آداب اللغة العربية»، ثم ألف فيه بعد ذلك عدد من فحول الأدباء من أمثال الاسكندرى فى الوسيط الذى اشترك معه فى تأليفه الشيخ مصطفى العنانى، وفى غير الوسيط من كتبه فى تاريخ الأدب التى كانت تدرس فى دار العلوم، والشيخ علام سلامة، والمرحوم أستاذنا محمود مصطفى والدكتور طه حسين فى الأدب الجاهلى، وأحمد حسن الزيات فى كتابه «تاريخ الأدب العربى»، والمغفور له مصطفى صادق الرافعى فى كتابه «تاريخ أدب لغة العرب» الذى طبع بعد وفاته فى ثلاثة أجزاء، وأصحاب المفصل بجزئيه - وقد كان علم تاريخ أدب اللغة العربية فى أول القرن العشرين يسمى تاريخ أدبيات اللغة العربية:

كان منهج أدباء العرب فى دراسة الأدب العربى(٢) ينحو نحو دراسة تراجم الأدباء والكتاب والشعراء ورواية آثارهم الادبية ونقدها والموازنة بينها وبين غيرها من الآثار مع تدوين مأثور أدب العرب شعراً ونثراً وشرحه

---

(١) على أن أول من ميز الأدب والفنون بالتاريخ هو باكون مؤسس الفلسفة الحديثة المتوفى ١٦٢٦ م فقد جعل التاريخ ثلاثة أنواع: التاريخ الدينى وتاريخ الاجتماع وتاريخ الآداب والفنون (٢) راجع كتابى «مذاهب الأدب» ص ٧٩

وتحليله ونقده والإلمام ببعض أصول الادب والشعر فى الاسلوب والطبع والروح والذوق ، ومن هؤلاء : الجاحظ فى البيان والمبرد فى الكامل ، وابن سلام فى طبقات الشعراء ، وابن قتيبة فى « الشعر والشعراء » ، وأبو الفرج فى الاغانى ، والقالى فى الامالى ، وابن عبد ربه فى العقد ، والآمدى م ٣٧١ﻫ فى الموازنة ، والقاضى الجرجانى م ٣٦٦ ﻫ فى الوساطة . وابن رشيـــق م ٤٥٦ فى العمدة ، وأبو هلال فى الصناعتين . ومن هذه الكتب : وفيات الاعيان لابن خلكان م ٦٨١ ﻫ ، ويتيمة الدهر للثعالبى م ٤٢٨ ﻫ ، ومعجم الادباء لياقوت م ٦٢٦ ، ونفح الطيب للمقرى ، وقد تبع هذا المنهج فى العصر الحديث الشيخان : المرصفى فى الوسيلة الادبية ، وحمزة فتح الله فى المواهب الفتحيـــة .

ويقول ابن خلدون : كتب الادب أربعة : كتاب البيان والتبيين للجاحظ وكتاب الكامل للمبرد وكتاب أدب الكاتب لابن قتيبة وكتاب النوادر لابن قتيبة أيضاً .

ولكن المستشرقين(١) استمدوا من هذه الاصول والدراسات العامة المبثوثة المفرقة فى أدبنا العربى ما أعانهم على بحث تاريخ الادب العربى على ضوء بحوثهم فى تاريخ آداب لغاتهم ، فأخذوا يبحثون عصور الآداب العربية وحالة اللغة والادب فى كل عصر وحللوا المؤثرات العامة التى أثرت فى الادب فى كل فترة من هذه الفترات نهضة أوضعفاً ، وعنوا بتاريخ أعلام الادب العربى فى الشعر والنثر والكتابة والخطابة وترجموا لهم ودرسوا آثارهم الأدبية دراسة واسعة وذكروا الخلاف بين المدارس الادبية المختلفة وأثر كل مدرسة فى الاخرى ، والتجديد والتقليد بين هذه المدارس المنوعة ، إلى غير ذلك من جديد الدراسات التى لم توجد بهذا اللون فى الادب العربى القديم ، والتى

---

(١) راجع مقدمة الأدب الجاهلى ومقدمة تجديد ذكرى أبى العلاء لطه حسين

لا تعد دراسات العمدة والمثل السائر وفهرست ابن النديم بجانبها شيئا مذكوراً وسميت هذه الدراسات « علم تاريخ أدب اللغة العربية » .

فهذا العلم جديد إذاً ، وهو يبحث فى أحوال اللغة نثرها ونظمها فى شتى العصور المختلفة ، وفى المؤثرات العامة فى الادب العربى فى كل عصر ضعفاً وقوة ، وفى ما كان لأعلام الادب العربى من الأثر فيه وفى اللغة ، وفى حياتهم وتحليل أدبهم ونقده .

ولهذا العلم منزلة كبيرة فى دراسات الادب فى العصر الحديث : فهو يوقفنا على الاساليب الاولى التى أثرت فى الادب العربى ارتقاء وضعفاً فى شتى العصور ، ويعرض علينا الآثار الادبية لكل عصر ، حتى لنكاد نلمس سمات كل عصر فى التعبير والبيان ، ونقف على الفروق بين الادب وأساليبه فى كل جيل ، وهو فوق ذلك لاينسى أعلام الادب ورجاله ، فيؤرخ حياتهم ويدرس آثارهم ، ويحيي ذكرهم على مر الاجيال .

— ٨ —

والتاريخ الأدبى لآداب أمة من الامم شديد الصلة بتاريخها الاجتماعى والسياسى :

١ — فهو يؤرخ حياة الامم الادبية والفكرية والخلقيه .

٢ — ويعين المؤرخ السياسى فى فهم حقائق التاريخ وحالة الامة التى يريد تدوين تاريخها العام .

وإذا كان التاريخ الأدبى مؤثراً فى التاريخ العام فلا شك أنه يتأثر به إلى حد كبير أيضاً ، فليس من السهل دراسة أدب الامة إلا بعد دراسة تاريخها السياسى وأثره فى حياتها الادبية ، وليس من السهل دراسة الادباء من شعراء وكتاب ، إلا بعد دراسة عصورهم التى نشأوا فيها ، وأثر بيئاتهم وأحوال مجتمعاتهم فى حياتهم العامة والخاصة ، فضلا عن أن الاحداث السياسية الكبرى هى التى تؤثر فى حالة الادب وحياته وضعفه أو قوته .

فكلا التاريخين فى الحقيقة متأثر بصاحبه مؤثر فيه .

وتاريخ أدب اللغة العربية يمكنك أن تقسمه إلى عصور متعددة ، تختلف حالة الادب العربي في كل عصر منها عن حالته في الآخر اختلافاً واضحاً ، لاختلاف الحياة السياسية في هذا العصر عنها في العصر الذي يليه أو الذي قبله .

وهذه العصور هي :

١ – العصر الجاهلي : ويبتدىء باستقلال العدنانيين عن اليمنيين في منتصف القرن الخامس للميلاد ، وينتهي بظهور الإسلام سنة ٦٢٢ م .

٢ – العصر الإسلامي : ويبتدىء بظهور الإسلام وينتهي بقيام الدولة العباسية سنة ١٣١ ه ، وبعض الباحثين يقسم هذا العصر إلى قسمين :

ا ـ عصر صدر الإسلام : من ظهور الإسلام حتى قيام الدولة الأموية عام ٤١ ه .

ب ـ العصر الأموي : من عام ٤١ إلى سقوط الدولة الأموية عام ١٣٢ ه

٣ – العصر العباسي : ويبتدىء بقيام الدولة العباسية عام ١٣٢ ه وينتهي بسقوطها على أيدي التتار عام ٦٥٦ ه .

وبعض العلماء يقسمه إلى عصرين :

ا ـ العصر العباسي الأول : ويبتدىء من قيام الدولة إلى عام ٣٣٤ ه .

ب ـ العصر العباسي الثاني ، يبتدىء من عام ٣٣٤ ه إلى آخر عهد الدولة .

٤ – العصر التركي : ويبتدىء بسقوط بغداد عام ٦٥٦ ه ، وينتهي بحكم محمد علي لمصر عام ١٢٢٠ ه .

ويقسمه البعض إلى عصرين :

عصر المماليك ، وعصر العثمانيين :

٥ — عصر النهضة الحديثة : من قيام حكم محمد على فى مصر عام ١٢٢٠ ﻫ حتى يومنا هذا .

ولعل من الجدير بالذكر أن ننوه هنا بأن الحياة الأدبية فى أول عصر من العصور لا تكاد تختلف عنها فى نهاية العصر الذى قبله فى كثير ، ذلك أن حياة الامة وحالتها الاجتماعية والخلقية والعقلية والفكرية لا تتغير إلا ببطء وبعد مدة كبيرة تعمل فيها عوامل التغيير السياسى الجديد عملها ، وفى بدء الانقلاب السياسى لا تكاد تشعر بفارق كبير بين الحياة الادبية التى توجد فى بدء الانقلاب وبينها قبيل الانقلاب ، فإذا ما مضى الزمن وسارت الايام ظهر أثر هذا التغيير السياسى الجديد فى حياة الامة وتفكيرها وتراثها الادبى بجميع فنونه وألوانه .

هذا والمؤثرات السياسية ليست وحدها هى العامل الرئيسى فى التغيرات الادبية ، بل هناك عوامل كثيرة أخرى منها : نفس الإقليم الذى تعيش فيه الامة ، ونوع الحضارة التى تحيا فى ظلالها ، ومقدار الثقافة التى تشيع فيها ، ومنها الدين الذى هو قوام الحياة النفسية والوجدانية للشعوب : ومنها مدى الاتصال بين هذا الشعب والشعوب الاخرى التى تجاوره أو البعيدة عنه ، ومنها استعداد الامة الفطرى الذى يلون ملكاتها العامة بألوان خاصة متمايزة ومنها الحروب التى تقوم بين الامة وغيرها من الامم المجاورة لها ، إلى غير ذلك من شتى المؤثرات فى الحياة الادبية .

ومن ذلك نعلم أن الحياة السياسية لا يستلزم تحسنها نهضة الادب والشعر فى أى أمة من الامم ، بل قد تسوء الحياة السياسية ومع ذلك ترتقى الآداب وتنهض كما حدث فى القرن الرابع الهجرى فقد ارتقت الحياة الادبية إلى حد كبير بتشجيع الملوك والامراء للأدب والشعر واللغة ، وقد ترقى الحياة السياسية للأمة ومع ذلك يضعف أدبها كما فى عصور الطغيان السياسى فى حكم الملوك المستبدين .

الباب الاول

المؤثرات العامة

فى الأدب الجاهلى

يتأثر الأدب عامة فى شتى العصور بمؤثرات كثيرة (١)، أهمها: البيئة؛ والدين؛ وحياة الأمة السياسية، ومقدار حظها من البداوة أو الحضارة، وما يؤثر فى عقول أبنائها من ثقافة ومعرفة، ومدى ما بينها وبين غيرها من الأمم المختلفة من اتصال وعلاقة، وفطرة الأمة نفسها وما تدفعها إليه هذه الفطرة من اتجاهات وأهداف، ومن المؤثرات فى الأدب: التنافس الأدبى؛ وظهور النقد، والأسواق الأدبية والأندية الثقافية، وسوى ذلك مما ينهض بالأدب ويؤثر فيه.

وقد كانت هناك عوامل كثيرة تؤثر فى الأدب الجاهلى، منها هذه البيئة العربية. وحياة العرب السياسية والاجتماعية والدينية. ومعارفهم العامة، ومدى اتصالهم بغيرهم من الأمم والشعوب، ومنها هذه اللغة العربية نفسها.

إلى غير ذلك من المؤثرات فى الأدب الجاهلى (٢) مما سنلم به فى هذا الباب فى شىء من التفصيل.

---

(١) راجع المؤثرات العامة فى الأدب بتفصيل فى كتابى «مذاهب الأدب» ص ٦٩ وما بعدها، وفى كتاب «الأدب العربى بين الجاهلية والإسلام» تأليف: خفاجى وحسن جاد والمسلوت ص ٤٨ طبعة ١٩٥٥، وفى أصول الأدب كالزيات، ولذلك آثرنا عدم التعرض لها بتوسع فى هذا المقام.

(٢) راجع كتاب «قصة الأدب فى الحجاز فى العصر الجاهلى» - تأليف عبدالله عبد الجبار ومحمد عبد المنعم خفاجى

الأمة العربية

موطن العرب ، وصف للجزيرة العربية :

العرب هم سكان الجزيرة العربية . وتطلق على هذه البقعة اسم « جزيرة » مع أن الماء لا يحيط بها من كل حدودها . فبينما تجد أنه يحيط بها من الغرب بحر القلزم « البحر الأحمر » ، ومن الجنوب بحر الهند أو بحر العرب « المحيط الهندى » ، ومن الشرق بحر عمان وفارس ونهر الفرات ، نجد حدودها من الشمال أرضا متسعة شاسعة تشمل الجزيرة وبلاد الشام وفلسطين مما هو خارج عن شبه الجزيرة ، وإن كان العرب قد سكنوا قبل الإسلام جزءاً كبيرا من سوريا والجزيرة العربية وأرض فلسطين .

وتنقسم شبه جزيرة العرب إلى خمسة أقسام هى : تهامة ، ونجد والحجاز واليمن ، والعروض .

فتهامة: هى الجزء الواقع غرب جبل السراة الذى يقسم شبه الجزيرة من الجنوب (اليمن) إلى الشمال (الشام) قسمين .

وهى أرض منخفضة ، وتسمى الغور ، وتمتد على شاطىء البحر الأحمر ، وسموها تهامة لشدة حرها وركود ريحها ، من التهم وهو شدة الحر وركود الريح . ويسمى جبل السراة الحجاز لأنه حجز بين تهامة الواقعة غربيه وبين نجد الواقعة شرقيه ، ومن ذلك يقال : أغار وأنجد وأتهم .

وتهامة أقسام : تهامة اليمن ، وتهامة الحجاز .

وأما نجد : فهى الواقعة شرق جبل السراة من أدنى حدود اليمن جنوبا إلى السماوة شمالا وتنتهى من الشرق إلى العروض ، وسميت نجدا لارتفاع أرضها .

وتقع اليمن جنوبى نجد إلى ساحل بحر الهند وتمتد شرقا إلى حضرموت

والشحر وعمان . وتشمل قسما من تهامة وقسما من نجد .

وأما العروض : فتشمل اليمامة والبحرين وما والاها وفيها مرتفعات ومنخفضات ومسايل أودية . وسميت عروضاً لاعتراضها بين اليمن ونجد والعراق .

وأرض شبه الجزيرة كثيرة الجبال الجرد المختلفة اللون ومنها الحرار جمع حرّة وهي الجبال السوداء اللون . يتخلل هذه الجبال : بعض الأودية التي تجرى فيها السيول أحيانا ، والصحارى الواسعة الكبيرة .

وأشهر الأودية بشبه الجزيرة وادى الدهناء بنجد ، وهو فى مواطن تميم بالقرب من البصرة .

وتكثر فى بلا اليمن الأودية والرياض (١) . من حيث تقل فى الحجاز ، فيعتمد أهله على العيون أو ماء المطر الذى ينبت الكلأ فى بعض الأراضى القريبة من الأودية . ولعدم نزول المطر فى مواعيد منظمة تعذر على العرب المكث فى مكان واحد . ومن أجل ذلك أكثروا الرحلة والانتجاع لمواقع الماء ومنابت الكلأ والعشب .

وجو شبه الجزيرة شديد الحرارة فى تهامة مع رطوبة شواطئها الواقعة على « البحر الأحمر » ، شديد أيضا فى الجبال صيفا وإن اشتد البرد بالجبال شتاء . أما نجد فمعتدلة الهواء ، وحول الأودية أكثر ، لارتفاعها ، ووجود بعض الأعشاب والحشائش والمزروعات فيها . وأما اليمن فمعتدلة شتاء ، شديدة الحرارة صيفاً ؛ ينزل بها المطر بغزارة فى الربيع . وأطيب الرياح بشبه الجزيرة ريح الصبا ، وأشدها حرارة ريح السموم .

وأهم مدن الحجاز : مكة وتقيم بها قريش وكنانة وبجنوبها هذيل . والمدينة وبها الأوس والخزرج وهم الانصار وبنو قريظة والنضير وقينقاع

---

(١) هى المواضع التى يستنقع فيها الماء

من اليهود وشمالها فدك وخيبر . وبمحاذاة فدك وادى القرى الذى يقول فيه جميل :

ألا ليتَ شعرى هـــل أبيتنَّ ليــلةً
بوادى القـرَى إنى إذاً لسعيـــدُ

ومن مدنه كذلك الطائف وتسكنها ثقيف وهى فى الجنوب الشرقى لمكة ويقع شرقيها سوق عكاظ ، وهى خصبة جيدة الجو والهواء تزرع بها الفاكهة وتقع جدة على البحر الأحمر فى امتداد مكة . كما تقع ينبع عليه فى امتداد المدينـــة .

وأشهر مدن اليمن نجران شمالا وقد اعتنق سكانها النصرانية ، وأراد ذو نواس إرغامهم على اليهودية فأبوا فأحرقهم فى الأخدود الذى ورد ذكره فى القرآن الكريم « قتل أصحاب الأخدود » . وبنجران بنى أبرهة معبداً كبيراً ليصرف العرب عن الكعبة إليه ولكنه أخفق فيما أراد . ومن مدن اليمن : مأرب أو سبأ وكان فى الجنوب الغربى منها السد الذى خربه سيل العرم عام ١٢٠ ق م وفيه يقول الأعشى :

وفى ذاكَ للمؤتسى أسوةٌ ومأربُ عفىَّ عليها العرمْ
رُخامٌ بنته لهم حِمْـيَرٌ إذا جاء موَّارُهُ لم يَـرِمْ
فأرْوَى الزرعَ وأعنابَها على سَعة ماؤُهم إذْ قسِم
فصاروا أياديَ ما يقدرو ن منه على شرب طفل فطِـمْ

ومن مدنها صنعاء وهى حاضرتها حتى اليوم ، وبها قصر غمـدان وفى جنوبيها خرائب مدينة « ظفار » حاضرة الحميريين . وفى المثل « من دخل ظفار حمر » أى تكلم باللغة الحميرية . وتشمل اليمن : حضر موت ومَهْـرة والشحر ، وشمال حضرموت الأحقاف مساكن عاد وإذ كر أخا عاد إذ أنذر قومه بالأحقاف » ، وإلى مهرة تنسب الإبل المهرية وقيل إن نسبتها إلى مهرة حى من قضاعة من عرب اليمن ولغة المهريين حميرية مستعجمة لا تكاد تفهم وأهم القبائل باليمن : همدان وكان لها فى الجاهلية صنمان يغوث ويعوق.

وكذلك مذحج ومراد . والحضارمة ذو نشاط فى التجارة والرحلة .

وبنجد مدينة الرياض ، ومن جبالها أجأ وسلمى جبلاطيء ؛ وبها كثير من القبائل العربية المشهورة كطيء وتميم وبكر وتغلب وقيس وعيلان وغطفان . ونجد : إقليم صحراوى تكثر بها الدارات (الواحات) والاودية وجوها معتدل طيب الهواء ، وقد أشاد بها وبجوها الشعراء ، قال الشاعر :

تمتَّعْ من شميم عرَارِ نجْد ... فما بعدَ العشيَّةِ من عَرَار
ألا يا حبذا نفحات نجــد ... وريا روضة بعد القطار (١)

ولابن الصمة :

قفا ودِّعا نجداً ومن حلَّ بالحمى ... وقلَّ لنجدٍ عندنا أن يودَّعا
بنفسى تلك الارض ما أطيب الربا ... وما أحسن المصطاف والمتربعا

وأما العروض فتنتظم اليمامة والبحرين وعمان .

وأما عمان فقطر جبلى على شاطىء البحر فى الجنوب الشرقى للجزيرة وقد اشتهر أهله بالملاحة وكان يسكنها قوم من طيء من أشهرهم قبيلة نبهان .

واليمامة فى الداخل وتنسب إليها زرقاء اليمامة وتقع فى الجنوب الشرقى لنجد وكانت مسكنا لطسم وجديس . والجزء الممتد فى شرق الجزيرة إلى حدود العراق على بحر فارس يسمى البحرين ومن أشهر مدنه : هجر وتشتهر بالتمر ، وفى المثل : كناقل التمر إلى هجر . وخربها القرامطة وبنوا مكانها الإحساء ، ومن مدنه كذلك قطر .

واشتهر أهلها بالغوص على اللؤلؤ . وقد كان يسكن البحرين قبائل من عبد القيس وتميم .

أصــــل العرب :

العرب إحدى الامم السامية التى تنتسب إلى سام بن نوح ومن الأمم

(١) العرار : نبت طيب الرائحة . القطار : جمع قطر جمع قطرة

السامية البابليون والآشوريون والسبئيون والآراميون والانباط والاحباش والعبرانيون والفينيقيون .

وقد اعتمد العالم ايشهودن م ١٨٢٧ ﻫ هذا التقسيم وأقره وحشر هذه الشعوب كلها في زمرة واحدة .

وقد استخلصت هذه التسمية « السامية » من التوراة (١)

فمجموعة الامم التي كانت تقطن بلاد آسيا الدنيا هي التي كانت تكوّن هذه الوحدة الدموية واللغوية المستقلة .

ولكن هل كان لجميع الامم السامية موطن واحد ومهد أصلي نشأت كلها فيه ثم تفرعت عنه وانتشرت في أنحاء المعمورة (٢)؟

لم يتفق الباحثون من المستشرقين بعد على شيء في ذلك . فبعضهم يقول بالإيجاب ، وبعضهم يجيب بالنفي ، والذين يقولون إنه كان للأمم السامية موطن أصلي واحد يزعم بعضهم أن المهد الأصلي للساميين هو أرض أرمينية بالقرب من حدود كردستان . والتوراة تؤيد أن هذا المهد الأصلي هو أرض بابل ، ويؤيد ذلك المستشرق الإيطالي جويدى . والبعض يرون أن مهد الساميين هو جزيرة العرب ، وآخرون يرونه في الحبشة . ومن الذين ينفون هذا المواطن الأصلي المشترك للساميين نولدكة ويؤيد رأيه باختلاف مسميات المشاهدات الأولى — من جبل وشجر وحيوان ونبات — في جميع اللغات السامية .

ومهما يكن فأقدم الهجرات السامية كانت هجرة سكان الجزيرة الذين

---

(١) سفر التكوين الاصحاح العاشر

(٢) راجع : كتاب «اتجاه الموجات البشرية لمحب الدين الخطيب ، وفي مجلة الرسالة عام ١٩٣٦ بحث لكاتب في أصل الحضارة العربية وهل نشأت في الجزيرة العربية أو في العراق أو الحبشة ثم انتقلت اليها ، وراجع كذلك كتاب تاريخ اللغات السامية .

اتجهوا نحو بابل وأسسوا لهم ملكا كبيراً فى وادى الفرات .

الشعوب العربية :

يجتمع رأى المؤرخين على أن العرب ثلاث طبقات :

ا ـ الطبقة الأولى وقد بادت وتلاشت وتسمى العرب البائدة أو العاربة وقد درست آثارهم وأخبارهم إلا القليل . والمشهور منهم قبيلة عاد وكانت بلادها الأحقاف بين اليمن وعمان من البحرين إلى حضرموت والشحر ، وقبيلة ثمود وكانت منازلهم بالحجر ووادى القرى بين الحجاز والشام وكانوا ينحتون بيوتهم من الجبال ، وغير هاتين القبيلتين : كالعمالقة ، وطسم بالأحقاف، وجديس ، ويزعم بعض الباحثين أن الحمورابيين من العرب البائدة وهو خطأ فى البحث والرأى .

ب ـ والطبقة الثانية ـ التى بقيت آثارها وأخبارها ـ هى أولاد قحطان الذى يسمى فى التوراة باسم يارح بن يقطان وأبوهم يعرب بن قحطان أول من نطق بالعربية من هذا الجيل ، ويزعم العرب أنه أصل لسانهم وبذلك يفتخر حسان فى قوله :

تَعلَّمتم من منطق الشيخ يَعرُبٍ أبينا فصرتم مُعربينَ ذوى نَفْرِ
وكنتم قديماً مالكم غيرَ عُجْمةٍ كلامٌ وكنتمْ كالبهائم فى القَفْرِ

وقد سكنوا اليمن بعد المعينيين مهاجرين اليها من بابل أو الحبشة . وهذه الطبقة فرعان :

١ — العرب المتعربة ، وقد ورثوا صفات العرب القـــديمة . وهم السبئيون والحميريون .

٢ — العرب المستعربة وهم عرب الشمال أو الاسماعيلية أو العدنانية الذين استفادوا اللغة من عرب الجنوب ، ونقلوا العادات والأخلاق عنهم بمصاهرة اسماعيل لقبيلة جرهم الثانية اليمنية التى نزحت من الجنوب إلى الشمال

وهى غير جرهم الأولى إحدى القبائل البائدة . والعدنانيون أهل الحجاز وأصحاب اللغة الفصحى ومظهر المدنية العربية إلى يومنا هذا . أما أهل الجنوب من ولد قحطان فقد بادت دولهم وطويت صحائفهم قبل البعثة بعدة قرون ، ومن بقى منهم اندمج فى عرب الشمال .

وينتهى نسب العدنانيين إلى اسماعيل عليه السلام الذى هاجر به أبوه إبراهيم إلى مكة بواد غير ذى ذرع هو وأمه هاجر المصرية وتزوج من جرهم ثم كثر أولاده واستقلوا بهذه البلاد وطردوا منها الجرهميين ، وأصبحوا عنصراً جديداً يخالف فى الحياة والتقاليد واللغة عنصر القحطانيين .

ويبدأ تاريخ العدنانيين منذ القرن التاسع عشر قبل الميلاد ، وسلسلة نسبهم إلى عدنان ـ من ذرية اسماعيل ـ معروفة أما مابين عدنان واسماعيل فيختلف فيه علماء الأنساب اختلافا كبيراً .

القبائل العربية(١) :

١ - القبائل القحطانية :

---

(١) راجع فى هذا :

ا ـ كتب التاريخ كابن خلدون والطبرى والكامل لابن الاثير وسواها

ب ـ كتب الانساب وهى كثيرة لايحصيها العد

جـ ـ كتب الادب : ومن أهمها : العقد الفريد (٢٠٨ - ٢٦٣ : ٢ العقد ط التجارية ١٩٣٥)

ملاحظة : قال ابن الكلبى : الشعب أكبر من القبيلة ثم من العمارة ثم البطن ثم الفخذ ثم العشيرة ثم الفصيلة ، والفصيلة هى أهل بيت الرجل خاصة ، والعشيرة هى رهط الرجل . وقال غيره : الشعوب العجم والقبائل العرب (راجع ٢٢٣ ج ٢ العقد ط ١٩٣٥ . وراجع ١١٢ الشهاب الراصد للطفى جمعه ط ١٩٢٦ - والأحكام السلطانية الماوردى ص ٣٥٣ بون ط ١٨٥٣ ، ولسان العرب مادة فخذ ، وبلوغ الارب ١٩٠ : ٣ وما بعدها)

قحطان(١) هو الجد الأول للقبائل القحطانية ، وأبوهم هو يعرب بن قحطان .

وكان مهد شعب قحطان هو اليمن . وأشهر قبائلهم : كهلان وحمير .

أما كهلان : فكان لهم ملك باليمن حيث شاركوا الحميريين فى ملك هذه البلاد ، ثم انفرد الحميريون بالملك وصارت بطون كهلان تحت إمرتهم ونفوذهم ثم تضاءل ملك حمير وبقيت الرياسة على العرب بالبادية لبنى كهلان .

ومن بطون كهلان : « الأزد » ومنها : الأوس والخزرج سكان المدينة ، وغسان ملوك الشام ، و « طىء » وكانت منازلهم باليمن ثم هاجروا منها بعد سيل العرم وأقاموا بنجد بجبلى أجأ وسلمى(٢) ، و « كندة » باليمن ونجد ، « وبجيلة » و « لخم » و « عاملة » شمالى الشام ، و « ومذحج » باليمن ، ومراد وهمدان بها أيضا ، و « جذام » على خليج العقبة .

وأما حمير : فكانت بلادهم مشارف اليمن فظفار وما حولها . ومن قبائلهم : « قضاعة » وكان قضاعة مالكا لبلاد الشحر ، وقبره موجود بجبل الشحر واليه نسبت القبيلة . ويزعم بعض النسابين أن قضاعة من القبائل العدنانية وهذا خطأ واضح . وانقسمت قضاعة إلى بطون من أشهرها :

---

(١) راجع انساب اليمن فى العقد (٢٤٢ : ٢ ط ١٩٣٥) . وفى كتاب تاريخ سنى الملوك لحمزة الأصفهانى تفصيل لتاريخهم وانسابهم .

(٢) يقعان فى الشمال الشرقى للمدينة ويخترقهما وادى الدهناء . ولمناعتهما عاش بنو طىء فى عز ومنعة قال شاعرهم عارق الطائى :

ومن مبلغ عمرو بن هند رسالة	إذا استحقبتها العيس تنضى من البعد
أيوعدنى والرمل بينى وبينه	تأمل رويدا ما أمامة من هند ؟
ومن أجأ حولى رعان كأنها	قبائل خيل من كميت ومن ورد

« بلى » شمالى الحجاز و « جهينـة » كذلك « وعـذرة » جنوب الحجـاز و « تنوخ » قرب المعرة .

هذا وكان اليمنيون يسمون مقاماتهم باليمن مخاليف جمع مخلاف ، ويضاف إلى اسم القبيلة التى تسكنه .

وقد أثر فى حياتهم الاجتماعية والسياسية سيل العرم تأثيراً كبيراً . فقد كانوا بنوا فى مأرب سداً كبيراً بمثابة (الخزانات الحديثة المعروفة عندنا) وأفادوا منه فى تجميع مياه السيول والأمطار وخزنها فيه وتصريفها عنه على حسب الحاجة . ولما قلت العناية به وبالسهر عليه تصدعت جوانب هـذا السد ولم يستطع مقاومة هجمـات السيول المتواردة عليـه والمياه الكثيرة المحجوزة خلفه فانكسر وفاضت الميـاه على ما أمامه من القرى والمزارع فأتلفتها ، وكان ذلك على ماحققه الباحثون عام ١٢٠ ق م وأدى ذلك إلى هجرة أهل الجنوب إلى الشمال .

٢ ـ العدنانيون أو الاسماعيليون أو الحجازيون أو عرب أهل الشمال :

ينتهى نسبهم إلى اسماعيل بن ابراهيم الذى نزل مكة وجاور جرهما وصاهرهم وبنى هو وأبوه ابراهيم البيت الحرام ، ثم تناسل أبناؤه وكان منهم عدنان وولده ، ومن عدنان تبتدىء سلسلة نسب العدنانيين المعروفة .

وقد انقسمت القبائل العدنانية من نزار بن معد بن عدنان . ومن بطونه : إياد وربيعة ومضر وأنمار . وأشهرهم وأكثرهم ربيعة ومضر .

أما ربيعة فمنها قبائل كثيرة لها شهرة وذكر عظيم فى تاريخ العرب حيث كانوا ينا وئون مضر فى الشرف والسيادة ومنهم كان أكثر الخوارج فى الإسلام ومن ربيعة : عبد القيس ، ومنها بكر وتغلب ابنا وائل ، ومن بكر حنيفة وعجل ابنا لجيم .

وأما مضر (١) فانقسمت إلى جذمين كبيرين :

١ — قيس عيلان بن مضر . ولها بطون كثيرة أشهرها : سليم وهوازن وغطفان ، وعبس وذبيان ، وأشجع ، وعدوان ، وغنى ، ومن قيس : عامر ابن صعصعة ومنه تفرعت بطون كثيرة .

٢ — إلياس بن مضر وقد تشعبت منه بطون كثيرة منها : تميم بن مر ، وهذيل بن مدركة ، وبنو أسد بن خزيمة وبطون ، كنانة بن خزيمة . ومن كنانة : قريش وهم أولاد فهر بن مالك بن النضر بن كنانة .

وانقسمت قريش إلى قبائل كثيرة أشهرها : جمح ، وسهم ، وعدى ، ومخزوم ، وتيم ، وزهرة بن كلاب ، وعبد الدار بن قصى ، وأسد بن عبد العزى ابن قصى ، وعبد مناف بن قصى .

وكان من عبد مناف أربع فصائل : عبد شمس ، ونوفل ، وعبد المطلب ، وهاشم . وبيت هاشم هو الذى كان منه سيدنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ابن هاشم صلوات الله عليه ، ومنه العباسيون أولاد عباس بن عبد المطلب وأما الأمويون فليسوا من بنى هاشم ، وإنما هم من بنى عبد شمس أخيه ، وبالجملة فمهد شعب عدنان مكة وما جاورها من أرض الحجاز وتهامة ؛ ولما تكاثرت أولاد عدنان هاجروا إلى بلاد كثيرة .

فهاجرت عبد القيس — من ربيعة — وبطون من بكر بن وائل إلى البحرين وكان معهم بطون من تميم ومنهم كان أمير هذه الجهة من قبل الفرس حين مجىء الإسلام ، وهو المنذر بن ساوى التميمى .

وهاجرت بنو حنيفة — من بكر — إلى اليمامة ، ونزلوا بحجر حاضرتها ، وكان أميرهم حين مجىء الإسلام هو هوذة الحنفى وفيه يقول الأعشى .

---

(١) وبمجد مضر يفتخر شاعرهم ويقول :

إذا مضر الحمراء كانت أرومتى ... وقام بنصرى خازم وابن خازم

عطست بأنف شامخ وتناولت ... يداى الثريا قاعدا غير قائم

من يَر « هوذة » يسجد غير متئبٍ   إذا تعمم فوق التاجِ أو وَضعا
له أكاليل بالياقوت فصلها   صوّاغها ، لا ترى عيبا ولا طبَعا

وأقامت سائر بكر بن وائل ما بين اليمامة والبحرين حتى أطراف سواد العراق .

وأقامت تغلب بالجزيرة الفراتية . وسكنت بنو تميم ببادية البصرة . وأقامت بنو سليم بالقرب من المدينة . وسكنت ثقيف بالطائف ، وهوازن في شرقي مكة . وبنو أسد شرقي تيماء وغربي الكوفة ، وأقام بمكة وضواحيها بطون قريش .

حياة العرب الاجتماعية والسياسيه والدينية

تمهيـــد :

العرب (١) اسم جمع واحده عربى ، وأصل هذه المادة عـلى اختلاف أوضاعها تدل على التحول والانتقال مثل « عـبر » و « برع » . . . الخ . ويرى بعض المعاصرين أن هذه الكلمة كانت فى أصلها تطلق على نوع خاص من القبائل التى كانت تسكن الخيام وتنتقل من موضع إلى آخر . وكان قدماء العبرانيين يطلقون هذا الاسم على صنف خاص من القبائل التى كانت تنتقل بخيامها فى جهات طورسينا وبادية فلسطين والشام . وبهذا يتبين أن كلمة « عرب » لم تكن تدل فى أصلها على كل من يتكلم باللغة المنسوبة إلى العرب وإنما كانت تدل على القبائل المتبدية التى كانت تسكن شمال الجزيرة . ثم شاعت لغة هذه القبائل وسار لها السلطان عـــلى أكثر قبائل الجزيرة العربية فأطلق لفظ « العرب » على كل من يتكلم بهذه اللغة من أولئك السكان سواء أكانوا بدوا أم حضرا . ويزعم آخرون أن لفظة « عربى أو عرب » يراد بها فى اللغة السامية الأصلية « الغربيون » ويريدون بهم سكان غربى الفرات من بدو وحضر إلى البحر المتوسط ، وكانوا يسمون بلادهم « مات عربى » أى بلاد الغربيين، فلفظ « العربى » مرادف للفظ « الغربى » أى من يسكن غربى الفرات . ثم سرى هذا الاسم على جميع سكان الجزيرة عندما تغلبت عليها لغة الساكنين فى هذه الجهات وما لبث العرب أن أفردوا لفظا يدل على سكان الخيام المتنقلين فى البوادى وهو لفظ « الأعراب » . فاذا أرادوا هذا الجيل مطلقا سواء كان حضريا أو بدويا أطلقوا عليه اسم « العرب » وإذا أرادوا سكنة الخيام المتنقلين خاصة أطلقوا عليهم اسم « الأعراب » فكل أعرابى عربى ولا عكس .

وقد كان الناس فى العصر الثامن الهجرى وما بعده يطلقون اسم « العرب »

---

(١) طه الراوى ـ مجلة الادب والفن

ولا يريدون به إلا الأعراب خاصة لجرى ابن خلدون فى مقدمته على عرف أهل زمانه ، ولذلك اختلط على الناس فهم كلامه فاختلفوا فى مراده . فمنهم من قال إنه لا يريد بهذه الكلمة إلا المتنقلين من أهل البوادى خاصـــة ، ومنهم من قال إنها كلمة مطلقة فيجب إجراؤها على إطلاقها فهو يريد بهم هذا الجيل من الناس بدوهم وحضرهم . وقد أطنب الكتاب فى هذا الموضوع وأسهبوا ، مع أن الأمر من الوضوح بحيث لا يحتاج إلى إيضاح . فان أسلوب ابن خلدون يدل على أنه جارى عرف زمانه فى إطلاق لفظ « العرب » على الأعراب خاصة . ولا يزال هذا العرف شائعا عند العامة من عرب هـذا العصر فى العراق والشام ومصر وغيرها فلا يفهمون من لفظ « العرب » إلا البدو أو القبائل التى تقطن الأرياف(١) . وبعض الناس اليوم يظن أن العرب والأعراب لفظان مترادفان لا يتميز أحدهما عن الآخر .

ولما أراد علماء العربية تدوين اللغة وضبط قواعدها فى القرن الثانى الهجرى استعانوا بالقرآن الكريم أولا وبكلام العرب الموثوق بعربيتهم ثانيا ، ولما كان العرب حينذاك منتشرين فى الأرض يخالطون حمراء الأمم وصفراءها وقـد اضطربت سلائقهم ولى علمـاء العربيـة وجوههم شطر الأعراب فى وسط الجزيرة ، فنقلوا الكثير من أشعارهم وأخبارهم ودونوا أمثالهم وخطبهم وما يتعلق بأحسابهم وأنسابهم فاجتمع لهم من ذلك الشىء الكثير ، وأصبح ما نقلوه مادة الأدب وينبـــوع الشاهد فى ضبط قواعد اللغة . وهذا هو الذى حدا ببعض الناس إلى الظن بأن الأعراب هم مصدر اللغة وينبوعها ، ومنهم تستمد أصولها وفروعها ، وأنهم الأكثرية فى سكان الجزيرة العربية . وإذا أرادوا أن يمثلوا العربى لا يجدون له مثالا إلا الأعرابى . وهذا وهم شائع . لأنك إذا تقريت الجزيرة العربية فى صدر الإسلام وجدت سكان الأرياف والقرى والمدن الذين يقيمون على المياه ويعيشون على الزراعة والتجارة هم الأكثرية وعليهم كان الاعتماد فى الفتوح

(١) راجع ص ١٥٢ من كتاب صور من الفكر العربى للخفاجى

الإسلامية ، منهم القواد والقسم الأعظم من الأجناد . أما الأعراب فكانوا على الهامش لاشأن لهم فى الفتوح إلا تبعاً . ولم ينبغ فيهم من أهل الحنكة إلا القليل .

حياتهم الاجتماعية :

العرب بدو وحضر : فالبدو هم الذين يقيمون بالبادية ، والحضر هم سكان المدن .

وكان بالجزيرة العربية مدن كثيرة أكثرها ببلاد اليمن : كمأرب وصنعاء وزبيد وعدن . ومن أشهر مدن الجزيرة العربية : مكة والمدينة والطائف .

وفرق كبير بين حياة البدو وحياة الحضر :

فالبدو قوم رحل ، يرتادون منابت الكلأ ومواقع الغيث . لا يستقر بهم مقام ، يرحلون بأغنامهم وأنعامهم إلى حيث تطيب لهم الإقامة حينا ، غذاؤهم لحوم أنعامهم وألبانها ولباسهم من أصوافها وأوبارها ، وحياتهم كفاف وقناعة . اللبن والتمر واللحم هى مأكولاتهم . ومن أجل هذا الفقر والشقاء كثرت بينهم الغارات والحروب ، يأبون أن يكونوا أصحاب حرفة ويرون فى ذلك عارا كبيرا . أهم مايفتخرون به البطولة والقوة على النضال والنزال

أما أهل المدن فعيشتهم مستقرة ، يعتمدون على الزراعة والصناعة فى اليمن أو على التجارة فى الحجاز ، يأوون إلى بيوت ومساكن ، ويعيشون فى ظل أمن وسلام غالبا وكانوا أقل شجاعة وأشد حبا للمال وأكثر توفرا على وسائل الترف والنعيم وكان اليمنيون أمعن فى الحضارة وقد نقل المؤرخون كثيرا من أحوالهم مما يدل على إفراط فى الترف من النسيج الفاخر وأطباق الذهب والفضة وتزين قصور أغنيائهم بأنواع الزينة ، وقد أوصلهم إلى ذلك كثرة الأموال فى أيديهم من طريق التجارة والزراعة . وكان أكثر الحجازيين تحضرا قريش فى مكة فقد أغنتهم التجارة ومن يأوى اليهم من الحجاج ، فنعموا بما لم ينعم به غيرهم من سكان الحجاز .

والقبيلة هي الوحدة التي بنيت عليها حياتهم ، وأفراد القبيلة ينتسبون إلى أب واحد(١) وقلّ أن ينتسب اليها من لم يشاركها في نسبها إلا عن طريق الحلف(٢) أو الولاء .

والقبيله تسمى غالباً باسم الأب كربيعة ومضر والأوس والخزرج ، وقليلا ماتنتسب إلى الأم كخندف وبجيلة ، وقد تعرف القبيلة بحادث حدث كغسان وهو اسم للماء الذى نزلت به هذه القبيلة . ولكن الكثير الذائع نسبة القبيلة إلى الأب .

ويسود أفراد القبيلة العصبية والتناصر والتعاون ، وكل فرد يتعصب لقبيلته أصابت أم أخطأت :

وما أنا إلا من « غَزِيَّة » إنغوتْ   غويتُ وإنْ ترشُدْ غزية أرشُدِ

والقبيلة تحميه من العدوان وتطالب بدمه إن جنى أحد عليه ؛ وإذا خرج فرد منها على تقاليد القبيلة أو جر عليها المغارم تخلت عنه وأعلنت براءتها منه وسمى « خليعاً » ، وقد يلتجىء فرد إلى غير قبيلته فيسمى « حليفاً ».

ولكل قبيلة رئيس هو سيدها ومرجعها وملاذها في الشدائد(٣) ؛

---

(١) ١٢٠ ج ٣ المخصص .

(٢) وكما كان الفرد يصير حليفا لقبيلة غير قبيلته فقد كانت القبيلة تحالف قبيلة أخرى تحتمى بها ، وإن بقيت بعض القبائل معتزة بعصبيتها متجمرة بنفسها لاتحالف غيرها ، وجمرات العرب ثلاثة : ضبة ونمير وعبس ، والبعض يزيد رابعة هى بنو الحارث بن عبد المدان .

(٣) وكان لرئيس القبيلة حق معلوم فى الغنائم ، قال الشاعر يخاطب بسطام ابن قيس سيد شيبان :

لك المرباع منها والصفايا   وحكمك والنشيطة والفضول

المرباع : ربع الغنيمة . والصفايا : مايصطفيه الرئيس لنفسه قبل القسمة ، والنشيطة : ماأصابه الرئيس فى الطريق قبل الوصول إلى دار العدو . والفضول : مافضل من الغنيمة مما لايقبل للقسمة على عدد الغزاة .

ولها شاعر أو أكثر يتغنى بمفاخرها وشرفها ومجدها ، ويذود عنها أعداءها وخصومها .

وعلاقة القبيلة بالقبائل الأخرى علاقة عداء غالبا: إغارة وسلب وحرب وانتقام وأخذ بالثأر :

يُغار علينا واترينَ فَيُشتفى بنا إن أُصبنا ، أو نُغيرُ على وَتْر
قسمْنا بذاكَ الدهرَ شطرين بيننا فما ينقضي إلا ونحنُ على شطْر

وكانت القبيلة تنقسم إلى أسر ، والأسرة تخضع للأب خضوعا مطلقاً فى كل شيء .

وللمرأة شأن فى الأسرة العربية . يبدأ بذكرها الشعراء قصائدهم ، ويتغنون بجمالها ويكنونها بكنيتها ، ويحترمونها ، ويفخرون بنسبتهم إلى أمهاتهم كما يفخرون بالنسبة إلى الأب ، ويستمعون لمشورة زوجاتهم ونسائهم وحسبك أن الحارث بن عوف أحد أشراف العرب كانت زوجته الصغيرة بنت أوس بن حارثة بن لأم الطائى هى التى أشارت عليه بأن يسعى فى الصلح بين عبس وذبيان ففعل فاستحق بذلك حمد الناس ومدح الشعراء ، وكانوا يستشيرونها فى الزواج ويقبلون رأيها(١) .

كانوا يتزوجون ويعددون بين الأزواج كما كانوا يطلقون ، قال الأعشى :

أيا جارتى بينى فانك طالقة كذاك أمور الناس غاد وطارقة

---

(١) راجع فى ٢٠٤ج٢ الأمالى أخذ عتبة بن ربيعة لرأى ابنته هند فى زواجها وكانت قد شرطت عليه ذلك ، وبرأيها وموافقتها تزوجت أبا سفيان ابن حرب .

وكانوا يحبون أولادهم ويحنون عليهم :

وإنمــا أولادنا بيننــا أكبادنا تمشى على الأرض

وإذا كان بعض العرب قد وأدوا البنات خشية الفقر أو العار ، فانما كان ذلك فى طبقة منحلة منهم فى بعض بطون من تميم وأسد ، وقد كان بعض العرب يكره أن تلد امرأته بنتا (١) .

وعلاقة الرجل بإخوانه من قبيلته علاقة محبة وتناصر وكما فى المثل « انصر أخاك ظالماً أو مظلوما » . ويقول الشاعر :

لا يَسألونَ أخاهم حين يَندُبُهمْ فى النائبات ِ على ما قالَ برهانا

وكانوا يلهون بالخمر (٢) وغناء القيان والقمار ، ويصيدون الوحوش بالخيل أو بالكلاب المعلمة ، وقد قالوا إن كليب بن وائل أول من اصطاد بالفهد - ويرد فى شعرهم كثير من الأبيات يصفون فيهـا صيد بقر الوحش وحمار الوحش وغيرهما ، والجود والكرم أهم خصائص العربى (٣) .

وكانوا يتمدحون بالمروءة والأخلاق والشرف والشجـاعة والـكرم

---

(١) وفى ذلك تقول زوج عربى ولدت بنتا فغضب زوجها وتحـول إلى بيت جاره :

ما لأبى حمزة لا يأتينا يظل فى البيت الذى يلينا
غضبان ألا نلد البنينا والله ما ذلك فى أيدينا
وإنما نأخذ ما أعطينا ونحن كالارض لزارعينا

(٢) ومن العرب من حرم الخمر على نفسه فى الجاهلية (راجع ٢٠٤ ج١ الامالى)

(٣) راجع أجواد أهل الجاهلية فى العقـد الفريد (١٤٥ ج١ ط ١٩٢٨) وراجع حـديث حاتم وما اشتهر به من الجود والنجدة وما وقع له مع زوجته ماوية فى ذيل الامالى ص ١٥٢ . ومن أجـــواد العرب : كعب بن مامة الإيادى وأوس بن حارثة بن لأم الطائى وهرم بن سنان (راجع بلوغ الارب)

والوفاء(١) .

وللكرم في حياة العربي حظ كبير ، ومن العرب أناس اشتهروا بالجود والسخاء وصاروا مضرب الأمثال كحاتم وسواه .

والإبل هي عماد الحياة في جزيرة العرب ، وكانوا يعنون بالخيل للطعان والنزال .

وأشهر صناعاتهم الغزل ، وفي المدينة والطائف واليمن قامت الزراعة وكذلك حول المياه والعيون (٢) .

وكانت التجارة دأب القرشيين الذين كانوا يغدون ويروحون في الجزيرة العربية آمنين مطمئنين ، وكان لبني عبد مناف رحـــلات إلى الشام واليمن ، والحبشة وفارس ، لأخذ العهود من ملوكها وتأمين السبل لتجار قريش (٣) .

---

(١) وقصة وفاء السموال معروفة . ومن وفائهم انهم قتلوا أخاهم وفاء بعهد الجار قال الشاعر :

قتلنا أخانا للوفاء بجارنا   وكان أبونا قد تجير مقابره

(راجع ٥٩ : ١ تاريخ الامم الاسلامية للخضري بك ط ١٩٢٦) . وكذلك قصة وفاء هانىء بن قبيصة لأمانات النعمان بن المنذر التي أودعها عنده والتي تعرض بسببها هو وقومه والعرب لحرب كسرى في يوم ذي قار ، قصة معروفة مشهورة (راجع ٣٧٤ر٣ من العقد الفريد ط ١٩٢٨)

(٢) والبيت الذي رواه سيبويه في شواهده(٣٥٩ج١ الكتاب لسيبويه) وهو:

إلا رجلا جزاه الله خيرا   يدل على محصلة تبيت

يدل على أنهم كانوا يعرفون استخراج الذهب ، ولاشك أن ذلك كان في اليمن إذا صح أن هذا البيت جاهلي . والمحصلة : المرأة التي تحصل الذهب من تراب المعادن وتخلصه منه وطلبها للبيت لغرض التحصيل طبعا .

(٣) ١٩٩ النوادر ملحق بكتاب الأمالي . ويقول الشاعر :

ياأيها الرجل المحول رحله   هلا نزلت بآل عبد مناف

وامتدت تجارة قريش إلى اليمن والشام ، وكانت لهم رحلتان رحلة إلى اليمن شتاء ورحلة إلى الشام صيفاً ، وقد تقسم أولاد عبد مناف البلاد التى يتاجرون معها ، فكان هاشم يذهب إلى الشام ونوفل إلى فارس وعبد شمس إلى الحبشة والمطلب إلى اليمن ، ولم يكن يتعرض لهم أحد لأنهم أهل بيت الله وحماته .

وأمدت هذه الرحلات الهاشميين بثقافة واسعة وصقلت أفكارهم وأذواقهم وأسلوبهم وجعلتهم أرقى عرب الشمال فكراً وأبعدهم نظراً وأحصفهم عقلا .

حياتهم السياسية :

(أ) المجتمع العربى يتحكم فيه رؤساء القبائل وساداتها ، فكل قبيلة تأتمر بأمر سيدها وتخضع لإرادته فى السلم والحرب جميعاً :

دعانا والأسنة مشرعات فكنا عند دعوته الجوابا

وهو الحكم والمرجع فى كل ما شجر بين أفرادها من خلاف . وللقبيلة بجانب رئيسها حكام امتازوا بأصالة الرأى وحصافة العقل وصدق النظر يفزع اليهم فى الخصومات الأدبية كالمفاخرة فى النسب ونحوها(١) .

وهذا النظام هو الذى كانت تسير عليه أغلبية العرب من البدو فى نجد والحجاز وتهامة . ويستثنى من ذلك مكة والإمارات التى على التخوم واليمن .

= الآخذون العهد من آفاقها والراحلون لرحلة الإيلاف
والخالطون غنيهم بفقيرهم حتى يكون فقيرهم كالكافى

(١) وكان عمرو بن حممة الدوسى أحد حكام العرب (راجع ١٤٣ ج ٢ الأمالى)

(ب) والقرشيون لثرائهم من التجارة ، ولاتصالهم بالأمم المتحضرة كفارس والروم ، ولنضوج عقليتهم وثقافتهم وتفكيرهم ، كانوا يحكمون مكة حكماً أدق وأنضج من هذا النظام البدوي السائد ، وقد وضع قصى فى القرن الخامس الميلادى أساس هذا النظام الجديد ، فقد جمع شتات القرشيين ووحد كلمتهم وأخذ ولاية البيت الحرام وجدد بناء الكعبة وبنى دار الندوة ليجتمع فيها الرؤساء الذين لاتقل أعمارهم عن الأربعين ليتشاوروا ويعقدوا أنكحتهم وألويتهم ويفصلوا فى خصوماتهم .

وأصبح لقصى السيادة التامة فى مكة ، كما صار الرئيس الدينى للبيت ؛ وكان له رياسة دار الندوة ، واللواء ، فلا تعقد راية الحرب إلا بيده ، والحجابة وهى حجابة الكعبة لايفتح بابها إلا هو وهو الذى يلى أمر خدمتها ، وسقاية الحاج ورفادته ، والسقاية هى الحياض التى كانوا يملأونها بالماء ويحلونها بشىء من التمر والزبيب ليشرب منها الناس إذا وردوا مكة ، والرفادة هى الطعام الذى كان يصنع للحجاج على سبيل الضيافة ، وكانت قريش تساعد قصيا على ذلك بما تقدمه من خراج سنوى .

وورث أولاد قصى هذه المآثر والمفاخر ، وتنافسوا عليها ، ثم استقر رأيهم على اقتسامها بينهم (١) .

١ — فكانت السقاية فى بنى هاشم ويقوم بها العباس بن عبد المطلب .

٢ — والعُقاب - راية قريش - كانت فى بنى أمية عند أبى سفيان بن حرب وإذا كانت عند رجل أخرجها إذا حميت الحرب فاذا اجتمعت قريش على أحد أعطوه العقاب وإلا رأسوا صاحبها فقدموه .

٣ — والرفادة كانت فى نوفل عند الحرث بن عامر ، والرفادة هى ماكانت تخرجه من أموالها وترفد به منقطع الحاج .

---

(١) راجع العقد الفريد ، ٢٤٩ج١ بلوغ الأرب

٤ — والسدانة لبنى عبد الدار يقوم بها الحرث بن طلحة وكان اليه السدانة مع الحجابة ، والسدانة خدمة الكعبة وحجابتها وبيد صاحبها مفتاح الكعبة ولها المقام الأول عندهم .

٥ — والمشورة لبنى أسد وصاحبها يزيد بن زمعة بن الأسود وكان يستشار فى الأمور الكبيرة .

٦ — والندوة فى بنى عبد الدار أيضاً ، وهى الاشراف على دار الندوة .

٧ — والأشناق وهى الديات والمغارم وهى فى بنى تيم ونهض بها أبو بكر الصديق ، وكان صاحبها إذا احتمل شيئاً فسأل فيه قريشاً صدقوه وأمضوا حمالة من نهض معه وإن احتملها غيره خذلوه .

٨ — القبة والأعنة ، والقبة هى الخيمـــة التى كانوا يضربونها ويجمعون اليها أدوات الحرب ، والاعنة هى تولى أمر الخيل فى الحرب ، وكان ذلك لبنى مخزوم ونهض بهما خالد بن الوليد ؛ وقيل إن الأعنة كانت فى بنى عدى .

٩ — السفارة وهى لبنى عدى ونهض بها عمر بن الخطاب وكانت اليه السفارة فى الجـــاهلية وهى التوسط بين قريش وغيرها فى الحرب وفى السلم معاً

١٠ — الأيسار وهى تولى أمر الأزلام وكانت فى بنى جمح وقام بها صفوان بن أمية .

١١ — الحكومة والأموال المحجرة التى سموها لآلهتهم وهى لبنى سهم ويقوم بها الحارث بن قيس ... ومما وضعته قريش « حلف الفضول » فقد اجتمعت بطون قريش وتحالفوا فى دار عبد الله بن جدعان على رد المظالم بمكة وألا يظلم أحد إلا منعوه وأخذوا للمظلوم بحقه . وحضره الرسول صلى الله عليه وسلم وهو فى الخامسة والعشرين من عمره وقال فيه : « لقد شهدت حلف الفضول وما أحب أن لى به حمر النعم » .

(ج) ولقد قامت فى اليمن دول متحضرة منظمة من أشهرها :

١ - دولة (١) المعينيين : مابين ١٢٠٠ - ٨٠٠ ق م .

نزحوا من العراق إلى اليمن واستوطنوا بها وشادوا القصور والمعابد .

٢ - دولة سبأ : من القرن الثامن قبل الميلاد حتى أواخر القرن الثانى قبل الميلاد أيضا ، وقد ورد ذكرها فى التوراة ، وفى القرآن الكريم ما يدل على ترف أهلها : وقد ازدهرت مدينة سبأ قبل الميلاد بقرون وتدل النقوش والآثار التى عثر عليها على أنها كانت فى القرن الثامن قبل الميلاد .

وحاضرة هذه الدولة هى مأرب وكانت تمر بها التجارة بين الهند والحبشة والعراق ومصر والشام فى بعض العصور ، فازدهرت المدينة والدولة . ووحدت صلات تجارية بين بلقيس ملكة سبأ والملك سليمان بن داود ملك أورشليم . إلا أنه أثر فى حياة دولة سبأ أمران :

أولهما : انتقال التجارة إلى الطريق البحرى وانقطاع مرورها بسبأ .

وثانيهما : سيل العرم الذى حطم سد مأرب فأغرق البلاد ، وهاجر أهلها منها وتفرقوا فى أرجاء الجزيرة العربية .

٣ - الدولة الحميرية : ١٢٠ ق م - ٥٠٠ م .

وعاصمة هذه الدولة ظفار ، وامتازت بالفتوحات ومحاربتها الفرس

---

(١) راجع ص ٢٢٧ ومابعدها من كتاب تاريخ اللغات السامية لولفنسون ط القاهرة سنة ١٩٢٩ فى الحديث عن اليمن ودولها وتاريخها والمصادر التاريخية التى تتحدث عنهم . وراجع كتاب تاريخ التمدن الإسلامى

والحبشة ، وتضارب المؤرخون فى أسماء ملوكهم(١) وعددهم ومدة حكمهم .

وتنقسم هذه الدولة إلى طبقتين :

١ ـ الأولى ينتهى حكمها فى أواخر القرن الثالث الميلادى(٢) .

٢ ـ والثانية مدت سلطانها على الشحر وحضرموت ويسمى ملوكها التبابعة(٣) وآخرهم ذو نواس (٥١٥ ـ ٥٢٥ م) .

وذو نواس صاحب الاخدود الذى عذب فيه أهل نجران لعدم تركهم النصرانية واتباعهم دينه الرسمى (اليهودية) وأحرق الكتاب المقدس مما دعا إلى غضب الحبشة فقامت بحملة حربية على اليمن دفاعا عن النصرانية(٤) وكانت بقيادة أرياط وأبرهة فاستولوا على اليمن عام ٥٢٥ م وحكمها أرياط ثم أبرهة ، وأبرهة هو الذى بنى كنيسة عظيمة بصنعاء لصرف العرب عن الكعبة اليها ، ثم غزا مكة ليهدم الكعبة فأهلكه الله ، وملك بعده ابنه يكسوم ؛ ثم قام سيف بن ذى يزن وحارب الحبشيين وأخرجهم من

---

(١) راجع اجتماع العرب عند ملك من ملوك حمير (٧٦ ج ٢ الأمالى) ، وتعزية وفود العرب لسلامة ذى فائش فى ابنه (٩٩ ج ٢ الأمالى)

(٢) ومن ملوكها : ربيعة وهو الذى قص رؤيته على شق سطيح وأقام بعض أبنائه بالحيرة ومنهم النعمان بن المنذر

(٣) فتبع الأول اسمه زيد ، وتبع الآخر هو أسعد أبى كرب وكان ملكه قبل ملك ربيعة بن مضر ، وذلك من ٣٨٥ ـ ٤٢٠ م ، وقالوا : إنه غزا المدينة وكسا الكعبة فى مكة وأنه أول من تهود من العرب

(٤) ويعلل المؤرخون اليونانيون هذه الحملة الحربية بتعليل آخر (١١٦ الشهاب الراصد)

اليمن بمساعدة الفرس له الذين أمدوه بجيش بقيادة وهرز(١) .

وكانت مدة حكم الحبشة لليمن اثنتين وسبعين سنة ، وكتاب الإكليل للهمداني أحسن مرجع قديم عن اليمن وتاريخها .

(د) إمارة الحيرة : من القرن الثالث الميلادي إلى ٦٣٢ م

وهي إمارة عربية أقامها الفرس على حدود بلادهم بالقرب من الكوفة لتحميهم من غارات العرب وليحاربوا بها أعداءهم الروم . فقد وضع أردشير يده على هذه البلاد واستولى عليها وحكم العرب المقيمين فيها مما أدَّى إلى هجرة قضاعة عنها إلى الشام ، ورأى أردشير أنه يستحيل عليه أن يحكم العرب مباشرة ويمنعهم من الإغارة على تخوم ملكه إلا بأن يملك عليهم رجلا منهم . فاختار جذيمة الوضاح ملكا على الحيرة وسائر من بادية العراق والجزيرة من ربيعة ومضر ، وجذيمة هو الذي قتلته الزباء نحو عام ٢٦٨ م انتقاما منه لقتله والدها ، فاحتال ابن أخت له اسمه عمرو بن عدى حتى قتلها(٢) .

---

(١) راجع ٧٥ج١٦ الأغاني ، ٢:٥٣ الأغاني أيضا . وراجع وفود قريش على سيف بن ذي يزن في العقد الفريد (ص ١٧٥ ج ١ ط ١٩٢٨)

(٢) المصادر الافرنجية تذهب إلى أن الزباء كانت ملكة تدمر من قبل الرومانيين ، ثم حاربها الرومان وأسروها وماتت في روما نحو عام ٢٧٣ م ، وكان اسمها عندهم زنوبيا . وكان سابور قد هاجم تدمر بعد أن أسر الامبراطور فالريان امبراطور الروم ، ولكن مملكة تدمر قاومته بما سارت عليه من حرب العصابات حتى هزمته ومنحت روما ملك تدمر لقب « أمير الشرق وملك تدمر » وكان اسمه « اودناتوس » ثم قتل وتولى الملك بعده ابنه الطفل وقامت زوجته وصية على ولدها وكانت تلك الزوجة هي زنوبيا . أرادت زنوبيا التوسع فأرسلت جيشا ليفتح مصر ويخرج الرومان منها فأفلح في ذلك ، ثم غزت الاناضول واستولى جيشها عليها عام ٢٧٠ م واعترف بها الامبراطور شريكة له في الامبراطورية وأصبحت تدمر عاصمة مهابة . ثم تولى « كولوديوس » امبراطورية =

ثم ولى على الحيرة عمرو بن عدى بن نصر اللخمى أول ملوك اللخميين بالحيرة ، وملكهم ما بين عامى (٢٦٨ ، ٦٣٢ م) أى حتى فتـــح خالد ابن الوليد للحيرة .

ومن ملوكها : النعمان بن امرىء القيس صاحب الخورنق والسدير(١) . والنعمان بن المنذر الذى مدحه النابغة وقد قتله كسرى وقامت من أجله موقعة ذى قار عام ٥٨٠ م (٢) .

وولى على الحيرة بعد النعمان بن المنذر إياس بن قبيصة الطائى ، وحارب هانىء بن مسعود الشيبانى طلباً لودائع النعمان بن المنذر التى أودعها عنده وانتصر بنو شيبان وهزموا الفرس هزيمة منكرة ، ثم عاد الملك إلى آل لخم .

= الرومان لخف لحاربة زنوبيا فهزمها فى الاناضول ثم على حدود تدمر وحاصر عاصمتها تدمر . ثم أخذوها أسيرة هى وابنها واستولوا على تدمر وخربوها عام ٢٧٢ م .

(١) بناهما له سنمار الذى قتله الملك خوفا أن يبنى مثلهما فقيل فى المثل « جزاء جزاء سنمار » .

(٢) راجع خطبة هانىء بن قبيصة فى قومه يحرضهم على الحرب فى يوم ذى قار فى الامالى (١٦٩ ج ١)

وراجع فى الامالى (١٩٥ النوادر الملحق بالامالى) خبر المنذر بن ماء السماء وقتله نديمه وجعله لنفسه فى كل سنة يوم بؤس ويوم نعيم وقتله عبيد بن الابرص يوم بؤسه .

ولهند بنت النعمان بن المنذر لرجل أولاها يدا فدعت له : شكرتك يد نالتها خصاصة بعد ثروة ، وأغناك عن يد نالتها ثروة بعد فاقة (٢٧: ٤ زهر الآداب)

وراجع اجتماع وفود العرب عند النعمان فى العقد (١:٢٥٦ ط ١٩٢٨) ، ووفود العرب على كسرى فى العقد (١٦٦ ١) ، ووفود حاجب بن زرارة على كسرى (١:١٧٤ العقد) ، ووفود أبى سفيان على كسرى (١:١٧٤ العقد) ووفود حسان بن ثابت على النعمان (١٧٥ : ١ العقد)

وقد تأثرت إمارة الحيرة بحضارة الفرس وثقافتها ومعارفها تأثراً كبيراً وكان ملوكها فى استقلال داخلى .

ووفادة العرب على كسرى مظهر للنفوذ الفارسى فى بلاد العرب ، حدث ابن القطامى عن الكلبى قال :

« قدم النعمان بن المنذر على كسرى ، وعنده وفود الروم والهند والصين ، فذكروا من ملوكهم وبلادهم ، فافتخر النعمان بالعرب ، وفضلهم على جميع الأمم ، لا يستثنى فارس ولا غيرها » .

فقال كسرى — وأخذته عزة الملك — : « يا نعمان ، لقد فكرت فى أمر العرب وغيرهم من الأمم ؛ ونظرت فى حال من يقدم على من وفود الأمم ، فوجدت الروم لها حظ فى اجتماع ألفتها ، وعظم سلطانها ، وكثرة مدائنها ، ووثيق بنيانها ، وأن لها ديناً يبين حلالها وحرامها ويرد سفيهها ، ويقيم جاهلها . ورأيت الهند نحواً من ذلك فى حكمتها وطبها مع كثرة أنهار بلادها وثمارها ، وعجيب صناعاتها ، وطيب أشجارها ، ودقيق حسابها ، وكثرة عددها . وكذلك الصين فى اجتماعها ؛ وكثرة صناعات أيديها وفروسيتها ، وهمتها فى آلة الحرب وصناعة الحديد ، وأن لها ملكاً يجمعها . والترك والخزر - على ما بهم من سوء الحال فى المعاش ، وقلة الريف والثمار والحصون وما هو رأس عمارة الدنيا من المساكن والملابس - لهم ملوك تضم قواصيهم وتدبر أمرهم .. ولم أر للعرب شيئاً من خصال الخير ، فى أمر دين ولا دنيا ، ولا حزم ولا قوة ، ومع أن مما يدل على مهانتها وذلها وصغر همتها محلتهم التى هم بها مع الوحوش النافرة والطير الحائرة ، يقتلون أولادهم من الفاقة ، ويأكل بعضهم بعضاً من الحاجة . قد خرجوا من مطاعم الدنيا وملابسها ومشاربها ، ولهوها ولذاتها : فأفضل طعام ظفر به ناعمهم لحوم الإبل التى يعافها كثير من السباع لثقلها ، وسوء طعمها ، وخوف دائها . وإن قرى

أحدهم ضيفاً عدّها مكرمة ، وإن أُطعم أكلة عدها غنيمة - تنطق بذلك أشعارهم ، وتفتخر بذلك رجالهم ما خلا هذه التنوخية التى أسس جدى اجتماعها ، وشد مملكتها ، ومنعها من عدوها ، فجرى لها ذلك إلى يومنا هذا وإن لها - مع ذلك - آثاراً ولبوساً ، وقرى وحصوناً ، وأموراً تشبه بعض أمور الناس (يعنى اليمن) . ثم لا أراكم تستكينون على مابكم من الذلة والقلة والبؤس ، حتى تفتخروا وتريدوا أن تنزلوا فوق مراتب الناس » .

قال النعمان : « أصلح الله الملك ! حق لأمة الملك منها أن يسمو فضلها ، ويعظم خطبها ، وتعلو درجتها . إلا أن عندى جواباً فى كل مانطق به الملك فى غير رد عليه ، ولا تكذيب له . فإن أمننى من غضبه ، نطقت به » . قال كسرى : « قل ، فأنت آمن » . قال النعمان : أما أمتك - أيها الملك - فليست تنازع فى الفضـــل لموضعها الذى هى به من عقولها وأحلامها ، وبسطة محلها ، وبحبوحة عزها ، وما أكرمها الله به من ولاية آبائك وولايتك . وأما الأمم التى ذكرت فأى أمة تقرنها بالعرب إلا فضلتها » : قال كسرى : « بماذا ؟ » قال النعمان : بعزها ومنعتها ، وحسن وجوهها ، وبأسها ، وسخائها وحكمة ألسنتها ، وشدة عقولها ، وأنفتها ، ووفائها . . . فأما عزها ومنعتها ، فإنها لم تزل مجاورة لآبائك الذين دوخوا البلاد ووطدوا الملك ، وقادوا الجند . ولم يطمع فيهم طامع ، ولم ينلهم نائل . حصونهم ظهور خيلهم ، ومهادهم الأرض ، وسقوفهم السماء ، وجنتهم السيوف ، وعدتهم الصبر : إذ غيرها من الأمم إنما عزها الحجارة والطين وجزائر البحور .

وأما حسن وجوهها وألوانها . فقد يعرف فضلهم فى ذلك على غيرهم ، من الهند المنحرفة ، والصين المنحفة ، والترك المشوهة ، والروم المقشرة . . وأما أنسابها وأحسابها ، فليست أمة من الأمم إلا وقد جهلت آباءها وأصولها ، وكثيراً من أولها ، حتى إن أحدهم ليسأل عمن وراء أبيه دنيا ، فلا ينسبه ولا يعرفه . وليس أحد من العرب إلا يسمى آباءه أباً فأباً ، أحاطوا بذلك أحسابهم ، وحفظوا أنسابهم ، فلا يدخل رجل فى غير قومه

ولا ينتسب إلى غير نسبه ، ولا يدعى إلى غير أبيه . وأما سخاؤها ، فإن أدناهم رجلا تكون عنده البكرة والناب عليها بلاغه فى حموله . وشبعه وريه فيطرقه الطارق الذى يكتفى باللذة ويجتزىء بالشربة ، فيعقرها له ، ويرضى أن يخرج عن دنياه كلها فيما يكسبه حسن الأحدوثة ، وطيب الذكر . وأما حكمة ألسنتهم . فإن الله تعالى أعطاهم فى أشعارهم ، ورونق كلامهم ، وحسنه ووزنه وقوافيه ، مع معرفتهم بالأشياء وضربهم للأمثال ، وإبلاغهم فى الصفات ـ ماليس لشىء من ألسنة الأجناس ، ثم خيلهم أفضل الخيل ، ونساؤهم أعف النساء . ولباسهم أفضل اللباس ومعادنهم الذهب والفضة ، وحجارة جبالهم الجزع ، ومطاياهم التى لا يبلغ على مثلها سفر ولا يقطع بمثلها بلد قفر .

وأما دينها وشريعتها فإنهم متمسكون به ، حتى يبلغ أحدهم من نسكه أن لهم أشهراً حرماً ، وبلداً محرماً ، وبيتاً محجوجاً ، ينسكون فيه مناسكهم ، ويذبحون فيه ذبائحهم ، فيلقى الرجل قاتل أبيه أو أخيه ، وهو قادر على أخذ ثأره ، وإدراك رغمه منه ، فيحجزه كرمه ، ويمنعه دينه عن تناوله بأذى . وأما وفاؤها ، فإن أحدهم يلحظ اللحظة ، ويومىء الإيماءة ، فهى ولث وعقدة لا يحلها إلا خروج نفسه ، وإن أحدهم يرفع عوداً من الأرض فيكون رهناً بدينه ، فلا يغلق رهنه ولا تخفر ذمته . وإن أحدهم ليبلغه أن رجلا استجار به ، وعسى أن يكون نائياً عن داره فيصاب ، فلا يرضى حتى يفنى تلك القبيلة التى أصابته أو تفنى قبيلته ؛ لما أخفر من جواره ، وإنه ليلجأ إليهم المجرم المحدث ، من غير معرفة ولا قرابة ، فتكون أنفسهم دون نفسه ، وأموالهم دون ماله .

أما قولك أيها الملك يئدون أولادهم ، فإنما يفعله من يفعل منهم بالإناث أنفة من العار ، وغيرة من الأزواج . وأما قولك : « إن أفضل طعامهم لحوم الإبل ، على ما وصفت منها ، فما تركوا ما دونها إلا احتقاراً له فعمدوا إلى أجلها وأفضلها . فكانت مراكبهم وطعامهم ، مع أكثر البهائم شحوماً ، وأطيبها لحماً ، وأرقها ألباناً ، وأقلها غائلة ، وأحلاها مضغة ؛ وإنه لا شىء من

اللحيان يعالج مايعالج به لحيا الاستقبان فضلها عليه » . وأماتحاربهم ، وأكل بعضهم بعضاً ، وتركهم الانقياد لرجل يسوسهم ويجمعهم ، فإنما يفعل ذلك من يفعله من الأمم ، إذا أنست من نفسها ضعفاً ، وتخوفت من نهوض عدوها إليها بالزحف . وإنه إنما يكون فى المملكة العظيمة أهل بيت واحد ، يعرف فضلهم على سائر غيرهم فيلقون إليهم أمورهم ، وينقادون لهم بأزمتهم ، وأما العرب فإن ذلك كثير فيهم ، حتى لقد حاولوا أن يكونوا ملوكا أجمعين مع أنفتهم من الخراج » .

وأما اليمن التى وصفها الملك،فإنما أتى جد الملك الذى أتاه ،عند غلبة الجيش له على ملك متسق ، وأمر مجتمع . فأتاه مسلوباً طريداً مستحضراً قد تقاصر عن إيوانه ، وصغر فى عينه ماشيد من بنائه . ولولا ما وتر به من يليه من العرب ، لمال إلى مجال ؛ ولوجد من يجيد الطعان ويغضب للأحرار من غلبة العبيد الأشرار » .

فعجب كسرى لما أجابه النعمان به ، وقال : « إنك لأهل لموضعك من الرياسة فى أهل إقليمك ؛ ولما هو أفضل » . ثم كساه من كسوته وسرحه إلى موضعه من الحيرة . فلما قدم النعمان الحيرة ، وفى نفسه ما فيها ، مما سمع من كسرى من تنقص العرب ، وتهجين أمرهم . بعث إلى أكثم بن صيفى ، وحاجب بن زرارة التميميين ، وإلى الحرث بن عباد وقيس بن مسعود البكريين ، وإلى خالد بن جعفر وعلقمة بن علاثة وعامر بن الطفيل العامريين ، وإلى عمرو بن الشريد السلمى ، وعمرو بن معديكرب الزبيدى ، والحارث بن ظالم المرى ـ فلما قدموا عليه فى الخورنق ، قال لهم :

« قد عرفتم هذه الأعاجم ، وقرب جوار العرب منها . وقد سمعت من كسرى مقالات تخوفت أن يكون لها غور ، أو يكون إنما أظهرها لأمر أراد أن يتخذ به العرب خولا كبعض طماطمته فى تأديتهم الخراج إليه كما يفعل بملوك الأمم الذين حوله » . فقص عليهم مقالات كسرى وما رد

عليه . فقالوا : « أيها الملك ، وفقك الله ! ما أحسن ما رددت ! وأبلغ ما حججت به ! فمرنا بأمرك ، وادعنا بما شئت . قال : « إنما أنا رجل منكم ، وإنما ملكت وعززت بمكانكم ، وما يتخوف من ناحيتكم . وليس شيء أحب إلى مما سدد الله به أمركم ، وأصلح به شأنكم ، وأدام عزكم ، والرأى أن تسيروا بجماعتكم — أيها الرهط — وتنطلقوا إلى كسرى . فإذا دخلتم نطق كل رجل منكم بما حضره ، ليعلم أن العرب على غير ما ظن أو حدثته نفسه ، ولا ينطق رجل منكم بما يغضبه ، فإنه ملك عظيم السلطان كثير الأعوان ، مترف معجب بنفسه . ولا تنخذلوا له انخذال الخاضع الذليل . وليكن أمر بين ذلك تظهر به وثاقة حلومكم ، وفضل منزلتكم وعظيم أخطاركم . وليكن أول من يبدأ منكم بالكلام أكثم بن صيفى لسنى حاله ، ثم تتابعوا على الأمر من منازلكم التى وضعتكم بها ، فإنما دعانى إلى التقدمة إليكم علمى بميل كل رجل منكم إلى التقدم قبل صاحبه ، فلا يكونن منكم ذلك فيجد فى آدابكم مطعناً ، فإنه ملك مترف ، وقادر متسلط » .

دعا لهم بما فى خزائنه من طرائف حلل الملوك ، لكل رجل منهم حلة وعممه عمامة ، وختمه بياقوتة . وأمر لكل رجل منهم بنجيبة مهرية وفرس نجيبة ، وكتب معهم كتاباً : « أما بعد ، فإن الملك ألقى إلىّ من العرب ما قد علم وأجبته بما قد فهم ، بما أحببت أن يكون منه على علم ، ولا يتلجلج فى نفسه أن أمة من الأمم التى احتجزت دونه بمملكتها ، وحمت ما يليها بفضل قوتها ، تبلغها فى شىء من الأمور التى يتعزز بها ذوو الحزم والقوة والتدبير والمكيدة . وقد أوفدت — أيها الملك — رهطاً من العرب لهم فضل من أحسابهم وأنسابهم ، وعقولهم وآدابهم ، فليسمع الملك وليغمض عن جفاء ، إن ظهر من منطقهم وليكرمنى بإكرامهم وتعجيل سراحهم . وقد نسبتهم فى أسفل كتابى هذا إلى عشائرهم » . فخرج القوم فى أهبتهم حتى وقفوا بباب كسرى بالمدائن ، فدفعوا إليه كتاب النعمان . فقرأه وأمر بإنزالهم إلى أن يجلس لهم مجلساً يسمع منهم فلما أن كان بعد ذلك بأيام ، أمر الرؤساء

ووجوه أهل مملكته ، فحضروا وجلسوا على كراسى عن يمينه وشماله . ثم دعا بهم على الولاء والمراتب التى وصفهم النعمان بها فى كتابه ، وأقام الترجمان يؤدى إليه كلامهم . ثم أذن لهم فى الكلام . فتكلم كل رجل بما حضره ، وكسرى يسمع فيقبل ما يعجبه ويقوم ما يراه معوجا ، حتى انتهوا . فقال: « قد فهمت ما نطقت به خطباؤكم ، وتفنن فيه متكلموكم . ولولا أنى أعلم أن الأدب لم يثقف أودكم ، ولم يحكم أمركم ، وأنه ليس ملك يجمعكم فتنطقون عنده منطق الرعية الخاضعة الباخعة فنطقتم بما استولى على ألسنتكم وغلب على طباعكم - لم أجز لكم كثيراً مما تكلمتم به : وإنى لأكره أن أجبه وفودى ، أو أحنق صدورهم ، والذى أحب إصلاح مدبركم . وتألف شواذكم ، والاعذار إلى الله فيما بينى وبينكم . وقد قبلت ما كان فى منطقكم من صواب ، وصفحت عما كان فيه من خلل . فانصرفوا إلى ملككم فأحسنوا مؤازرته ، والتزموا طاعته . واردعوا سفهاءكم وأقيموا أودهم ، وأحسنوا أدبهم — فان فى ذلك صلاح العامة » .

(هـ) إمارة غسان :

هاجرت قبائل من قضاعة إلى مشارف الشام وسكنت بها لخصبها ، وكانت هذه البلاد تحت حكم الرومان فاصطنعهم الرومان ليمنعوا غارات العرب عن ملكهم وليكونوا عدة ضد الفرس واللخميين ، ثم تغلب على هذه البلاد بنو جفنة الغسانيون ورئيسهم جفنة بن عمرو فولته الروم ملكا على الشام ، وشمل حكمهم مقاطعتى حوران والبلقاء ، وعاصمة ملكهم هى جولان أو الجابية أو جلق بالقرب من دمشق .

وقد تأثرت هذه الامارة بالحضارة الرومانية ، ومن أشهر (١) ملوكها الحارث بن جبلة وقد عينه الامبراطور جوستنيان عام ٥٢٩ م أميرا على

---

(١) ومن ملوكها الحارث بن أبى شمر الغسانى . راجع حديثه مع قيس بن رفاعة فى الامالى (١:٢٥٧)

جميع قبائل العرب فى الشام ومنحه لقب بطريق وكان الحارث نصرانيا على مذهب اليعاقبة وقد سافر إلى القسطنطينية عام ٥٦٣ م وهو الذى توسط لامرىء القيس فى الذهاب إلى قيصر فى القسطنطينية ليستعين به . وآخر ملوكهم هو جبلة بن الأيهم ، وقد اشتهر الغسانيون بالكرم ومدحهم الشعراء كحسان والأعشى والنابغة وعلقمة الفحل .

وقد حارب الغساسنة الفرس واللخميين وكانت لهم أيام انتصروا فيها على اللخميين .

الحياة الدينية عند العرب :

الحياة الدينية عند العرب مختلفة الألوان والمظاهر والعقائد فمن وثنية إلى يهودية ونصرانية إلى حنيفية وتحنث : ويهمنا هنا أن نلم بكل هـــذه الألوان المختلفة من التدين عند العرب .

وكانت الوثنيـــة هى الدين السائد فى جزيرة العرب ، وهى عبادة الأصنام والأوثان .

والأصنام هى تماثيل الإنسان من المعادن أو الخشب ، والأوثان هى تماثيل الإنسان من الحجر

وكان بدء عبادة الأصنام عند العرب أنهم كانوا يعظمون الكعبة تعظيما شديدا فلما تكاثروا وضاقت بهم مكة وهاجروا منها كان لا يظعن ظاعن إلا حمل معه حجرا من حجارة الحرم تعظيما له وحبا لمكة فحيثما حل وضعه وطاف به كما كان يطوف بالكعبة . واستمروا على تعظيم هذه الحجارة حينا تأصل فيه حبهم لها وتعظيمهم إياها ثم استحال هـذا التعظيم عادة فعبادة ، ثم عمت هذه العبادة حتى وصلته إلى مكة مقر التوحيد .

وكان أول من غير دين إبراهيم وإسماعيل فوضع الأصنام فى الكعبة ، عمرو بن لحى ، وكان حاجب البيت الحرام ، شاهد أهل البلقاء يعبدون

الأصنام فنصب صنما فى الكعبة سماه « هبل » وجعل عبادته إليه ، ومن أشهر الأصنام عند العرب :

مناة : وكان منصوبا على ساحل البحر بين المدينة ومكة وكانت العرب تعظمه وتذبح حوله وكان الاوس والخزرج يعظمونه وقد ذكرت «مناة» فى القرآن الكريم « ومناة الثالثة الأخرى » وكان من أسماء العرب « عبد مناة » و «زيد مناة» . قيل كان يعبد مناة خزاعة ، قيل : وهذيل أيضا ، وقيل أنها كانت لبنى كعب . والصحيح أنها كانت للاوس والخزرج . وفى سنة ٨ﻫ وهى عام الفتح بعث الرسول (ص) عليا رضى الله عنه فهدمها .

واللات وهى صخرة مربعة بنت عليها ثقيف بناء بالطائف وكانت ثقيف تعبدها ومن سدنتها عتاب بن مالك ، ومن أسماء العرب : زيد اللات وتيم اللات . وورد ذكرها فى القرآن الكريم : أفرأيتم اللات والعزى . ويقول عمر بن الجعيد :

فانى وتركى الكأس عمدا لكالذى تبرَّأ من لات وكان يدينها

وبقيت إلى أن أسلمت ثقيف فبعث رسول الله المغيرة بن شعبة فهدمها وحرقها بالنار ، وفى ذلك يقول شداد بن عارض ينهى ثقيفا عن العودة إلى عبادتها :

لا تَنصرُوا اللاتَ إنَّ الله مهلكها وكيف نصركم من ليس ينتصرُ
إن التى حرقَتْ بالنار فاشتعلت ولم تقاتلْ لدى أحجارها هدرُ
إن الرسولَ متى ينزلْ بساحتكم يَظعنْ وليس بها من أهلها بشرُ

ويقول أوس بن حجر :

وباللات والعزَّى ومن دانَ دينها وبالله إنَّ الله منهنَّ أكبرُ

والعزى : وهى شجرة وكانت أعظم الأصنام فكانت قريش تخصها بالزيارة والهدايا والنحر عندها . وكانت العزى بواد من نخلة بأرض الشام

يقال له حرض وقيل بالقرب مكة وسدنتها من بنى مرة من سليم ، ومن أسماء العرب عبد العزى . وبعد ظهور الإسلام أرسل الرسول صلوات الله عليه خالد بن الوليد وذلك عام الفتح فقطعها .

وكان من العرب من يقولون إن الثلاث — اللات والعزى ومناة — بنات الله .

ومن أصنامهم : ود ، وسواع ، ويغوث ، ويعوق ، ونسر . وكان ود لكلب ، وسواع لهذيل : قال الشاعر :

تراهم حول قِبْلتهمْ عكوفا كما عكفت هُذَيل علىُ سُوَاعِ

ويغوث لمذحج ، ويعوق لهمدان وقيل لمراد ، ونسر لحمير قبل أن يدينوا باليهودية . ومن أصنامهم : « هبل » وهو أعظم الأصنام التى كانت حول الكعبة وكانوا يستقسمون عنده بالأزلام ، « وذو الخَلص » وهو لخثعم وهو مروة بيضاء منقوش عليها مثل هيئة التاج وقد بنى له بيت بين مكة والمدينة على مسيرة سبعة ليال من مكة . وروى أن امرأ القيس استقسم عنده فى الأخذ بثأر أبيه فنهى عن ذلك فرمى بالقدح فى وجهه وقال :

لو كنت يا ذا الخلص الموتورا مثلي وكان شيخُك المقبورا

لم تَنْهَ قتلِ العُداةِ زُورا

وقيل إنه وجد حول الكعبة بمكة يوم الفتح ستون وثلثمائة صنم حطمها الرسول (ص) بيده كلها . وكان لأهل كل بيت صنم فى بيتهم يعظمونه . وكان لغير قريش بيوت عبادة كالكعبة وتسمى الطواغيت وكانوا يضعون فيها الأصنام ويطوفون بها ويهدون إليها الهدايا ويذبحون الذبائح ويستقسمون عندها بالقداح ولها سدنة وحجاب .

وهكذا كانت حياة العرب متأثرة بهذه الأصنام أيما تأثر (١) إلا أن

(١) ومن القرابين — الذبائح — التى كانوا يذبحونها عندها : البحيرة والسائبة والوصيلة والحام . وهى مذكورة فى القرآن الكريم .

الشعر العربى الذى يصور هذه الناحية الدينية من نواحى حياة العرب العامة غير كثير ، وقد يكون ذلك لأن رواة الشعر الجاهلى بعد الإسلام قد أهملوا ما ظهرت فيه الوثنية تديناً وارضاء لله

ودخلت اليهودية إلى جزير العرب فانتشرت فى يثرب وحولها فى فدك وخيبر ، وفى اليمن ومن أول ملوكهم الذين تهودوا « ذو نواس » وقد تعصب لليهودية وحاول جعلها الدينى الرسمى وأحرق نصارى نجران فى الأخدود تعصباً ليهوديته مما أثار الحبشة النصرانية فغزت اليمن بلاد وملكتها وكان ذلك فى أوائل القرن السادس الميلادى كما تقدم

وتهوّد كذلك بعض أناس من كندة وكنانة وأشهر شعراء العرب من اليهود السموأل بن عادياء .

ودخلت النصرانية إلى الجزيرة أيضاً حيث استقرت فى ربيعة وغسان وبعض قضاعة وطىء لترددهم على الروم وفى قبائل العباد ، بالحيرة وكان بنو تغلب من نصارى العرب أيضاً ، وأشهر مواطن النصرانية فى اليمن « نجران » وكان أهلها على مذهب اليعاقبة كالحبشة

وكانت اليهودية والنصرانية قليلتين بالنسبة إلى الدين السائد فى الجزيرة وهو الوثنية . وكان القسوس والرهبان يردون العرب ويدعون إلى دينهم ويذكرون البعث والحساب والجنة والنار ، وأشهر شعراء النصرانية قس بن(1) ساعدة وأمية ابن أبى الصلت وعدى بن زيد .

ومن العرب من كان يعبد الكواكب ، فقد كان بين اليمنيين من عبد الشمس ، وعبدت كنانة القمر ، وعبد قوم من لخم وخزاعة وقريش نجم الشعرى ، وروى أن قوما من قريش اعتنقوا الزندقة أخذوها عن بعض أهل الحيرة الذين أخذوها عن الفرس ، والزندقة تسير على مذهب

---

(1) راجع حديثه مع قيصر (٢:٣٧ الأمالى)

مانى وتقول بإلهين : إله النور وهو أصل كل خير وإله الظلام وهو منبع كل شر .

ووجد من العرب من أنكر هذه الأديان كلها وقالوا ماحكاه الله عز وجل عنهم « ماهى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر » .

وكانت قريش لها ولاية البيت وبعض ميزات دينية كعدم الوقوف بعرفة أو الإفاضة منها وسوى ذلك . وكان بعض قليل من العرب يعبدون الله على مايتصورون من دين الحنيفية البيضاء دين ابراهيم واسماعيل .

وبعضهم أنكروا الأديان وغابت عنهم حقيقة الحنيفية فتفرقوا فى البلدان يلتمسونها ويطلبون التوحيد ، ومن هؤلاء ورقة بن نوفل الأسدى وزيد بن عمرو بن نفيل العدوى وعثمان بن الحويرث بن خزيمة وعبيد الله ابن جحش الأسدى ، فأما ورقة فتنصر ، وأما زيد فاعتزل الأديان كلها وقال أعبد رب ابراهيم ، وأما عثمان بن الحويرث فقدم على ملك الروم وتنصر ، وأما عبيد الله فأقام على ما هو عليه من الشك حتى جاء الإسلام فأسلم ثم هاجر مع المسلمين إلى الحبشة فلما قدمها تنصر فيها .

وكان فى العرب كهان مشهورون ، لهم قصص كثيرة وكان العرب يأخذون رأيهم فى المشكلات . . ومنهم : سَطيح ، وطَريفة ، وزَبْراء الكاهنة(١) ، وسواد بن قارب(٢) .

وكان منهم الطوارق بالحصى(٣) ، ومن الكهان ابنة الخُسّ(٤) .

---

(١) راجع حديث زبراء مع بنى رئام من قضاعة فى الامالى (١:١٢٦) ، واقرأ وفود عبد المسيح على سطيح فى العقد الفريد (١:١٧٨ ط ١٩٢٨)

(٢) ٢٨٩ : ٢ الأمالى

(٣) راجع الامالى (١:١٤٢)

(٤) راجع حديثها مع أبيها فى (ذيل الامالى ص ١٠٧)

معارف العرب فى الجاهلية

ا – كان التبابعة فى اليمن ، والمناذرة والغساسنة فى الحيرة والشام على حظ من المعرفة والثقافة يدلنا على ذلك ما وصلوا إليه من بناء السدود وحفر المجارى المائية وتخطيط المدن وتنظيم الجيوش وهندسة الأمواه ، ولا شك أنهم تأثروا بالفرس والروم وسواهم من الأمم المتحضرة وأخذوا عنهم الطب والحساب والزراعة .

ب – أما سواد العرب فأميون بدو لا عهد لهم بعلم أو ثقافة ولا بتعليم أو تدريس ، وإنما كانت لهم معارف وصناعات أفادوها بتجاربهم أو باتصالهم بالأمم الأخرى عن طريق التجارة أو الأمارات القائمة على الحدود أو البعوث الدينية ، ومن أشهر معارفهم :

١ – النجوم والمطر والرياح :

فى اللغة العربية أسماء متعددة للنجوم ، وللرياح على اختلاف أنواعها ، وللمطر . وتشابه أسماء البروج والكواكب فى العربية والكلدانية كثير .

وبعض هذا وصلهم عن الكلدانيين أهل بابل القديمة ، وبعضه اهتدوا إليه بفطرتهم لحاجتهم إلى معرفة الوقت والعلم بزمان الخصب والمحل وأوقات الرياح والمطر سواء كانوا فى البر أو البحر ، وساعدهم على ذلك صفاء جو الصحراء وحدة فطنتهم ، وحاجتهم إلى المطر والسحاب .

ويتصل بهذا ما كان عليه بعض عرب السواحل كأهل اليمن والبحرين من معرفة بالملاحة البحرية وسير المراكب فى البحار ، وفى اللغة العربية ألفاظ كثيرة لذلك ، ويقول طرفة :

كأن حُدُوجَ المالكيَّةِ غُدْوَةً خلايا سَفينٍ بالنواصفِ مِنْ دَدِ
عَدو لِيَّة أو من سفينِ ابنِ يامنٍ يجورُ بها المَلاحُ طوراً ويهتدى
يشُقُ حَبابَ الماءِ حيزومُها بها كما قسَمَ الترب المفُايلُ باليد

٢ — الطب

وقد وصلهم بعض معلومات عنه من الفرس والروم واليونان وكان الحارث بن كلدة طبيب العرب فى الجاهلية م ١٣ ﻫ قد تعلم فى بلاد الفرس وكان من ثقيف وعاش حتى جاء الإسلام وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يشير على المرضى أن يذهبوا إليه ، ويضرب المثل بابن حِذْيَم الطبيب قال الشاعر أوس بن حجر :

فهل لكمو فيها إلى ، فاننى طبيب بما أعيا النطاسى حِذْيما(١)

وتروى عنه الحكمة المشهورة « البطنة بيت الداء والحمية رأس الدواء » وهو من تيم وكان يقال « أطبُّ من ابن حذيم » .

كما استمدوا بعضه من تجاربهم العامة . وكان للكى بالنار حظ كبير فى علاجهم . وكانوا يعالجون إبلهم وخيلهم بالكى وبالقطران إلى غير ذلك من العلاج .

وفى اللغة العربية أسماء لكثير من الأمراض ولكثير من الأدوية النباتية وسواها ، ولكثير من أوصاف الإبل والخيل .

ويضرب بطب الحارث بن كلدة المثل ، وقد وفد الحارث(٢) بن كلدة

---

(١) الضمير يعود للمعزى أى فهل لكم ميل فى رد المعزى إلى وهى معز على إغتصبها نضيقوه . النطاسى: العالم

(٢) كان الحارث من الطائف طبيب العرب فى عصره ، وقد سافر إلى فارس وتعلم الطب ، وعرف الداء والدواء ، وكان يضرب بالعود ، تعلم ذلك بفارس واليمن ، وبقى أيام رسول الله وأبى بكر وعمر وعثمان وعلى ومعاوية توفى نحو سنة ٥٠ ﻫ راجع ٣٢٨ : ٣ بلوغ الأدب ، ٣٤١ : ٤ العقد الفريد

الثقفى على كسرى أنوشروان ، فأذن له بالدخول عليه ، فلما وقف بين يديه ، قال له : من أنت ؟ قال : أنا الحرث بن كلدة الثقفى . قال : فما صناعتك ؟ قال : الطب ، قال : أعرابى أنت ؟ قال : نعم من صميمها ، وبحبوحة(١) دارها ، قال فما تصنع العرب بطبيب مع جهلها وضعف عقولها ، وسوء أغذيتها ؟ قال : أيها الملك ، إذا كانت هذه صفتها كانت أحوج إلى من يصلح جهلها ، ويقيم عوجها ، ويسوس أبدانها ، ويعدل أمشاجها(٢) ؛ فإن العاقل يعرف ذلك من نفسه !

قال كسرى : فكيف تعرف ما توردها عليها ؟ ولو عرفت الحلم لم تنسب إلى الجهل !

فقال : أيها الملك ، العقل من قسم الله تعالى ، قسمه بين عباده كقسمة الرزق فيهم ، فكل من قسمته أصاب ، فمنهم مثر ومعدم ، وجاهل وعالم ، وعاجز وحازم ، وذلك تقدير العزيز العليم ! فأعجب كسرى من كلامه .

ثم قال : فما الذى تحمد من أخلاقها ، ويعجبك من مذاهبها وسجاياها ؟ قال الحرث : أيها الملك ، لها أنفس سخية ، وقلوب جرية ، ولغة فصيحة ، وألسن بليغة ، وأنساب صحيحة ، وأحساب شريفة ، يمرق(٣) من أفواههم الكلام مروق السهم من نبعة الرام(٤) ، أعذب من هواء الربيع ، وألين من سلسبيل المعين(٥) ؛ مطعمو الطعام فى الجدب ، وضاربو الهام فى الحرب ، لا يرام عزهم ، ولا يضام جارهم ، ولا يستباح حريمهم ، ولا يذل كريمهم ، ولا يقرون بفضل للأنام ، إلا للملك الهمام ، الذى لا يقاس به أحد ، ولا يوازيه سوقة(٦) ولا ملك !

---

(١) بحبوحة : صميم (٢) الأمشاج : الأخلاط .
(٣) يمرق : يخرج . (٤) الرام شجر
(٥) السلسبيل : اللين الذى لا خشونة فيه ، والمعين : الماء الجارى
(٦) السوقة : خلاف الملك .

فاستوى كسرى جالساً ، وسر لما سمع من محكم كلامه ؛ وقال لجلسائه : إنى وجدته راجحاً ، ولقومه مادحاً ، وبفضيلتهم ناطقاً ، وبما يورده من لفظه صادقاً ؛ وكذا العاقل من أحكمته التجارب ! ثم أمره بالجلوس فجلس ، فقال له : كيف بصرك بالطب ؟ قال : ناهيك !

قال : فما أصل الطب ؟ قال : ضبط الشفتين ، والرفق باليدين ، قال : أصبت ! فما الداء الدوى ؟ قال : إدخال الطعام على الطعام ، هو الذى يفنى البرية ، ويهلك السباع فى جوف البرية . قال : فما الجمرة التى تلهب منها الأدواء ؟ قال : هى التخمة ، إن بقيت فى الجوف قتلت ، وإن تحللت أسقمت قال : صدقت .

فما تقول فى الحجامة ؟ قال : فى نقصان الهلال ، فى يوم صحو لا غيم فيه ، والنفس طيبة ، والعروق ساكنة ، والسرور يفاجئك ، والهم يباعدك ، قال : فما تقول فى دخول الحمام ؟ قال : لا تدخله شبعان ، ولا تغشَ أهلك سكران ، ولا تقم بالليل عريان ، ولا تقعد على الطعام غضبان ، وارفق بنفسك ، يكن أرخى لبالك ، وقلل من طعامك ، يكن أهنأ لنومك .

قال : فما تقول فى الدواء ؟ قال : ما لزمتك الصحة فاجتنبه ، فإن هاج داء فاحسمه بما يردعه قبل استحكامه ؛ فإن البدن بمنزلة الأرض ؛ إن أصلحتها عمرت ، وإن تركتها خربت .

قال : فما تقول فى الشراب ؟ قال : أطيبه أهنأه ، وأرقه أمرأه ، وأعذبه أشهاه ، لا تشربه صرفاً فيورثك صداعاً ، ويثير عليك من الأدواء أنواعاً .

قال : فأى اللحمان أفضل ؟ قال : الضأن الفتى ؛ والقديد المالح مهلك للآكل واجتنب لحم الجزور والبقر .

قال . فما تقول فى الفواكه ؟ قال : كلها فى إقبالها وحين أوانها ، واتركها إذا أدبرت وولت وانقضى زمانها ؛ وأفضل الفواكه الرمان والأترج ، وأفضل

الرياحين الورد والبنفسج : وأفضل البقول الهندباء(١) والخس .

قال : فما تقول فى شرب الماء ؟ قال : هو حياة البدن ، وبه قوامه ، ينفع ماشرب منه بقدر الحاجة ، وشربه بعد النوم ضرر ، أفضله أمراه ، وأرقه أصفاه .

قال : فما طعمه ؟ قال : شيء لا يوصف ، قال فما لونه ؟ قال : اشتبه على الأبصار لونه ، لأنه يحكى لون كل شيء يكون فيه .

قال : فما النور الذى فى العينين ؟ قال : مركب من ثلاثة أشياء : فالبياض شحم ، والسواد ماء ، والناظر ريح .

قال : فعلى كم جبل وطبع البدن ؟ قال : على أربعة طباع : المرة السوداء وهى باردة يابسة ، والمرة الصفراء وهى حارة يابسة ، والدم وهو حار رطب ، والبلغم وهو بارد رطب ؛ قال : فلم لم يكن من طبع واحد ؟ قال : لو خلق من طبع واحد لم يأكل ولم يشرب ؛ ولم يمرض ولم يهلك ! قال : فمن طبيعتين ؟ لو كان اقتصر عليهما ! قال : لم يجز لأنهما ضدان يقتتلان ! قال : فمن ثلاث ؟ قال : لم يصلح موافقان ومخالف ! فالأربع هو الاعتدال .

قال فأجمل لى الحار والبارد فى أحرف جامعة ؟ قال : كل حلو حار ، وكل حامض بارد ، وكل حريف حار ، وكل مر معتدل ، وفى المر حار وبارد ، قال فأفضل ماعولج به المرة الصفراء ؟ قال : كل بارد لين ، قال : فالمرة السوداء ؟ قال كل حار لين ، قال فالبلغم ؟ قال : كل حار يابس ، قال فالدم ؟ قال : إخراجه إذا زاد ، وتطفئته إذا سخن بالأشياء الباردة اليابسة ، قال فالرياح ؟ قال بالحقن اللينة ، والأدهان الحارة اللينة ، قال أفتأمر بالحقنة ؟ قال : نعم قرأت فى بعض كتب الحكماء أن الحقنة تنقى الجوف ، وتكسح الأدواء عنه ، والعجب لمن

---

(١) بقلة نافعة للمعدة والكبد والطحال .

احتقن كيف يهرم أو يعدم الولد! وإن الجاهل من أكل ماقد عرف مضرته، ويؤثر شهوته على راحة بدنه.

قال: فما الحمية؟ قال: الاقتصاد فى كل شيء، فإن الأكل فوق المقدار يضع على الروح ساحتها، ويسد مسامها.

قال: فما تقول فى النساء (١).. وأيهن القلب اليها أميل، والعين برؤيتها أسر؟

قال: إذا أصبتها مديدة القامة، عظيمة الهامة (٢)، واسعة الجبين، قنواء العرنين (٣)، كحلاء (٤) لعساء (٥)، صافية الخد، عريضة الصدر، مليحة النحر (٦)، فى خدها رقة وفى شفتها لعس، مقرونة الحاجبين، ناهدة الثديين، لطيفة الخصر (٧) والقدمين، بيضاء، فرعاء (٨) جعدة (٩)، غضة بضة (١٠)، تخالها فى الظلمة بدراً زاهراً. تبسم عن أقحوان (١١)، وعن مبسم كالأرجوان (١٢)، كأنها بيضة مكنونة، ألين من الزبد، وأحلى من الشهد، وأنزه من الفردوس والخلد، وأزكى ريحاً من الياسمين والورد، تفرح بقربها، وتسرك الخلوة معها.

فاستضحك كسرى حتى اختلجت كتفاه! وقال: لله درك من أعرابى، لقد أعطيت علماً، وخصصت فطنة وفهماً! وأحسن صلته وأمر بتدوين مانطق به.

---

(١) عبارات نابية فى الأصل حذفت هنا (٢) الهامة: الرأس
(٣) قنواء: بينة القنا وهو ارتفاع أعلى الأنف واحديداب وسطه وسبوغ طرفه، والعرنين: الأنف كله أو ماصلب منه.
(٤) الكحلاء: التى كأنها مكحولة ولم تكحل (٥) لعساء: فى شفتها سواد
(٦) النحر. أعلى الصدر (٧) الخصر: وسط الإنسان
(٨) الفرعاء: التامة الشعر (٩) جعدة: غير سبطة الشعر
(١٠) بضة ناعمة (١١) الأقحوان: نبت من نبات الربيع، له نور أبيض، كأنه ثغر جارية حديثة السن (١٢) الأرجوان: صبغ أحمر.

٣ — الأنساب والأخبار(١) :

أما الأخبار فمصدرها عندهم قصص التوراة والإنجيل وأساطير الفرس والروم والأخبار المتوارثة عن آبائهم وأجـــدادهم وعن الأمم الأخرى المجاورة لهم .

وأما الأنساب فكانوا على جانب كبير من النبوغ فيها لأنهم كانوا شديدى العناية بحفظ أنسابهم لاعتزازهم بعنصرهم ودمهم .

وكان فى كل قبيلة نسابون يعرفون الكثير من أنساب العرب وقبائلهم وبطونهم ومفاخرهم وتاريخهم وأيامهم ووقائعهم .

ومن أشهر النسابين : « دَغفل » السدوسى وقد ضرب به المثل وأدرك زمن الرسول وعاش إلى زمن معاوية ، ومن أشهرهم أيضاً : ابن لسان الحمَّرة من بنى تيم اللات ابن ثعلبة ، ومن أشهرهم أيضا « زيد ابن الكيس النمرى » وسيدنا أبو بكر الصديق .

ويقول الجاحظ فى البيان والتبيين :

ومن رؤساء النسابين : دغفل بن حنظلة وزيد بن الكيس النمرى(٢) .

ويذكر أسماء بعض النسابين(٣) ، وفى مختصر العقد ذكر لأخبار عن أبى بكر الصديق ودغفل فى هذا الباب (٤) .

---

(١) أشهر النسابين :

ا ـ دغفل ، وابن الاشقر (الرافعى ـ الفهرست ـ أديان العرب ٢٢٦ ج ١ و٩٦ ج ٣ البيان والتبيين ـ الميدانى)

ب ـ ابن لسان الحمرة وهو من علماء زمانه من بنى تيم ومن أنسب العرب كان فى الكوفة أيام المغيرة بن شعبة (١٣٨ ج ١٤ الأغانى)

(٢) ٢١٠ ج ١ البيان والتبيين

(٣) ٢٠٨ و ٢٠٩ و ٢١٠ و ٢١١ ج ١ البيان

(٤) ٢٠١ ـ ٢٠٤ مختصر العقد

٤ — الفراسة والقيافة :

والفراسة هى الاستدلال بالأمور الظاهرة على الخفية كالاستدلال بشكل المرء ولونه وقوله على خلقه . وللعقل فيها نصيب كبير .

والقيافة قسمان : قيافة الأثر وهى الاهتداء إلى الهارب بآثار أقدامه ، وقيافة البشر وهى الاستدلال بهيئة الرجل وشكل أعضائه على نسبه .

اشتهر بنو لِهْب بالقيافة وكذلك بنو مُدلج ، كما اشتهروا أيضاً بالزجر وهو الاستدلال بصوت الحيوان وحركته على الحوادث ، وكانوا يتفاءلون بالطير الذى يمر من ميامن الإنسان ويتشاءمون بالطير الذى يمر من مياسره ويسمون الأول سانحاً والثانى بارحا ، ويقول النابغة :

زعم العواذلُ أن رحلتَنا غداً   وبذاك خبَّرنا الغرابُ الأسودُ

وفى بنى لهب يقول الشاعر :

خبيرٌ بنو لِهْبٍ فلاتكُ مُلغِياً   مقالةَ لِهْبِيٍّ إذا الطيرُ مرَّتِ

٥ — الكهانة والعرافة :

وهما الأخبارعن الأمور المغيبة ماضية كانت أو مستقبلة . وقيل الكهانة الإخبارعن الماضى والمستقبل والعرافة خاصة بالماضى . وكان فى العرب كهان ولهم فيهم اعتقاد . ومن أشهرهم(١) : سطيح الذئبى . وطريفة الخير ، ومن أشهر العرافين الأبلق الأسدى عراف نجد ، ورباح بن عجلة عراف اليمامة ويقول عروة بن حزام :

جعلتُ لعرَّافِ اليمامة حكمَهُ   وعرَّافِ نجدٍ إن هما شفيانى

وكان العرب يفزعون إلى كهانهم فى كل ما يطرأ عليهم من أمر أو

---

(١) راجع ص ٤٩ من هذا الكتاب . هذا والكهانة بالفتح والكسر ، والعرافة بالكسر فى الحرف الاول

يستعصى عليهم من مشكلات وأزمات وشدائد .

ومن الكهان المشهورين : طريفة(١) ، ويروى أنه كانت العمارة فى أرض سبأ أزيد من مسيرة شهرين للراكب المجد ، وكان أهلها يقتبسون النار بعضهم من بعض مسيرة أربعة أشهر ، ثم مزقوا كل ممزق .

وكان أول من خرج من اليمن فى أول الأمر عمرو بن عامر مزيقياء(٢) وكان سبب خروجه أنه كانت له زوجة كاهنة ، يقال لها طريفة الخير ، وكانت رأت فى منامها : أن سحابة غشيت أرضهم ، فأرعدت وأبرقت ، ثم صعقت(٣) فأحرقت كل ما وقعت عليه ، ففزعت طريفة لذلك فزعا شديداً وأتت الملك عمراً ، وهى تقول : ما رأيت كاليوم ، أزال عنى النوم ، رأيت غيما أرعد وأبرق ، وزمجر وأصعق ، فما وقع على شىء إلا أحرق . فلما رأى ما داخلها من الفزع سكنها .

ثم إن عمراً دخل حديقة له ، ومعه جاريتان من جواريه ، فبلغ ذلك طريفة ، فخرجت اليه ، وخرج معها وصيف (٤) لها اسمه سنان ؛ فلما برزت من بيتها عرض لها ثلاث مناجذ(٥) منتصبات على أرجلهن ، واضعات أيديهن على أعينهن ، فقعدت إلى الأرض واضعة يديها على عينيها ، وقالت لوصيفها : إذا ذهبت هذه المناجذ فأخبرنى . فلما ذهبت أخبرها ، فانطلقت مسرعة ، فلما عارضها الخليج الذى فى حديقة عمرو وثبت من الماء سلحفاة ،

---

(١) شرح مقامات الحريرى ص ٢٦٥ ج ١ ، بلوغ الأرب ص ٢٨٣ ج ٣ ، مجمع الأمثال ص ٢٥٢ ج ١ ، المسعودى ص ٣٤٤ ج ١ ، معجم البلدان (مأرب)

(٢) ملك اليمن ، ومزيقياء : لقبه ، فقد كان يلبس كل يوم حلتين ويمزقهما بالعشى ، يكره العود فيهما ، ويأنف أن يلبسهما غيره (٣) أصابت بصاعقة : وهى نار تسقط من السماء مع الرعد الشديد (٤) الوصيف : الخادم ، غلاما كان أو جارية (٥) هى دواب تشبه اليرابيع ، واليربوع : دويبة نحو الفأرة ، لكن ذنبه وأذنيه أطول منها ، ورجليه أطول من يديه .

فوقعت فى الطريق على ظهرها ، وجعلت تروم الانقلاب فـلا تستطيع ، وتستعين بذنبها فتحثو التراب على بطنها من جنباته ، وتقذف بالبول قذفا .

فلما رأتها طريفة جلست إلى الأرض ، فلما عادت السلحفاة إلى الماء مضت طريفة إلى أن دخلت على عمرو ، وذلك حين انتصف النهار فى ساعة شديد حرها فإذا الشجر يتكفأ (١) من غير ريح ، فلما رآها استحيا منها ، وأمر الجاريتين بالانصراف إلى ناحية ، ثم قال لها : هلمى يا طريفة ، فكهنت(٢) له ، وقالت : والنور والظلماء ، والأرض والسماء ، إن الشجر لهالك ، وليعودن الماء كما كان فى الزمن السالك .

قال عمرو : من أخبرك بهذا ؟ قالت : أخبرنى المناجد ، بسنين شدائد ، يقطع فيها الولد الوالد . قال : ما تقولين ؟ قالت : أقول قول الندمان لهفاً ، لقد رأيت سلحفا(٣) ، تجرف التراب جرفا ، وتقذف بالبول قذفا ، فدخلت الحديقة ، فإذا الشجر من غير ريح يتكفأ !

قال : ما ترين فى ذلك ؟ قالت : هى داهية دهياء(٤) من أمور جسيمة ، ومصائب عظيمة ! قال : وما هو ؟ ويلك ! قالت : أجل ! إن فيه الويل ! وما لك فيه من قيل(٥) ، وإن الويل فيما يجىء به السيل !

فألقى عمرو نفسه عن فراشه ، وقال : ما هذا يا طريفة ؟ قالت : خطب جليل وحزن طويل ، وخلف(٦) قليل ! قال : وما علامة ما تذكرين ؟ قالت : اذهب إلى السد ، فإذا رأيت جرذاً(٧) ، يكثر بيديه فى السد

---

(١) يميل (٢) كهن له : قضى له بالغيب (٣) السلحفاة (٤) داهية دهياء : شديدة (٥) قال قيلا : نام فى القائلة ، وهى نصف النهار ، والمراد الإقامة والمكث .

(٦) الخلف : ما استخلفته من شىء

(٧) ضرب من الفيران

الحفر ، ويقلب برجليه من أجل الصخر ، فاعلم أن غمر الغمر(١) . وأن قد وقع الأمر .

قال : وما الذى تذكرين أنه يقع ؟ قالت : وعد من الله تعالى نزا وباطل بطل ، ونكال بنا نكل ، فبغيرك ياعمرو يكون الثكل(٢) !

فانطلق عمرو فإذا الجرذ يقلب برجليه صخرة ما يقلبها خمسون رجلا ، فرجع إلى طريفة فأخبرها الخبر ، وهو يقول :

أبصرت أمراً عادنى منه ألم   وهاج لى من هوله برح(٣) السقم
من جرذ كفحل خنزير الأجم(٤)   أو كبش صرم(٥) من أفاريق(٦) الغنم
يسحب صخراً من جلاميد العرم   له مخاليب وأنياب قضم(٧)
ما فاته سحلا(٨) من الصخر قصم(٩)

فقالت طريفة : وإن علامة ذلك الذى ذكرته لك أن تجلس فتأمر بزجاجة فتوضع بين يديك فإن الريح تملؤها من تراب البطحاء من سهلة(١٠) الوادى ورمله ، وقد علمت أن الجنان مظللة لا يدخلها شمس ولا ريح .

فأمر عمرو بزجاجة فوضعت بين يديه ، ولم تمكث إلا قليلا ، حتى امتلأت من التراب ، فأخبرها بذلك ، وقال لها : متى يكون ذلك الخراب الذى يحدث فى السد ؟ قالت : فيما بينى وبينك سبع سنين ! قال : ففى أيها يكون ؟ قالت : لا يعلم بذلك إلا الله تعالى ، ولو علمه أحد لعلمته ، وإنه

---

(١) الغمر : الماء الكثير
(٢) الثكل : كسبب وقفل : الموت والهلاك   (٣) البرح : الشدة
(٤) الأجم : جمع أجمة ، وهى الشجر الكثير الملتف   (٥) الصرم : الجماعة
(٦) الأفاريق : الفرق تجمع على فرق وجمعت فى الشعر على أفارق وجمع الجمع أفراق وجمعه أفاريق   (٧) قضم قضما : أكل بأطراف أسنانه   (٨) سحله : قشره ونحته   (٩) قصم : كسر   (١٠) السهلة : تراب كالرمل يجىء به الماء .

لا تأتى على ليلة فيما بينى وبين سبع السنين إلا ظننت هلاكه فى غــدها أو فى مسائها !

ثم رأى عمرو فى منامه سيل العرم(١) ، وقيـل له : إن آية ذلك أن ترى الحصباء قد ظهرت فى سعف النخل ؛ فنظر اليها فوجد الحصباء قد ظهرت فيها ، فعلم أنه واقع . وأن بلادهم ستخرب .

فـكتم ذلك ، وأجمع على بيع كل شىء له بأرض مأرب وأن يخرج منها هو وولده ؛ ثم خشى أن تنـكر الناس عليه ذلك ، فأمر أحد أولاده إذا دعاه لما يدعوه اليه أن يتأبى عليه(٢) ، وأن يفعل ذلك به فى الملأ من الناس ؛ وإذا لطمه يرفع هو يده ، ويلطمه .

ثم صنع عمرو طعاماً ، وبعث إلى أهل مأرب : إن عمراً قد صنع طعاما يوم مجد وذكر ، فاحضروا طعامه !

فلما جلس الناس للطعام جلس عنده ابنه الذى أمره بما قد أمره ، فجعل يأمره فيتأبى عليه ؛ فرفع عمرو يده فلطمه ، فلطمه ابنه فصاح عمرو : واذلاه يوم فخر عمرو ويهيجه صبى ويضرب وجهه ! وحلف ليقتلنه ، فلم يزالوا به حتى تركه ، وقال : والله لا أقيم بموضع صنع هذا بى فيه ! ولأبيعن أموالى ، حتى لا يرث بعدى منها شيئاً ! .

فقال الناس بعضهم لبعض : اغتنموا غضبة عمرو ، واشتروا منه أمواله قبل أن يرضى ؛ فابتاع الناس منه كل ماله بأرض مأرب ، وفشا بعض حديثه فيما بلغه من شأن سيل العرم ، فقام ناس من الأزد فباعوا أموالهم ؛ فلما أكثروا البيع استنكر الناس ذلك فأمسكوا عن الشراء ! فلما اجتمعت إلى عمرو أمواله أخبر الناس بشأن السيل وخرج فخرج لخروجه منها بشر كثير .

---

(١) العرم : السيل الذى لا يطاق ، وقيل هو المطر الشديد ، وقيل هو اسم واد
(٢) تأبى عليه : امتنع .

٦ — ومن معارفهم الخط والكتابة وسنتحدث عنهما بتفصيل .
وكان الشعر ديوانهم ومظهر معرفتهم وأهم ثقافة لهم .

٧ — وفوق ذلك فقد كان العرب يعرفون بعض الصناعات كالغزل وصناعة الرماح وكانت تصنع في الخط بالبحرين . أما السيوف فكانوا يجلبونها من العراق والابلة وكانوا يسمون الأبلة الهند ولذلك يقولون سيوف هندية ، إلى غير ذلك من صناعاتهم الصغيرة . واشتهرت اليمن والحيرة ومشارف الشام بألوان كثيرة من الصناعات .

الخط العربي (١) في الجاهلية

١ — كان العرب أميين لا يقرأون ولا يكتبون ، كان ذلك هو الغالب عليهم والذائع فيهم والمشهور عنهم . ذلك أن الكتابة أثر من آثار الحضارة والعرب كانوا لا يزالون يعيشون على الفطرة والبداوة كما كانوا من قديم الأزمان والعصور .

٢ — وأول الخطوط المعروفة وأقدمها هو « الخط المصري » القديم ، وهو مبدأ سلسلة الخط العربي . وقد استمد الفينيقيون منه « خطهم الفينيقي » والفينيقيون هم سكان ساحل الشام ، وكانوا يترددون على مصر للتجارة وغيرها كما خضعوا لحكم الفراعنة قديماً ، وعن الخط الفينيقي أخذت أمم كثيرة أصول خطوطها كالآراميين (سكان فلسطين والشام والعراق) وكالحميريين (سكان اليمن) .

---

(١) راجع ١٩٦ وما بعدها من تاريخ اللغات السامية ط القاهرة ١٩٢٩ - ص ٥٨ وما بعدها ج ١ من تاريخ آداب اللغة العربية لمحمد بك دياب - وكتاب الخط الخط لعرفان بك - ٤٣٠ ج ٢ صبح الأعشى و ج ٣ ص ٥ من صبح الاعشى أيضا - و ٢١٤ - ٢٢٢ ج ٢ المزهر للسيوطي طبع صبيح

فسكان اليمن من معينيين ثم سبئيين ثم حميريين قد أخـذوا خطهم عن الفينيقيين وأدخلوا عليـه شيئاً من التنقيح والتحوير فسمى بالخط المسنـد أو الحميرى .

وهذا محل اتفاق بين المؤرخين من العرب والمستشرقين وبعد ذلك يختلف الفريقان اختلافا كثيراً :

ا — فؤرخو العرب :

يرون أن النبط (١) أخذوا خطهم من الخط الحميرى (المسند) مستدلين على ذلك بالآثار التى عثر عليها فى بلادهم وعليها خطوط حميرية ، ويشرح ذلك أن النبط كانوا متصلين باليمن تجارياً وكانت اليمن على جانب كبير من الحضارة .

وعن النبط وعن كندة التى ترجع إلى أصل حميرى أخذ أهل الحيرة والأنبار خطهم المعروف بالخط الحيرى وعنه أخذ الحجازيون خطهم وهو الخط العربى وعن الخط الحجازى أو العربى أخذ الخط الـكوفى مع شىء من التحسين .

فسلسلة الخطوط المعروفة على هذا الرأى هكذا :

الخط المصرى — الفنيقى — الأرامى والحميرى — النبطى وهو مأخوذ من الخط الحميرى ـ الحيرى ـ الحجازى فالـكوفى . وعلى هذا الرأى يسير

---

(١) عنصر سامى ظهر فى شبه جزيرة طور سينا وامتد إلى صحراء سوريا حتى شملت دولتهم دمشق وتوغلوا فى بلاد الحجاز نحو عام ٨٠ ق م ثم استولى الرومان على بلادهم عام ١٠٦ ب م (راجع ١٣٤ تاريخ اللغات السامية ط ١٩٢٩)

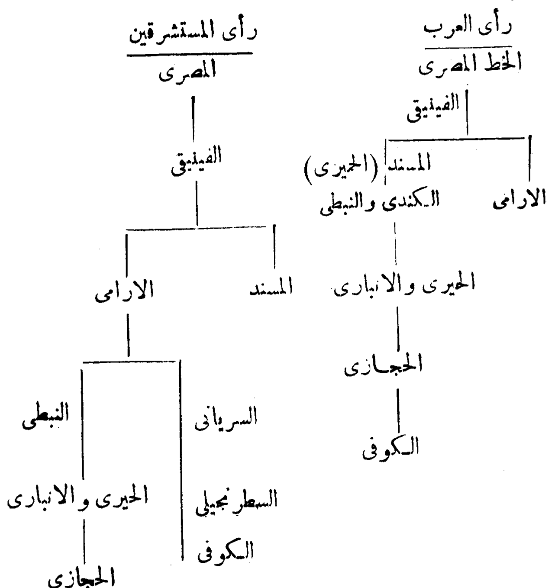
ويرى المستشرقون أن النبط ليسوا آرميين خالصين وهناك ميل عند طائفة من المستشرقين إلى أن النبط من سلالة العرب وكانوا يستعملون الـكتابة الارامية فى النقوش وسائر الشئون العمرانية

الأستاذ محمد هاشم عطية فى كتابه تاريخ الأدب الجاهلى (١)

ب — والمستشرقون :

يرون أن النبط اخذوا خطهم من الخط الأرامى لقرب بلادهم بعضها من بعض، والخط الكوفى فى رأيهم متولد من نوع من الخط السريانى يسمى السطرنجيلى قبل الإسلام . وسلسلة الخطوط على هذا الرأى هكذا :

المصرى — الفنيق — المسند والأرامى ـ النبطى وهو مأخوذ من الأرامى ـ الحيرى ـ الحجازى وعلى هذا الرى يسير الزيات فى كتابه تاريخ الأدب العربى (٢) .



(١) مقتبسا ذلك عن تاريخ الادب احفنى ناصف (٤٢ ط ١٩٣٦ محمدهاشم)
(٢) ص ٧٦ ط ١٩٣٥

٣ - وجاء الإسلام وليس أحد يكتب بالعربية غير بضعة عشر رجلا(١) وفى غزوة بدر جعل الرسول فداء الأسير تعليم عشرة من صبيان المدينة وشجع الرسول ﷺ الكتاب واتخذ كتابا له، وكان زيد بن ثابت يعرف الفارسية والحبشية والقبطية والرومية (٢). وكان عدد كتابه ثلاثة وأربعين كاتباً

وكان العرب يكتبون فى الرق والعظام والاحجار حتى انتشر بينهم الورق عام (٣) ١٢٠ ه والظاهر أن انتقال الخط الحيرى إلى الحجاز كان على يد التجار من الحيرة .

ويروى أن الذى نقل الخط الحيرى إلى الحجاز هو حرب بن أمية وأنه كان قد صادق فى رحلاته التجارية بشر بن عبد الملك أخا أكيدر صاحب دومة الجندل واستصحبه إلى مكة وزوجه بنته الصهباء فأقام بشر بمكة مدة علم فيها نفرا من أهلها الكتابة منهم حرب وقيل إن الذى علمه هو عبد الله بن جدعان وقيل غير ذلك . ويقول بعض الشعراء : من دومة الجندل من كندة يمن على قريش بذلك :

ولا تجحدوا نعماء بشر ، عليكم	فقد كان ميمون النقيبة أزهرا
أتاكم بخط الجزم (٤) حتى حفظتم	من المال ماقد كان شتى مبعثراً

---

(١) ص ٤ : ٣ العقد

(٢) (راجع ص ٦ ج ٣ العقد الفريد ط ١٩٣٥) . وفى العقد يروى أن ثلاث نفر من طيء اجتمعوا ببقعة وهم : مرامر بن مرة . واسلم بن سدرة . وعامر بن جدرة ، فوضعوا الخط وقاسوا هجاء العربية على هجاء السريانية فنقله قوم من الانبار (٢ ج ٣ العقد) وذلك رأى جد خطير

(٣) أسس أمير سمرقند العربى مصنعا للورق فى سمرقند اشرف عليه بعض الاسرى الصينيين وذلك سنه ٧٥١ م . وفى سنة ٧٩٣ م استقدم الرشيد بعض صناع سمرقند إلى بغداد فاسسوا مصنعا آخر للورق. وانتقلت الصناعة إلى دمشق التى صارت تورد إلى العالم الغربى الورق

(٤) سمى بالجزم لانه مقتطع من الخط الحيرى

فأجريتم الأقلام عوداً وبدأة　　وضاهيتموكتاب كسرى وقيصرا

وخط الجزم هو الخط الذى تفرع من الخط المسند الحميرى(١) أو قل هو الخط الحيرى ؛ وبشر هو بشر بن عبد الملك الذى ذكرنا قصته فيما سبق آنفا .

(١) سمي بالجزم لأنه مقتطع من الخط الحيرى

أيام العرب[1] وأثرها فى الأدب

— ١ —

١ ـ كانت العرب تعيش قبائل وشعوبا متنافرة متخاصمة ، تعتز كل قبيلة بشرفها وكرامتها وعصبيتها . وتحاول أن تقيم على مواقع الغيث ومنابت الكلأ ولو اغتصبته بالرماح والسيوف من قبيلة أخرى ، وكانوا يقدسون الحرية ويعيشون فى ظلال الفوضى . وكما يقول حافظ :

ولذيذ الحياة ما كان فوضى   ليس فيه مسيطر أو أمير

وأسباب الحرب عند العرب كثيرة : ترجع إلى التنازع حول الرياسة ، وعلى أماكن المياه والعشب ، أو إلى الاعتزاز بالعصبية والانتصار لها . أو إلى المحافظة على الشرف والكرامة والذود عنهما . أو إلى الأخذ بالثأر وحماية الجار ومساعدة الحليف أو إلى الدفاع عن الملك والتعصب لذى سلطان أو إلى التنازع فى مفاخرة من المفاخرات أو منافرة من المنافرات . أو إلى الفقر الذائع الذى يدفع إلى النهب والعدوان .

ونفس العربى وما فطرت عليه من شجاعة وإباء وشمم وفروسية كانت تجعل الحرب قريبة منه مألوفة لديه بل محبوبة عنده فى كثير من الأحيان . وكانوا يغيرون على أعدائهم فإن لم يجدوا لهم أعداء أغاروا على الأقرباء :

---

(١) راجع فى ذلك كتب التاريخ العامة وراجع العقد الفريد (٣٠٣ - ٣٧٨: ٣ ط ١٩٢٨ م) والجزء الأول والثانى من تاريخ ابن الاثير ، وأمثال الميدانى والجزء الاول والثانى من تاريخ الطبرى ، والاغانى . وبلوغ الارب وتاريخ آداب اللغة العربية لجورجى زيدان . ومعجم البلدان فى الكلام على أسماء البلدان . والنقائض وقصة الادب الحجاز فى العصر الجاهلى

أغرن (١) من الضباب على حلال وضبة إنه من حان حانا
وأحيانا عــلى بكر أخينا إذا مالم نجــد إلا أخانا

وأيام العرب كثيرة جدا (٢)، منها ما كان بين العرب والفرس كيوم ذى قار. ومنها ما كان بين النزاريين واليمنيين كيوم خزازى (٣) وما كان بين اليمنيين بعضهم مع بعض كبعاث بين الخزرج والأوس. وما كان بين النزاريين ربيعة ومضر. ومنها ما كان بين الربعيين بعضهم مع بعض كحرب البسوس بين بكر وتغلب، وما كان بين المضريين كحرب داحس والغبراء بين عبس وذبيان.

٣ ـ وهذه الأيام كانت أكبر ميدان تتسابق فيه العقول والبلاغات والملكات.

فشعراء القبائل المختلفة طالما نظموا الشعر للتمدح بشجاعة الأبطال وظفرهم فى الحرب. ووصفوا المعارك المختلفة وأحوالها. والقتال وأدواته وأسلحته. والأسرى وذلهم. ورثوا القتلى.

كما كانوا ينظمونه طلبا للأخذ بالثأر: أو دعوة إلى السلام ومدحا لدعاة السلم والعاملين على إنهاء الحرب كما فعل زهير، مع ما اتصل بذلك من صلح ووئام ومغارم ومحامل فى الديات.

---

(١) الضمير يعود إلى الافراص المذكورة فى بيت سابق، والابيات للقطامى، وهى فى الحماسة ١٣٥ ـ ١: الضباب عدة قبائل متناصية وحسل. الحلول: الذين يكونون فى مكان واحد

(٢) ويروى أن أبا الفرج الاصفهانى صاحب الاغانى ألف كتابا فى أيام العرب يشمل ألفا وسبعمائة يوم. وأن أبا عبيدة ألف فيها كتابا صغيرا حوى خمسة وسبعين يوما، وآخر كبيرا جمع فيه ألفا ومائة يوم. وقد ألف جماعة من الأدباء المعاصرين كتابا فى أيام العرب

(٣) هو اسم جبل ما بين البصرة إلى مكة

فليس بعجيب إذا أن نقول إن شعر الحماسة وهو أغلب فنون الشعر عند العرب فى جاهليتهم وكذلك جزء كبير من شعر الرثاء والفخر والمدح كان أثراً لهذه الأيام التى اشتعلت فيها الحروب وتصاولت الأبطال من شتى القبائل فى الجاهلية . كما يشغل ذلك جزءاً كبيراً من النثر الجاهلى أيضاً ، كما تجد فى خطبة هانىء بن قبيصة فى قومه يحرضهم على الحرب يوم ذى قار (١) وسواها .

وعناية العرب بأنسابهم وبخيولهم وأسلحتهم وبأنواع الحيوان المشهورة بالبطش والقوة كالأسد والذئب ، كل ذلك من آثار شعورهم بالحاجة إليها حين الخصام والنضال وفى المعارك والحروب .

— ٢ —

وبعد فسنتحدث عن أهم هذه الأيام وأكثرها أثراً فى اللغة والأدب والشعر مما يكون قد اشتمل على خطبة بليغة أو قصيدة رائعـــة أو حكمة سائرة أو شعر قيل فى أثناء النضال والخصام :

١ — حرب داحس والغبراء (٢)

وكان السبب الذى هاجها أن قيس بن زهير وحمل بن بدر ، تراهنا على فرسيهما : « داحس » و « والغبراء » أيهما يكون له السبق . وكان داحس لقيس وكانت الغبراء لحمل بن بدر وجعلا الرهان مائة بعير وجعلا منتهى

---

(١) ١٦٩ : ١ الامالى

(٢) راجع ٣٨ : ٢ الميدانى . و ٢٠ ج ١٦ الاغانى . والجزء الثالث من خزانة الادب . ومعجم البلدان . والنقائض . والجزء الثانى من العقد . ٤٥٣ : ١ أمالى المرتضى ، والجزء الاول من ابن الاثير . والروض الانف . وتاريخ ابن كثير — وقد كانت حرب داحس والغبراء بين عبس وذبيان من مضر

الغاية مائة غلوة (١) .

ثم قادوهما إلى رأس الميدان بعد أن أضمروهما أربعين ليلة وفي طرف الغاية شعاب كثيرة فأكمن حمل بن بدر في تلك الشعاب فتيانا على طريق الفرسين وأمرهم إن جاء داحس سابقا أن يردوا وجهه عن الغاية فأرسلاهما فلما جريا سبقت الغبراء فقال حمل بن بدر : سبقتك ياقيس ، فلما أوغلا في الجرد (٢) وخرجا إلى الوعث (٣) برز داحس عن الغبراء . فقال قيس « جرى المذكيات غلاء (٤) » ، فذهبت مثلا ، فلما شارف داحس الغاية ودنا من الفتية وثبوا في وجه داحس فردوه عن الغاية ففي ذلك يقول قيس بن زهير :

كما لاقيت من حمل بن بدر　　وإخوته على ذات الأصاد

هموا فخروا على بغير فخر　　وردوا دون غايته جوادى

وثارت الحرب بين عبس وذبيان ابني بغيض أربعين سنة لم تنتج لهم ناقة ولا فرس لاشتغالهم بالحرب . بعث حذيفة بن بدر ابنه مالكا إلى قيس بن زهير يطلب منه حق السبق ، فقال قيس : كلا . لا مطلتك به ، ثم أخذ الرمح فطعنه به فوق صلبه ، ورجعت فرسه عائرة فاجتمع الناس فاحتملوا دية مالك مائة عشراء ، وزعموا أن الربيع بن زياد حملها وحده فقبضها حذيفة وسكن الناس ، ثم أن مالك بن زهير أخا قيس نزل اللقاطة من أرض الشربة فأخبر حذيفة بمكانه فعدا عليه فقتله . ففي ذلك يقول عنترة الفوارس :

فلله عينا من رأى مثل مالك　　عقيرة قوم إن جرى فرسان

فليتهما لم يجريا قيد غلوة　　وليتهما لم يرسلا لرهان

فقال بنو عبس : مالك بن زهير بمالك بن حذيفة وردوا علينا مالنا ،

---

(١) توازى أربعمائة ذراع
(٢) الفضاء لانبات به　　(٣) الطريق تغرق فيه الاقدام
(٤) ويرى غلاب　والمذكية من الخيل المسنة

فأبى حذيفة أن يرد شيئاً . وكان الربيع بن زياد القيسى عم قيس مجاورا لبنى فزارة ولم يكن فى العرب مثله ومثل إخوته وكان يقال لهم الكملة .

وكان بينه وبين قيس بن زهير بغضاء وخصام ، فلما قتل مالك بن زهير قامت بنو فزارة يسألون ويقولون : ما فعل حماركم قالوا صدناه ، فقال الربيع : ما هذا الوحى ؟ قالوا : قتلنا مالك بن زهير ، قال : بئس ما فعلتم بقومكم ، قبلتم الدية ثم رضيتم بها وغدرتم ، قالوا : لولا أنك جارنا لقتلناك وكانت خفرة الجار ثلاثا ، فقالوا له : بعد ثلاث ليال اخرج عنا ، فخرج واتبعوه فلم يلحقوه حتى لحق بقومه ، وأتاه قيس بن زهير فعاقده وفى ذلك يقول الربيع :

فإن تك حربكم أمست عواناً ... فإنى لم أكن ممن جناها
ولكن ولد سودة أرثوها ... وحشوا نارها لمن اصطلاها
فإنى غير خاذلكم ولكن ... سأسعى الآن إذ بلغت مداها

ورثى الربيع مالك بن زهير فقال :

من كان مسرورا بمقتل مالك ... فليأت نسوتنا بوجه نهار

ثم نهضت بنو عبس وحلفاؤهم بنو عبد الله بن غطفان إلى بنى فزارة وذبيان ورئيسهم الربيع بن زياد ورئيس بنى فزارة حذيفة بن بدر واستمرت الحرب بين الفريقين وظلت أربعين سنة . ومن أشهر أيامها :

يوم المريقب : لعبس على ذبيان ، وفيه قتل عنترة ضمضما المرى فتوعده وقال فى ذلك عنترة من معلقته :

ولقد خشيت بأن أموت ولم تدر ... للحرب دائرة على ابنى ضمضم
الشاتمى عرضى ولم أشتمهما ... والناذرين إذا لقيتهما دمى
إن يفعلا فلقد تركت أباهما ... جزر السباع وكل نسر قشعم

ويوم ذى حسا : وهو لذبيان على عبس

ويوم الهباءة: لعبس على ذبيان ، وقتل فيه حمل بن بدر وأخوه حذيفة ولما اشتد الكرب بحمل قال : ناشدتك الله والرحم يا قيس ، فقال : لبيكم لبيكم ، فعرف حذيفة أنه لن يدعهم ، فانتهر حملا وقال : « إياك والمأثور من الكلام، فذهبت مثلا ، وقال لقيس : لئن قتلتنى لا تصلح غطفان بعدها فقال قيس : أبعدها الله ولا أصلحها ؛ ولما قتلا قال قيس يرثى حمل ابن بدر :

تعلم ان خير الناس ميت ... على جفر الهباءة ما يريم
ولولا ظلمه ما زلت أبكى ... عليه الدهر ما طلع النجوم
ولكن الفتى حمل بن بدر ... بغى والبغى مرتعه وخيم
أظنّ الحلم دل على قومى ؟ ... وقد يستضعف الرجل الحليم
ومارست الرجال ومارسونى ... فمعوج على ومستقيم

ومثلوا بحذيفة .

فلما أصيب أهل الهباءة واستعظمت غطفان قتل حذيفة تجمعوا ، وعرفت بنو عبس أن ليس لهم مقام بأرض غطفان . فخرجوا إلى اليمامة ، فنزلوا بإخوانهم بنى حنيفة ، ثم رحلوا عنهم فنزلوا ببنى سعد بن زيد مناة .

وقال قيس أيضاً يرثى حذيفة وأخاه :

شفيت النفس من حمل بن بدر ... وسيفى من حذيفة قد شفانى
فإن أك قد بردت بهم غليلى ... فلم أقطع بهم إلا بنانى

يوم الفروق : ولما امتد لهيب الحرب وطال أمدها ، سعى الحارث بن عوف وهرم بن سنان المريان فى الصلح وتحملا ديات القتلى ، وفى ذلك قال زهير معلقته .

أمن أم أوفى دمنة لم تكلم ... بحومانة الدراج فالمتثلم

ومنها :

لعمري لنعم السيدان وجدتما على كل حال من سحيل ومبرم
تداركتما عبساً وذبيان بعدما تفانوا ودقوا بينهم عطر منشم(١)

(١) ويروى أن الحارث بن عوف قال لصديق له : أترانى أخطب إلى أحد فيردنى قال، نعم قال ومن ذلك قال : أوس بن حارثة بن لأم الطائى فقال الحارث لغلامه ارحل بنا ففعل فركبا حتى أتيا أوس بن حارثة فى بلاده فوجداه فى منزله فلما رأى الحارث بن عوف قال مرحباً بك ياحارث وقاك ربك ماجاء بك ياحارث قال جئتك خاطبا قال لست هناك فانصرف ولم يكلمه . ودخل أوس على امرأته مغضباً وكانت من عبس فقالت: من رجل وقف عليك فلم تطل ولم تكلمه قال ذاك سيد العرب الحارث بن عوف بن أبى حارثة المرى قالت فمالك لاتستنزله قال : إنه استحمق قالت وكيف ؟ قال جاءنى خاطبا قالت أفتريد أن تزوج بناتك قال نعم ، قالت فاذالم تزوج سيد العرب فمن ؟ قال قد كان ذلك قالت فتدارك ما كان منك قال فماذا ؟ قالت تلحقه فترده قال وكيف وقد فرط منى ما فرط اليه قالت تقول له إنك لقيتنى مغضباً بأمرلم تقدم منى فيه قولا فلم يكن عندى فيه من الجواب إلاما سمعت فانصرف ولك عندى كل ما أحببت فانه سيفعل فركب فى أثرهما . قال خارجة بن سنان والظاهر إنه غلام الحارث) : فوالله إنى لأسير إذ حانت منى التفاتة فرأيته وأقبلت على الحارث يكلمنى غما فقلت له : هذا أوس بن حارثة فى أثرنا . قال وما نصنع به امض فلما رآنا لانقف عليه صاح : ياحارث ، اربع على ساعة فوقفنا له فكلمه بذلك الكلام فرجع مسروراً فبلغنى ان أوسا لما دخل منزله قال لزوجته ادعى لى فلانة لأكبر بناته فأتته ، فقال يابنية هذا الحارث بن عوف سيد من سادات العرب قد جاءنى طالبا خاطبا وقد أردت أن أزوجك منه فما تقولين ؟ قالت : لاتفعل ، قال : ولم ؟ قالت : لأنى امرأة فى وجهى ردة وفى خلق بعض العهدة ولست بابنة عمه فيرعى رحمى وليس بجارك فى البلد فيستحى منك ولا آمن أن يرى منى مايكره فيطلقنى فيكون على فى ذلك مافيه ، قال : قومى بارك الله فيك وادعى لى فلانة لابنته الوسطى فدعتها ثم قال لها مثل ماقال لأختها ، فأجابته بمثل جوابها وقالت إنى خرقاء وليست بيدى صناعة ولا آمن أن يرى منى ما يكره فيطلقنى فيكون على فى ذلك ما تعلم وليس بابن عمى فيرعى حقى ولاجارك فى بلدك فيستحييك ، قال قومى بارك الله فيك ادعى لى بهية يعنى الصغرى فأتى بها فقال لها

. . . .

كما قال لها فقالت أنت وذاك فقال لها إنى قد عرضت ذلك على أختيك فابتاه ولم يذكر لها مقالتهما فقالت : لكنى والله الجميلة وجها الصناع يدا الرفيعة خلقا الحسيبة أباً فان طلقنى فلا أخلف الله عليه بخير فقال بارك الله عليك . ثم خرج الينا فقال قد زوجتك ياحارث بهية بنت أوس قال قد قبلت فأمر أمها أن تهيئها وتصلح من شأنها ثم أمر ببيت فضرب له وأنزله إياه فلما هيئت بعث بها اليه فلما أدخلت اليه لبث هنيهة ثم خرج فقلت أفرغت من شأنك؟ قال لا والله قلت وكيف ذلك ؟ قال لما مددت يدى اليها قالت مه أعند أبى واخوتى هذا والله مالا يكون قال فأمر بالرحلة فارتحلنا بها معنا فسرنا ماشاء الله ثم قال لى تقدم فتقدمت وعدل بها عن الطريق فما لبث أن لحق بى فقلت أفرغت قال لا والله . قلت ولم ؟ قال: قالت لى أكما يفعل بالأمة الجلبية أو السبية الاخيذة ؟ لا والله حتى تنحر الجزر وتذبح الغنم وتدعو العرب وتعمل مايعمل لمثلى قلت والله إنى لأرى همة وعقلا وأرجو أن تكون المرأة منجبة إن شاء الله فرحلنا حتى جئنا بلادنا فاحضر الإبل والغنم ثم دخل عليها وخرج إلى فقلت أفرغت قال لا والله قالت لى لقد ذكرت لى من الشرف مالا أراه فيك قلت وكيف قالت أتفرغ لنكاح النساء والعرب يقتل بعضها بعضا وذلك فى أيام حرب عبس وذبيان قلت فيكون ماذا قالت اخرج إلى هؤلاء القوم فاصلح بينهم ثم ارجع إلى أهلك فلن يفوتك فقلت والله إنى لأرى همة وعقلا ولقد قالت قولا . قال فاخرج بنا فخرجنا حتى أتينا القوم فمشينا فيما بينهم بالصلح فاصطلحوا على أن يحتسبوا القتلى فيؤخذ الفضل ممن هو عليه فحملنا عنهم الديات فكانت ثلاثة آلاف بعير فى ثلاث سنين فانصرفنا بأجمل الذكر ، قال محمد بن عبد العزيز : فمدح بذلك وقال فيه زهير ابن أبى سلمى (راجع ٢٩٤ : ١٠ الأغانى ، ٢٢٢ : ٢ المستطرف) :

آمن أم أوفى دمنة لم تكلم

ومنها :

تداركتما عبساً وذبيان بعدما تفانوا ودقوا بينهم عطر منشم
فأصبح يجرى فيهم من تلادكم مغانم شتى من إفال مزنم
ينجمها قوم لقوم غرامة ولم يهريقوا بينهم ملء محجم

٢ — حرب البسوس بين بكر وتغلب من ربيعة

١ — مجد كليب (١) :

لم تجتمع معد كلها إلا على ثلاثة رهط من رؤساء العرب ، وهم : عامر وربيعة ، وكليب ، فالأول عامر بن الظرب ، والثانى ربيعة بن الحارث ، والثالث كليب بن ربيعة ، وقاد معدا كلها يوم خزازى ففض جموع اليمن وهزمهم . فاجتمعت عليه معد كلها ، وجعلوا له قسم الملك وتاجه ونجيبته ، وأطاعته معد بذلك حينا من دهره ، ثم دخله زهو شديد ، وبغى على قومه لما هو فيه من عزة وانقياد معد له ، حتى بلغ من بغيه أنه كان يحمى مواقع السحاب فلا يرعى حماه ، ويجير على الدهر فلا تخفر ذمته ، ويقول : وحش أرض كذا فى جوارى فلا يهاج ، ولا تورد إبل أحد مع إبله ، ولا توقد نار مع ناره ، حتى قالت العرب : أعز من كليب وائل . وكانت بنو جشم وبنو شيبان فى دار واحدة بتهامة ، وكان كليب قد تزوج بنت مرة بن ذهل بن شيبان ، وأخوها جساس . وكانت البسوس بنت منقذ التميمية خالة جساس ، وكانت نازلة فى بنى شيبان مجاورة لجساس ، وكان لها ناقة يقال لها سراب ، ولها تقول العرب أشأم من سراب وأشأم من البسوس فمرت إبل لكليب بسراب ناقة البسوس وهى معقولة ، فلما رأت سراب الإبل نازعت عقالها حتى قطعته وتبعت الإبل ، واختلطت بها ، حتى أتت إلى كليب وهو على

وذكر قيامهم فى ذلك فقال :

صحا القلب عن سلمى وقد كاد لا يسلو

وفى قصيدة يقول فيها :

تداركتما الأحلاف قد ثل عرشها ... وذبيان قد ذلت بأقدامها النعل

وهذا لهم شرف إلى الآن . ورجع فدخل بها فولدت له بنين وبنات

(١) اسمه وائل ، وكليب لقبه (٤٤٠ - ٤٩٤ م)

الحوض معه قريش وكنانة ، فلما رآها أنكرها فشد عليها بسهم فخزم ضرعها ، فنفرت الناقة وهى ترغو ، فلما رأتها البسوس قذفت خمارها عن رأسها وصاحت : واذلاه واجاراه .

٢ — مقتل كليب :

فأحمست جساسا ، فركب فرساً له مغروراً به ، وأخذ آلته . وتبعه عمرو ابن الحرث بن ذهل على فرسه ومعه رمحه ، حتى دخلا الحى على كليب وقال له : يا أبا الماجدة . عمدت إلى ناقة جارتى فعقرتها ، فقال له : ما مانعى من أن أذب عن حماى ؟ فأحمسه الغضب ، فطعنه جساس فقصم صلبه ، وطعنه عمرو بن الحارث من خلفه فقطع بطنه ، فوقع كليب وهو يفحص برجله ، وقال لجساس : أغثنى بشربة ماء فقال : تجاوزت شبيثا والأحص ، وأجهز عليه . وفى ذلك يقول الشاعر :

المستجير بعمرو عند كربته   كالمستجير من الرمضاء بالنار

فلما قتل كليب ارتحلت بنو شيبان حتى نزلت بماء يقال له النهى ، وتشمر المهلهل أخو كليب واسمه عدى بن ربيعة ، واستعد لحرب بكر ، وترك النساء والغزل وحرم القمار والشراب على نفسه ، وجمع إليه قومه فأرسل رجلا منهم إلى بنى شيبان يعذر إليهم فيما وقع من الأمر . فأتوا مرة بن ذهل وهو فى نادى قومه ، فقالوا له : إنكم أتيتم عظيما بقتلكم كليباً بناب من الإبل ، فقطعتم الرحم ، وانتهكتم الحرمة ، وإنا كرهنا العجلة عليكم دون الإعذار اليكم ، ونحن نعرض عليكم خلالا أربع . لكم منها مخرج ، ولنا فيها مقنع ، فقال مرة : وما هى ؟ قال : تحيي لنا كليباً ، أوتدفع إلينا جساسا قاتله فنقتله به ، أو هماما فإنه كفء له ؟ أو تمكننا من نفسك فان فيك وفاء من دمه .

فقال : أما إحيائى كليباً فهذا ما لا يكون ، وأما جساس فإنه غلام طعن طعنة على عجل ثم ركب فرسه فلا أدرى أى البلاد احتوت عليه ، وأما

همام فانه أبو عشرة وأخو عشرة وعم عشرة وكلهم فرسان قومهم فلن يسلموه لى فأدفعه اليكم يقتل بجريرة غيره . وأما أنا فهل هو إلا أن تجول الخيل جولة غداً فأكون أول قتيل فيها فما أتعجل من الموت ؟ ولكن لكم عندى خصلتان : أما إحداهما فهؤلاء بنى الباقون فعلقوا فى عنق أيهم شئتم نسعة فانطلقوا به إلى رحالكم فاذبحوه ذبح الجزور ، وإلا فألف ناقة سوداء المقل أقيم لكم بها كفيلا من بنى وائل فغضب القوم وقالوا : لقد أسأت ، تبذل لنا ولدك وتسومنا اللبن من دم كليب .

٣ ـ اشتعال الحرب :

ووقعت الحرب بينهم ، ولحقت جليلة زوجة كليب بأبيها وقومها واعتزلت قبائل بكر بن وائل وكرهوا معاونة بنى شيبان ومساعدتهم على قتال إخوتهم وأعظموا قتل جساس كليبا بناب من الإبل ، وانقبض الحارث بن عباد فى أهله ، وهو أبو بجير وفارس النعامة ، وقال المهلهل يرثى كليباً :

بت ليلى بالأنعمين طويلا أرقبُ النجم ساهراً أن يزولا
كيف أهدا ولا يزالُ قتيلٌ من بنى وائل ينسِّى قتيلا

إلى أن قال :

قتلوا ربهم كليبا سفاها ثم قالوا : ما إن نخاف عويلا
كذبوا والحرام والحلِّ حتى يُسلبَ الخدرُ بيضتَهُ المحجولا
ويموت الجنين فى عاطف الرحْم وترْوى رماحنا والخيولا

وقال أيضا يرثيه :

كليب لاخير فى الدنيا ومن فيها إذْ أنت خليتها فيمن يخليها ؟
نعى النعاة كليباً لى فقلت لهم مالت بنا الأرض أو زالت رواسيها
الحزم والعزم كانا من طبيعته ما كل آلائه يا قوم احصيها
القائد الخيل تردى فى أعنتها زهواً إذا الخيل لجت فى تعاديها

من خيل تغلب ما تلقى أسنتها إلا وقد خضبوها من أعاديها
ليت السماء على من تحتها وقعت وانشقت الأرض وانجابت بمن فيها
لا أصلح الله منا من يصالحكم ما لاحت الشمس فى أعلى مجاريها

٤ — يوم النهى (لتغلب على بكر) :

وأول وقعة بينهم كانت على ماء يقال له النهى كانت بنو شيبان نازلة عليه ، ورئيس تغلب المهلهل ، ورئيس شيبان الحارث بن مرة ، فكانت الدائرة لبنى تغلب وكانت الشوكة فى شيبان ، واستمر القتل فيهم إلا أنه لم يقتل فى ذلك اليوم أحد من بنى مرة ـ وكان هذا اليوم لتغلب على بكر .

٥ — يوم عنيزة :

ثم التقوا بعنيزة فظفرت بنو تغلب . ثم كانت بينهم معارك ووقائع كثيرة وكانت الدائرة لبنى تغلب على بنى بكر فيها كلها . وقال مهلهل يصف هذه الأيام وينعى على بكر فى قصيدة طويلة أولها :

أليلتَنا بذى حُسَمٍ أنيرى إذا أنتِ انقضيتِ فلا تحورِى
وإن يكُ بالذَّنائبِ طال ليلى فقد أبكى من الليل القصير

وفيها يقول :

فلو نبش المقابر عن كليب لأخبر بالذنائب أى زير
كأنا غُدْوةً وبنى أبينا بجنب عُنيْزةٍ رَحيا مُديرَ
وإنى قد تركت بواردات بُجيراً فى دم مثل العبير
هتكتُ به بيوت بنى عباد وبعض القتل أشفى للصدور
على أن ليس عدلا من كليب إذا برزتْ مُخبَّآت الخدور
ولولا الريح أسمع من بحُجْرٍ صليلَ البيضِ تُقرعُ بالذكور

وقال مهلهل لما أسرف فى الدماء :

أكثرتُ قتلَ بنى بكر بربِّهم حتى بكيت وما يبكى لهم أحد

آليتُ بالله لا أرضى بقتلهم حتى أُبَهرِجَ بكرا أينما وجدوا

قال أبو حاتم : ابهرج : ادعهم بهرجا ، لا يقتل فيهم قتيل ، ولا يؤخذ لهم دية ، وقال : البهرج من الدراهم من هذا . وقال المهلهل :

يالَ بكرٍ أنشِرُوا لى كليباً يالَ بكرٍ أين أين الفرار ؟

وقال :

قتلوا كليباً ثم قالوا اربعوا كذبوا ورب الحل والإحرام
حتى تبيد قبيلةٌ وقبيلةٌ ويعَضَّ كل مثقَّف بالهام
وتقوم رباتُ الخدور حواسراً يمسحن عرض ذوائب الأيتام
حتى يعضَّ الشيخُ بعد حميمه مما يرى ندما على الإبهام

٦ — يوم قضة :

ثم إن مهلهلا أسرف فى القتل ولم يبال بأى قبيلة من قبائل بكر ، وكان أكثر بكر قعد عن نصرة بنى شيبان لقتلهم كليب بن وائل ، فكان الحارث ابن عباد اعتزل تلك الحروب حتى قتل ابنه بجير ، فلما بلغ الحارث قتله قال : نعم القتيل قتيلا أصلح بين ابنى وائل ، وظن أن المهلهل قد أدرك به ثأر كليب وجعله كفؤا له فقيل له إنما قتله بشسع نعل كليب ، وذلك أن المهلهل لما قتل بجيراً قال : « بؤ بشسع نعل كليب » ، فغضب الحارث بن عباد ، وكان له فرس يقال لها النعامة . فركبها ، وتولى أمر بكر ، فقتل من تغلب حتى هرب المهلهل ، وتفرقت قبائل تغلب ، فقال فى ذلك الحرث بن عباد :

قرِّبا مَرْبطَ النَّعامةِ منى لَقِحَتْ حربُ وائل عن حِيال
لم أكن من جناتها علم اللهُ وإنى بحرِّها اليوم صالى
قرِّبا مربطَ النعامة منى إنَّ قتل الكريم بالشِّسْعِ غالى

وكان اليوم الذى شهده الحارث بن عباد يوم قضة وهو يوم تحلاق اللمم (١)

---

(٢) سمى بذلك لان بنى بكر حلقوا فيه جميعا رؤسهم وكان لبكر على تغلب .

وفيه يقول طرفة :

سـائلوا عنا الذى يعرفنا بقوانا يوم تحلاق اللمم

وفيه أسر الحارث بن عباد المهلهل وهو لا يعرفه ، فقال الحارث له : دلنى على عدى (اسم المهلهل) وأخلى عنك فقال له عدى : عليك العهود بذلك إن دللتك عليه ، قال نعم ، قال فأنا عدى . فجزّ ناصيته وتركه .

ثم إن المهلهل فارق قومه ونزل فى بنى مذحج فخطبوا إليه ابنته فمنعهم ، فأجبروه على تزوجها وساقوا إليه فى صداقها جلوداً من أدم ، فقال فى ذلك :

أعزز على تغلب بما لقيت أخت بنى الأكرمين من جُشَم

وعاش مهلهل باليمن(١) حيناً . ثم ملت تغلب الحرب فاصطلحت هى وبكر على ترك القتال ولم يحضر المهلهل صلحهم ، ثم اشتاق إلى دياره فعاد إليها ومات بعد قليل .

٧ — وكانت جليلة بنت مرة أخت جساس زوجا لكليب(٢) بن ربيعة ، فلما قتل جساس(٣) كليباً اجتمع نساء الحى للمأتم ، فقلن لأخت كليب : رحلى جليلة عن مأتمك ؛ فإن قيامها فيه شماتة وعار علينا عند العرب ؛

---

(١) راجع أخذ المهلهل بثأر أخيه كليب وقصيدته (أليلتنا بذى حسم أنيرى) فى الامالى ٢ : ١٢٩ .

(٢) كان كليب بن ربيعة سيد ربيعة ، ينزلهم ويرحلهم ، ولا يصدرون فى شىء إلا عن أمره ، ولا يجير أحد من بكر وربيعة إلا باذنه ، وكان يحمى الصيد وحياض الماء . وضرب به المثل فقالوا : أعز من كليب .

(٣) كان لجساس خالة من بنى سعد جاورت بنى مرة ، فنزلت على جساس ابن أختها ، ومعها ناقة فندت الناقة يوما ، فدخلت فى إبل كليب ترعى فى حماه ، فنظر إليها فأنكرها ورماها بسهم فى ضرعها ، فولت حتى بركت بفناء صاحبتها وضرعها يشخب دما ، فصاحت : واذلاه : فقتل جساس كليبا لذلك ، وقتل جساس نحو سنة ٨٥ ق . هـ

فقالت لها : يا هذه اخرجى عن مأتمنا ، فأنت أخت واترنا ، وشقيقة قاتلنا . فخرجت وهى تجر أعطافها ، فلقيها أبوها مرة ، فقال لها : ماوراءك ياجليلة ؟ فقالت : ثكل العدد ، وحزن الأبد ، وفقد حليل ، وقتل أخ عن قليل وبين ذين غرس الأحقاد ، وتفتت الأكباد . فقال لها : أو يكف ذلك كرم الصفح وإغلاء الديات ؟ فقالت جليلة : أمنية مخدوع ورب الكعبة ! أبالبدن(١) تدع لك تغلب دم ربها !

ثم بلغ جليلة أن أخت كليب قالت حين رحلت : رحلة المعتدى وفراق الشامت ، ويل غداً لآل مرة من الكرة بعد الكرة ! فقالت . وكيف تشمت الحرة بهتك سترها ، وترقب وترها ! أسعدالله جد أختى . أفلاقالت : نفرة الحياء ، وخوف الاعتداء ! ثم أنشأت تقول :

يا ابنـة الأقوام إن شئت فلا   تعجلى باللوم حتى تسـألى
فـإذا أنت تبينت الذى   يوجب اللوم فلومى واعذلى
إن تـكن أخت امرىء ليمت على   شفق منها عليه فافعـلى
جل عندى فعل جساس فيا   حسرتى عما انجلت أو تنجلى
فعل جساس على وجدى به   قاطـع ظهرى ومـدن أجلى
تحمل العـين قذى العـين كما   تحمـل الأم أذى ما تفتلى(٢)
يا قتيـلا قوض الدهر به   سقف بيـتى جميـعاً من عل
هـدم البيت الذى استحدثتـه   وانثنى فى هـدم بيتى الأول
يا نسائى دونـكن اليوم قـد   خصنى الدهر برزء معضـل
خصنى قتل كـليب بلظى   من ورائى ولظى مستقبـل
ليس من يبـكى ليومـين كمن   إنما يبـكى ليـوم ينجـلى
يشتـفى المـدرك بالثـأر وفى   دركى ثأرى ثـكل المثـكل(٣)

---

(١) البدن : جمع بدنه تـكون من الإبل والبقر .

(٢) تفتلى : تربى   (٣) المثـكل : التى لازمها الحزن

ليته كان دمى فاحتلبوا بدلا منه دماً من أكحلى(١)
إنني قاتلة مقتولة ولعل الله أن يرتاح لى(٢)

٣ — يوم بعاث(٣)

وبعاث اسم موضع فى ديار بنى قريظة من اليهود ، وكان بنو النضير وبنو قريظة يساعدون الأوس على الخزرج وذلك حينما قتل عمرو بن النعمان رهائن اليهود التى كانت عند الخزرج .

والتقت الأوس وحلفاؤها من اليهود بالخزرج فى بعاث ، وعلى رأس الأوس حضير الكتائب ، وعلى رأس الخزرج عمرو بن النعمان ؛ فهزمت الخزرج ، ومات حضير بسبب جراح أصابته ، وفى رثائه يقول خفاف ابن ندبة :

فياعينْ بكِّى حُضَيْرَ الندى حُضَيْرَ الكتائب والمجلس

٤ — يوم حليمة (٤)

كثرت الحروب بين ملوك الحيرة وملوك غسان تبعاً للخصومات السياسية التى كانت بين الفرس والروم .

ومنها يوم حليمة ، وحليمة هى بنت الحرث بن أبى شمر الغسانى وكانت

---

(١) الاكحل : عرق فى الذراع يفصد

(٢) راجع ٦٣ : ٥ الاغانى ، ٢١٤ : ٥ نهاية الارب ، ٢١٦ : ١ ابن الاثير .

(٣) وهو بين الاوس والخزرج ـ وكان قبل الهجرة بنحو خمس سنوات .

(٤) كان بين المناذرة والغسانيين

من أجمل النساء ، أمرها أبوها أن تطيب فرسان الغسانيين الذين أرسلهم ليفتكوا بالمنذر بن المنذر بن ماء السماء ، وكان لتحميس حليمة لهم أثره فى حماستهم وقتلهم للمنذر ملك الحيرة فى مدينته اغتيالا ، فنسب هذا اليوم إلى حليمة . وقيل سمى هذا اليوم يوم حليمة لأنه كان فى مكان اسمه « مرج حليمة » ، ويضرب المثل بهذا اليوم . قالوا : « ما يوم حليمة بسر » . وقال النابغة يصف سيوفا :

تخيرن من أزمان يوم حليمة   إلى اليوم قد جربن كل التجارب

٥ — يوم الزُّوَيْرَيْن(١)

سببه اعتداء بكر على أرض تميم وعيثهم ببلادهم وهتكهم لعوراتهم فتحمس بنو تميم ، والتقوا ببنى بكر ، وكان على بكر عمرو الأصم سيدها وكانت تميم قد أقبلت بجملين مقرونين مقيدين وقالت : لا نبرح حتى يبرح هذان الزويران .

ودارت الدائرة على بنى تميم ، وأخذت بكر الزويرين ، وفى ذلك يقول شاعرهم :

يا سلم إن تسألى عنا فلا كشف   عند اللقاء ولسنا بالمقاريف (٢)
نحن الذين هزمنا يوم صبحنا   جيش الزويرين فى جمع الأحاليف
ظلوا وظلنا نكر الخيل وسطهم   بالشيب منا وبالمرد الغطاريف

٦ — يوم شعب جبلةَ (٣)

وهو أعظم أيام العرب وأكثرها جميعاً ، كان قبل الإسلام بنحو سبع وخمسين سنة .

(١) كان بين ربيعة ومضر
(٢) مقاريف جمع مقرف وهو : من أمه عربية وأبوه غير عربى والكشف جمع أكشف وهو : من ينهزم فى الحرب .
(٣) كان لعامر وعبس على ذبيان وتميم

ألب لقيط بن زرارة الكلبي جموع العرب على بنى عامر وبنى عبس ، وكان فى جيشه : أبا الجون الكلبي ملك هجر ، وحسان أخو النعمان بن المنذر لأمه ، وسنان بن أبى حارثة ، وسواهم من سادة العرب .

وكان الأحوص بن جعفر سيد هوازن وشيخها وبطلها ، فأظمأ إبلا لقومه ومنعها المرعى وحبسها فى الشعب . فلما اقتحم لقيط ومن معه عليهم فم الشعب أطلق الإبل من عقالها فانطلقت ثائرة إلى الماء والمرعى تحطم كل شىء أمامها ، فهزم لقيط وأحلافه ، وقتل فى هذا اليوم ، وأسر أخوه حاجب بن زرارة كما قتل معاوية بن الجون الكلبي ، ورثت بنت لقيط دختنوس ـ أباها :

فرت بنو أسد فرا ر الطير عن أربابها
عن خير خندف كلها من كهلها وشبابها
وأتمهـا حسبا إذا ضمت إلى أحسابها

ويقول جرير :

ويوم الشعب قد تركوا لقيطاً كأن عليه حلة أرجوان

٧ — يوم خزَازَى (١)

ولى ابرهة الحبشى زهير بن جناب الكلبي على العدنانيين فامتنعوا عن دفع الأتاوات له . ووقع بعض العدنانيين أسرى عنده ، فذهب وفد من وجوه معد إليه ليطلق سراحهم ، فأطلقهم ولكنه احتجز بعض أعضاء الوفد ، فثارت معد ، وقادهم كليب وسار بهم إلى خزازى وهو جبل بين البصرة ومكة فأوقد عليه النار ، واقبلت مذحج إلى خزازى ، فاقتتل الفريقان قتالا شديداً هزمت فيه مذحج وفى ذلك يقول عمرو بن كلثوم :

ونحن غداة أوقد فى خزاز رفدنا فوق رفد الرافدينا

---

(١) كان بين نزار واليمن

وكنا الأيمنين إذا التقينا وكان الأيسرين بنو أبينا
فصالوا صولة فيمن يليهم وصلنا صولة فيمن يلينا
فآبوا بالنهاب وبالسبايا وأبنا بالملوك مصفدينا

٨ – أيام الفجار (١)

وهى أربعة أيام ، وكانت قريش ومعها بكر على هوازن فى هذه الأيام

وأهم هذه الأيام هو الفجار الرابع والذى أشعل الحرب فيه أن البراض الكنانى قتل عروة الرحال الذى أجار لطيمة النعمان بن المنذر ، وكان عروة سيداً شجاعا شريفاً ، والبراض خليعاً ماجناً ، فثارت الحرب .

وكان البراض بن قيس الكنانى رجلا فاتكا خليعاً (٢) ، يجنى الجنايات على أهله . فخلعه قومه ، وتبرءوا من صنيعه ، ففارقهم ، وقدم مكة ، فحالف حرب بن أمية ، ثم نبا به المقام بمكة أيضاً . ففارق أرض الحجاز إلى أرض العراق ، وقدم على النعمان بن المنذر الملك . وكان النعمان يبعث كل عام بلطيمة (٣) للتجارة إلى عكاظ (٤) تباع له كل عام هناك ـ فقال يوماً ، وعنده البراض وعروة بن عتبة بن جعفر المعروف بالرحال (٥) : ومن يجيز لى لطيمتى هذه حتى يبلغها عكاظ ؟ فقال البراض : أبيت اللعن ! أنا أجيزها على كنانة ، فقال النعمان : إنما أريد من يجيزها على كنانة وقيس ، فقال عروة : أكلب خليع يجيزها ! أبيت اللعن ؟ أنا أجيزها على أهل الشيح والقيصوم (٦) من أهل تهامة وأهل نجد ! فقال البراض ـ فى غضب ـ

---

(١) الاغانى ج ١٩ ، والجزء الثانى من العقد ، واديان العرب ومعجم البلدان

(٢) كان يضرب المثل بفتكه ، فيقال : « أفتك من البراض » .

(٣) اللطيمة : العير التى تحمل الطيب وبز التجار (٤) عكاظ موضع كان بين نخلة والطائف (٥) لقب بالرحال لكثرة رحلته إلى الملوك (٦) الشيح والقيصوم : نباتان مما يطلع فى السهل .

وعلى كنانة (١) تجيزها يا عروة ؟ قال : وعلى الناس كلهم !

فدفع النعمان اللطيمة إلى عروة الرحال ، وأمره بالمسير بها ، وخرج البراض يتبع أثره ، وعروة يرى مكانه ولا يخشى منه ، حتى إذا كان عروة بين ظهرانى قومه أدركه البراض بن قيس ، فأخرج قداحه يستقسم(٢) بها فى قتل عروة ، فمر به عروة فقال ما تصنع يا براض ؟ فقال : استقسم فى قتلك ، أيؤذن لى أم لا ؟ فقال عروة : همتك أضعف من ذلك ، فوثب إليه البراض بالسيف فقتله .

فلما رآه الذين يقومون على العير والأحمال قتيلا انهزموا ، فاستاق البراض العير ، وسار على وجهه إلى خيبر ، وتبعه رجلان ليأخذاه : أحدهما غنوى والآخر غطفانى ، وسارا حتى لقيهما البراض بخيبر ، فقال لهما : من الرجلان ؟ قالا من قيس قدمنا لنقتل البراض ، فأنزلهما وعقل راحلتيهما ، ثم قال : أيكما أجرأ عليه وأجود سيفاً ؟ قال الغطفانى : أنا ، فأخذه ومشى معه ليدله ـ بزعمه ـ على البراض ، ثم قال للغنوى : احفظ راحلتيكما ففعل .

وانطلق البراض بالغطفانى حتى أخرجه إلى خربة (٣) فى جانب خيبر ، وقال له : هو فى هذه الخربة يأوى إليها ، فأمهلنى حتى أنظر أهو فيها ؟ فوقف ، ودخل البراض ، ثم خرج فقال : هو فيها وهو نائم ، فأرنى سيفك حتى أنظر إليه أضارب هو أم لا ، فأعطاه سيفه ، فضربه به حتى قتله ، ثم

---

(١) كنانة هم قوم البراض .

(٢) الاستقسام : كانوا إذا أراد أحدهم سفراً أو تزويجاً أونحو ذلك من المهام ضرب بالقداح وكان على بعضها مكتوب : أمرنى ربى ، وعلى بعضها الآخر : نهانى ربى ، والباقى غفل ، فان خرج أمرنى ربى مضى لشأنه ، وأن خرج نهانى ربى ، أمسك ، وأن خرج الغفل أجالها ، وضرب بها أخرى إلى أن يخرج الامر أو النهى .

(٣) الخربة : موضع الخراب

أخفى السيف وعاد إلى الغنوى ، فقال له : لم أر رجلا أجبن من صاحبك ، تركته فى البيت الذى فيه البراض وهو نائم فلم يقدم عليه ! فقال : انظر لى من يحفظ الراحلتين حتى أمضى إليه فأقتله ، فقال : دعهما وهما على ، ثم انطلقا إلى الخربة ،فقتله وسار بالعير إلى مكة ! (١)

وسميت حرب الفجار ، لأنها حدثت فى الأشهر الحرام : ذى القعدة والحجة ومحرم ورجب ، التى كان القتال فيها محرما.

وقد حضر النبى صلى الله عليه وسلم هذه الحرب واشترك فيها مع قومه وسنه أربع عشرة سنة ، وكان ينبل على أعمامه .

٩ — يوم ذى قار (٢)

كان عدى بن زيد العبادى أستاذاً للنعمان بن المنذر ، ثم التحق عدى بخدمة أنو شروان ، فمات المنذر (٣) فأشار على كسرى بتولية النعمان على الحيرة مكان أبيه ، ثم وشى خصوم عدى به إلى النعمان فأرسل إليه يطلب أن يزوره فى الحيرة فقدم عدى عليه فأمر بحبسه . وفى ذلك يقول عدى يستعطفه بشعره :

أبلغ النعمان عنى مألكا أنه قد طال حبسى وانتظارى

لو بغير الماء حلقى شرق كنت كالغصان بالماء اعتصارى

فأمر بإطلاقه ثم خاف منه فقتله ، واحتل زيد مكان أبيه عدى فى خدمة

---

(١) راجع ١٠١ : ١ المضاف والمنسوب ،٢٣ : ٢ مجمع الامثال ، ٣١٠ : ١ ابن الاثير

(٢) راجع ٣:٢٧٤ العقد الفريد ط ١٩٢٨ - وكان هذا اليوم بين العرب والفرس (٣) راجع خبر المنذر بن ماء السماء وقتله نديميه وجعله لنفسه فى كل سنة يوم بؤس ويوم نعيم وقتله عبيد بن الأبرص يوم بؤسه (١٩٥ النوادر ملحق الأمالى) .

كسرى ، ثم أخذ زيد يحرض كسرى على النعمان فاستدعاه من الحيرة فلجأ إلى هانىء بن قبيصة مستجيراً به ووضع عنده أمواله وسلاحه وبنته حرقة ، وذهب إلى كسرى فحبسه حتى مات فى السجن ، وولى مكانه على الحيرة إياس ابن قبيصة الطائى ، وأمره أن يأخذ أمانات النعمان من هانىء ، فطلبها منه فرفض ، فثار كسرى وانتظر على بنى شيبان حتى أنزلهم الحر بذى قار وأرسل إليهم جيشاً كثيفاً يحاربهم به ، ولكن بنى شيبان وأحلافها من العرب صمدوا لجيش الفرس وهزموه هزيمة منكرة . وانتصر العرب انتصاراً مؤزراً .

وفى هذا اليوم خطب هانىء خطبته المشهورة [1] : يامعشر بكر ، هالك معذور خير من ناج فرور الخ » . وكان هذا اليوم فى مبعث الرسول صلوات الله عليه ، وقال فيه : « إن هذا أول يوم انتصف فيه العرب من العجم وبى نصروا » .

وقد افتخر الشعراء بهذا النصر العظيم ، قال الأعشى :

لو أن كل معد كان شاركنا ... فى يوم ذى قار ماأخطاهم الشرف

وقال العديل العجلى :

ما أوقد الناس من نار لمكرمة ... إلا اصطلينا وكنا موقدى النار

وما يعدون من يوم سمعت به ... للناس أفضل من يوم بذى قار

وقال أبو تمام :

وأنتم بذى قار أمالت سيوفكم ... عروش الذين استرهنوا قوس حاجب

---

(1) ١٦٩ : ١ الأمالى

اللغة العربيـــة (١)

أصل اللغة العربية :

ا — هى إحدى اللغات السامية المشهورة الباقية إلى يومنا هذا ، وهى لغة الجنس العربى الذى تحدثنا عنه وعن موطنه وحياته العامـة وصفاته وأخلاقه فى العصر الجاهلى .

واللغات السامية هى - حسب ترتيبها ترتيباً زمنياً مطابقا لانتشار آدابها - كما يأتى :

١ — اللغة البابلية والآشورية (من ٣٠٠٠ إلى ٥٠٠ ق م)

٢ — « العبرية ظهرت من ١٥٠٠ ق م) واستمرت إلى يومنا هـذا

٣ — « السبئية أو الحميرية أو العربية الجنوبية (٢) وجدت منها نقوش يرجع تاريخها إلى القرن الثانى بعد ميلاد المسيح وقد تلاشى السبئيون نهائيا من صفحات التاريخ حينما أخذ العدنانيون فى الظهور والقوة

---

(١) راجع الكلام على أصلها وخصائصها وعوامل نموها فى : الخصائص - المزهر - الصاحبى - كتب فقه اللغة - الادب العربى الرافعى

وراجع نشأة اللغة فى: ٤٣٣ : ٤ شرح نهج البلاغة ، و ٨٠ : ٣ بلوغ الأرب، والميسر والقداح لابن قتيبة ، وكتاب الأدب الرافعى .

(٢) راجع الكلام عليها فى ٢٢٧ وما بعدها من كتاب تاريخ اللغات السامية لاسرائيل ولفنسون ط ١٩٢٩ القاهرة . ويرجع ولفنسون معلوماتنا عن اليمن ولغاتها إلى : القرآن وكتب السيرة وكتاب الاكليل للهمدانى ، وبعض مصادر عبرية يهودية ، ومصادر تاريخية يونانية ورومانية لهيرودوت وسترابو والرومانى وسواهما ، ونقوش وكتابات جمعها الرواد الأوربيون خلال القرن التاسع عشر

٤ – اللغة الآرمية وهى كاللغة الحميرية (نقوش وجدت منها منذ سنة ٨٠٠ ق م)

٥ – اللغة الفنيقية وترجع النقوش التى عثر عليها منها إلى القرن السابع قبل المسيح .

٦ – اللغة الحبشية (٣٥٠ ق م حتى يومنا هذا)

٧ – اللغة العربية العدنانية (١) ، وهى لغة الشعر والنثر الجاهليين ولغة القرآن الكريم . وهى من أحدث اللغات السامية عهدا وأقربها ظهورا ، وكل ما ألف ودون عنها وما روى من آثارها فهو ليس بعيداً عن البعثة المحمدية بأكثر من مائة عام تقريبا .

والعدنانية هى أقرب لغات الساميين إلى اللغة السامية القديمة (٢) لأن الجنس العربى عاش فى عزلة تامة بعيداً عن العالم ولم يختلط بغيره اختلاطا كاختلاط الأجناس الأخرى بسواها ولم تخضعهم أمم أخرى لحكمهم (٣) فلم تتأثر لغتهم تأثراً كبيراً بغيرهم .

ب – وتمتاز اللغات السامية عن أنواع اللغات الأخرى(٤) بميزات

---

(١) راجع تاريخ الأدب العربى للمستشرق الانجليزى رينولد نيكلسون . و ص ١٠٧ الشهاب الراصد للطفى جمعه ط ١٩٢٦ .

(٢) راجع ٧ : ٢ من كتاب تاريخ اللغات السامية طبع القاهرة ١٩٢٩ .

(٣) وقد يكون السبب فى قرب اللغه العربيةمن الأصل الأول للغات السامية أنها كانت موجودة فى مهد اللغات السامية أو فى ناحية قريبة منه أو أن العناصر التى نزحت إلى بلاد العرب كانت من أقدم الأمم السامية .

(٤) اللغات الأخرى تشمل مجموعتين : اللغات اليافثية أو الآرية ، واللغات الحامية :

أما الآرية فقد انتشرت فى الهند وسارت منها إلى الافغان وفارس ثم الى أوربا . وهى قسمان :

وخصائص (١) منها :

ا) كثرة عدد حروفها

ب) أغلب الكلمات فيها يرجع فى اشتقاقه إلى أصل ثلاثى الحروف وهذا الأصل هو الفعل ، والرأى الذى يذهب إليه بعض علماء العربية من أن أصل الاشتقاق هو المصدر مخالف لأصل الاشتقاق فى باقى اللغات السامية ولعله تسرب إلى اللغة العربيـة من العلماء الفرس الذين بحثوا فى اللغة العربية بعقليتهم الآرية إذ الأصل فى الاشتقاق عند الآريين هو المصدر الاسمي .

جـ) ليس فى اللغات السامية أثر لإدغام كلمة فى أخرى حتى تصـير الكلمتان كلمة واحدة تدل على معنى مركب من معنى كلمتين مستقلتين كما هى الحال فى غير اللغات السامية .

د) اقتصارها فى الكتابة على الحروف دون حركاتها .

هـ) كثرة اشتقاق صيغ متعددة من المادة الواحدة

و) اشتراكها فى كثير من الكلمات مع اختلاف قليل أحيانا ويظهر ذلك من التشابه بين العربية والعبرية ، فبعض الكلمات بالسين فى العربية وهى بالشين فى العبرية ، والألف فى العربية واو فى العبرية ، فسلام فى العربية هى شلوم فى العبرية . وكذلك الثاء فى العربية شين فى العبرية كثور وشور ؛ وما كان فى العربية بالضاد فهو فى العبرية بالصاد كأرض وأرص وهكذا .

ا ـ الآرية الشمالية وهى لغات أوربا القديمة والحديثة .

ب ـ الآرية الجنوبية وهى السنسكريتية (الهندية القديمة) وفروعها : الهندية الحالية والفارسية والأرمنية والافغانية .

وأما الحامية فقد انتشرت شمالى افريقية وتشمل الزنجية والبربرية (لغة سكان المغرب) والمصرية القديمة (قبل فتح الهكسوس لمصر)

وأما اللغات السامية فقد انتشرت غربى آسيا .

(١) راجع ص ١٤ وما بعدها من كتاب تاريخ اللغات السامية ط ١٩٢٩

وهذا الاشتراك دليل على أن اللغات السامية من أصل واحد(١) .

وأوجه الشبه بين أغلب اللغات السامية تظهر فى بعض أسماء الأشياء التى كانت معروفة لهم جميعاً كأسماء أعضاء الجسم وكالضمائر فانها متقاربة فيها جميعاً .

جـ — وتنقسم اللغة العربية بوجه عام — لا اللغة العدنانية خاصة — إلى لهجتين :

ا ـ لهجات القبائل العدنانية شمالى الجزيرة .

ب ـ لهجات القبائل القحطانية جنوب الجزيرة وتسمى اللغة الحميرية(٢) وهى أقدم من لغة الشمال ، وقد عثر فى اليمن على نقوش مكتوبة بهذه اللغة ولها حروف تخالف الحروف العربية المعروفة كما أن لها صيغاً فى التنوين وجمع المذكر السالم وجمع التكسير وأداة التعريف وغيرها تخالف لغة أهل الحجاز وكذلك فى حروف الكلمات فهمزة أفعل فى بعض الكلمات الحميرية هاء .

---

(١) يختلف الباحثون فى ذلك : فالبعض يذهب إلى أن اللغات السامية تفرعت من أصل واحد مجهول ، والبعض يذهب إلى أن إحداهن أصل لأخواتها ، فقيل البابلية هى الأصل ، وقيل العربية ، والراجح ان اللغات السامية تفرعت من أصل واحد مجهول ، وأيد ذلك جورجى زيدان فى كتابه تاريخ آداب اللغة العربية .

واللغات السامية من الوجهة الجغرافية تنقسم إلى ثلاث مناطق :

ا ـ شرقية وتشمل البابلية والاشورية .

ب ـ غربية وتشمل الكنعانية والعبرية والآرمية .

جـ ـ جنوبية وفيها اللهجات العربية فى جميع بلدان الجزيرة العربية واللهجات الحبشية .

(٢) وتشمل اللغة المعينية واللغة السبئية واللغة الحميرية ولغة قتبان وحضرموت وفى تاريخ اللغات السامية لو لفنسون حديث طويل عنها (٢٢٧ - ٢٥٢ ط القاهرة ١٩٢٩)

أما لغة الشمال أو لغة الحجاز أو اللغة العدنانية فهى أحدث من لغة الجنوب ، وما روى إلينا من شعر جاهلى فهو بها، لأن الشعراء الذين نظموا هذا الشعر: إما من ربيعة أومضر وهما فرعان عدنانيان : وإما من قبائل يمنية رحلت إلى الشمال كطى وكندة وتنوخ .

واللغة العدنانية هى التى يعنينا البحث عنها ، وهى التى ينصرف اليها الحديث عند إطلاقنا لفظ « اللغة العربية » .

نشأتها :

١ — اللغة العربية الباقية — التى هى العدنانية — هى مزيج من لهجات مختلفة اختلطت بعضها ببعض وصارت لغة واحدة بعد أن فنى أصحاب اللهجات الأولى وبادوا بالحروب والمهاجرة والامتزاج بغيرهم(١) .

على أن امتزاج هذه اللهجات وتدخل بعضها فى بعض لم يتم مرة واحدة أو فى زمن واحد بل حدث شيئاً فشيئاً وسار تدريجيا أزمنة طويلة أثناء الجاهلية إلى ما قبل الإسلام بقليل وهكذا كانت لغة الشمال اللغة العدنانية ذات سلطان قوى ونفوذ واسع فى العصور القريبة من ظهور الإسلام فابتلعت اللهجات الجنوبية والتهمتها الواحدة منها تلو الأخرى ، وسادت هى فى أغلب أقاليم الجزيرة العربية ، وكونت لنفسها أدباً جديدا وشعرا فنيا .

وأخذت اللهجات فى بلاد اليمن تتدهور وتتلاشى حتى كادت تفنى فى القرن السادس الميلادى ، وخاصة لفقدان اليمن لحريتها بخضوعها للاحباش طوراً ثم للفرس طوراً آخر فتدهورت حضارتها ، وتقاص ظل اللهجات اليمنية .

ويسر ذلك السبيل أمام اللغة العدنانية للنصر فى المعركة ، وبقى من اللهجات

---

(١) راجع ص ١٦٦ وما بعدها من تاريخ اللغات السامية ط ١٩٢٩

اليمنية فى اللغة العربية صدى قليل لا يكاد يكون شيئا مذكورا (١) .

٢ — ووجود بعض ألفاظ عبرية ، وآرامية ويونانية (٢) ، اندمجت فى العربية بواسطة السريانية ، وفارسية (٣) ، من الخطأ أن تستدل به على إفادة اللغة العربية من هذه اللغات فى طور نشأتها ، لأننا لا نعلم متى دخلت هذه الألفاظ فى اللغة العربية ، ولو سلمنا أنها دخلت فى العصر الجاهلى فيكون المعقول أن تعد أثراً من آثار تهذيب اللغة العربية أو طوراً من أطواره .

٣ — ولا شك أن اللهجات التى امتزجت باللغة العربية قسمان :

ا ـ لهجات سكان شمال الجزيرة كثمود (٤) وغيرها من القبائل العربية القديمة البائدة ؛ ومنها قبائل معين (٥) التى استوطنت فى شمال الجزيرة العربية .

ب ـ ولهجات سكان جنوب الجزيرة وتتمثل فى اللغة المعينية القديمة

---

(١) وفى ص ٢٤٠ من المزهر للسيوطى أن بعض لهجات عربية حميرية كانت شائعة فى اليمن للقرن الثامن الهجرى .

(٢) مثل : انجيل واسطوانه ، وأسقف وناموس وميل وبستان وصراط وخندريس وفردوس

(٣) مثل : مجوس وجيش وأستاذ (راجع فى ذلك ١٥ : ١ من تاريخ آداب اللغة لمحمد دياب)

(٤) راجع موطنها وأخبارها فى ١٧١ وما بعدها من كتاب تاريخ اللغات السامية .

(٥) راجع ص ١٧٦ وما بعدها تاريخ اللغات السامية

القديمة(١) ، واللغة السبئية التي خلفت اللغة المعينية (٢) ، أما اللغة الحميرية فهي السبئية مع خلاف قليل وقد نشأت مع اللغة العدنانية في وقت واحد(٣) ثم تغذت بها العدنانية ثم التهمتها وقضت عليها . ومن المرجح أن ظهورهما بدأ قبل الميلاد بقرن واحد أي قبل البعثة بسبعمائة عام(٤).

٤ — ورحل ابراهيم بابنه اسمعيل إلى الحجاز وأقام بمكة وخالط قبيلة جرهم الثانية اليمنية وصاهرها وتعلم لغتها فكان لهذا العنصر الذي يرجع إلى العبرية أثر في اللغة العربية العدنانية(٥) .

٥ — ثم بدأت عوامل تهذيب اللغة العربية العدنانية تعمل عملها : باختلاط القبائل العربية بعضها ببعض ، ورحلات القرشيين في البلاد واتصالهم بالأمم الأخرى ، ثم نزل القرآن الكريم فأضفى على العدنانية ثوب القوة والخلود(٦) .

وهكذا نشأت العــــدنانية ونضجت .. وقبل أن نختم هذا البحث نعرض هذا النص : قال الأستاذ محمد لطفي جمعة ، في كتابه الشهاب الراصد (٧) :

---

(١) والمعينيون قدموا من العراق إلى اليمن ولغتهم بابلية وباقامتهم في اليمن أخذت تتباعد عن إصلها شيئا فشيئا حتى صار لغة مستقلة (راجع ١٢٤ الشهاب الراصد) .

(٢) والسبئيون أو القحطانيون قدموا إلى جنوب شبه الجزيرة من الحبشة أو من العراق في القرن الثامن قبل الميلاد واقتبسوا لغة المعينيين (١٢٤ الشهاب الراصد) وأولهم هو قحطان رأس العرب العاربة وابنه يعرب هو الذي نطق بلغة المعينيين وبدأ يهذبها .

(٣) ١٢٥ الشهاب الراصد . (٤) ١٢٣ المرجع

(٥) وراجع ماكتبه الجاحظ في البيان والتبيين عن اسماعيل ونطقه بالعربية دون تلقين (١٦٨ : ٣)

(٦) راجع ٢١٥ تاريخ اللغات السامية

(٧) ١٢٥ الشهاب الراصد

« ومن المجمع عليه لدى علماء أصول اللغات وعلماء المشرقيات أن هـــذه العربية المحضة ـ العدنانية ـ هى الغاية التى انتهت إليها تلك اللغات وكانت جميعها روافد تغذى نهرها العظيم ، فالحبشية والسبئية والحميرية والعبرانية والنبطية وما تخلف عنها من لهجات متنوعة خدمت كلها تلك المضرية الفصحى الخالصة »

أطوار تهـذيب اللغة :

١ — سبق (١) أن ذكرنا أن المعينين بعد هجرتهم من العراق إلى اليمن انحرفت لغتهم البابلية ثم استقلت فسميت اللغة المعينية ، وتوارثها السبئيون وتحولت فصارت لغة جديدة هى اللغة السبئية ، وكانت هى لغة الحميريين إلا أنها اكتسبت صفات جديدة بفعل الزمن وتبدل الحياة والمعيشة ؛ ثم هاجر اسماعيل إلى مكة وأقام بها وكان لسانه عبرانيا ، وجاور جرهم الثانية القحطانية وخالطها وصاهرها وتكلم بلغتها ـ وهى اللغة القحطانية أو السبئية ـ وتكلم بهذه اللغة أحفاده ، وبذلك نشأت اللغة العدنانية ، وكانت نشأتها هى واللغة الحميرية فى وقت واحد على الأرجح وذلك قبل الميلاد بقرن واحد أو قبل البعثة بسبعمائة عام ، ثم أفادت العدنانية من الحميرية وصارعتها حتى طوتهـا وتغلبت عليها ، وذلك هو الدور الأول من أدوار تهذيب اللغة العربية .

٢ — ثم كان لاجتماع القبائل واختلاطهم بعضهم ببعض أثر فى تهذيب اللغة ورقيها .

ولاشك أن : الحروب ، والتجارة ، والحج ، كان لها أثر كبير فى اختلاط القبائل بعضها ببعض وتفاهمها وتقارب لغاتها ، مما يشبه الأثر الذى أحدثه سيل العرم ـ الذى حدث حوالى ميلاد المسيح (٢) ـ وأدى إلى هجرة القبائل

---

(١) راجع ١٣١ الشهاب الراصد .

(٢) راجع ١١٩ الشهاب الراصد . ويخطىء الزيات فى جعل تاريخ سيل العرم هو عام ٤٤٧ م (راجع ص ١٣ تاريخ الادب العربى للزيات)

واختلاط القحطانيين بالعدنانيين وتأثرت لغاتهم بذلك الاختلاط .

والحج له ـ من بين هذه العوامل ـ أثر كبير فى تهذيب اللغة . فقد كان العرب يحجون إلى الكعبة وكانت قريش تتصل بهم ويتصلون بها ، وكان القرشيون على قسط من المعرفة والرقى الفكرى ، وفيهم ذوق ولهم ملكات ناضجة فى النقد اللغوى ، فكانوا يميزون بين اللهجات والألفاظ ، ويقتبسون من لهجات القبائل أعذبها ومن ألفاظهم أسهلها وأفصحها ، ويضيفون ذلك إلى لغتهم . فهذبوا لغتهم حتى خلت من السقيم والمستبشع من الألفاظ واللهجات . كما كانوا فى رحلاتهم التجارية إلى الشام واليمن وفارس والحبشة يأخذون من لغات هذه الأمم بعض ألفاظها ويدخلونها فى لغتهم بعد أن ينطقوا بها نطقاً عربيا فصيحا ـ وهو ما نسميه التعريب ـ وبذلك زادت ثروة اللغة العدنانية القرشية ، وقلدت القبائل الأخرى قريشاً فى ذلك وحاكتها فى لغتها وأخذت عنها فكان بذلك لقريش أثر كبير فى تهذيب اللغة ، بل كانت تقوم بما تقوم به مجامع اللغة الآن ، وصارت لغة قريش أعذب اللغات لفظاً وأبلغها أسلوباً وأوسعها مادة .

أثر الأسواق(١) : ومن العوامل الأخرى ـ التى ظهر فيها اختلاط العرب وكان لها أثر فى تهذيب اللغة ـ الأسواق .

والأسواق العربية كانت ميدانا لاجتماع العرب وتبادلهم التجارة ، كما كانت سبباً فى دعم الوحدة والتفاهم بينهم وفى مزجهم بعضهم ببعض ، وفى التقريب بين لغاتهم ولهجاتهم وكانت مع ذلك مجمعا أدبيا كبيرا حيث كان يجتمع فيها الشعراء والخطباء فينشدون ويخطبون .

---

(١) راجع الكلام على عكاظ والمربد فى الرسالة العدد ١٢ و ١٣ و ١٥ و ١٦، وفى بلوغ الارب ٢٦٤ : ١ ومعجم البلدان والكلام على عكاظ فى العقد الفريد ص ٣٦٩ ج ٣

يقول سيديو : « أنشأ العرب أسواقا عامة يتعارفون فيها ويتحابون فلم تكن هذه الأسواق فى عكاظ ومجنة وذى المجاز سوى مؤتمرات للشعر فى الحقيقة خالية من التحكم على النفوس ، ولا شىء أروع من تلك الأسواق على ما كان يسودها من البساطة فقد كانت تشابه الألعاب الأولمبية ، فكان ينهض مقاتل شجاع متزن الخطا أمام جمهور صامت جامع لحواسه ، لم يكن عليه من الزينة مايشير إلى أنه من طبقة عالية ؛ فكانت الأبصار تشخص اليه فينشد بصوته الرخيم من فوق مرتقى قصيدة بأسرها ، فتراه يترنم بأعماله السامية وشرف عشيرته أحيانا ، وتراه يمدح القوة والشجاعة أحياناً ، وتراه يصور عجائب الطبيعة وعزلة الصحراء والمناهل المبتغاة ويصف الغزال أحيانا ، وذلك على حين يسير الجمهور مع المشاعر التى يود الشاعر أن يوحى بها اليه ، فيشاهد على وجهه المتنبه علائم الإعجاب بالبطل الصابر فى الضراء كما تشاهد علائم احتقار الجبان النذل ، وما كان المستمعون ليخفوا عواطفهم ، والشاعر كلما توسم اعتراف الجمهور بقدرته عاد إلى نشيده بحماسة جديدة . وقصائد الشعراء إذا ما تقبلتها مؤتمرات عكاظ بقبول حسن ، كتبت بحروف من ذهب على نسج ثمينة وعلقت فى الكعبة لتحفظ للحفدة ، ويستمع العرب تحت الخيام مساء لتلك الأشعار العجيبة بلذة وهى التى تجمع بين سحر القصة المؤثرة المحزنة ومحاسن الترنم وحلاوة التوقيع وعذوبة اللحن ، فيجدونها شاملة لما يثيرهم من العواطف والشجون والحماسة ، فكأنها وضعت بلغة معبرة عما يجيش فى صدورهم ، وتجد فى شعر الشعراء الذين اشتهروا فى هذا الدور وصفاً دقيقاً لحياة عرب البادية الذين لم يفسد الزمن طبائعهم . وليس من النادر أن كانت تحدث بعد الوقائع الدامية مباريات فخر وكرم عرفت بالمنافرات ويقع التحكيم فيها من حكم يرضونه ، وأحكام كهذه لابد أن تصدر فى احتفال كبير فتؤثر فى النفوس تأثيراً جليلا .

وإذا كان الخطباء والشعراء ، وكل ذى كلام - يريد له سعة فهم وكثرة ذيوع ، ولا بد أن يريد - يرون لغة قريش أوفى اللغات بهذا ، فقد انتسبوا إليها جميعا يستوحون فصاحتها وبيانها ، ويستمدون قوتها وسلطانها حتى غطت على جميع اللهجات ، فأصبحت العلم الذى بنوره يهتدى ؛ والإمام الذى به يقتدى . عرف العرب لها ذلك واعتقدوه فى المحاكاة والتقليد ، فأخذوا يتقربون بلغاتهم إليها ؛ وكانت الأسواق من أقوى العوامل على هذا التقريب ، حتى قارب توحيد اللهجات التمام ، واستعد العرب لفهم القرآن الكريم الذى نزل بلغة قريش ، ولمعرفة مواطن الإعجاز فيه . وما زال القرآن الكريم هو الحفيظ على هذه الوحدة والدرع لهذه اللغة يصونها من أن تمحوها النوازل أو تتشعب منها لهجات مختلفة تنقطع صلتها بالنبع الأول فينضب ويجف » .

ومن أهم هذه الأسواق : عكاظ ومجنة وذو المجاز :

١ - أما عكاظ : فهى قرية بين نخلة والطائف ، كانت تقام بها سوق تجارية عامة ، وتاريخ إقامة هذه السوق يبدأ من عام ٥٤٠ م ، وكانت تعقد فى أول ذى القعدة إلى العشرين ، وبقيت فى الإسلام ، إلى أن نهبها الخوارج عام ١٢٩ هـ . وكانت ميداناً للمنافرة والمفاخرة والتجارة وفداء الأسرى وإنشاد القصائد ، وجاء ذكرها فى الشعر العربى ، قال طريف بن تميم :

أوكلما وردت عكاظ قبيلة بعثوا إلى عريفهم يتوسم

وقال النابغة :

أرأيت يوم عكاظ حين لقيتنى تحت العجاج فما شققت غبارى

وقال حسان :

سأنشر إن بقيت لهم كلاما يفرق فى المجامع من عكاظ

وسوق عكاظ سوق عامة كان يحضرها العرب جميعا ، أما الأسواق الأخرى فكانت أسواقا محلية. وعكاظ سمى عكاظا لأن العرب كانت تجتمع فيه فيعكظ بعضهم بعضاً بالفخار ، وكانوا يتفاخرون فى سوق عكاظ إذا اجتمعوا - وعكاظ نخل فى واد بينه وبين الطائف ليلة وبينه وبين مكة ثلاث ليال ، وبه كانت تقام سوق العرب (١) . وكانت قبائل العرب تجتمع بعكاظ فى كل سنة ويتفاخرون فيها ويحضرها شعراؤهم ويتناشدون ما أحدثوا من الشعر ثم يتفرقون ، وكان هناك صخور يطوفون بها ويحجون إليها ، ولم يكن عندهم أعظم من عكاظ ، قالوا : كانت العرب تقيم بسوق عكاظ شهر شوال ثم تنتقل إلى سوق مجنة فتقيم فيه عشرين يوما من ذى القعدة ثم تنتقل إلى سوق ذى المجاز فتقيم فيه إلى أيام الحج (٢) . وهذا رأى آخر فى زمان انعقادها .

ويروى أن المعلقات أنشدت فى عكاظ . ويقول أحمد أمين من مقالة له : كان لعكاظ أثر كبير لغوى وأدبى ، فقد رأينا قبائل العرب على اختلافها من قحطانيين وعدنانيين تنزل بها ، وملك الحيرة يبعث تجارته إليها ، ويأتى التجار إليها من مصر والشام والعراق (٣) ، فكان ذلك وسيلة من وسائل تفاهم القبائل ، وتقارب اللهجات ، واختيار القبائل بعضها من بعض ما ترى أنه أليق بها وأنسب لها ، كما أن التجار من البلدان المتمدنة كالشام ومصر والعراق كانوا يطلعون العرب على شىء مما رأوا من أحوال تلك الأمم الاجتماعية . وفوق هذا كانت عكاظ معرضاً للبلاغة ومدرسة بدوية يلقى فيها الشعر والخطب وينقد ذلك كله ويهذب ، قال أبو المنذر : وكانت بعكاظ

---

(١) وقال الواقدى : عكاظ بين نخلة والطائف وراجع كتاب « قصة الأدب فى الحجاز فى العصر الجاهلى لخفاجى وعبد الجبار .

(٢) ٢٠٣ : ٦ معجم البلدان

(٣) يروون أن عبدالله بن جدعان أتى مصر فباع ما معه وعاد الى سوق عكاظ انظر الاكليل للهمدانى جزء ٨ ص ١٨٤ وما بعدها .

منابر فى الجاهلية يقوم عليها الخطيب بخطبته وفعاله وعد مآثره وأيام قومه من عام إلى عام فمنها أخذت العرب أيامها ونخرها ، وكانت المنابر قديمة يقول فيها حسان :

أولاء بنو ماء السماء(١) توارثوا دمشق بملك كابرا بعد كابر
يؤمون ملك الشام حتى تمكنوا ملوكا بأرض الشام فوق المنابر(٢)

---

(١) ماء السماء لقب عامر بن حارثة الازدى أبو عمرو مزيقياء الذى خرج من اليمن لما أحس بسيل العرم ، وسمى ماء السماء لانه كان إذا أجدب قومه مانهم- أى كفاهم مؤونتهم- حتى يأتيهم الخصب فكأنه خلف من ماء السماء وقيل لولده بنو ماء السماء وهم ملوك الشام ، والعرب يسمون أيضا بنى ماء السماء لأنهم يعيشون بماء السماء قال الأزهرى : السماوة ماء بالباديه وكان اسم أم المنذر ماء السماء فسمته العرب ابن ماء السماء وهو المنذر بن امرىء القيس بن عمرو بن عدى وأمه ماء السماء وهى امرأة من النمر بن قاسط سميت بذلك لجمالها . ولما ملك كسرى قباذ بن فيروز خرج فى أيامه مزدك فدعا الناس إلى الزندقة واباحة الحرم وان لا يمنع أحد أخاه ما يريد فدعا قباذ المنذر ليدخل فى هذا المذهب فأنف وأبى المنذر هذا الفعل فطرده قباذ من مملكته ونفاه عن الحيرة ودعا الحرث بن عمرو بن حجر آكل المرار فأجابه وكان الحرث شديد الملك فشدد له ملكه ، وكانت أم أنوشروان بين يدى قباذ يوما فدخل عليه مزدك فلما رآها قال لقباذ ادفعها إلى لأقضى حاجتى منها فقال له قباذ دونكها فوثب اليه أنوشروان فلم يزل يسأله أن يهب له أمه حتى قبل رجليه فتركها له فلما هلك قباذ وتولى أنوشروان جلس فى مجلسه وأقبل المنذر اليه وأذن للناس فدخل عليه مزدك ودخل عليه المنذر فقال أنوشروان كنت أتمنى أمنيتين أرجو أن يكون الله تعالى قد جمعهما لى فقال مزدك : وما هما أيها الملك؟ قال تمنيت أن أملك فاستعمل هذا الرجل الشريف يعنى المنذر وأن أقتل هؤلاء الزنادقة فقال له مزدك أو تستطيع أن تقتل الناس كلهم فقال إنك لههنا وأمر به فقتل وصلب وقتل فى ضحوة واحدة من الزنادقة مائة ألف وصلبهم وطلب الحرث فخرج هاربا بجميع ما معه وأخذ المنذر فى طلبهم فأخذ من بنى آكل المرار ثمانية وأربعين رجلا فضرب رقابهم ، وألح فى طلب امرىء القيس فلحق بالسموأل

(٢) الازمنة والامكنة ٢ ص ١٧٠

فيقف أشراف العرب يفخرون بمناقبهم ومناقب قومهم فى عكاظ .

قام عمرو بن كلثوم خطيباً بسوق عكاظ وأنشد قصيدته المشهورة :

ألا هبى بصحنك فاصبحينا (١)

وكان الأعشى يوافى سوق عكاظ كل سنة ، وفيها أنشدهم قصيدته فى مدح المحلق (٢) .

وكان النابغة الذبيانى تضرب له قبة أدم بسوق عكاظ يجتمع إليه فيها الشعراء ، فيدخل إليه حسان بن ثابت وعنده الأعشى والخنساء فينشدونه جميعاً ويفاضل بينهم ونقد فيما زعموا قول حسان :

لنا الجفنات الغر يلمعن فى الضحى وأسيافنا يقطرن من نجد دما

قال لحسان : قللت العدد ولو قلت الجفان لكان أكثر ، وقلت يلمعن بالضحى ولو قلت يبرقن بالدجى لكان أبلغ فى المديح لأن الضيف بالليل أكثر طروقا (٣) .

وفى عكاظ مدح دريد بن الصمة ابن جدعان بعد أن هجاه فقال : إليك ابن جدعان أعملتها (٤) الخ . وخطب قس بن ساعدة الناس خطبته المشهورة فذكرهم بالله والموت ورسول الله يسمع له (٥) وكانت الخنساء تشهد الموسم بعكاظ وتعاظم العرب بمصيبتها فى أبيها عمرو بن الشريد وأخويها صخر ومعاوية ، وتنشد فى ذلك القصائد (٦) ، وعلى الجملة فكانوا فى عكاظ يتبايعون ويتعاكظون ويتفاخرون ويتحاجون ، وتنشد الشعراء ما تجد لهم . فمن هذا كله نرى كيف كانت عكاظ مركزاً لحركة أدبية ولغوية واسعة النطاق ، كما كانت مركزا لحركة اجتماعية واقتصادية .

---

(١) الأغانى ٩ ص ١٨٢
(٢) الأغانى ٨ ص ٧٩ ، ٨٠
(٣) المرجع ٨ : ١٩٤ و ١٩٥
(٤) الأغانى ٩ ص ١٠
(٥) أغانى ١٤ ص ٤١ و ٤٢
(٦) صفة جزيرة العرب ص ٢٦٣

وكانت القبائل - كما أسلفنا - تنزل كل قبيلة منها فى مكان خاص بها ، تتلاقى أفراد القبائل عند البيع والشراء أو فى الحلقات المختلفة . فكان الناس يجتمعون على سرحة ، أو حول الخطيب يخطب على منبر ؛ أو فى قباب من أدم تقام هنا وهناك ، ويختلط الرجال بالنساء فى المجامع ، وقد يكون ذلك سببا فى خطبة أو زواج أو تنادر (١) وكانت تحضر الأسواق - وخاصة سوق عكاظ - أشراف القبائل ، وكان أشراف القبائل يتوافون بتلك الأسواق مع التجار من أجل أن الملوك كانت ترضخ للاشراف ، لكل شريف بسهم من الأرباح ، فكان شريف كل بلد يحضر سوق بلده ، إلا عكاظا فإنهم يتوافون بها من كل أوب (٢)

وكان الأشراف يمشون فى هذه الأسواق ملثمين ؛ مخافة أن يؤسروا يوما فيكبر فداؤهم فكان أول من رفع اللثام طريف العنبرى ، لما رآهم يطلعون فى وجهه ويتفرسون فى شمائله قال : قبح من وطن نفسه إلا على شرفه ، وحسر عن وجهه وقال : « أوكلما وردت عكاظ قبيلة ، إلى آخر الأبيات (٣).

وكان على سوق عكاظ كلها رئيس اليه أمر الموسم وإليه القضاء بين المتخاصمين ، قال أبو المنذر : وتزعم مضر أن أمر الموسم وقضاء عكاظ كان فى بنى تميم . . . . وكان ممن اجتمع له ذلك منهم عامر بن الظرب العدوانى وسعد بن زيد بن مناة من تميم ، وقد فخر المخبل بذلك فى شعره :

ليالى سعد فى عكاظ يسوقها   له كل شرق من عكاظ ومغرب

حتى جاء الإسلام فكان يقضى بعكاظ محمد بن سفيان بن مجاشع (٤) .

---

(١) أنظر الاغانى ج ١٠ ص ١٤٥ وما بعدها و ج ١٣ ص ١٤٠ وما بعدها
(٢) الاغانى ٤ ص ١٣٦ وما بعدها   (٣) الازمنة والامكنة ٢ ص ١٦٦
(٤) انظر تعداد من ولى عكاظ فى الازمنة والامكنة ٢ ص ١٦٧ .

ومن العسير جدا أن نحدد بدء عكاظ ، فلم نجد فى ذلك خبرا يصح التعويل عليه ، يقول الألوسى فى بلوغ الأرب : « إنها اتخذت سوقا بعد الفيل بخمس عشرة سنة » ، ولكن إذا بحثنا فى الأحداث التى رويت فى عكاظ وجدنا ذلك غير صحيح ، فهم يروون ـ كما قدمنا ـ أن عمرو بن كلثوم أنشد قصيدته فى عكاظ ، وعمرو بن كلثوم كان قبل ذلك .

وقد عد المرزوقى فى الأزمنة والأمكنة من رؤساء عكاظ قبل الإسلام عشرة ، أولهم : عامر بن الظرب العدوانى . وهذا ـ من غير شك ـ يجعل تاريخ عكاظ أبعد مما يحكى الألوسى بزمان طويل

وظلت سوق عكاظ تقوم كل سنة ، وكانت فيها قبيل الإسلام حروب الفجار وهى حروب أربع ، وكان سبب الأولى المفاخرة فى سوق عكاظ ، وسبب الثانية تعرض فتية من قريش لامرأة من بنى عامر بن صعصعة بسوق عكاظ ، وسبب الثالثة مقاضاة دائن لمدينه مع إذلاله فى سوق عكاظ ، وسبب الأخيرة أن عروة الرحال ضمن أن تصل تجارة النعمان بن المنذر إلى سوق عكاظ آمنة فقتله البراض فى الطريق (١) .

فكلها تدور حول سوق عكاظ ، وهذه الحروب كانت قبل مبعث النبى صلى الله عليه وسلم بست وعشرين سنة ، وشهدها النبى وهو ابن أربع عشرة سنة مع أعمامه ، وقال : كنت يوم الفجار أنبل على عمومتى(٢) . واستمرت هذه الحروب نحو أربع سنوات .

واستمرت عكاظ فى الإسلام ، وكان يعين فيها من يقضى بين الناس ، فعين محمد بن سفيان بن مجاشع قاضياً لعكاظ ، وكان أبوه يقضى بينهم فى

---

(١) أنظر العقد الفريد ٣ ص ١٠٨ والأغانى

(٢) النهاية لابن الاثير مادة نبل

الجاهلية وصار ذلك ميراثاً لهم[1].

ولكن يظهر أن هذه الأسواق ضعف شأنها بعد الفتوح فأصبحت البلاد المفتوحة أسواقاً للعرب خيراً من سوق عكاظ، وصار العرب يغشون المدن الكبيرة لقضاء أغراضهم، فضعفت أسواق العرب ومنها عكاظ، ومع ذلك ظلت قائمة وكان آخر العهد بها قبيل سقوط الدولة الأموية. قال الكلبي: «وكانت هذه الأسواق بعكاظ ومجنة وذي المجاز قائمة في الإسلام، فأما عكاظ فانما تركت عام خرجت الحرورية بمكة مع أبي حمزة المختار ابن عوف الأزدي الأباضي في سنة تسع وعشرين ومائة، خاف الناس أن ينهبوا، وخافوا الفتنة فتركت حتى الآن، ثم تركت مجنة وذو المجاز بعد ذلك، واستغنوا بالأسواق بمكة وبمنى وبعرفة.... وآخر سوق خربت سنة ١٩٧ أشار فقهاء أهل مكة على داود بن عيسى بتخريبها فخربها وتركت إلى اليوم[2]

فعكاظ عاصرت العصر الجاهلي الذي كان فيه ما وصل إلينا من شعر وأدب، وجرت فيها أحداث بحياة النبي صلى الله عليه وسلم قبل مبعثه، ومهدت السبيل قبيل الإسلام لتوحيد اللغة والأدب، وعملت على إزالة الفوارق بين عقليات القبائل، وقصدها النبي صلى الله عليه وسلم يبث فيها دعوته، وعاصرت الإسلام في عهد الخلفاء الراشدين والعهد الأموي ولكن كانت حياتها في الإسلام أضعف من حياتها قبله، وبدأ ضعفها من وقت الهجرة لما كان من غزوات وحروب بين مكة والمدينة وبين المؤمنين والمشركين. فلما فتحت الفتوح رأى العرب في أسواق المدن المتحضرة في فارس والشام والعراق ومصر عوضاً عنها، ثم كانت ثورة أبي حمزة

---

(١) الازمنة والامكنة ج ٢ ص ١٦٧ وما بعدها

(٢) أخبار مكة للأزرقي ص ١٢١ و ١٢٢

الخارجى بمكة فلم يأمن الناس على أموالهم فخربت السوق ، وختمت صحيفة لحياة حافلة ذات أثر سياسى واجتماعى وأدبى(١).

٢ — مجنــــة : موضع بمر الظهران ، وكانوا ينتقلون إليها من عكاظ فيقيمون إلى غاية ذى القعدة .

٣ - ذوالمجاز : خلف عرفة وكانوا يقيمون فيها ثمانية أيام من ذى الحجة ثم يقفون بعرفة فى اليوم التاسع .

وبعد فقد كان لهذه الأسواق عملها اللغوى فى الفهم والنقد والإيثار والاختيار ، ثم فى التبادل اللغوى بين القبائل عامة ، مما كان له أثر كبير فى تهذيب اللغة .

ثم أنزل القرآن بلغة قريش فجمع العرب عليها وهذبها وجعلها أفصح اللغات ونشرها فى الدنيا وجعلها لغة عالمية بعد أن كانت لغة العرب وحدهم ، وبالقرآن الكريم تمت سيادة لغة قريش على لغات جميع القبائل العربية الأخرى ولهجاتهم .

اختلاف اللهجات العربية :

ا - كانت اللهجات كثيرة لأن العرب شعوب وقبائل وبطون وأفخاذ وعشائر وفصائل متشعبة ، وكان لكل قبيلة لهجة تميزها ، وبذلك كثرت اللهجات العربية وظهر الاختلاف بينها (٢) ، ولكنه كان فى الفروع واللهجات

---

(١) راجع عكاظ فى اللسالى ٣٢٧ : ٩ ، والعقد الفريد ٣٦٠ : ٣ ، ومعجم البلدان ٢٠٣ : ٦ .

(٢) واختلاف اللغات - أو اللهجات - يرجع إلى أمور ثلاثة :

١ - تباين اللهجات وتنوع المنطق كاختلافهم فى صيغة اللفظ أو كيفية النطق وهو المراد هنا .

لا فى أصل اللغة ذاتها وكان أثراً للبيئة والمعيشة والحياة والجو . ولم تدون جميع هذه اللهجات(١) ، ولكن بقى ظلها فى اللغة العربية .

ويقول أبو عمرو بن العلاء م ١٥٤ ﻫ : « ما لسان حمير وأقاصى اليمن بلساننا ولا عربيتهم بعربيتنا » ، وكذلك يقول ابن خلدون فى مقدمته : « ولغة حمير لغة أخرى مغايرة للغة مضر كما هى لغة للعرب لعهدنا » .

وهذا طبعا تصوير للخلاف الواسع بين العربية والحميرية على عهد ابن العلاء وعهد ابن خلدون ، وهما يقصدان إلى اختلاف اللهجات . وذلك بدهى مما ذكرناه .

ب ـ ومن صور اختلاف اللهجات العربية مايبدو لك(٢) من :

١ ـ الكشكشة فى لهجة ربيعة ومضر ، وهى : زيادة شين بعد كاف المخاطبة المؤنثة فى الوقف ، أو فى الوقف والوصل جميعاً ، أو جعل الشين مكان هذه الكاف مع كسرها فى الوصل وإسكانها وقفاً .

فيقولون فى رأيتك : رأيتكش ، أو رأيتش .

٢ ـ الكسكسة فى لهجة ربيعة ومضر أيضا ،وهى : أن يجعلوا بعد الكاف أو مكانها فى خطاب المذكر سينا فيقولون فى عرفتك : عرفتس أو عرفتكس ونسبها الحريرى لبكر لا لربيعة ومضر ، وجعلها مثل الكشكشة (زيادة شين بعد خطاب المؤنثة) ، ونسبها القاموس لتميم وفسرها بما فسرها به الحريرى .

---

٢ ـ اختلاف الدلالة للفظ الواحد باختلاف اللغات التى تنطق به ومن هذا النوع المترادف والأضداد .

٣ ـ مايكون قد انفرد به عربى مع إطباق العرب على النطق بخلافه وهذا يجوز أن يكون قد دفع لذلك الاعرابى من لغة قديمة طال عليها العهد وبادت آثارها .

(١) وبقيت اللغات مسماة منسوبة إلى أصحابها من العرب عند الرواة والعلماء إلى آخر القرن الثالث (١٢٩ الشهاب الراصد)

(٢) راجع ص ٩ ومابعدها ج ١ من تاريخ آداب اللغة العربية لمحمد دياب

٣ - شنشنة اليمن ، وهى : إبدال الكاف شينا مطلقا ، فيقولون فى لبيك : لبيش ، وفى كلمنى : شلمنى .

٤ - القـُطعة فى لغة طىء ، وهى قطع اللفظ قبل تمامه فيقولون « يا أبا الحكا » فى « يا أبا الحكم » .

٥ - لخلخانية الشحر وعمان ، وهى حذف بعض الحروف اللينة فيقولون « مشا الله » فى « ما شاء الله » .

٦ - طمطمانية حمير : والطمطمة أن يكون الكلام مشبها لكلام العجم . والطمطمانية هى : إبدال لام التعريف ميما ، ومن ذلك « ليس من أمبر أمصيام فى أمسفر » وفى اللغة : الطمطم والطمطمانى : الذى فى لسانه عجمة والعيى الذى لا يفصح .

٧ -- فحفحة هذيل وهى قلب الحاء عينا مثل « عتى » فى « حتى » .

٨ — عجعجة قضاعة(١) وهى قلب الياء المتطرفة بعد عين جيما مثل « الساعج » فى « الساعى » .

٩ — غمغمة قضاعة وهى إخفاء الحروف عند الكلام فلا تكاد تظهر

١٠ — عنعنة تميم وقيس وهى جعل الهمزة المبدوء بها عينا مثل « عنت كريم » فى « أنت كريم » . والفرنج يعكسون فيقلبون العين همزة فيقولون فى على « ألى » .

١١ — الاستنطاء فى لغة سعد والأزد وقيس والأنصار وهو قلب العين الساكنة نونا قبل الطاء نحو « أنطى » فى أعطى .

١٢ - تلتلة بهراء من تميم وينسبها ابن فارس إلى أسد وغيرهم وهى كسر أحرف المضارعة ، وقيل كسر تاء تفعلون .

---

(١) راجع ٦١ : ١ تاريخ آداب اللغة العربية لمحمد دياب

١٣ - وهم كلب وهو كسر هاء الغيبة إذا لم يكن قبلها ياء ساكنة ولا كسرة مثل منهم وعنهم .

١٤ – وكم ربيعة وهو كسر كاف الخطاب فى الجمع قبل ياء أو كسرة مثل « عليكم » .

١٥ – وتم اليمن : وهو إبدال السين المهملة تاء مثل النات فى الناس .

جـ – على أن هناك اختلافات أخرى فى اللهجات منها :

١ - إبدال التاء هاء وعكسه فى الوقف عند طىء فيقول فى فاطمة « فاطمت » وفى نعمت « نعمه » .

٢ – إبدال الباء ميما وعكسه مثل « باسمك » مكان « ما اسمك » و« مكر » مكان « بكر » وهو لغة « مازن » ومنها آثار فى لهجة أهل مديرية الدقهلية وبعض الغربية حديثاً فى مصر .

٣ – وإبدال الحاء هاء مثل « مدهته » فى : مدحته .

خصائص اللغة العربية :

تمتاز اللغة العربية بما يأتى :

١ – ثروتها اللغوية ، ففيها أسماء لكل ما تقع عليه العين أو تسمعه الأذن أو يجول فى الخاطر .

٢ – صيغ المشاركة ، كتخاصموا وتحاجوا ، فهى خاصة باللغة العربية ولا توجد فى اللغات الأخرى .

٣ – الإعراب ويشاركها فيـــه كما يقول جورجى زيدان الحبشية والألمانية وكادت الألمانية تتخلص منه ، ويلاحظ أن العربية العامية تخلصت من الاعراب .

٤ – الإيجاز فهو فيها أوضح .

٥ المجاز والاشتقاق وهما كذلك ظاهران فى اللغة العربية .

٦ — الاشتراك وهو دلالة اللفظ الواحد على أكثر من معنى كالعين للماء والذهب والفضة وللبصر ، وهو خاص باللغة العربية . ومنشؤه على الأرجح تعدد القبائل فيكون اللفظ بمعنى عند قبيلة وهو بمعنى آخر عند قبيلة أخرى . وقرائن الكلام والأسلوب توضح المراد من اللفظ .

٧ — التضاد : وهو أن يدل اللفظ على معنيين متضادين كجلل للعظيم والحقير(١) . ومنشؤه كذلك تعدد القبائل ، فتضع قبيلة اللفظ لمعنى ، وتضعه أخرى لضده .

والقرينة فيه أيضا هى التى ترشد إلى المراد .

عوامل نمو اللغـــة :

وأسباب نمو اللغة كثيرة منها :

١ ـ الاشتقاق : وهو أخذ كلمة من أخرى مع تشابه فى المعنى واتفاق فى الأحرف الأصلية وفى ترتيبها . وذلك كأكرم يكرم الخ وهو قياسى .

وأصل الاشتقاق المصدر أو الفعل على خلاف فى ذلك ، ويشتق من أسماء الأجناس كتذأب الرجل واستأسد . وهذا النوع من الاشتقاق سماعى .

والمراد بالاشتقاق هنا الاشتقاق الصغير طبعا .

---

(١) وكلفظ الجون للأبيض والاسود ، ولفظ الوثب للقعود فى لغة حمير . ويروى فى أصل المثل « من دخل ظفار حمر » أن اعرابيا دخل على ملك من ملوك حمير فقال له الملك : « ثب » يريد : اقعد بلغة حمير ، فوثب الاعرابى ، فسأل الملك عن ذلك فقيل له إن الوثب بلغة العرب هكذا ، فقال أما إنه ليست عندنا عربية ، من دخل ظفار حمر ، أى تكلم بلغة حمير ، وهذا المثل صار يضرب لمن يدخل فى القوم فيأخذ بزيهم .

٢ ـ المجاز ، وبه يتسع التعبير ، وتظهر البلاغة ، ويتنوع البيان .

٣ ـ التعريب ، وهو نقل اللفظ من العجمية إلى العربية(١) . وفى القرآن ألفاظ معربة كسجيل ومشكاة وأباريق واستبرق ويم وطور ، وأنكر ذلك أبو عبيدة . وجمع آخرون بين الرأيين بأن الألفاظ أعجمية بحسب الأصل ثم صارت عربية .

وقد نشأ التعريب فى اللغة العربية بمجاورة العرب فى الجاهلية لسواهم من الأمم كالفرس والروم ، وباختلاطهم بهم فى التجارة والحروب والبعوث الدينية وغير ذلك .

٤ ـ النحت :

وهو أخذ كلمة من كلمتين فأكثر للدلالة بها على معنى ما نحتت منه «كحمدل» فى «الحمدلله» ، «وبسمل» فى «بسم الله» وعبشمى فى «عبد شمس»

وفائدته الاختصار وزيادة ثروة اللغة وسهولة النطق .

وهو غير قياسى إلا عند ابن فارس، ومن الألفاظ المنحوتة المولدة : الفذلكة

٥ ـ الترادف(٢) :

وهو توارد لفظين أو أكثر على معنى واحد كالبر والقمح والليث والأسد ، وينكر بعض الباحثين الترادف فى اللغة العربية بدعوى أن كل لفظ من المترادفات يفيد مالا يفيده الآخر والصحيح أنه ورد فى اللغة .

والترادف وسيلة للتعبير والإيضاح والبلاغة وهو ثروة فى اللغة وسهولة فى النطق .

وسبب الترادف قد يكون تعدد القبائل فتضع قبيلة اسما للشىء وتضع أخرى

---

(١) ص ٣ شفاء الغليل للخفاجى ط ١٢٨٢

(٢) راجع ٣٠٣ : ١ مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة ط ١٩٣٥

اسماً آخر له ، وقد يكون اختلاف صفات الشيء ، ويرى ابن جني أنه لا مانع من أن تضع القبيلة للمعنى الواحد ألفاظاً كثيرة . ويروى أن الرسول (ص) قال لأبي هريرة ـ وكان من قبيلة دوس ـ : ناولني السكين ، فلم يفهم أبو هريرة حتى أشار اليها الرسول (ص) فقال : آلمدية تريد ؟ فقيل له نعم فقال : أو تسمى عندكم سكينا ؟ ثم قال : والله لم أكن سمعتها إلا يومئذ .

٦ — الإبدال :

وهو جعل حرف مكان حرف يقرب منه مخرجا غالبا .

وهو عظيم الأثر في زيادة ثروة اللغة . كمدح ومده .

ومنشؤه تعدد اللغات ووضع القبائل ، أو تعدد الوضع من القبيلة الواحدة .

ومن أمثلته : لطم ولدم ، ولثم أنفسه ورثمه . فاللطم : الضرب بالكف مفتوحة ، واللدم : الضرب بشيء ثقيل يسمع صوته . ولثم أنفه : لكمه . ورثمه : كسره .

٧ — القلب :

وهو تقديم حرف أو تأخيره من حروف اللفظ الواحد مع المحافظة على معناه أو انحرافه قليلا عن أصله .

وهو الاشتقاق الكبير . ومثاله : سبك وسكب ، وجذب جبذ وهكذا .

وسببه التحريف أو اختلاف اللهجات أو استعمال القبيلة لهما فيما لهما مصدر واحد .

فالقلب وروده في اللغة مسلم ، وهو رأى اللغويين والكوفيين ، ويرى ابن درستويه أن مثل هذا لا يسمى قلباً لأن كل لفظ موضوع على حدة وذلك بسبب تعدد وضع القبائل .

ويرى آخرون أن ما كان له أصل واحد كان من القلب مثل أيس ويئس

وماكان له أصلان معروفان فهو من تعدد اللغات مثل جذب وجبذ وهو مذهب البصريين .

فصاحة لغة قريش :

وبعد فاللغة العدنانية كما سادت على جميع لهجات العرب ، كذلك سادت لهجة قريش على جميع اللهجات العدنانية ، بماكانت تضيفه إلى لغتها دائماً من ثروة لغوية بفضل ما أفادته من ذوق لغوى فى رحلاتها التجارية وفى مواسم الحج وفى الاجتماعات العربية فى الأسواق وسواها .

ثم جاء القرآن الكريم بلغة قريش فتم لها السيادة على جميع لهجات العرب .

وقال معاوية يوما لجلسائه : أي الناس أفصح ؟ فقال رجل من السماط يا أمير المؤمنين : قوم قد ارتفعوا عن رُتة العراق ، وتيامروا عن كسكسة بكر ، وتيامنوا عن قشقشة تغلب ، ليس فيهم غمغمة قضاعة ، ولا طمطمانية حمير . قال : من هم ؟ قال : قومك يا أمير المؤمنين قريش . قال : صدقت ، فمن أنت ؟ قال من جرم . قال الأصمعى : جرم فصحاء الناس . ويحق كانت قريش أفصح العرب كما يقول الجاحظ (١٢٧ / ٣ البيان والتبيين) .

وكانت قريش تسمى آل الله وجيران الله وسكان الله واكتسبوا منزلة دينية وسياسية واجتماعية وأدبية كبيرة مما جعل فى العصر الجاهلى للغتهم السيادة والغلبة والذيوع .

ويقول عبد المطلب بن هاشم :

نحن آل الله فى ذمته لم تزل فينا على عهد قدم
لم تزل لله فينا حرمة يدفع الله بها عنا النقم

ويقول عمر بن عتبة : « إن كلامنا كلام يقل لفظه ويكثر معناه ويكتفى بأولاه ويستشفى بأخراه ، يتحدر تحدر الزلال على الكبد الحراء ، ولله قوم

أدركتهم كأنما خلقوا لتحسين ما قبحت الدنيا ، سهلت ألفاظهم كما سهلت عليهم أنفاسهم » .

وقال أبو الحسن : أسرع الناس جوابا عند البديهة قريش ثم بقية العرب .

اللغة العربية ومنزلتها بعد نزول القرآن :

وقد انتشرت اللغة العربية بعد نزول القرآن والفتح الإسلامى فى جميع أرجاء العالم ، وأصبح يلهج بها بعد قرن سكان سوريا ومصر وفلسطين وأفريقية الشمالية . وكان الاغريق قد سيطروا من قبل على الشرق الأدنى ، لكن سكانه ظلوا يتكلمون لغاتهم الأصلية منذ فتوح الاسكندر إلى الفتح العربى . ولم تعد اللغة اليونانية خلال عشرة قرون أن تكون لغة الطبقة المثقفة التى تبحث فى السياسة والعلوم والآداب .

وحدث بعد مرور قرنين على الفتح العربى أن أعرضت كل هذه الشعوب عن لغاتها الوطنية واعتنقت العربية ، حتى إن المتكلمين بالعربية زاد عددهم عن عدد المتكلمين بالسريانية فى القرن الثالث الهجرى .

وقال الدكتور طه حسين فى محاضرة له : إن للغة العربية ميزة لا توجد فى اللغة اليونانية ، وهى قوتها وجاذبيتها وقدرتها على زحزحة اللغات الوطنية والتمركز محلها ، وهى فى العالم الشرقى تشبه اللاتينية فى أوروبا الغربية . وقد فعلت فى الشرق الأدنى وأفريقيا الشمالية وأسبانيا ما فعلته اللاتينية فى أوروبا الغربية ، فللغتين إذاً القوة نفسها والمهمة نفسها .

ثم قال . إن أثر الثقافة اليونانية يومئذ لم يكن عميقا ، وأن أولى الخدمات التى أدتها اللغة العربية للمدنية العالمية ، ولعلها أعظمها ، هى أنها سهلت للثقافة اليونانية الاتصال بمختلف طبقات الشعب فى الشرق الأدنى . ولهذا التعمق فى الثقافة اليونانية أهميته الخاصة نظراً إلى أثر هذه الثقافة فى العالم . فاللغة العربية لغة عالمية عملت على التعاون بين الأمم والشعوب وهذه اللغة التى

تكلمت بها شعوب الشرق الأدنى فى أقل من قرنين انتشرت أيضاً فى إيران والهند والشرق الأقصى ، وهى وإن لم تتمكن من زحزحة لغات هذه البلاد إلا أنها تركت فيها الأثر البين وهى لغة السياسة كما أنها بصفة خاصة لغة الدين والعلوم والآداب .

وفى خلال ثلاثة قرون أعرض الإيرانيون عن أدبهم الإيرانى وتأدبوا بالأدب العربى وكثيرون من كبار شعراء العربية هم من أصل إيرانى أمثال بشار وأبو العتاهية وسواهما . وهكذا تمكنت العربية ، هذه اللغة البدوية ، فى بعض الوقت ، من زحزحة لغة عريقة كالإيرانية التى صمدت فى وجه اللغة اليونانية.

واللغة العربية لم تقتصر على الزحزحة والاحتلال ، بل إنها أخذت تغنى الشعوب التى اعتنقتها عن لغاتها الأصلية ، وقد فتحت صدرها للفلسفة اليونانية وللحكمة الهندية والإيرانية ، وللسياسة الإيرانية ولمدنية اليونان والهند وإيران ، وأصبحت العربية لغة تعاون بين الشعوب ، وخاصة بين الذين لم يتمكنوا بغير واسطتها من الاتصال والتفاهم . واللغة العربية هى الأولى فى التاريخ التى أوجدت التعاون بين العالمين الشرقى والغربى ، وهذا عمل كبير وجليل .

وقد استطاعت العربية أن تحفظ مكانها بوصفها لغة مدنية حتى فى عالم اليوم ، عالم القرن العشرين .

الأدب العربي ودراســـاته

— ١ —

أدب اللغة العربية مأثور شعرها الجميل ونثرها البليغ المؤثر فى النفس المثير للعواطف ، وما يتصل به مما يعين على فهمه وتذوقه ونقده من لغة وأخبار وأيام وأنساب ونحو ذلك مما قد تمس الحاجة إليه فى فهم الأدب ، كالإلمام بأطراف من الفلسفة ومذاهبها والفلك والعقائد والنحل ، فإن مثل هذه الألوان من المعارف تتردد كثيراً فى النصوص الأدبية كما نجدها فى شعر أبى العلاء والمتنبى وغيرهما ، والأدب صورة الحياة ومرآتها . تتمثل فيه جوانب النهضة ، ومظاهر المدنية ، وأدوات الحضارة ، وألوان الثقافة ، ومرافق الحياة ، ونوازع النفوس . لكل أمة من الأمم فى كل عصر من العصور ، ولهذا يقول ابن خلدون : « الأدب حفظ أشعار العرب وأخبارها والأخذ من كل فن بطرف(١) » . ويقول ابن قتيبة : من أراد أن يكون عالما فليلزم فنا واحداً ومن أراد أن يكون أديباً فليتسع فى العلوم .

وعلى هذا النحو تجد أمهات الكتب الأدبية كالأغانى والأمالى والكامل والعقد الفريد والبيان والتبيين .

— ٢ —

ولقد كان منهج المؤلفين من أدباء العربية فى كتبهم ترجمة الأدباء والشعراء والعلماء ، ورواية آثارهم الأدبية ونقدها أو شرحها وتحليلها ، وقد يوازنون بينها وبين غيرها من الآثار ، مع الإلمام ببعض أصول الأدب والشعر ،

---

(١) المقدمة ٤٨٨ - ويلاحظ أن هذا ليس تعريفا للأدب بمعنى هذه النصوص التى ندرسها وننشئها ، وإنما هو فى الواقع تعريف لما يسمى التأديب أو تحصيل الثقافة العامة اللازمة لإنشاء الادب ولفهمه ونقده .

ونحو ذلك مما نجده مبثوثاً مفرقاً فى كتبهم الكثيرة ، أو مجتمعاً قليلا فى بعض الكتب . وقد برزوا فى هذه النواحى تبريزاً قوياً ظهر فى كتبهم ، كوفيات الأعيان لابن خلكان ، وفوات الوفيات للكتبى ، وبغية الوعاة للسيوطى ، ومعجم الأدباء لياقوت ، والأغانى لأبى الفرج ، ويتيمة الدهر للثعالبى ، وقلائد العقيان للفتح بن خاقان ، ونفح الطيب للمقرى ، والعمدة لابن رشيق ، والمثل السائر لابن الأثير ، والمقدمة لابن خلدون ، والموازنة للآمدى وغيرها .

غير أن ما فى هذه الكتب لا يعدو – فى الجملة – أن يكون أخباراً مفردة غير مرتبطة ، لا تحدد عصراً من العصور . ولا تصور الحياة الأدبية قوة وضعفاً فى زمن من الأزمنة ، ولا تظهر ما بين الشعراء أو الكتاب من علاقة فى الصنعة والمذهب ، ولا تذكر ما عرا النثر والنظم من تحول وتقلب ، فهى أدب لا تاريخ أدب .

وجاء المستشرقون فجمعوا هذه المسائل المفرقة ، واستمدوا منها أصولا أعانتهم على بحث تاريخ أدب العرب على ضوء بحوثهم فى تاريخ أدبهم فقد بحثوا عصور الآداب العربية ، وردوا إلى كل عصر آثاره الأدبية ، وحللوا المؤثرات العامة التى أثرت فى كل فترة قوة أو ضعفاً ، وعنوا بدراسة أعلام الأدب وبيان مذاهبهم ، وما يكون من تأثير القديم فى المحدث ، وما يكون من المشابه والفروق التى تباعد بين الشعراء والكتاب أو تقربهم ، وغير ذلك من الدراسات التى لم يعهدها أدباء العرب والتى نسميها نحن الآن « تاريخ الأدب العربى » .

فتاريخ أدب اللغة إذن علم يبحث عن أحوال اللغة وآدابها ، ويصور ما يختلف عليها من رقى وانحطاط فى مختلف العصور والأطوار ، ويعنى بتاريخ النابهين من أهل الصناعتين ونقد مؤلفاتهم وتأثير بعضهم فى بعض بالفكر والصناعة .

وهو إذن علم حديث النشأة ، ابتدعه الإيطاليون فى القرن الثامن عشر ، وعنى به المستشرقون فى القرن التاسع عشر ، وقد ظل مجهولا فى الشرق حتى اشتد خلاطه بالغرب ، فكان أول من نقله إليه المرحوم الأستاذ حسن توفيق العدل على أثر عودته من ألمانيا وقيامه بتدريسه فى دار العلوم ،

ثم تتابع المؤلفون على هذا المنهج كالإسكندرى فى الوسيط وجورجى زيدان فى (تاريخ آداب اللغة العربية) والرافعى فى (تاريخ آداب العرب) والزيات فى (تاريخ الأدب العربى) وغيرهم من أساتذة الجامعة والأزهر .

أما كتابا « الوسيلة الأدبية للمرصفى » و « المواهب الفتحية » لحمزة فتح الله ، فهما على نهج الكتب القديمة ، وهى كما ذكرنا من كتب الأدب لا من كتب تاريخ الأدب. لأن الأدب كما رأينا هو نفس النصوص الشعرية والنثرية ، وتاريخه هو العلم الذى يبحث فى أحوال هذه النصوص وأطوارها والعوامل السياسية والاجتماعية والإقليمية التى أثرت فيها ،

وهكذا نرى تاريخ الأدب يتصل بالتاريخ العام من حيث حاجة كل منهما إلى الآخر ، فالتاريخ السياسى يحتاج إلى تاريخ الأدب فى استظهار بعض الصور الأدبية التى تتصل بالأخلاق بما يعينه على تعليل التقلبات السياسية ونحوها . والتاريخ الأدبى يحتاج إلى التاريخ السياسى فى استنباط الصورة الأدبية الصحيحة بما يعرضه الأخير من النظم السياسية والاجتماعية المؤثرة فى الأدب وفى حياة الأديب أو الشاعر ، فكلاهما متأثر بالآخر مؤثر فيه ،

هذا ومؤرخو الأدب يقسمون عصور تاريخ الأدب العربى إلى أقسام ، حسب الخصائص الفنية لكل مجموعة من الآثار الأدبية متأثرة بمؤثرات خاصة من النظم الاجتماعية والسياسية والدينية . وهذه الأقسام هى : العصر الجاهلى ويقدرونه بقرن ونصف قبل الإسلام ، وعصر صدر الإسلام من البعثة إلى سنة ٤١ هـ ، والعصر الأموى من ولاية معاوية سنة ٤١ هـ إلى سنة ١٣١ هـ

والعصر العباسي من سنة ١٣٢ ه إلى سقوط بغداد سنة ٦٥٦ ه ، ثم عصر الدول المتتابعة حتى بدء حكم محمد علي سنة ١٢٢٠ ثم عصر النهضة الحديثة من محمد علي إلى اليوم .

وهذا في الواقع تقسيم تقريبي مبني على مسايرة اللغة العربية للانقلابات السياسية والاجتماعية ، إذ الواقع أن هذه العصور متداخلة ، نظراً لأن هذه المسايرة تكون بطيئة، وتأثر الأدب بهذه الانقلابات يكون تدريجيا ، بعد أن تتشبع نفوس الأدباء بالأحداث الجديدة .

— ٣ —

وينقسم الأدب إلى إنشائي ووصفي ، فالأدب الإنشائي هو ما تعبر به من شعر أو نثر عما تحس به من الخوالج والعواطف والخواطر نحو الطبيعة سواء أكانت هذه الطبيعة داخلية تحسها في نفسك وتجدها في قلبك ؟ متمثلة في عواطفك وميولك وأهوائك ، أم خارجية تراها في الجبال والبحار والسماء والنجوم والرياض والأحداث المختلفة . فإذا هزك منظر من مناظر الطبيعة ، أو راقك مشهد من مشاهدها ، أو اختلجت نفسك بعاطفة من عواطف الحب أو البغض أو الرثاء أو الازدراء ، وصورت ما أحسسته وشاهدته تصويراً ملائماً للموضوع ، فإن هذا التصوير الذي يتمثل في شعرك أو نثرك يسمى أدباً إنشائياً ، لأنك أنشأته بعد أن لم يكن ، وارتجلته مقلداً به الطبيعة التي يظهر ابتسامها وغضبها مثلا في عصف الريح وقصف الرعد واضطراب البحر ، ويتجلى ابتسامها ورضاها في ضوء الشمس وعرف الزهرة وتغريد الطائر . وإذن فموضوع الأدب الإنشائي الطبيعة داخلية أو خارجية .

أما الأدب الوصفي فهو ما يتناول القصيدة أو الرسالة من الأدب الإنشائي بالوصف والنقد والتقريظ ، فيثني عليها ويطريها إن رضي عنها ،

وينقدها ويعيبها إن سخط عليها . فهذا النقد أو التقريظ لا يصور الطبيعة تصويراً مباشراً ، ولا يصور تأثر صاحبه بها ، وإنما يصف الكلام الذى قيل فى تصوير الطبيعة ، فموضوعه إذن هو الكلام لا الطبيعة : القصيدة التى تصور البحر لا البحر نفسه .

فالأدب الوصفى إذن هو الذى نسميه نقداً ، ولا شك أنه وجد بعد الادب الإنشائى ، وتستطيع أن تدخل فيه تاريخ الادب ، إذ كان إنما يعالجه هذا التاريخ الموازنة والخصائص الفنية ونحوها .

وبهذا تستطيع أن تقسم الأدب الوصفى إلى قسمين : أحدهما النقد الذى يبين ما يمتاز به الأدب الإنشائى من المحاسن والعيوب ، والآخر تاريخ الأدب ، وقد عرفت مهمته فى بيان أحوال الأدب وأطواره .

— ٤ —

وينقسم الأدب كذلك إلى ذاتى وموضوعى .

فالأدب الذاتى هو الذى يعبر فيه الأديب عن خواطره ومشاعره وآرائه وأحاسيسه وتأملاته ، فالشعر الغنائى – وهو قسيم التمثيلى والقصصى – من الأدب الذاتى لأن الشاعر يتغنى فيه بعواطفه الذاتية وخوالجه النفسية وآماله وآلامه ، وليس معنى هذا أنه مجرد من الصبغة الموضوعية ، بل معناه أن الصبغة الذاتية هى الراجحة فيه .

والادب الموضوعى هو ما لا يعبر به الاديب عن عاطفته أو ميوله الخاصة ولا ينطق بلسان نفسه ، وإنما يعبر به عما يجول عما يجول بخواطر غيره فالادب التمثيلى والقصصى من الادب الموضوعى ، لان الشاعر أو الكاتب إنما يعبر فيهما عما يجول بخواطر الاشخاص الذين يتحدث عنهم ويعبر عن آرائهم وينطق بلسانهم ، فهو كالمؤرخ يسرد الحادث التاريخى فى أسلوب بليغ دون أن يصبغ عباراته بنزعاته وميوله وآرائه الخاصة .

الباب الثانى

النثر الجـــاهلى

معنى الجـاهلية :

يسمى العهد الذى كان قبل بعثة الرسول صلوات الله عليه العصر الجاهلى .

وقد وردت نصوص إسلامية كثيرة فيها لفظ « الجاهلية » . من ذلك قول عمر رضى الله عنه : إنى نذرت فى الجاهلية أن أعتكف ليلة ، وقول عائشة رضى الله عنها : كان النكاح فى الجاهلية على أربعة أنحاء ، وقولهم : يارسول الله كنا فى جاهلية وشر ، وقالوا : شاعر جاهلى ، وقال رسول الله صلوات الله عليه أربعة فى أمتى من أمر الجاهلية . كل ذلك من الجهل ، ضد العلم والمعرفة ، أو بمعنى السفه والطيش والإثم ، أو بمعناهما جميعاً ، ثم قيل جاهل بهذا المعنى أو ذاك أو ذلك ونسب إليه ، وأصبح ذلك علماً على العصر الذى كان فى شبه الجزيرة العربية قبل مبعث محمد صلوات الله وسلامه عليه ، وهذا الاسم حدث فى الإسلام كما يقول ابن خالويه(١) .

وسنتحدث هنا عن الأدب العربى فى العصر الجاهلى وما كان عليه شعراً ونثراً ، وعن أعلام الأدب وحياتهم وأدبهم .

الشعر والنثر :

والأدب الجاهلى ، أو قل الأدب على الإطلاق قسمان : شعر ونثر : فالشعر هو الكلام الموزون المقفى ، والنثر هو ما خلا من الوزن والتقفية

---

(١) راجع ص ١٥ من كتاب عادات العرب فى جاهليتهم ط القاهرة ١٩٢٤ وراجع فى هذا البحث الشهاب الراصد ص ٤٩ ط ١٩٢٦ .

والشعر يعتمد على الخيال والعاطفة ، ويثير الشعور والوجدان ، والنثر غالباً ما يعتمد على الحقائق ويركن إلى صدق التعبير ، وقد يعتمد على الخيال ويتعمد إثارة العواطف ، ويصاغ فى أساليب شبيهة بأساليب الشعر فيسمى شعراً منثوراً .

والنـــثر نوعان : أحدهما ما يدر فى كلامنا المألوف إذا تحدث الناس بعضهم إلى بعض فى حاجاتهم ومصالحهم فيرسلونه إرسالا على سجيتهم وعلى ما تدعو إليه الحاجة والمصلحة ، وهذا ما نسميه لغة التخاطب ، وهذا لا يعنى به الأدب وليس قسما منه ، فليس شعراً ، وهو فى الوقت نفسه ليس هو النثر الذى يحفظ ويروى ويتأدب به الذى هو أحد قسمى الأدب، وإنما هو كلام عادى لم يقصد أصحابه فيه غالبا إلى الإجادة ولا إلى جمال فنى وإنما أرادوا تأدية ما فى نفوسهم من المعانى وتحقيق ما تقتضيه منافعهم من الأغراض .

والثانى هو ما يسمى نثرا فنيا وهو ما حوى أفكارا منظمة ، فى عرض جميل جذاب وصياغة جيدة السبك فصيحة الأسلوب ، وهذا هو الذى يعد قسيما للشعر فى باب الأدب ، وأهم أنواعه : الخطابة ، والكتابة الفنيـــة . والكتابة عند الأوربيين : وصف أو قصص ، وعند العرب : رسائل وقصص ومناظرة وجدل وتاريخ . وسنتكلم على مظاهر الأدب فى العصر الجاهلى بالتفصيل .

ولكن هل الشعر هو السابق فى النشأة الادبية أو النثر الفنى ؟

يرى الدكتور طه حسين ومن اتبعه مقلدين فى ذلك بعض المستشرقين كالمسيو مرسيه الفرنسى أن الشعر أسبق فى الوجود من النـثر الفنى (١) . ويستدلون على ذلك بما يأتى (٢) :

---

(١) راجع ص ٣٣ : ١ النثر الفنى لذكى مبارك
(٢) ص ١٠ - ١٢ - ١٧٢ وما بعدها التوجيه الأدبى ط ١٩٤٠ - الباب السابع

ا) الشعر فى آداب الامم الأوربية سابق على النثر فعند اليونان كانت قصائد هوميروس تنشد ويتغنى بها قبل أن يؤلف كتاب أو يظهر نثر فنى ، وفى الادب الإنكليزى ترى أن أقدم الآثار الادبية عند الانكليز القدماء القصائد التى تصف أعمال « بيولف » وهى ترجع إلى القرن السادس أو السابع الميلادى . فقد ظلت الامم تتمتع بأدب الشعر قبل أن ينشأ فيها أدب النثر .

ب) كثرة الشعراء فى العهد الاول لأدب أى أمة من الأمم وزيادتهم زيادة بينة على كتّاب النثر .

حـ) ومن أقوى الأسباب التى قدمت نشأة الشعر على نشأة النثر فى رأيهم أن الادب المنثور يتطلب معرفة بالكتابة والكتابة متأخرة فى تاريخ كل أمة فقصائد هوميروس انتشرت وذاعت وتناقلها الناس قبل أن تذيع الكتابة وكذلك روى الرواة الشعر العربى القديم قبل أن تذيع الكتابة ، ومنشىء الادب المنثور لا بد له من تدوين ما يخطر له .

د) الشعر يعتمد على الخيال فى حين يعتمد النثر الفنى على المنطق والتفكير والخيال يسبق التفكير فى حياة الافراد والجماعات (١)

هـ) الجماعات الساذجة نجد عندها كلاما موزونا دون أن نجد عندها نثرا فنيا صحيحاً .

و) الشعر متصل بالغناء فالناس يغنون شعراً قبل أن يغنوا نثرا لأنهم

= من كتاب أصول النقد الأدبى للشايب ، ٣٦٤ – ٣٦٨ من كتاب الأدب الجاهلى لطه حسين . وراجع فى ذلك البحث : الطبع والصنعة للهياوى و ٣٧ : ١ الحيوان للجاحظ .

(١) ويبدو لى أن نظرية سبق الشعر للنثر أخذها المستشرقون من كتاب الشعر لارسطو ، فنى الشفاء – فن الشعر – ما نصه : التخيل أسبق فى الزمن من التصديق فالناس أول ما يسمعون إنما يسمعون الامثال الشعرية التى فيها مشاكلة للاقاويل التخيلية ثم يتدرجون إلى الخطابة ثم إلى البرهان (الشفاء فن الشعر)

يجدون فى الشعر أوزاناً تلائم تقطيع الغناء وأنغامه (١)

أما الدليل الأول فلا يدل على شىء ، بل إن دل فإنما يدل على ضياع النثر لعدم تدوينه وبقاء الشعر لأنه يعلق بالحافظة ويخلد بالرواية .

ومن أجل ذلك بقى الشعر وأخبار الشعراء معروفة لم يحف عليها النسيان وهو السبب فى كثرة الشعراء فى العصور الأولى من عصور آداب الأمم كثرة كبيرة وفى زيادتهم على الكتاب ورجال النثر ، وبذلك نجد الدليل الثانى منهاراً .

ولعدم وجود الكتابة فى العصور القديمة التى هى وسيلة لتخليد النثر الفنى ضاع أغلب ما لدى الأمم من نثر فنى ، فكيف إذا يستدلون على سبق الشعر للنثر باحتياج الأدب المنثور للكتابة فى تدوينه ، وبذلك تجد الدليل الثالث لا يكاد يسير نحو الهدف خطوة واحدة .

وزعمهم أن الشعر يعتمد على الخيال والنثر على المنطق والتفكير صحيح فى الأول مبالغ فيه فى الثانى ، فلم لا يكون النثر الفنى فى بدء نشأته قد اعتمد على الخيال أيضاً كالشعر ، ولم لا يكون هذا النثر قد اعتمد على المنطق والتفكير على حسب عقلية الأمة وثقافتها ومقدار تفكيرها فى هذه العصور القديمة ، وبذلك نجد الدليل الرابع لا يؤدى إلى غاية .

وأما أن الأمم التى لم تصعد درجة فى الحضارة لها شعر وليس لها نثر فنى فخطأ فى الرأى ، فان هذه الجماعات الساذجة يوجد بجانب ما لديها من شعر نثر ملائم لعقلياتها ومظهره الأمثال والحكم والتجارب والنصائح ، وذلك

---

(٢) ويرى المستشرقون أن كلمة شعر مأخوذة من اللغة العبرية من كلمة « شير » بمعنى الترتيلة أو التسبيحة القدسية ويرجحون ذلك بأنه لم يرد فى العربية شعر بمعنى القصيدة وكل ما فيها : شعر أى قال الشعر وفى اللغة الانجليزية كلمة Bæzd معناها الشاعر المغنى وكان الأعشى صناجة العرب لأن شعره كان يتغنى به (٦٩ فجر الاسلام و٢٧ الزيات والتوجيه الأدبى)

يشاهد كثيرا فى بيئتنا المصرية العامية التى يمثل بها هؤلاء تأييدا لرأيهم من سبق الشعر للنثر وبذلك لا يمكننا التعويل على الدليل الخامس .

وأما أن الشعر غنى به من قديم قبل أن يغنوا نثرا فنشأ ذلك أن الشعر أصلح للغناء من النثر لموسيقاه وقافيته ، فكيف يتركونه ويغنون بنثر فى لا يلائم الغناء .

والحق أن النثر وجد أولا ثم تحول إلى النثر الفنى ، ثم نشأ بعد ذلك الشعر ، ويؤيد هذا الرأى إجماع كثير من المستشرقين على أن السجع كان المرحلة الأولى التى عبرها النثر إلى الشعر فى الأدب العربى القديم .

ويؤيده أيضاً وجود الكتب الدينية السماوية من قديم الأجيال فى الأمم التى أنزلت لها ، وذلك قبل أن نسمع بالشعر والشعراء . ولعل هذه الكتب هى التى أدت إلى نشأة النثر الفنى فى العصور القديمة البعيدة قبل أن يوجد الشعر بزمن طويل .

ويؤيده أيضا إجماع الباحثين أو شبه إجماعهم على أن النثر أسبق من الشعر (١)

* * *

وبعد فالنثر مرسل ومزدوج ومسجوع .

فالمسجوع كما فى سورة الكوثر ، والسجع هو ما اتحدت فاصلتاه أو فواصله فى الحرف الأخير مثل : من عاش مات ، ومن مات فات .

والمزدوج هو ما اتحدت فواصله فى وزنها لا فى الحرف الأخير منها - مما نسميه تقفية ، مثل قوله تعالى : ونمارق مصفوفة ، وزرابى مبثوثة . ويسمى هذا الموازنة عند علماء البديع ، فإن اتحدت الفواصل وزناً وتقفية عد من السجع فى الراجح وعده بعضهم من المزدوج .

والمرسل هو ما خلت فواصله من الاتحاد فى الوزن والقافية معا مثل :

---

(١) راجع ١٧ تاريخ الأدب العربى للزيات وسواه .

« لإيلاف قريش ، إيلافهم رحلة الشتاء والصيف ، فليعبدوا رب هـذا البيت . الذى أطعمهم من جوع ، وآمنهم من خوف »

هـــذا وينكر بعض المستشرقين ومن تابعهم وجود نثر فنى جاهلى لأن عيشة العرب الأولين لم تكن توجد النثر الفنى لأنه لغة العقل ، على حين سمحت بالشعر لأنه لغة الخيال والعاطفة ، وهذا الرأى خطأ ، بدليل ما يأتى :

ا) كان عند كثير من الأمم القديمة كالفرس والهنود وقدماء المصريين نثر فنى قبل الميلاد بكثير فلم لايكون للعرب نثر فنى بعد الميلاد بخمسة قرون؟

ب) وجود الكتب يستدعى وجود نثر فنى .

ح) بقاء بعض من النثر الجاهلى فى مصادر الأدب العربى وأمهات كتبه كالأغانى والأمالى وسواهما ، أما الكثير منه فقد ضاع لعدم تدوينه بالكتابة التى لم تكن معروفة فى الجاهلية إلا للقليل النادر من الناس (١)

* * *

هذا والنـــثر الجاهلى ينقسم إلى أمثال وحكم ووصايا ، وخطب ، ومنافرات ، ومفاخرات ، ومحاورات ، ونثر الكهان .

وسنتكلم عن هذه الألوان الأدبية إن شاء الله تعالى (٢)

---

(١) هذا وينكر طه حسين كل ما يضاف إلى عرب الجنوب من نثر فى الجاهلية ، لأن النثر المروى لنا إنما جاء بلغة قريش التى لم يكن لهم بها علم ولأنه كان لهم لغة معروفة كتبوها وتركوا لنا فيها نصوصا منثورة كشفها المستشرقون وهى لاتوافق لغة قريش فى شىء فكل ما يضاف إلى اليمنيين عنده من نثر مرسل أو مسجوع أو خطابة فى الجاهلية منتحل . أما عرب الشمال فيرى رفض ما يضاف إلى ربيعة وغيرها من عرب العراق والبحرين والجزيرة من نثر ، ويتردد فيما ينسب الى مضر وهذا هو موقفه بالنسبة للشعر الجاهلى أيضا

(٢) راجع ٣٦٤ - ٣٧٥ الأدب الجاهلى لطه حسين فى الكلام على النـثر الجاهلى . وص ٨٦ - ١١٣ من كتاب الاسلوب للشايب فى الكلام على أساليب النثر . والباب السابع فى النثر من كتاب النقد الأدبى للشايب .

مميزات النـــثر الجاهلى

-١-

يمتاز النثر الجاهلى فى معانيه بما يأتى :

١ ـ الصدق والسذاجة والبساطة وعدم المبالغة أو الغلو

٢ ـ عدم التعمق فى المعانى أو تعقيدها أو التركيب والمزج بينها ، لأنهم كانوا فى بداوة تامة فى حياتهم وتفكيرهم وكل شئون معيشتهم .

٣ ـ معانيهم مستمدة من بيئتهم وحياتهم ، ومنطلقة مع الحرية التى ألفتهم وألفوها ، وهى بدوية كلون حياتهم ، تنطق عن فطرة البداوة وتفكيرها وإحساسها .

٤ ـ كثرة الحكم والأمثال فى نثرهم

٥ ـ تفكك المعانى وكثرة الانتقال بينها

-٢-

ويمتاز النثر الجاهلى فى أغراضه بأنه كان يلتقى فى:

١ ـ الدعوة إلى الانتقام والأخذ بالثأر وإشعال نار الحرب . أو الدعوة إلى الصلح والسلام .

٢ ـ المفاخرة والمنافرة والمحاورة والكهانة ،

٣ ـ وصف مشاهد الحياة ومظاهرها فى الصحراء .

التوصية بفعل خير أو إسداء معروف أو سلوك نهج محمود أو بعد عن خطة مذمومة .

٥ ـ الوفادة على الأمراء والملوك إلى غير ذلك من شتى أغراض النـثر

فى العصر الجاهلى : كالتبشير بنبى جديد ، أو النهى عن الرذائل والآثام .

- ٣ -

أما ألفاظ النثر الجاهلى فيبدو عليها السذ والبداوة ، فأحيانا سهلة رقيقة . وأحيانا وحشية وغريبة ، ولم يكونوا يتأنقون فى اختيار اللفظ ذى النغمة المتشابهة أو الجرس المتآلف ، ويندر استعمالهم للألفاظ الأعجمية فى نثرهم إلا قليلا منهم ممن اتصلوا بالفرس وسواها من الأمم القديمة .

وأسلوب النثر الجاهلى يمتاز : بالخلو من اللحن والإيجاز ، وقلة المترادف ، وإيثار الكتابة القريبة على التصريح ، وبقصر الجمل غالباً ، وخاصة فى الحكم والأمثال وسجع الكهان ، كما يمتاز بعدم التكليف فى الصياغة والأسلوب ، وإهمال الربط بين الجمل وعدم قصد المحسنات البديعية أو تعمدها ، وكلامهم يخلو منها إلا نادراً وعن غير عمد أو قصد . وفى أسلوبهم الجزالة والقوة وشدة الأسر ، والوضوح . والقرب إلى الذوق الأدبى المطبوع .

أمثلة للنثر المأثور فى العصر الجاهلى

— ١ —

من النثر الفنى فى العصر الجاهلى هـذه القطعة التى رواها القالى عن ابن الـكلبى عن أبيه قال(١) :

كان قيل من أقيال حمير منع الولد دهراً ، ثم ولدت له بنت ، فبنى لها قصراً منيفاً بعيداً من الناس ، ووكل بها نساء من بنات الأقيال يخدمنها ويؤدبنها ، حتى بلغت مبلغ النساء ، فنشأت أحسن منشأ وأتمه فى عقلها وكمالها، فلما مات أبوها ملكها أهل مخلافها(٢) . فاصطنعت النسوة اللواتى ربينها وأحسنت إليهن وكانت تشاورهن ولا تقطع أمراً دونهن . فقلن لها يوما : يا بنت الكرام لو تزوجت لتم لك الملك ، فقالت : وما الزوج ؟ فقالت إحداهن : الزوج عز فى الشدائد ، وفى الخطوب مساعد ، إن غضبت عطف ، وإن مرضت لطف . قالت : نعم الشىء هذا . فقالت الثانية : الزوج شعارى حين أصرد(٣) ، ومتكئى حين أرقد ، وأنسى حين أفرد ، فقالت : إن هذا من كمال طيب العيش ـ إلى آخر هذه القطعة الطويلة الجميلة الساحرة .

— ٢ —

وعن أبى عبيدة قال(٤) :

كان قيس بن رفاعة يفد سنة إلى النعمان اللخمى بالعراق وسنة إلى الحارث ابن أبى شمر الغسانى بالشام ، فقال له يوما وهو عنده : يا ابن رفاعة ، بلغنى أنك تفضل النعمان على ، قال : وكيف أفضله عليك أبيت اللعن ؟ فوالله لقفاك أحسن من وجهه ، ولأمك أشرف من أبيه ، ولأبوك أشرف من قومه ، ولشمالك أجود من يمينه ، ولحرمانك أنفع من نداه ؛ ولقليلك أكثر

(١) ١:٨٠ الأمالى (٢) المخلاف : الـكورة (٣) أى أبرد (٤) ١:٢٥٧ الأمالى

من كثيره ، ولكرسيك أرفع من سريره ، ولجدولك أغمر من بحوره ، وليومك أفضل من شهوره . ولزندك أورى من زنده ، ولجندك أعز من جنده ، وإنك لمن غسان أرباب الملوك ، وإنه لمن لخم الكثيرى النوك (١) ؛ فكيف أفضله عليك ؟ .

— ٣ —

وعن العباس بن هشام عن أبيه قال(٢) :

كان قس بن ساعدة يفد على قيصر ويزوره ، فقال له قيصر يوما : ما أفضل العقل ؟ قال : معرفة المرء بنفسه ، قال : فما أفضل العلم ؟ قال : وقوف المرء عند علمه ، قال : فما أفضل المروءة ؟ قال : استبقاء الرجل ماء وجهه ، قال : فما أفضل المال ؟ قال : ماقضى به الحقوق .

— ٤ —

ومن المثل كذلك ما قالته وفود العرب فى تعزية سلامة ذى فائش بابنه(٣) ومنها :

قال الملبّبُ : أيها الملك ، إن الدنيا تجود لتسلب ، وتعطى لتأخذ ، وتجمع لتشتت ، وتحلى لتمر ، وتزرع الأحزان فى القلوب بما تفجأ به من استرداد الموهوب . وقد تناهت إليك أنباء من رزىء فصبر ، وأُصيب فاغتفر الخ .

— ٥ —

واجتمع (٤) عامر بن الظرب العدوانى وحممة بن رافع الدوسى(٥) عند ملك من حمير فقال : تساءلا حتى أسمع ما تقولان ، فقال عامر لحممة :

---

(١) أى الحمق . (٢) ٢:٣٧ الأمالى (٣) ٢:٩٩ الأمالى
(٤) ٢:٢٧٦ الأمالى
(٥) وكان ابنه عمرو أحد من تتحاكم اليه العرب (٢:١٤٣ الأمالى)

من أجدر الناس بالصنيعة ؟ قال : من إذا أعطى شكر ، وإذا منع عذر ، وإذا موطل صبر ، وإذا قدم العهود ذكر ، قال : من أكرم الناس عشرة ؟ قال : من إن قرب منح ، وإن بعد مرح ، وإن ظلم صفح ، وإن ضويق سمح قال : من أحكم الناس ؟ قال : من صمت فادكر ، ونظر فاعتبر ، ووعظ فازدجر الخ .

— ٦ —

وكان هوذة بن على الحنفى يجير لطيمة كسرى فى كل عام (واللطيمة عير تحمل الطيب والبز) فوفد على كسرى ، فسأله عن بنيه ، فسمى له عددا . فقال : أيهم أحب إليك ؟ قال : الصغير حتى يكبر ، والغائب حتى يرجع ، والمريض حتى يفيق ، فقال له : ماغذاؤك فى بلدك ؟ قال الخبز . فقال كسرى لجلسائه : هذا عقل الخبز ، يفضله على عقول أهل البوادى الذين غذاؤهم اللبن والتمر(١) .

— ٧ —

ويروى(٢) أنه لما بلغ الحارث(٣) بن عمرو ملك كندة جمال ابنة عوف ابن مُحلم الشيبانى ، وكمالها وقوة عقلها ، دعا امرأة من بنى كندة يقال لها عصام ذات عقل ولسان وأدب وبيان ، وقال لها : اذهبى حتى تعلمى لى علم ابنة عوف .

فمضت حتى انتهت إلى أمها ، فأعلمتها ما قدمت له ، فأرسلت إلى ابنتها ، وقالت : أى بنية ، هذه خالتك أتتك لتنظر إليك ، فلا تسترى عنها شيئاً أرادت النظر إليه من وجه وخلق ، وناطقيها إن استنطقتك .

---

(١) ص ٩٧ مختار العقد الفريد ١٩١٠

(٢) مجمع الأمثال ص ١٩٢ ج ٢ ، العقد الفريد ص ٢٢٣ ج ٣ ، ٣٢٧ مختارات العقد (٣) من أشراف العرب فى الجاهلية ، كان مطاعاً فى قومه ، قوياً فى عصبيته ، وكانت تضرب له قبة فى عكاظ ، توفى نحو ٤٥ ق . ه

فدخلت عصام إليها ، فنظرت إلى ما لم تر عينها مثله قط بهجة وحسناً وجمالا ؛ فإذا هي أكمل الناس عقلا ، وأفصحهم لساناً ، فخرجت من عندها وهي تقول : ترك الخداع من كشف القناع .

ثم أقبلت إلى الحارث ، فقال لها : ماوراءك ياعصام ؟ قالت : صرح المخض عن الزبد[1] . قال : أخبريني . قالت : أخبرك صدقاً وحقاً :

رأيت جبهة كالمرآة الصقيلة ، يزينها شعر حالك كأذناب الخيل المضفورة ، إن أرسلته خلته السلاسل ، وإن مشطته قلت عناقيد كرم جلاها الوابل[2] ، وحاجبين كأنهما خطا بقلم ، أو سودا بحمم[3] ، قد تقوسا على عين الظبية العبهرة[4] ، التي لم يرعها قانص ، ولم يذعرها قسورة[5] ، بينهما أنف كحد السيف المصقول ، لم يخنس[6] به قصر ، ولم يمض به طول ، حفت به وجنتان كالأرجوان[7] في بياض محض كالجمان[8] ، شق فيه فم كالخاتم ، لذيذ المبتسم ، فيه ثنايا غر ، ذوات أشر[9] ، وأسنان تبدو كالدرر ، يتقلب فيه لسان ذو فصاحة وبيان ، يحركه عقل وافر ، وجواب حاضر[10] . . . إلى أن قالت :

فأما ماسوى ذلك فتركت أن أصفه ، غير أنه أحسن ماوصفه واصف بنظم أو نثر ؛ فأرسل الملك إلى أبيها فخطبها ، فزوجه إياها .

---

(١) مخض اللبن : أخذ زبده ، والتصريح : التبيين . وهو مثل يضرب للامر اذا انكشف وتبين .

(٢) الوابل : المطر الشديد (٣) الحمم : الفحم .

(٤) العبهرة : الرقيقة البشرة الناصعة البياض (٥) القسورة : الرماة من الصيادين (٦) خنس: تأخر، والخنس تأخر الأنف عن الوجه مع ارتفاع قليل في الأرنبة (٧) الأرجوان : صبغ أحمر (٨) الجمان : اللؤلؤ (٩) أشر الأسنان: التحزيز الذي فيها .

(١٠) انظر بقية الوصف في مراجع القصة .

فلما حملت إلى زوجها ؛ قالت لها أمها ـ أمامة بنت الحارث :

أي بنية ؛ إن الوصية لو تركت لفضل أدب . تركت لذلك منك ، ولكنها تذكرة للغافل ومعونة للعاقل ؛ ولو أن امرأة استغنت عن الزوج لغنى أبويها ، وشدة حاجتهما إليها كنت أغنى الناس عنه ، ولكن النساء خلقن للرجال ، ولهن خلق الرجال .

أي بنية ؛ إنك فارقت الجو الذي منه خرجت ، وخلفت العش الذي فيه درجت ، إلى وكر لم تعرفيه ، وقرين لم تألفيه ، فأصبح بملكه عليك رقيباً ومليكا ، فكوني له أمة يكن لك عبداً وشيكا(١) .

يابنية ؛ احملي عني عشر خصال تكن لك ذخراً وذكراً : الصحبة بالقناعة ، والمعاشرة بحسن السمع والطاعة ؛ والتعهد لموقع عينه ، والتفقد لموضع أنفه ؛ فلا تقع عينه منك على قبيح ولا يشم منك إلا أطيب ريح ، والكحل أحسن الحسن ، والماء أطيب الطيب المفقود ، والتعهد لوقت طعامه ، والهدو عنه عند منامه ؛ فإن حرارة الجوع ملهبة ، وتنغيص النوم مغضبة ، والاحتفاظ ببيته وماله ، والإرعاء على نفسه وحشمه وعياله ؛ فإن الاحتفاظ بالمال حسن التقدير ، والإرعاء على العيال والحشم جميل حسن التدبير ، ولا تفشى له سراً ، ولا تعصى له أمراً ؛ فإنك إن أفشيت سره لم تأمني غدره ، وإن عصيت أمره أوغرت صدره ؛ ثم اتقي مع ذلك الفرح إن كان ترحا ، والاكتئاب عنده إن كان فرحا ، فإن الخصلة الأولى من التقصير ، والثانية من التكدير ؛ وكوني أشد ما تكونين له إعظاماً يكن أشد ما يكون لك إكراماً ، وأشد ما تكونين له موافقة يكن أطول ما تكونين له مرافقة .

واعلمي أنك لا تصلين إلى ما تحبين حتى تؤثري رضاه على رضاك ، وهواه على هواك فيما أحببت وكرهت ، والله يخير لك .

---

(١) الوشيك : السريع .

- ٨ -

وذكروا أن هند بنت عتبة قالت لأبيها : لا تزوجني من أحد حتى تعرض على أمره وتبين لى خصاله ، فخطبها أبو سفيان وسهيل بن عمرو فدخل عليها أبوها يقول :

أتاك سهيل وابن حرب وفيهما	رضا لك يا هند الهنود ومقنع
وما منهما إلا يوامى بفضله	وما منهما إلا يضر وينفع
وما منهما إلا كريم مرزأ	وما منهما إلا أغر سميدع
فدونك فاختارى فأنت بصيرة	ولا تخدعى إن المخادع يخدع

قالت : يا أبت والله ما أصنع بهذا شيئا ، ولكن فسر لى أمرهما ، وبين لى خصالها ، حتى أختار أشدهما موافقة لى ، فبدأ بذكر سهيل ، فقال : فى ثروة وسعة من العيش إن تابعته تابعك ، وإن مات عنه حط اليك ، تحكمين عليه فى أهله وماله . وأما الآخر : فموسع عليه ، منظور إليه فى الحسب الحسيب ، والرأى الأريب . مدره أرومته ، وعز عشيرته ، شديد الغيرة ، كبير الطهرة . فقالت : يا أبت الأول سيد مضياع للحرة فما عست أن تلين بعد إبائها ، وتضيع تحت جناحه ، إذا تابعها بعلها فأشرت ، وخافها أهلها فأمنت ، فساء عند ذلك حالها ، وقبح دلالها ، فإن جاءت بولد أحمقت ، وإن أنجبت فمن خطأ ما أنجبت ، فاطو ذكر هذا عنى ، ولا تسمه على بعد . وأما الآخر فبعل الفتاة الخريدة ، الحرة العفيفة ، وإنى لأخلاق مثل هذا لموافقة : فزوجنيه ، فزوجها من أبى سفيان (١) .

---

(١) ٣٢٨ مختار العقد ، ١٠٤:٢ الأمالى

أقسام النثر الجاهلى

ا ـ الحكم والأمثال ، ونماذج لهما :

١ ـ من حكماء العرب أكثم بن صيفى التميمى ، ومن حكمه :

رب عجلة تهب ريثا . رضا جميع الناس غاية لاتدرك آفة الرأى الهوى . من يزر غبا يزدد حبا . من سأل فوق قدره استحق الحرمان ، لم يذهب من مالك ماوعظك ويل للشجى من الخلى . مقتل الرجل بين فكيه . قبل الرماء تملأ الكنائن (١) .

٢ ـ ومن حكمائهم : ذو الاصبع العدوانى ، وعامر بن الظرب وقس بن ساعدة ،وحاجب بن زرارة ، وهاشم بن عبد مناف ، وعبد المطلب بن هاشم وهند بنت الخس . وسواهم ، ولا داعى لذكر أمثلة لحكمتهم . ومن أقدم حكمائهم لقمان المشهور (٢) ومن حكمه : رب أخ لك لم تلده أمك . الصمت حكم وقليل فاعله ، أخر الدواء الكى .

وكان عمرو بن حممة الدوسى أحد من تتحاكم العرب (٣) .

٣ ـ ومن حكمهم : العتاب قبل العقاب . كلم اللسان أنكى من كلم السنان . أول الحزم المشورة . أنجز حر ماوعد . اترك الشر يتركك . رب ملوم لاذنب له . من مأمنه يؤتى الحذر .

---

(١) راجع ص٢١٦ معراج البيان . وراجع أمثال أكثم بن صيفى وبزوجمهر فى العقد ص ٦٢ ج ٢

(٢) يتنازعه العرب والحبشة والمصريون واليهود وراجع الحديث عنه فى الجزء الثانى من الشريشى ، وكتاب الذكر الحكيم فى تفسير سورة لقمان ،ص ٧٨ و٧٩ : ١ فجر الإسلام (٣) ١٤٣ :٢ الأمالى

٤ ـ ومن أمثالهم :

إن العوان لا تعلم الخمرة (١)

ان البلاء موكل بالمنطق (٢)

إن أخاك من اساك .

سبق السيف العذل (٣)

عينك عبرى والفؤاد فى دد . والدد : اللهو (٤) .

عند جهينة الخبر اليقين .

مايوم حليمة بسر (٥)

أحشفاً وسوء كيلة ـ ويضرب لمن يجمع بين خصلتين مكروهتين .

نفس عصام سودت عصاما (٦) .

الصيف ضيعت اللبن .

كالمستجير من الرمضاء بالنار .

رجع بخفى حنين .

اليوم خمر وغدا أمر (٧)

إلى غير ذلك (٨) .

٥ ـ وقد يتمثل بالأمثال على لسان طائر أو حيوان أو نبات أو جماد

---

(١) العوان : النصف التى بلغت مبلغ النساء ، والخمرة : لبس الخمار . يضرب للعالم بالأمر المجرب له .

(٢) ينسب لأبى بكر قاله حين أمر الرسول أن يعرض نفسه على القبائل ويضرب لمن يتورط بقوله فيما يؤذيه .

(٣) يضرب فى الخطأ يلام فاعله بعد وقوعه .

(٤) يضرب لمن يظهر خلاف مايبطن ،

(٥) حليمة بنت ملك غسان . يضرب للامر المشهور الذى لا يكاد يجهل .

(٦) يضرب فى سؤدد الرجل بنفسه

(٧) يضرب فى تقلب الايام

(٨) راجع ٢٢٤ وما بعدها معراج البيان ، وراجع كتاب الامثال للميدانى

تسلية وفكاهة أو خوفا وحذارا من استبداد مستبد أو استطرافا وروعة أو وضعا للحكمة فى موضع الأمر المشهور المسلم به من كل شىء . ويمثل ذلك كليلة ودمنة وفاكهة الخلفاء وسواهما .

ومن ذلك :

فى بيته يؤتى الحكم (١) .

كيف أعاودك وهذا أثر فأسك (٢)

إلى غير ذلك . . .

٦ – وفى النثر الجاهلى ألوان من القصص تتمثل فى سير أيام العرب ، وفى القصص المروية عن الفرس ، وفى أحاديث الهوى والشباب (٣) .

ماهى الحكمة :

والحكمة قول بليغ موجز صائب يصدر عن عقل وتجربة وخبرة بالحياة ويتضمن حكما مسلما فى أمر بخير أو نهى عن شر . وقد كثرت الحكم والحكماء فى الجاهلية (٤) وكان فى كل قبيلة حكيم تفزع اليه فى الشدائد والمعضلات والمنافرات والخصومات .

والحكم من البلاغة بمكان كبير لإيجازها ووضوحها وفصاحتها ودقة معناها وجلال هدفها .

---

(١) قالوا : إن الأرنب التقطت تمرة فاختلسها الثعلب وأكلها فانطلقا يتخاصمان إلى الضب فقالت الأرنب يا أبا الحسل . قال : سميعا دعوت . قالت : أتيناك لنختصم اليك . قال : عادلا حكما . قالت : فاخرج إلينا . قال : فى بيته يؤتى الحكم . قالت : إنى وجدت تمرة . قال : حلوة فكليها . قالت فاختلسها الثعلب قال : لنفسه بغى الخير . قالت . فلطمته . قال : بحقك أخذت . قالت : فلطمنى قال : حر انتصر . قالت : فاقض بيننا . قال : قد قضيت . فذهبت أقواله كلها أمثالا

(٢) يضرب لمن لا يفى بالعهد . وهو مقول على لسان حية .

(٣) راجع ٨٢ – ٨٥ : ١ فجر الإسلام

(٤) وكانت هند بنت الخس من حكيمات العرب (راجع حديثها مع أبيها فى ص ١٠٧ ذيل الأمالى)

وهى تكسب الكلام سحرا وحلاوة ، وتجعله مقبولا فى الذوق ، قريبا إلى القلب ، مسلما به من العقل والشعور والوجدان .

وإذا اشتهرت الحكمة صارت مثلا .

ماهو المثل ؟ (١)

المثل مأخوذ من قولك هذا مثل الشىء ومثله أى شبهه ، ثم جعلت كل حكمة سائرة مثلا ، وفى العبرية كلمة مشل بمعنى الحكمة السائرة والحكاية القصيرة ذات المغزى والأساطير .

والمثل يعرف بأنه قول سائر شبه مضربه بمورده ، أوقل شبه فيه حال المقول فيه ثانيا بحال المقول فيه أولا ، وهذا هو رأى المبرد . وقال المرزوقى: هو جملة من القول تتسم بالقبول وتشتهر بالتداول فتنقل عما وردت منه إلى كل مايصح قصده منها من غير تفسير يلحقها فى لفظها وقد جمع هذا التعريف بين المثل والحكمة .

ويمتاز المثل بشهرته وإيجازه ودقة معناه وإصابة الغرض المنشود منه وصدق تمثيله للحياة العامة ولأفكار الشعب على وجه الخصوص ، وهو يكسب الكلام سحرا وروعة وجمالا وبلاغة . وتقال الأمثال الفرضية للحذر من استبداد المستبدين وطغيانهم ، وهى وسيلة للنقد والسخرية حقا .

والأمثال أصدق شىء يتحدث عن أخلاق الأمة وتفكيرها وعقليتها وتقاليدها وعاداتها ، ويصور المجتمع وحياته وشعوره أتم تصوير ، وهى مرآة للحياة الاجتماعية والسياسية والعقلية .

والأمثال يصعب عليك تمييز الجاهلى منها من الاسلامى ، لاختلاطهما ببعض عند الرواة والمؤلفين ولكن مايشير إليه المثل من حادث أوقصة

(١) جمع العسكرى والميدانى الأمثال العربية فى كتابيهما : جمهرة الأمثال للعسكرى ، ومجمع الأمثال للميدانى ، وراجع ٧٤ - ٨٢ : ١ فجر الإسلام

أو خبر مما يتصل بالجاهلية قد يساعد على معرفة الجاهلى منها وتمييزه من الإسلامى .

والأمثال إما حقيقية أو فرضية ، فالحقيقية لها أصل وقائلها غالبا معروف . والفرضية ما كانت من تخيل أديب ووضعها على لسان حيوان أو جماد أو ماشاكل ذلك .

والأمثال إما شعر وإما نثر ، ومثالها من الشعر :

تمتع من شميم عرار نجد ... فما بعد العشية من عرار (١)

أن ترد الماء بماء أوفق ... لاذنب لى قد قلت للقوم استقوا (٢)

لا تقطعن ذنب الأفعى وترسلها ... إن كنت شهما فأتبع رأسها الذنبا (٣)

كناطح صخرة يوما ليوهنها ... فلم يضرها وأوهى قرنه الوعل (٤)

وكذلك الحكم : إما نثر أوشعر . وقد سبقت أمثلتها والأمثال من النثر أما الحكمة الشعرية فمن مثلها :

إذا المرء لم يخزن عليه لسانه ... فليس على شىء سواه بخزان

ولست بمستبق أخا لاتلمه ... على شعث أى الرجال المهذب؟

إذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه ... فكل رداء يرتديه جميل

ومن لم يذد عن عرضه بسلاحه ... يهدم ومن لا يظلم الناس يظلم

---

(١) للصمة بن عبد الله القشيرى . ويضرب فى التمتع بالزائل . والعرار : نبت طيب الرائحة وهو النرجس البحرى .

(٢) يضرب لمن لا يقبل الموعظة .

(٣) هو لأبى أذينة اللخمى يحرض الأسود بن المنذر على قتلى بعض أسارى غسان يضرب فى التحريض على استئصال شأفة الشر

(٤) يضرب لمن يحاول مالا يستطيع فيتعب نفسه دون فائدة

ب ـ الوصايا والنصائح ، ونماذج لها:

١ ـ ذو الأصبع العدوانى حكيم شاعر وأحد المعمرين فى الجاهلية . قال لما احتضر يوصى ابنه أسيدا :

يابنى إن أباك قد فنى وهو حى ، وعاش حتى سئم العيش ، وإنى موصيك بما إن حفظته بلغت فى قومك مابلغته،ألن جانبك لقومك يحبوك ، وتواضع لهم يرفعوك ، وابسط لهم وجهك يطيعوك ، ولاتستأثر عليهم بشىء يسودوك وأكرم صغارهم ، كما تكرم كبارهم ، يكرمك كبارهم ، ويكبر على مودتك صغارهم ، واسمح بمالك ، وأعزز جارك ، وأعن من استعان بك ، وأكرم ضيفك ، وصن وجهك عن مسألة أحد شيئاً ، فبذلك يتم سؤددك .

٢ ـ ونصح أوس بن حارثة ابنه مالكا حين حضره الموت فقال(١) :
يا مالك المنية ولا الدنية ، والعتاب قبل العقاب ، والتجلد لا التبلد ، واعلم أن القبر خير من الفقر ، ومن كرم الكريم ، الدفاع عن الحريم ، ومن قل ذل ، وخير الغنى القناعة ، وشر الفقر الضراعة الخ .

٣ ـ وأوصت أعرابية ولدها فقالت :

أى بنى إياك والنميمة ، فانها تزرع الضغينة ، وتفرق بين المحبين ، وإياك والتعرض للعيوب فتتخذ غرضا . وخليق ألا يثبت الغرض على كثرة السهام وقلما اعترضت السهام غرضاً إلا كلمته حتى يهى ما اشتد من قوته ، وإياك والجود بدينك والبخل بمالك ، وإذاهززت فاهزز كريما يلن لهزتك ، ولاتهز لئيما فان الصخرة لا ينفجر ماؤها .

٤ ـ واقرأ وصية زهير بن جناب الكلبى لبنيه ، والتى يقول منها :

يابنى قد كبرت سنى ، وبلغت حرسا(٢) من دهرى ، فأحكمتنى التجارب

---

(١) ١٠٢ : ١ الأمالى .
(٢) أى أمراً طويلا منه .

والأمور تجربة واختبارا ، فاحفظوا عنى ماأقول وعوه ، إياكم والخور عند المصائب ، والتواكل عند النوائب ، فان ذلك داعية للغم ، وشماتة للعدو ، وسوء ظن بالرب الخ .

٥ - وأوصى النعمان بن ثواب العبدى ابنا له فقال :

يابنى إن الصارم ينبو ، والجواد يكبو ، والأثر يعفو ، فإذا شهدت حربا فرأيت نارها تسعر، وبطلها يخطر ، وبحرها يزخر ، وضعيفها ينصر، وجبانها يجسر ، فأقلل المكث والانتظار ، فإن الفرار غير عار ، إذا لم تكن طالب ثار .

٦ - واقرأ وصية امرأة عوف بن محلم الشيبانى لابنتها أم إياس ، وكان عمرو بن حجر جد امرىء القيس تزوجها ، ثم خرج بها من نادى قومها ، فأوصتها أمها قالت :

أى بنية إنك فارقت الجو الذى منه خرجت وخلفت العش الذى فيه درجت ، إلى وكر لم تعرفيه ، وقرين لم تألفيه ، فاحملى عنى عشر خصال تكن لك ذخرا :

اصحبيه بالقناعة ، وعاشريه بحسن السمع والطاعة ، وتعهدى موقع عينه فلا تقع عينه منك على قبيح ، ثم اعرفى وقت طعامه ، واهدئى عند منامه ، فإن حرارة الجوع ملهبة ، وتنغيص النوم مبغضة ، ثم اتقى مع ذلك الفرح أمامه إن كان ترحا ، والاكتئاب عنده إن كان فرحا ، فإن الخصلة الأولى من التقصير ، والثانية من التكدير ، وكونى أشد الناس له إعظاما ، يكن أشدهم لك إكراما ، واعلمى أنك لاتصلين إلى ماتحبين حتى تؤثرى رضاه على رضاك ، وهواه على هواك ، فيما أحببت أو كرهت . والله يخير لك .

٧ - وصية لأكثم بن صيفى :

تباروا فإن البر يبقى عليه العدد ، وكفوا ألسنتكم فإن مقتل الرجل بين فكيه ، إن قول الحق لم يدع لى صديقاً ، الصدق منجاة ، لاينفع التوقى عماهو

واقع ، فى طلب المعالى يكون العنا ، الاقتصاد فى السعى أبقى للجمام ، أصبح عند رأس الأمر أحب إلى من أن أصبح عند ذنبه ، لم يهلك من مالك ما وعظك ويل لعالم أمر من جاهله ، يتشابه الأمر إذا أقبل ، وإذا أدبر عرفه الكيس والأحمق ، البطر عند الرخاء حمق والعجز عند البلاء أمن ، لا تغضبوا من اليسير فإنه يجنى الكثير ، لا تجيبوا فيما لا تسألون عنه ، ولا تضحكوا مما لا يضحك منه ، حيلة من لا حيلة له الصبر ، إن تعش تر مالم تره ، المكثار كحاطب ليل من أكثر أسقط ، لا تجعلوا سراً إلى أمة .

إلى ماسوى ذلك من بليغ وصاياهم ، وفصيح نصائحهم المأثورة .

ما هى الوصايا :

والوصايا جمع وصية ، والوصية ما توجهه إلى إنسان أثير لديك من ثمرة تجربة وحكمة وإرشاد وتوجيه ، وكذلك النصيحة ، فمعناهما متقاربان أو متحدان .

والوصية لون من ألوان الخطابة قاصرة على الأهل والأقارب والأصدقاء ، والفرق بينهما أن الوصية تكون من الرجل لقومه أو أبنائه ، ومن الأم لابنتها ، والخطابة تكون فى المشاهد والمجامع والحروب والمعارك وفى المفاخرة والمحاورة والمنافرة وفى الوفادة على ملك أو أمير وفى المواسم والاجتماعات العامة .

والوصايا كثيرة فى النثر الجاهلى ، وتمتاز بجمالها وتناسب جملها وأساليبها ورقتها وما يشيع فيها من حكمة وصدق تعبير ونفاذ فكر وثقوب نظر .

جـ ـ الخطابة فى الجاهلية ونماذج لها :

١ ـ خطب هانىء بن قبيصة الشيبانى فى قومه يوم ذى قار وهو يحرضهم ؛ قال :

يامعشر بكر ، هالك معذور خير من ناج فرور ، إن الحذر لا ينجى من

القدر ، وإن الصبر من أسباب الظفر ، المنية ولا الدنية ، استقبال الموت خير من استدباره . الطعن فى ثغر النحور أكرم منه فى الاعجاز والظهور : يا آل بكر قاتلوا فما للمنايا من بد[١] .

٢ ـ خطبة المأمون الحارثى فى نادى قومه :

قعد المأمون الحارثى فى نادى قومه . فنظر إلى السماء والنجوم ، ثم فكر طويلا ، ثم قال :

أرعونى أسماعكم ، وأصغوا إلى قلوبكم ، يبلغ الوعظ منكم حيث أريد . طمح[٢] بالأهواء الأشر[٣] ، وران[٤] على القلوب الكدر ، وطخطخ[٥] الجهل النظر ، إن فيما نرى لمعتبراً لمن اعتبر ، أرض موضوعة ، وسماء مرفوعة ، وشمس تطلع وتغرب ، ونجوم تسرى فتعزب ، وشاب مختضر[٦] ويفن[٧] قد غبر ، وراحلون لا يؤوبون ، وموقوفون لا يفرطون ، ومطر يرسل بقدر ، فيحيى البشر ، ويورق الشجر ، ويطلع الثمر ، وينبت الزهر ، إن فى ذلك لأوضح الدلائل على المدبر المقدر ، البارىء المصور[٨] .

٣ ـ خطباء العرب يعزون قيلا من أقيال حمير فى ابنه :

نشأ لسلامة ذى فائش ابن كأكمل أبناء المقاول[٩] ، وكان به مسرورا يرشحه لموضعه ، فركب ذات يوم فرسا صعبا ، فكب به فوقصه[١٠] ، فجزع عليه أبوه جزعا شديدا ، وامتنع عن الطعام ، واحتجب عن الناس ، واجتمعت وفود العرب ببابه ليعزوه ، فخرج إلى الناس ، فقام خطباؤهم يؤسونه[١١] . فقام الملبب بن عوف الجعفى ، فقال :

---

(١) ١٦٩ : ١ الأمالى (٢) ارتفع وعلا (٣) البطر
(٤) غلب (٥) أظلم
(٦) أى مات حدثا صغيرا (٧) الشيخ الكبير
(٨) راجع ٢٧٣ : ١ الأمالى ، والمأمون بالنون فى الأمالى ، وبالراء (المأمور) عند بعض الرواة (٩) من هم دون الملوك العظماء
(١٠) كسره (١١) يعزونه

أيها الملك : إن الدنيا تجود لتسلب ، وتعطى لتأخذ ، وتجمع لتشتت ، وتحلى لتمر ، وتزرع الأحزان فى القلوب ، بما تفجأ به من استرداد الموهوب ، وكل مصيبة تخطأتك(١) جلل(٢) ، مالم تدن الأجل ، وتقطع الأمل ؛ وإن حادثاً ألم بك ، فاستبد(٣) بأقلك وصفح عن أكثرك لمن أجل النعم عليك . وقد تناهت إليك أنباء من رزىء فصبر ، وأصيب فاغتفر . فاستشعر اليأس عما فات إذ كان ارتجاعه ممتنعاً ، ومرامه مستصعبا . فلشىء ما ضربت الأسى(٤) ، وفزع أولو الألباب إلى حسن العزاء(٥) .

٤ - خطبة قس بن ساعدة الإيادى(٦) فى عكاظ :

قدم وفد إياد على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : أيكم يعرف قس ابن ساعدة الايادى قالوا : كلنا نعرفه ، قال فما فعل ؟ قالوا : هلك ، قال : ما أنساه بسوق عكاظ فى الشهر الحرام على جمل له أحمر وهو يخطب الناس ويقول : «اسمعوا ، وعوا ، من عاش مات ، ومن مات فات ، وكل ما هو آت آت ، إن فى السماء لخبرا ، وإن فى الأرض لعبرا ، سحائب تمور ، ونجوم تغور . فى فلك يدور ، ويقسم قس قسما إن لله دينا هو أرضى من دينكم هذا ، ثم قال : مالى أرى الناس يذهبون ولا يرجعون ، أرضوا بالإقامة فأقاموا أم تركوا فناموا ؟ أيكم يروى من شعره ، فأنشأ بعضهم :

فى الذاهبين الأولين ‏ ‏ من القرون لنا بصائر
لما رأيت موارداً ‏ ‏ للموت ليس لها مصادر
ورأيت قومى نحوها ‏ ‏ تمضى الأكابر والأصاغر
لا يرجع الماضى ولا ‏ ‏ يبقى من الباقين غابر

---

(١) أخطأتك (٢) صغير (٣) استبد به : أى جعله نصيبه
(٤) جمع اسوة . وهى القدوة (٥) ٩٩ : ٢ الأمالى
(٦) تجدها فى البيان والتبيين ٢٠٣ : ١ ، وفى العقد ص ٣٨٥ ج ٢

أيقنت أني لا محالة حيث صار القوم صائر(١)

٥ ـ وراجع ماقيل من خطب فى :

ا ـ وفود العرب على كسرى(٢) .

ب ـ ووفود أبى سفيان على كسرى(٣) .

ج ـ « قريش على سيف بن ذى يزن(٤) .

د ـ « العرب على النعمان(٥) .

٦ ـ ومن خطبة مرثد الخير(٦) ـ وكان قيلاً من أقيال اليمن ـ فى سبيع ابن الحارث وميثم بن مثوب بن ذى رعين . حين تنازعا الشرف وتخاصما ، وخيف أن يقع بين حييهما شر فيتفانى جذماهما(٧) :

« إن التخبط(٨)، وامتطاء الهجاج(٩) ، واستحقاب(١٠) اللجاج ، سيقفكما على شفا هوة ، فى توردها بوار(١١) الأصيلة(١٢) ، وانقطاع الوسيلة ، فتلافيا أمركما قبل انتكاث العهد ، وانحلال العقد ، وتشتت الألفة ، وتباين السهمة(١٣) ، وأنتما فى فسحة رافهة(١٤) وقدم واطدة(١٥) ، فقد عرفتم أنباء من كان قبلكم من العرب ، ممن عصى النصيح ، وخالف الرشيد ، وأصغى إلى التقاطع ، ورأيتم ما آلت اليه عواقب سوء سعيهم ، وكيف كان صيور (١٦) أمورهم .

---

(١) ٢٦٩ و ٢٧٠ مختار العقد الفريد ط ، ١٩١٠

(٢) ١٦٦ : ١ العقد الفريد ط ١٩٢٨ (٣) ١٧٤ : ١ المرجع

(٤) ١٧٥ : ١ المرجع (٥) ٢٥٦ ـ ١ المرجع (٦) راجع ٩٢ : ١ الأمالى

(٧) الجذم الأصل (٨) ركوب الرجل رأسه فى الشر خاصة

(٩) ركب الرجل هجاجه إذا لج أى ركب رأسه

(١٠) استفعال من الحقيبة وهى مايحمل الرجل فيه متاعه . وهذا مثل يريد أنه احتزم باللجاج أوجعله فى وعائه (١١) هلاك (١٢) الاصيلة والاصل واحد

(١٣) القرابة (١٤) ناعمة (١٥) ثابتة (١٦) الصيور : الأمر الذى يرجع إليه

٧ ـ وخطب أبو طالب حين تزوج النبي صلى الله عليه وسلم السيدة خديجة ، فقال :

« الحمد لله الذى جعلنا من ذرية ابراهيم ، وزرع اسماعيل ، وجعل لنا بلدا حراما ، وبيتا محجوجا . وجعلنا الحكام على الناس . ثم إن محمد بن عبد الله من لا يوزن به فتى من قريش إلا رجح عليه برا وفضلا ، وكرما وعقلا ، ومجدا ونبلا ، وإن كان فى المال قل ، فإنما المال ظل زائل ، وعارية مسترجعة ، وله فى خديجة بنت خويلد رغبة ، ولها فيه مثل ذلك ، وما أحببتم من الصداق فعلى » .

٨ ـ خطبة هاشم بن عبد مناف يحث قريشا على إكرام زوار بيت الله الحرام :

رووا أن هاشم بن عبد مناف كان يقوم أول نهار اليوم الأول من ذى الحجة ، فيسند ظهره إلى الكعبة من تلقاء بابها ، فيخطب قريشاً ، فيقول :

« يامعشر قريش ، أنتم سادة العرب ، أحسنها وجوها ، وأعظمها أحلاما وأوسطها أنسابا ، وأقربها أرحاما » .

« يا معشر قريش ، أنتم جيران بيت الله . أكرمكم بولايته ، وخصكم بجواره دون بنى اسماعيل ، وحفظ منكم أحسن ما حفظ جار من جاره ، فأكرموا ضيفه ، وزوار بيته ، فإنهم يأتونكم شعثا غبرا من كل بلد . فورب هذه البنية : لو كان لى مال يحمل ذلك لكفيتكموه ، ألا وإنى مخرج من طيب مالى وحلاله ، مالم يقطع فيه رحم ، ولم يؤخذ بظلم ، ولم يدخل فيه حرام ، فواضعه ، فمن شاء منكم أن يفعل مثل ذلك فعل ، وأسألكم بحرمة هذا البيت ألا يخرج رجل منكم من ماله لكرامة زوار بيت الله ومعونتهم إلا طيباً ، ولم يؤخذ ظلما ، ولم يقطع فيه رحم ، ولم يغتصب » .

٩ ـ خطبة هاشم بن عبد مناف فى قريش وخزاعة :

تنافرت قريش وخزاعة إلى هاشم بن عبد مناف ، فخطبهم بما أذعن له

الفريقان بالطاعة ، فقال فى خطبته :

« أيها الناس ، نحن آل ابراهيم ، وذرية اسماعيل ، وبنو النضر بن كنانة ، وبنو قصى بن كلاب ، وأرباب مكة ، وسكان الحرم ، لنا ذروة الحسب ، ومعدن المجد ، ولكل فى كل حلف ، يجب عليه نصرته ، وإجابة دعوته ، إلا مادعا إلى عقوق عشيرة ، وقطع رحم .

يابنى قصى ، أنتم كغصنى شجرة ، أيهما كسر أوحش صاحبه ، والسيف لايصان إلا بغمده ، ورامى العشيرة يصيبه سهمه ، ومن أمحكه اللجاج أخرجه إلى البغى .

أيها الناس ، الحلم شرف ، والصبر ظفر ، والمعروف كنز ، والجود سؤدد ، والجهل سفه ، والأيام دول ، والدهر غير ، والمرء منسوب إلى فعله ومأخوذ بعمله ، فاصطنعوا المعروف تكسبوا الحمد ، ودعوا الفضول تجانبكم السفهاء ، وأكرموا الجليس يعمر ناديكم ، وحاموا الخليط يرغب فى جواركم ، وأنصفوا من أنفسكم يوثق بكم ، وعليكم بمكارم الأخلاق فإنها رفعة ، وإياكم والأخلاق الدنية ، فإنها تضع الشرف ، وتهدم المجد ، وإن نهنهة الجاهل أهون من جريرته ، ورأس العشيرة يحمل أثقالها ، ومقام الحليم عظة لمن انتفع به .

فقالت قريش : رضينا بك أبا نضلة ! وهى كنيته .

١٠ - وراجع خطبة البرجمى أمام حاتم الطائى فى وفادته عليه فى دماء حملها(١) .

ما هى الخطابة ؟ :(٢)

الخطابة فن من فنون النثر ، وهى فن مخاطبة الجمهور الذى يعتمد على

---

(١) ص ٢١ ذيل الأمالى .

(٢) راجع : الخطابة لأبى زهرة - جمهرة الخطابة لصفوت - ٢٣٥ و ٩٩ ج ١ =

الاقناع والاستمالة . أو هى كلام بليغ يلقى فى جمع من الناس لإقناعهم بما فيه الخير لهم فى دنياهم وآخرتهم .

والخطابة قديمة نشأت مع الإنسان ، وتروى الأمم القديمة خطب كثيرة كقدماء المصريين واليونان والرومان .

والخطابة ضرورية للأمة فى سلمها وحربها ، وهى أداة الدعوة إلى الرأى والعقيدة فى شتى نواحى الحياة والمجتمع ، وهى وسيلة الدعاة والمصلحين ، والمهذبين والمرشدين ، وعماد القادة والزعماء ، وأداة الأحزاب السياسية ، والجمعيات الأدبية والاجتماعية ، وعليها الاعتماد فى كثير من شئون الحياة ، فى السياسة وفى التربية والتعليم ، والوعظ والإرشاد ، وفى محافل الأنس ، ومآتم الحزن .

والخطابة تقوى عند ماتكون الأمة متمتعة بقسط من الحرية ، شاعرة بما هى فيه ، طامحة إلى آمال واسعة فى الحياة ، وحينما تتصارع الخصومات ، وتختلف الأفكار والمبادىء والمذاهب .

والخطابة إما سياسية أو اجتماعية أو دينية ، وفى العصر الحديث نشأت الخطابة القضائية والبرلمانية .

الخطابة عند العرب فى العصر الجاهلى :

ويروى للعرب فى جاهليتهم خطب كثيرة ، ونبغ فيهم خطباء مشهورون وكانت الخطابة لسان الأشراف والرؤساء والنابهين من القبائل ، يفضلونها على الشعر الذى غض من قدره تكسب الشعراء به(١) ، ويعبرون بها عما

و ١٩ و ٢١ و٢٦ ج ٢ و ٣ و ٦ و ١٥ و٦٦ و ٥٢ ج ٣ البيان والتبيين، والعقد الفريد ـ مواسم الأدب ـ بلاغات النساء لابن طيفور ـ بلوغ الأرب

(١) راجع ١٧٠ ج١ و ٢٥٩ ج ٣ من البيان والتبيين .

يجيش فى صدورهم من أفكار وآراء ، ويصرفون بها ملكة البلاغة المتأصلة فى أعماق نفوسهم وطوايا قلوبهم ، ويصورون بها جميع ما يطوف بعقولهم فى شئون السياسة والاجتماع .

وكانت الخطابة عندهم منتشرة ذائعة ، لها مكانتها فى النفوس ، وسحرها فى الألباب ، وأثرها فى الشدائد والمشكلات ، وكان لكل قبيلة شاعر . وبالجملة فان الخطابة فى العصر الجاهلى كان لها حظ من القوة والنهضة والازدهار .

ويرجع ذلك إلى ابتذال الشعر بالتكسب به ، وإلى أن الخطابة كانت مهنة القادة والزعماء والحكماء ، وإلى أهميتهـــا لاستعمالها فى الدفاع عن القبيلة .

دواعى الخطابة فى العصر الجاهلى :

وكانت دواعيها كثيرة متشعبة عندهم ، فأذواقهم الأدبية وتأصل ملكات البلاغة فى نفوسهم وتملكهم زمام الفصاحة . ثم كثرة الحروب والخلافات بينهم ، ثم تفرقهم قبائل وأحياء مع أميتهم الغالبة عليهم والتى ألجأتهم إلى الاستعانة باللسان دون الكتابة . ثم ضعف شأن الشعر ، ومكانتـه فى نفوس أشرافهم بتكسب الشعراء به . ثم سعة مجال الخطابة فيهم ، وكثرة أسبابهـا لديهم .

كل ذلك كان داعياً لذيوع الخطابة فيهم ، وانتشارها بينهم .

أغراض الخطابة فى العصر الجاهلى :

وأغراض الخطابة كثيرة عند العرب فى العصر الجاهلى . من ذلك :

١ ـ التحريض على القتال أو الدعوة للسلام والوئام . وهذا كثير عند العرب فى جاهليتهم لكثرة حروبهم ، وكثرة ما كان بينهم من خـلافات وخصومات .

٢ ـ التبشير بدين جديد . ومحاربة الفوضى والرذائل والوثنية التى كانت سائدة فى العصر الجاهلى . كما نرى فى خطبة المأمون الحارثى فى نادى قومه(١) . وخطبة أكثم بن صيفى التيمى فى قومه(٢) ، بعد أن بعث الرسول وبعث أكثم ابنه حبيشا ليأتيه بخبره ، وكما فى خطبة قس فى سوق عكاظ .

٣ ـ التعزية فى عظيم من عظمائهم أو رئيس من رؤسائهم :

٤ ـ الوفادة على الملوك والرؤساء للتهنئة أو الاستنجاد أو لتأمين سبيل أو إجازة تجارة أو التعزية أو سواها . والخطب المأثورة فيها الكثير من ذلك

٥ ـ الدعوة إلى الصلح وفض الخصومات وجمع الكلمة كما فى خطبة مرثد الخير .

٦ ـ الخطب فى المحافل حين الإملاك(٣) أو الولادة أو ماشاكل ذلك .

٧ ـ المفاخرة والمنافرة والمباهاة بعز العشيرة وشرف المحتد وجلال الأصل .

٨ ـ التوصية بفعل جميل أو أدب حميد .

وهكذا تعددت أغراض الخطابة وتشعبت مناحيها .

أسلوب الخطابة :

وأما أساليبها فقد كانت مركبة من جمل قوية ضعيفة الربط يغلب عليها

---

(١) ٢٧٣ : ١ الأمالى

(٢) ٢٤٧ : ٢ أمثال العسكرى ، ومجمع الأمثال للميدانى الجزء الثانى . ومنها: إن ابنى شافه هذا الرجل مشافهة ، وأتانى بخبره وكتابه ، يأمر فيه بالمعروف وينهى عن المنكر ، ويأخذ فيه بمحاسن الأخلاق ، ويدعو إلى توحيد الله تعالى وخلع الأوثان وترك الحلف بالنيران ، وقد عرف ذوو الرأى منكم أن الفضل فيما يدعو إليه ، وأن الرأى ترك ماينهى عنه . إن الذى يدعو إليه محمد ، لو لم يكن دينا كان فى أخلاق الناس حسنا . أطيعونى واتبعوا أمرى

(٣) الإملاك : التزويج .

الحكمة والسجع ، وفيها جلالة الجزالة والفصاحة .

المأثور من خطب الجاهليين :

والمأثور من خطب الجاهليين قليل ، أقل من الشعر المروى عنهم . ذلك أن الخطابة يصعب حفظها لطولها وعدم تقييدها بوزن أو قافية ، وعدم تدوينها إلا فى القرن الثانى الهجرى ؛ مما أدى إلى ضياع كثير منها لطول العهد بها .

الخطابة والخطيب :

وكانوا يلزمون أنفسهم الوقوف فى الخطبة إلا فى خطب إملاكهم(١) وكثيرا ما كانوا يؤثرون أن يخطبوا وهم واقفون على نشز من الأرض . أو على شىء مرتفع : كظهر الراحلة وسواها . وذلك لظهور الخطيب ولشدة تأثيره .

كما كانوا يقبضون بأيديهم على عصا أورمح أو سيف أو قوس . ويعصب الخطيب عمامته .

والخطيب يلتزم رباطة الجأش وجهارة الصوت(٢) وبلاغة القول وقوة الحجة . قليل الحركة . قليل الإشارة . ينطق بالصدق . ويتكلم بالحق . فى مظهر نبيل وزى جميل ، وهو غالباً رئيس قومه أو من أشرافهم .

هذا ويهون طه حسين من الخطابة الجاهلية : لفقدان الحضارة والتنازع السياسى والدينى؛ وهذا غير صحيح لكثرة الخصومات ولمعرفتهم بالكتابة، ووجود بعض ألوان من الحضارة . ولكثرة كلام الرواة عن الخطابة الجاهلية .

---

(١) الإملاك : التزويج

(٢) ويشيدون بالعباس بن عبد المطلب فى جهارة صوته (٩٥ جـ ١ البيان والتبيين) كما أشادوا بجهارة الصوت (٩٤ جـ ١ المرجع ، ويقولون خطيب اشدق أى بليغ . وهو من الشدق بفتح الدال وهو سعة فى الشدق .

أشهر خطباء العرب فى العصر الجاهلى

— ١ —

قس بن ساعدة الإيادى(١)

من إياد يضرب به المثل فى الفصاحة والبلاغة والحكمة والخطابة . ويعدونه خطيب العرب كافة .

اعتنق النصرانية فآمن بها . وكان يدعو فى خطبه إلى التوحيد ونبذ الأوثان والأصنام وعبادة الله . وكان أسقف نجران ، وكان يفد على قيصر ويحادثه .

وهو أول من قال : « أما بعد » والسابق إلى الاتكاء على العصا والسيف حين يخطب ، وهو القائل هذه الحكمة : « البينة على من ادعى واليمين على من أنكر » .

وكان الناس يتحاكمون إليه فى خصوماتهم . فيقضى بينهم بالحق والخير ، وكان معدوداً من حكماء العرب وأعقلهم .

وكثيراً ما كان يقف فيخطب فى سوق عكاظ ، وقد سبقت خطبة له سمعها النبى صلى الله عليه وسلم فى عكاظ قبل البعثة .

عاش قس طويلا نحو ثمانين ومائة سنة ، ومات قبل البعثة نحو عام ٦٠٠ م ، ويعده الجاحظ من الخطباء والشعراء(٢) ورسول الله (ص) هو الذى روى كلامه بعكاظ(٣) .

---

(١) راجع ٥١ و ٥٦ و ٢٠٣ : ١ البيان والتبيين نشر السندوبى ط ١٩٢٧ . وراجع حديث قس بن ساعدة مع قيصر (٢٧ ج ٢ الأمالى) وراجع ٥١ و ٥٦ و ٢٠٣ ج ١ البيان والتبيين و ٣٨٥ ج ٢ العقد .

(٢) ٥١ ج ١ البيان والتبيين (٣) ٥٦ ج ١ المرجع .

وكان بليغ القول . سهل الأسلوب . متخير اللفظ . كثير الحكمة والمثل، سجعه قصير غالب على خطابته ، وكلامه على إيجازه بعيد عن اللغو والفضول والحشو . مطبوع على الخطابة واللفظ الشريف ، والقول الرائع الحكيم . وله شعر فيه جزالة مع رقة تعبير ودقة تصوير وقوة تأثير .

ومن حكمه : إذا نهيت عن الشيء فابدأ بنفسك . من عيرك شيئاً ففيه مثله . البينة على من ادعى واليمين على من أنكر .

ويقول فيه الأعشى :

وأفصح من قس وأجرى من الذى   بذى الغين من خفان أصبح خادرا

ولما قدم وفد بكر على رسول الله صلى الله عليه وسلم سألهم عن رجل كان فيهم نازلا يقال له قس بن ساعدة الإيادى ، قالوا هلك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لقد رأيته بعكاظ يخطب على جمل له أورق ، وهو يقول : أيها الناس ، اجتمعوا واسمعوا وعوا ، من عاش مات ، ومن مات فات وكل ماهو آت آت ، ليل موضوع ، وسقف مرفوع ، ونجوم تغور ، وبحر يمور ، اما بعد : فان فى السماء لخبرا ، وإن فى الأرض لعبرا ، مالى أرى الناس يموتون ولا يرجعون ، أرضوا بالإقامة فأقاموا ؟ أم تركوا كلهم فناموا ؟ أقسم بالله قس قسما حقا فما حنث ولا أثم ، إن لله ديناً هو أرضى من ديننا هذا الذى نحن عليه . ثم قال أبياتاً ماأحفظها ، فقال رجل من الأنصار : أنا شاهد يارسول الله بأبى أنت وأمى ، قال فأنشدنا ، قال سمعته يقول :

فى الذاهبين الأولين   من القرون لنا بصائر
لما رأيت مواردآ   للموت ليس لها مصادر
ورأيت قومى نحوها   تمضى الأصاغر والأكابر
لايرجع الماضى ولا   يبقى من الباقين غابر

أيقنت إني لا محالة حيث صار القوم صائر

وقال صاحب الأغاني فيه : هو قس بن ساعدة بن عمرو بن عدى بن مالك من إياد ، كان يفد على قيصر زائراً فيكرمه ويعظمه فقال له قيصر : ما أفضل العلم ؟ قال : معرفة الرجل بنفسه ، قال فما أفضل العقل ؟ قال : وقوف المرء عند علمه . قال فما أفضل الأدب ؟ قال : استبقاء الرجل ماء وجهه ، قال فما أفضل المروءة ؟ قال قلة رغبة المرء فى إخلاف وعده ، قال فما أفضل المال ؟ قال : ما قضى به الحق .

وفى الشريشى عن ابن عباس : وفد الجارود بن عبد الله فى وفد عبد القيس ، وكان سيداً فى قومه ، معظما فى عشيرته ، فآمن وآمن قومه ، فسر النبى صلى الله عليه وسلم بهم ، ثم قال : ياجارود هل فى جماعة عبدالقيس من يعرف لنا قساً ؟ قال كلنا نعرفه يارسول الله ، وأنا كنت من بينهم أقفو أثره ، وأطلع خبره ، كان قس سبطا من أسباط العرب ، صحيح النسب ، فصيحا ذاشيبة حسنة ، عمر طويلا ، يتقفر القفار ، ولا تكنه دار ، ولا يقره قرار ، يتحسى فى تقفره بعض الطعام ، ويأنس بالوحوش والهوام ، يلبس المسوح ويتبع السياح ، على منهاج المسيح ، لا يغير الرهبانية ، مقر بالوحدانية ، تضرب بحكمته الأمثال ، وتكشف به الأهوال ، أدرك رأس الحواريين ، فهو أول من تأله من العرب ، وأعبد من تعبد فى الحقب ، وآمن بالبعث والحساب ، وحذر سوء المنقلب والمآب ، ووعظ بذكر الموت ، وأمر بالعمل قبل الفوت ، الحسن الألفاظ ، الخاطب بسوق عكاظ ، العارف بشرق وغرب ، ويابس ورطب ، وأجاج وعذب ، كأنى أنظر اليه ، والعرب بين يديه ، يقسم بالرب ، ليبلغن الكتاب أجله ، وليوفين كل عامل عمله ، ثم أنشأ يقول :

هاج للقلب من هواه ادكار وليال خلالهن نهار
ونجوم يحثها قمر اللي ـل وشمس فى كل يوم تدار
ضوؤها يطمس العيون وإرعا د شديد فى الخافقين مثار

وغلام وأشمط ورضيع كلهم فى التراب يوما يزار
وقصور مشيدة حوت الخـ ير وأخرى خوت فهن قفار
والذى قدذكرتدلعلىالله نفوسا لها هدى واعتبار

فقال النبي صلى الله عليه وسلم : على رسلك ياجارود فلست أنساه بسوق عكاظ على جمل له أورق وهو يتكلم بكلام مونق ما أظن أحفظه ، فهل فيكم يا معشر المهاجرين والأنصار من يحفظ لنا منه شيئاً ؟ فوثب أبو بكر قائما وقال : يارسول الله أنا أحفظه وكنت حاضرا بعكاظ حين خطب فأطنب ، ورهب ورغب ، وحذر وأنذر ، وقال فى خطبته : أيها الناس، اسمعوا وعوا، وإذا وعيتم فانتفعوا ، إنه من عاش مات ، ومن مات فات ، وكل ما هو آت آت ، مطر ونبات ، وأرزاق وأقوات ، وآباء وأمهات ، وأحياء وأموات ، وجمع وشتات ، وآيات بعد آيات ، إن فى السماء لخبرا ، وإن فى الأرض لعبرا ، ليل داج ، وسماء ذات أبراج ، وأرض ذات رتاج ، وبحار ذات أمواج . مالى أرى الناس يذهبون فلا يرجعون ؟ أرضوا بالمقام فأقاموا ؟ أم تركوا هناك فناموا ؟ أقسم قس بالله ، قسما حقا لا آثماً فيه ولا حانثا ، إن لله دينا هو أحب اليه من دينكم الذى أنتم عليه ، ونبيا قد حان حينه ، وأظلكم أوانه وأدرككم إبانه ، فطوبى لمن آمن به فهداه ، وويل لمن خالفه وعصاه ، ثم قال : تبا لأرباب الغفلة ، من الأمم الخالية ، والقرون الماضية ، يامعشر إياد أين الآباء والأجداد ، وأين المريض والعواد ، وأين الفراعنة الشداد ، أين من بنى وشيد وزخرف ونجد ، وغره المال والولد ، أين من بغى وطغى ، وجمع فأوعى ، وقال أنا ربكم الأعلى ؟ ألم يكونوا أكثر منكم أموالا ، وأطول منكم آجالا ، طحنهم الثرى بكلكله ، ومزقهم بتطاوله ، فتلك عظامهم بالية وبيوتهم خاوية ، عمرتها الذئاب العاوية ، كلا بل هو المعبود ، ليس بوالد ولا مولود ، ثم أنشأ يقول : فى الذاهبين الأولين ـ الأبيات المتقدمة .

فقال رسول الله (ص) رحم الله قسا إنى لأرجو أن يبعثه الله أمة وحده .

ويروى(١) عن إسحاق بن إبراهيم الموصلى قال : حضرت مجلس المأمون ، فقلت يا أمير المؤمنين : ألا أحدثك عن الفضل بن يحى ؟ قال : بلى ! فقلت : دخلت دار الرشيد ، وإذا الفضل بن يحيى وإسماعيل بن صبيح وعبد الملك بن صالح فى بعض تلك الأروقة يتحدثون ، فلما بصر بى الفضل أومأ إلى ، وقال : يا إسحاق ، انتظرناك منذ الغداة ، لتساعد على ما نحن فيه من المذاكرة ! فقلت يا سيدى ، أنا السكيت (٢) إذا أجريت الجياد ، وفاز السابق والمصلى ! فقال عبدالملك : مدحت نفسك ، ولما تكذب .

ولما فرغ عبد الملك من حديثه قال الفضل : إن لقس (٣) حديثا سمعته من الخليل بن أحمد ، فهل عند واحد منكم له ذكر ، فسكت القوم ، فقلت : يا سيدى ،ما نعرف له حديثاً إلا حديث خطبته بعكاظ ! قال : ذاك شىء قد فهمته العامة واختبرته الخاصة . ثم أطرق ساعة ، فقلنا : إن رأيت أن تحدثنا ؟ فقال :

حدثنى الخليل بن أحمد : أن قيصر ملك الروم بعث إلى قس بن ساعدة أسقف نجران ـ وكان حكيما طبيباً بليغاً فى منطقه ـ فلما دخل عليه ، ومثل بين يديه حمد الله وأثنى عليه ، فأمر بالجلوس ، فجلس ورحب به ، وأدنى مجلسه ، وقال : مازلت مشتاقاً إليك لما سمعت من مناظرتك فى الطب .

فكان أول ماسأله عن الشراب ، فقال : أى الأشربة أفضل عاقبة فى البدن ؟ قال : ماصفا فى العين ، واشتد على اللسان ، وطابت رائحته فى الأنف من شراب الكرم . قال : فما تقول فى مطبوخه ؟ قال : مرعى ولا

(١) المحاسن والمساوىء طبع ليبزج ص ٣٥١

(٢) السكيت : الذى يجىء فى الحلبة آخر الخيل

(٣) هو قس بن ساعدةخطيب العرب قاطبة ، كان يدين بالتوحيد ، ويؤمن بالبعث ، ويدعو إلى نبذ الأوثان ، فى المحافل العامة ، ومواسم الأسواق وسمعه النبى قبل البعثة يخطب بعكاظ ، فعجب من حسن كلامه وأثنى عليه وعمرطويلا ومات قبيل البعثة

كالسعدان (١) ! قال : فما تقول فى نبيذ الزبيب ؟ قال : ميت أحيى ، وفيه بعض المتعة ، وما كاد يقوى شىء بعد الموت ! قال : فما تقول فى نبيذ العسل قال : نعم شراب الشيخ للمعدة الفاسدة ! قال : فما تقول فى أنبذة التمر ؟ قال أوساخ يطيب مذاقها فى اللهوات ، وتسوء عاقبتها فى البدن ، وتولد الأرواح فى البطن لرقتها .

قال : فمن أى شىء يكون الثمل الذى يذهب الغم ويطيب النفس ؟ قال : زعموا أن العقل تصعده سورة الشراب إلى الدماغ ، فإذا صعدت السورة إلى الدماغ الذى هو أصله ، احتجب البصر بغير عمى ، والسمع بغير صمم ، واللسان بغير خرس ، فلا يزال العقل كذلك محتجباً حتى تفكه الطبيعة من إسار السكر ، إما بقوة فيعجل ، وإما بضعف فيبطىء .

قال . فمن أى شىء الخمار (٢) من بعد صحو السكران ؟ قال : من إعياء الطبيعة عن مجاهدة السورة فى افتكاك العقل وتخلصه ، حتى يردها النوم إلى هدوء وما أشبهه . قال : الصرف أفضل أم الممزوج ؟ قال : الصرف سلطان جائر والجائر مذموم . والممزوج سلطان عادل والعادل محمود .

قال : فصف لى الأطعمة . قال الأطعمة كثيرة مختلفة . وجملة ما آمرك به الإمساك عن غاية الإكثار ، فإن ذلك من أفضل ما بلوناه من الأدوية ، ورأس ما تأمر به من الحمية . قال له : عمن حملت الحكمة ؟ قال : عن عدة من الفلاسفة . قال : فما أفضل الحكمة ؟ قال : معرفة المرء بقدره . قال فما تقول فى الحلم ؟ قال : حفظ الإنسان ماء وجهه . قال : فما تقول فى المال وفضله ؟ قال : أفضل المال ما أعطى منه الحق . قال : فما أفضل العطية ؟ قال : أن تعطى قبل السؤال .

قال : فأخبرنى عما بلوت من الزمان وتصرفه ، ورأيت من أخلاق أهله ؟

---

(١) السعدان : نبت ذو شوك ، وهو من أنجع المرعى ، وهذا مثل يضرب للشىء يفضل على أقرانه وأشكاله (٢) الخمار : بقية السكر .

قال : بلونا الزمان فوجدناه صاحباً يخون صاحبه . ولا يعتب من عاتبه ، ووجدنا الإنسان صورة من صور الحيوان ؛ يتفاضلون بالعقول ، ووجدنا الأحساب ليست بالآباء والأمهات ، ولكنها فى أخلاق محمودة ، وفى ذلك أقول :

لقد حلبت الزمان أشطره ... ثم مخضت(١) الصريح(٢) من حلب
فلم أر الفضل والمعالى فى ... قول الفتى : إننى من العرب
حتى يرى سامياً إلى خلق ... يذود محموده عن النسب
ما ينفع المرء فى فكاهته ... من عقل جد مضى وعقل أب
ما المرء إلا ابن نفسه فيها ... يعرف عند التحصيل للنوب

ووجدنا أبلغ العظات النظر إلى محل الأموات وأحمد البلاغة الصمت ، ووجدنا لأهل الحزم حذاراً شديداً ، وبذلك نجوا من المكروه ، والكرم حسن الاصطبار ، والعز سرعة الانتصار ، والتجربة طول الاعتبار .

قال : خبرنى هل نظرت فى النجوم ؟ قال : ما نظرت فيها إلا فيما أردت به الهداية ، ولم أنظر فيما أردت به الكهانة ، وقد قلت فى النجوم :

علم النجوم على العقول وبال ... وطلاب شىء لا ينال ضلال
ماذا طلابك علم شىء أغلقت ... من دونه الأفلاك ليس ينال
هيهات ما أحد بغامض قدره ... يدرى كم الأرزاق والآجال
إلا الذى فوق السماء مكانه ... فلوجهه الإكرام والإجلال

قال : فهل نظرت فى زجر (٣) الطير ؟ قال : نحن معاشر العرب مولعون بزجر الطير . قال فما أعجب ما رأيته منه ؟ قال : شخصت أنا وصاحب لى من العرب إلى بعض الملوك ، فألفيناه يريد غزو قوم كانوا على دين النصرانية ، فخرج حتى إذا كان على فراسخ من مدينته أمر بضرب فساطيطه وأروقته

---

(١) مخض اللبن : أخذ زبده (٢) الصريح : الخالص . (٣) الزجر : ما يحدث من بعض الناس من التكلم بالغيب عند سنوح طائر أو حيوان .

لتتوافى إليه جنوده ، وضرب له فسطاط على شاطىء نهر ؛ وأمر بخباء فضرب لي ولصاحبي ، فبينا نحن كذلك إذ أقبل طائران : أسود وأبيض ، وأنا وصاحبي نرمقهما ، حتى اذا كانا على رأسه رفرفا ثم غابا ، ثم رجعا أيضاً ، حتى إذا كانا قريباً منه طوياه ثم أقبلا نحونا فوقعا ، ثم رتعا (١) ، فقال صاحبي : ما رأيت كاليوم طائرين أعجب منهما ، فأيهما أنت مختار ؟ فقلت : الأسود . قال : الأبيـــض أعجبهما إلى ، فما تأولتهما ؟ قلت : الليل والنهار يطويان هـذا الرجل فى سفره فيموت ، وتأولت اختيارك الأبيض أنك تنصرف بيد بيضاء مخفقة من المـال . فإذا هو قد غضب .

فلما جن الليل بعث إلينا الملك لنسمر عنده ، فإذا صاحبي قد أخبره بالخبر فسألني؟ فأخبرته وصدقته . فغضب ، وقال : هـذه حمية منك لأهل دينك ! فقلت : أما أنا فقد صدقتك : فأمر بحبسي ومضى لوجه ، فلم يتجاوز إلا قليلا حتى مات ! فأوصى لي بعشرين ناقة ، وقال : قاتل الله قسا ! لقد محضني النصيحـة . فانصرفت من سفرى ذلك بعدة من الإبل ، وانصرف صاحبي مخفقاً من المـال .

قال الملك : وما رأيت أيضا من الزجر أعجب ؟ قلت . ما رأيت مرة عند الملك الهمام أبي قابوس ، وقد خرج عليه خارج من مضر يريد ملكه ، وقد حشد له ، فبعث إلى بعض عماله فى توجيه أربعمائة فارس ، ووجهني مع الرسول ، وأمرنا بالشد على أيديهم فى جمع الخيل والرجال ـ وكان الرسول شاعراً ـ فبينا نحن نسير إذ سنحت لنا ظباء فيها تيس (٢) يقدمها ، وكان أبو قابوس يواعد للقائه فى يوم كذا وكذا ، فنحن نقول ، إن كان الملك خرج فى يوم كذا فهو اليوم فى موضع كذا ، وقـد أقبلنـا ، ونحن نقود جيشاً عرمرما ، فأنشأ الرسول يقول :

ألاليت شعرى ماتقول السوانح   أغاد أبو قابوس أم هو رائح

---

(١) الرتع : الأكل والشرب رغدا فى الريف .

(٢) التيس : الذكر من الظباء والمعز والوعول .

قال : فنظرت إلى التيس عند فراغه من هذا البيت ، فوجدته قد دخل فى مكنسه (١) حتى توارى فيه ، فدخلنى من ذلك مالم أقدر على أن أمسك نفسى ، حتى استرجعت ، فقال لى رفيق : مالك ؟ قلت : إن صدق الزجر فصاحبك قد ثوى فى التراب ، والتحفت عليه أطباق الثرى ! قال : كيف ذاك ؟ قلت : وافق فراغك من البيت دخول التيس فى مكنسه ، فأعرض عنى . فلما أصبحت فى اليوم الذى واعدنا للقائه لم يواف ، ولم يكن بأوشك من أن أتانا الخبر بهلاكه وقعود ابنه . فأكرمه قيصر وأحسن جائزته .

قلنا : أيد الله الوزير ! لقد بلغت ما بلغت باستحقاق ، ولقد حزت قصبة الرهان فى كل منقبة ، فتبسم وقال : عز الشريف أدبه ، وإذا رسول الرشيد وافاه فنهض نحوه ، وتصدع المجلس وانصرفنا .

فلما مضى من الليل بعضه إذا أنا بطارق قد طرقنى ، وبين يديه غلمان على أعناقهم البدر ، وإذا رسول الفضل وقد حمل إلى مائة ألف درهم ، وقال: الوزير يقرأ عليك السلام . ويقول : ضجرت باستماع الأحاديث ، وأوجبت على بذلك منة ، وهذا عطاء وتح (٢) فى جنب قدرك عندى ، فخذه ولا تعتد به .

فقلت : سبحان الله الذى خلق هذا الرجل ! وجبله على كرم بذ به من مضى ومن غبر ، وإذا هو قد وجه إلى أصحابى الذين كانوا معى بمثل الذى وجه به إلى ، فغدوت إليه وأردت أن أشكره ، فقال : والله لئن ذهبت تكشف ما ستر الله لأجفونك ! فكأنما ألقمنى حجرا . واحتبسنى عنده ، فطعمت وشربت ورحت وقد حملنى على عدة أفراس بسروج ولجم مذهبة ، ووجه معى بعشرة تخوت ثياب وعشر بدر .

قال : فقال المأمون : ويحك يا إسحاق ! ثواب حديثك ضعف ما أمر لك به الفضل ، وقد أمرت لك بمائة ألف درهم ، فقبضت ذلك وانصرفت !

---

(١) المكنس : مولج الوحش من الظباء والبقر تستكن فيه من الحر .
(٢) وتح : قليل .

- ٢ -

أكثم بن صيفى التميمى

هو حكيم العرب وقاضيها وخطيب من أشهر الخطباء ، أوفده النعمان بن المنذر إلى كسرى أنوشروان بالمدائن ، ومعه رهط من أشراف سادات العرب[١] وخطبائها ، مثل : حاجب بن زرارة التميمى[٢] ، وعمرو بن الشريد السلمى[٣] ، وعامر بن الطفيل العامرى[٤] ، وعلقمة بن علاثة العامرى[٥] ، والحارث بن ظالم[٦] ، وعمرو بن معديكرب الزبيدى[٧] ، والحارث بن عبادة البكرى[٨] ، وسواهم ، وأعجب به كسرى حتى قال له : لو لم يكن للعرب غيرك لكفى . وقد أدرك بعثة الرسول وبعث ابنه حبيشاً ليأتيه بخبره ، ودعا قومه إلى الإيمان بمحمد صلوات الله عليه .

وكان أكثم عارفا بالأنساب ، كثير الحكم وضرب الأمثال فى خطابته ، مصيب الرأى قوى الحجة ملهما بالصواب وسداد القول ، كما كان عظيم المنزلة عند بنى تميم قومه وعند العرب أجمعين ، وجعله الجاحظ من الخطباء البلغاء والحكام الرؤساء[٩] ، وكان فى خطبه كثير الإيجاز وضرب الأمثال لا يلتزم السجع ولا يقصده ، عميق الفكر ، دقيق النظر ، قوى الحجة ، كثير الاقناع ، جميل الأسلوب حلو الألفاظ .

---

(١) راجع ١٦٦و١٧٤ ج ١ العقد ط ١٩٢٨ ، ويشك كثير فى صدق الرواية التى رواها صاحب العقد .

(٢) سيد من سادات تميم ، وخطيب من أبلغ خطباء العرب .

(٣) أبو الخنساء الشاعرة وكان شجاعا شاعرا خطيبا .

(٤) ابن عم لبيد الشاعر ، فارس شجاع وشاعر .

(٥) خطيب بليغ اشتهر بالعقل الراجح والأخلاق الكريمة

(٦) من مرة ، شجاع شاعر خطيب

(٧) فارس شاعر توفى عام ٢١ هـ

(٨) خطيب مؤثر وشاعر بليغ

(٩) ١:٢٣١ من البيان والتبيين

ومن خطبه تعزيته لعمرو بن هند ملك العرب فى أخيه ، قال :

أيها الملك إن أهل هذه الدار سفر ، لا يحلون عقد الترحال إلا فى غيرها ، وقد أتاك ماليس بمردود عنك ، وارتحل عنك ماليس براجع إليك ، وأقام معك من سيظعن عنك ويدعك . إن فى الدنيا ثلاثة أيام : فأمس عظة وشاهد عدل ، فجعك بنفسه وأبقى لك وعليك حكمه ، واليوم غنيمة وصديق أتاك ولم تأته ، طالت عليك غيبته ، وستسرع عنك رحلته ، وغداً لا تدرى من أهله ، وسيأتيك إن وجدك . فما أحسن الشكر المنعم ، والتسليم للقادر . وقد مضت لنا أصول نحن فروعها ، فما بقاء الفروع بعد أصولها . واعلم أن أعظم من المصيبة سوء الخلف منها ، وخير من الخير معطيه ، وشر من الشر فاعله .

— ٣ —

عمرو بن معد يكرب الزبيدى (١)

١ - قحطانى يمنى ، وفارس شجاع ، وخطيب مطبوع ، عاش فى الجاهلية ، وأسلم سنة تسع من الهجرة هو وقومه ، ثم ارتد بعد إسلامه بعد وفاة الرسول ، ثم عاد من جديد إلى الإسلام عقيدة الحق والتوحيد والخير . وأبلى فى القادسية بلاء عظيما وكان عمره فيها عشراً ومائة سنة ، وتوفى فى أواخر خلافة عمر بن الخطاب عام ٢١ هـ - ٦٤٣ . وفيه يقول أبو تمام :

إقدام عمرو ، فى سماحة حاتم　　فى حلم أحنف ، فى ذكاء إياس

٢ - كان عمرو شجاعا فارسا وخطيباً شاعراً ؛ شعره صورة لشجاعته وبطولته وفروسيته ؟ وحديث عن مواقفه وانتصاراته فى غزواته ، وعن نفسه واقتحامها الأهوال ومغامرتها وقت الطعن والنضال ، ويعد فى الطبقة الثانية من الشعراء المخضرمين ، وخطابته تنم عن شخصيته واعتداده ببطولته ونفسه ، فيها وضوح وقوة وتدفق ومنطق . مع إشراق بيان ، وسهولة عبارة ،

---

(١) راجع فى ص ١٥٠ ذيل الأمالى وما بعدها حديث عمرو بن معديكرب مع امرأة

وقصر فقر ، وقلة سجع ، وكثرة حكمة ومثل .

٣ ـ قال عمرو أمام كسرى :

إنما المرء بأصغريه . قلبه ولسانه ، فبلاغ المنطق الدار ، وملاك النجعة الارتياد ، وعفو الرأى خير من استكراه الفكرة ، وتوقيف الخبرة خير من اعتساف الحيرة ، فاجتبذ طاعتنا بلفظك ، واكتظم بادرتنا بحلمك ، وألن لنا كنفك يلن لك قيادنا .

وروى له صاحب الحماسة عدة قصائد :

١ ـ منها قصيدته :(١)

ولما رأيت الخيل زوراً كأنها جداول زرع أرسلت فاسبطرت

فجاشت إلى النفس أول مرة فردت على مكروهها فاستقرت

ومن شعره قصيدته :

تمنــانى ليلقانى أبى وددت وأينما منى ودادى

أريد حياته ويريد قتــلى عذيرك من خليلك من مراد

ومن شعره :

ليس الجمــال بمئزر فاعلم وإن رديت بردا

إن الجمال معادن ومناقب أورثن مجدا

كم من أخ لى صالح بوأته بيدى لحــدا

ما إن جزعت ولا هلــعت ولا يرد بكاى رشدا

ذهب الذين أحبهم وبقيت مثل السيف فردا(٢)

---

(١) ص ٤٣ : ١ مختصر الحماسة ط ١٩٢٧ الطبعة الثالثة

(٢) ومن شعره أيضا قصيدته :

أمن ريحانة الداعى السميع يؤرقنى وأصحابى هجوع

— ٤ —

ومن خطباء العرب : حاجب بن زرارة التميمى ، وهو سيد من سادات تميم ، وفد على كسرى حين منع تميما من ريف العراق فاشتد بهم القحط فأعجب به وببلاغته . ومنحه ماأراد وتعهد له بحسن الجوار ورهنه قوسه على ذلك .

وهانىء بن قبيصة الشيبانى(١) ، ومرثد الخير الخيرى ، والمأمون الحارثى

ومن خطبائهم عامر بن الظرب العدوانى : وهو أحد حكماء العرب المشهورين ، وخطيب بليغ وشاعر مجيد .

ويقول الجاحظ فيه : وهو من الخطباء البلغاء والحكام الرؤساء(٢) ، وهو حكم العرب فى الجاهلية(٣) .

وخطب إليه صعصعة بن معاوية ابنته فقال : يا صعصعة إنك أتيتنى تشترى منى كبدى ، أبغيتك(٤) أو رددتك . النكاح خير من الأيمة(٥) . والحسيب كفء الحسيب ، والزوج الصالح أب بعد أب ، وقد أنكحتك خشية ألا أجد مثلك ، أفر من السر إلى العلانية ، أنصح ابنا وأودع ضعيفاً قويا . يامعشر عدوان أخرجت من بين أظهركم كريمتكم ، من غير رغبة عنكم ، ولكن من خط له شىء جاءه ، رب زارع لنفسه ، ما حصده غيره ، ولولا قسم الحظوظ ما ترك الأول للآخر مايعيش به .

— ٥ —

ومن خطبائهم قبيصة بن نعيم ، وكان من رجالات بنى أسد ، وخطب أمام امرىء القيس بعد مقتل أبيه قال :

---

(١) راجع ١٢٩ ج ٢ الأغانى ، ١٢ ج ٢ منه ، ١٣٢ ج ٣ .
(٢) ٢٣٣ ج ١ البيان (٣) ٢٠ ج ٣ البيان
(٤) أعطاه بغيته (٥) العزوبة

إنك فى المحل والقدر ، والمعرفة بتصرف الدهر ، وما تحدثه أيامه ، وتنتقل به أحواله ، بحيث لا تحتاج إلى تبصير واعظ ، ولا تذكرة مجرب ، ولك من سؤدد منصبك ، وشرف أعراقك ، وكرم أصلك فى العرب ، محتد يحتمل ما حمل عليه من إقالة العثرة ، والرجوع عن الهفوة ، وقد كان الذى كان من الخطب الجليل عمت رزيته نزارا واليمن ، ولم تخصص به كندة دوننا، للشرف البارع الذى كان لحجر : التاج والعمة فوق الجبين الكريم ، وإخاء الحمد وطيب الشيم ، ولو كان يفدى هالك بالأنفس الباقية بعده لما بخلت كرائمنا على مثله ببذل ذلك ولفديناه منه ، ولكن مضى به سبيل لا ترجع أولاه على أخراه ، ولا يلحق أقصاه أدناه ، فأحمد الحالات فى ذلك أن تعرف الواجب عليك فى إحدى خلال ثلاث : إما أن اخترت من بنى أسد أشرفها بيتا ، وأعلاها فى بناء المكرمات صوتا ، فقدناه إليك بنسعة ، تذهب مع شفرات حسامك بباقى قصرته ، أو فداء بما يروح على بنى أسد من نعمها ، فهى ألوف تجاوز الحسبة ، وإما أن توادعنا حتى تضع الحوامل ، فنسدل الأزر ، ونعقد الخمر فوق الرايات .

فبكى امرؤ القيس وقال : قد علمت العرب أن لا كفء لحجر فى دم ، وأنى لن أعتاض به ناقة أو جملا فأكتسب بذلك سبة الأبد وفت العضد ، وأما النظرة فقد أوجبتها الأجنة فى بطون أمهاتها وإن أكون لعطبها سببا ، وستعرفون طلائع كندة من بعد ، تحمل فى القلوب حنقاً ، وفوق الأسنة علقا :

إذا جالت الخيل فى مأزق   تصافح فيه المنايا النفوسا

— ٦ —

ومن خطباء العرب : كعب بن لؤى[1] .

---

(١) الروض الأنف - صبح الاعشى ٢١١ ج١ - و٢٢٦ ج ١ البيان والتبيين للجاحظ . قال الجاحظ : وكان يخطب العرب عامة ويحض كنانة خاصة على البر

ولؤى بن غالب (١) ، وهاشم بن عبـــد مناف(٢) ، وأبو طالب(٣) .
وعمرو بن كلثوم (٤) ، وضمرة بن ضمرة(٥) ، وعمرو بن عمار الطائى (٦) ،

ويقول الجاحظ فى البيان والتبيين : ومن خطباء العرب فى الجـاهلية : خويلد بن عمرو خطيب يوم الفجار(٧) . . ومن الخطباء البلغاء والحـكام الرؤساء : ربيعة بن حذار ولبيد وهرم بن قطبة(٨) . . ومن القدماء فى الحكمة والخطابة والرياسة : عبيد بن شرية الجرهمى وأسقف نجران وأكيدر صاحب دومة الجندل ، وجذيمة الأبرش(٩) .

-- ٧ --

ومن خطبائهم ممن نخصهم بالذكر : هاشم بن عبد مناف ، وهو سيد قريش وإمامها ، وداعيها إلى الخير والشرف والوحدة ، وحامى البيت والذائد عنه . خطب فى قريش وخزاعة حين تنافرا إليه فقال :

يا بنى قصى ، أنتم كغصنى شجرة ، أيهما كسر أوحش صاحبه ؛ والسيف لا يصان إلا بغمده ، ورامى العشيرة يصيبه سهمه .

فلما مات أكبروا موته فلم تزل كنانة تؤرخ بموته إلى عام الفيل (٢٢٦ ج ١ البيان)

(١) الروض الأنف و ٢٣٣ ج ١ البيان والتبيين .

(٢) « « و ٤٥٨ ج ٢ ابن أبى الحديد وبلوغ الارب ٣٢١ ج ١

(٣) « « و ٢١٢ ج ١ صبح الاعشى و ج ٣ من ابن أبى الحديد

(٤) ٤٩ . ١ البيان والتبيين

(٥) ٢٥ ج : ١ الاغانى و ١٦٨ ج ١ البيان و ١٨٦ ج ١ الميدانى و ١٦٨ و ١٢٨ و ١١٨ ج ٢ .

(٦) ١٥٩ و ٢٢٥ ج ١ البيان ، ٢٣٦ المؤتلف ويقول فيه الجاحظ : كان خطيب مذحج كلها وحمله النعمان على منادمته ثم قتله (٢٢٥ ج ١ البيان)

(٧) ٢٢٦ : ١ البيان (٨) ٢٣٣ : ١ المرجع (٩) ٢ ٢ - ١ المرجع

يا بنى قصى ، أنتم كغصنى شجرة ، أيهما كسر أوحش صاحبه ، والسيف لا يصان إلا بغمده ، ورامى العشيرة يصيبه سهمه

أيها الناس : الحلم شرف . والصبر ظفر ، والمعروف كنز ، والجود سؤدد والجهل سفه ، والأيام دول ، والدهر غـــير ، والمرء منسوب إلى فعله ، ومأخوذ بعمله ؛ فاصنعوا المعروف ، تكسبوا الحمد ، ودعوا الفضول ، وتجانبوا السفهاء ، وأكرموا الجليس يعمر ناديكم ، وحاموا عن الخليط يرغب فى جواركم ، وأنصفوا من أنفسكم يوثق بكم ، وعليكم بمكارم الأخلاق فإنها رفعة ، وإياكم والأخلاق الدنية فإنها تضع الشرف وتهدم المجد .

ولعمرى إن هذه لنفحة نبوية ، وحكمة من شريف ملهم ، وسيد مطاع .

-- ٨ --

ومن خطباتهم عبد المطلب بن هاشم ، خطب يهنىء سيف بن ذى يزن بظفره على الحبشة (١) ، فقال :

إن الله أحلك أيها الملك محلا رفيعاً ، شامخا باذخا ، وأنبتك نبتا طابت أرومته ، وعزت جرثومته(٢) ، وثبت أصله ، وبسق(٣) فرعه ، فى أكرم موطن ، وأطيب معدن ، وأنت ـ أبيت اللعن ـ ملك العرب ، وربيعها الذى تخصب به ، وأنت أيها الملك رأس العرب الذى إليه تنقاد ، وعمودها الذى عليه العماد ، ومعقلها الذى تلجأ إليه العباد . سلفك خير سلف ، وأنت لنا منهم خير خلف ، فلن يخمل ذكر من أنت سلفه ؛ وان يهلك من أنت خلفه ، ونحن أيها الملك أهـــل حرم الله ، وسدنة بيته ، أشخصنا إليك الذى أبهجنا بكشف الكرب الذى فدحنا ، فنحن وفـــد التهنئة لا وفد المرزئة (٤) .

---

(١) راجع أديان العرب فى الجاهلية (٢) الأصل
(٣) علا (٤) الرزء والمصيبة

د ـ المحاورات ـ وصور لها:

١ ـ مفاخرة طريف بن العاصى والحارث بن ذبيان عند بعض مقاول حمير (١)

قال الملك للحارث : يا حارث ألا تخبرنى بالسبب الذى أخرجكم عن قومكم حتى لحقتم بالنمر بن عثمان ؟

قال الحارث : خرج هجينان منا يرعيان غنما لهما ، فتشاولا (٢) بسيفيهما فأصاب صاحبهم عقب صاحبنا فمات ، فسألونا أخـــذ دية صاحبنا : دية الهجين (٣) ، وهى نصف دية الصريح (٤) ، فأبى قومى إلا دية الصريح وأبوا إلا دية الهجين ، فتفاقم الأمر بين الحيين فتظاهروا علينا حسداً ، فأجمع ذوو الحجا منا أن نلحق بأمنع بطن من الأزد ، فلحقنا بالنمر بن عثمان ، فوالله ماقت فى أعضادنا ، فنأينا عنهم ولقد اثأرنا (٥) صاحبنا وهم راغمون .

فوثب طريف من مجلسه ، فجلس بإزاء الحارث فقال : تالله ، ما سمعت قولا أبعد من صواب ، ولا أقرب من خطل ، من قول هذا . والله أيها الملك ماقتلوا بهجينهم بذجا (٦) ، ولا رقوا به درجا ، ولقد أخرجهم الخوف عن أصلهم ، وأجلاهم عن محلهم .

فقال الحارث : أتسمع ياطريف ؟ إنى والله ما إخالك كافا غرب لسانك ولا منهنها شرة نزواتك ، حتى أسطو بك سطوة تكف طماحك ، وترد جماحك .

فقال طريف : مهلا ياحارث ، لا تعرض لذرب (٧) سنانى ، وغرب سبابى .

---

(١) ٧٢ ج ١ الأمالى (٢) تضاربا (٣) هوالذى أبوه عربى وأمه غير عربية
(٤) الخالص (٥) اثأرنا : أخذنا بثأره (٦) الخروف
(٧) الذرب : الحدة

فقال الحارث : إياى تخاطب بمثل هـــذا القول . فقال طريف : أما والأصنام المحجوبة ، والأنصاب المنصوبة ، لئن لم تقف عند قدرك ،لأدعن حزنك سهلا ، وصفاك وحلا .

فقال الحارث : أما والله لو رمت ذلك لرغت بالحضيض (١) وأغصصت بالجريض ، وضاقت عليك الرحاب ، وتقطعت بك الأسباب .

فقــال طريف : دون ما ناجتك به نفسك مقارعة أبطال ، وحياض أهوال .

فقال الملك : أيها عنكما :

٢ ـ وراجع حديث النسوة اللواتى أشرن عـلى بنت الملك بالتزوج ، ووصفهن لها محاسن الزوج (٢) وقد سبق ذكره وراجع حديث أوس بن حارثة ونصيحته لابنه مالك (٣) ، وحديث بعض مقاول حمير مع بنتيه وما دار بينه وبينهما من الحوار ، حين كبرت سنه ، وهو حديث طريف ممتع (٤) . وما وقع بين عمرو بن براقة الهمدانى وحريم المرادى من الأغارة وما قال عمرو فى ذلك (٥) ، واجتماع عامر بن الظرب وحممة بن رافع عند ملك من ملوك حمير ، وتحاورهما أمامه (٦) ، وحديث ابنة الخس مع أبيها (٧) ، وما وقع لحاتم مع زوجته ماوية (٨)

٣ ـ وكان قس يفد على قيصر ويزوره فقال له قيصر يوماً :

ما أفضل العقل ؟

قال : معرفة المرء بنفسه .

قال : فما أفضل العلم ؟

---

(١) هو القرار إذا اتصل بالجبل (٢) ٨٠ : ١ الأمالى
(٣) ١٠٢ : ١ الأمالى (٤) ١٥٢ : ١ الأمالى (٥) ١٢٦ : ٢ الأمالى
(٦) ٢٧٦ : ٢ الأمالى (٧) ١٠٧ الذيل (٨) ١٥٢ الذيل

قال : وقوف المرء عند علمه

قال : فما أفضل المروءة ؟

قال : استبقاء الرجل ماء وجهه

قال : فما أفضل المال ؟

قال : ماقضى به الحقوق .

٤ - ومن أمثلة المفاخرة ما وقع من بعض سادات العرب أمام كسرى وقد قال لهم : ليتكلم كل رجل منكم بمآثر قومه ، وليصدق .

فأخذ : حذيفة بن بدر والأشعث بن قيس ، وبسطام بن قيس ، وحاجب ابن زرارة التميمى ، وقيس بن عاصم ، يعدد كل منهم مآثر قومه ومفاخر أحسابه

٥ - منافرة خالد والقعقاع التميميين :

نافر خالد القعقاع . إلى ربيعة بن حذار الأسدى فقال : هاتيا مكارمكما .

فقال خالد : أعطيت من سأل ، وأطعمت من أكل ، ونصبت قدورى حين وضعت السماك ذيولها ، وطعنت يوم شواحظ (١) فارسا فجللت فخذيه بفرسه .

فقال : يا قعقاع ماعندك ؟

فأخرج قوس حاجب ، وقال : هذه قوس عمى رهنها عن العرب ، وهاتان نعلا جدى قسم فيها أربعين مرباعا ، وهذه زربية (٢) زرارة لم ير ناره خائف إلا أمن ، ولم يمسك بطنب (٣) فسطاسه أسير إلا فك .

فنادى ربيعة بن حذار : ان السماحة واللها (٤) والمرباع والشرف الأسبغ للقعقاع ، ألا إنى نفرت من كان أبوه معبدا وعمه حاجبا ، وجده زرارة (٥)

٦ - ومن أمثلة المنافرات منافرة عامر بن الطفيل وعلقمة بن علاثة العامريين . وهى أشهر المنافرات فى الجاهلية .

---

(١) من أيام العرب وكان لبنى محارب على بنى عامر

(٢) البساط (٣) حبل طويل يشد به السرداق

(٤) جمع لهوة وهى : العطية (٥) هو القعقاع بن معبد بن زرارة التميمى

قيل لما(١) أسن أبو براء عامر بن مالك ، تنازع فى الرياسة عامر بن(٢) الطفيل ، وعلقمة(٣) بن علاثة بن عوف بن الأحوص . فقال علقمة : كانت لجدى الأحوص ، وإنما صارت لعمك بسببه ، وقد قعد عمك عنها ، وأنا أسترجعها ، فأنا أولى بها منك ؛ فشرى(٤) الشر بينهما ، وسارا إلى المنافرة ، فقال علقمة : إن شئت نافرتك ، فقال عامر : قد شئت ، والله إنى لأكرم منك حسباً ، وأثبت منك نسباً ، وأطول منك قصباً(٥) .

فقال علقمة : والله لأنا خير منك ليلا ونهاراً ، فقال عامر : والله لأنا أنحر منك للقاح(٦) ، وخير منك فى الصباح ، وأطعم منك فى السنة الشياح(٧) .

فقال علقمة : أنا خير منك أثراً ، وأحد منك بصراً ، وأعز منك نفراً ، وأشرف منك ذكراً .

فقال عامر : ليس لبنى الأحوص فضل على بنى مالك فى العدد ، وبصرى ناقص ، وبصرك صحيح ، ولكنى أنافرك ؛ إنى أسمى منك سمة(٨) ، وأطول منك قمة ، وأحسن منك لمة(٩) وأجعد منك جمة(١٠) . وأسرع منك رحمة ، وأبعد منك همة .

فقال علقمة : أنت رجل جسيم ، وأنا رجل قضيف(١١) ، وأنت جميل ،

---

(١) راجع هذه القصة الادبية فى كتاب الاغانى صـ ٥٠ جـ ١٥ ، مهذب الاغانى صـ ٦٨ جـ ٢ ، نهاية الارب صـ ٢٧٢ جـ ٣ ، بلوغ الارب صـ ٢٨٦ جـ ١

(٢) من بنى عامر بن صعصعة : فارس قومه ، وأحد فتاك العرب وشعرائهم ولد ونشأ بنجد ، كريماً شجاعاً وفد على رسول الله يريد الغدر به ولم يسلم ، فمات فى طريقه قبل أن يبلغ قومه سنة ١١ هـ (٣) علقمة بن علاثة : كان فى الجاهلية من أشراف قومه ، أسلم ، وارتد فى أيام أبى بكر فانصرف إلى الشام ، ثم عاد إلى الإسلام وتوفى نحو سنة ٢٠ هـ (٤) شرى : استطار (٥) يريد طول القامة

(٦) اللقاح : الإبل (٧) الشياح : القحط (٨) السمة : القرابة

(٩) اللمة : الشعر المجاوز شحمة الاذن (١٠) الجمة : مجتمع شعر الرأس

(١١) قضيف : نحيف

وأنا قبيح ، ولكنى أنافرك بآبائى وأعمامى .

فقال عامر : آباؤك أعمامى ، ولم أكن لأنافرك بهم ، لكنى أنافرك ، أنا خير منك عقباً ، وأطعم منك جدباً .

فقال علقمة : قد علمت أن لك عقبا ، وقد أطعمت طيبا ، ولكنى أنافرك ، إنى خير منك ، وأولى بالخيرات منك .

فخرجت أم عامر ـ وكانت تسمع كلامهما ، فقالت : ياعامر نافره أيكما أولى بالخيرات .

قال عامر : والله إنى لأركب منك فى الحماة ، وأقتل منك للكماة(١) ، وخير منك للمولى والمولاة .

فقال له علقمة : والله إنى لبر ، وإنك لفاجر ، وإنى لولود وإنك عاقر(٢) ، وإنى لعف ، وإنك لعاهر ، وإنى لوفى ، وإنك لغادر ، ففيم تفاخرنى ياعامر ؟

فقال عامر : والله إنى لأنزل منك للقفرة(٣) ، وأنحر منك للبكرة(٤) ، وأطعم منك للهبرة(٥) ، وأطعن منك للثغرة .

فقال علقمة : والله إنك لكليل البصر ، نكد النظر .

فقال بنو خالد بن جعفر ـ وكانوا يداً مع بنى الأحوص على بنى مالك بن جعفر : لن تطيق عامراً ، ولكن قل له : أنافرك بخيرنا وأقربنا إلى الخيرات . فقال له علقمة هذا القول ، فقال عامر : عير وتيس(٦) ، وتيس وعنز . نعم على مائة من الإبل إلى مائة من الإبل يعطاها الحكم ، أينا نفر عليه صاحبه

---

(١) الكماة : جمع كمى ، وهو الشجاع (٢) رجل عاقر : لم يولد له ولد

(٣) القفرة : الخلاء من الارض (٤) البكرة : الفتية من الإبل

(٥) الهبرة : القطعة المجتمعة من اللحم

(٦) العير : الحمار ، وغلب على الوحش ، وهو أقوى من التيس ، أى مثلى وإياك كالعير والتيس ، أو على الاقل كالتيس والعنز إذ التيس أقوى على النطاح من العنز .

أخرجها ، ففعلوا ذلك ، ووضعوا بها رهناً من أبنائهم على يدى رجل يقال له خزيمة بن عمرو ، فسمى الضمين .

وخرج علقمة ومن معــه من بنى خالد ، وخرج عامر فيمن معه من بنى مالك ، وجعلا منافرتهما إلى أبى سفيان بن حرب بن أمية ، فلم يقل بينهما شيئاً ، وكره ذلك لحالهما ، وحال عشيرتهما ، وقال : أنتما كركبتى البعير الأدرم(١) . قالا : فأينا اليمين ؟ قال : كلاكما يمين ، وأبى أن يقضى بينهمـا . فانطلقا إلى أبى جهل بن هشام ، فأبى أن يحـكم بينهما ، وقد كانت العرب تحاكم إلى قريش ، فأتيا عيينة بن حصن بن حذيفة ، فأبى أن يقول بينهمـا شيئاً ، فأتيا غيلان بن سلمة الثقفى ، فردهما إلى حرملة بن الأشعر المرى ، فأبى أن يقول شيئاً . ثم تداعيا إلى هرم بن قطبة ليحكم بينهما ، فرحلا إليه ، ومع كل واحد منهما ثلاثمائة من الإبل : مائة يطعمها من تبعه ، ومائة يعطيهـا للحاكم ، ومائة تعقر إذا حكم ، فأبى هرم بن قطبة أن يحكم بينهما مخافة الشر ، وأبيا أن يرتحلا ، فقال هرم : لعمرى لأحكمن بينـكما ، ثم لأفصلن ، فأعطيانى موثقاً أطمئن إليـه أن ترضيا بما أقول ، وتسلما لما قضيت بينـكما ، وأمرهما بالانصراف ووعدهما يوما ، فانصرفا حتى إذا بلغ الأجل خرجا إليـــه ، وأقام القوم عنده أياماً .

فخلا هرم بعلقمة ، وقال له : أترجو أن ينفرك رجل من العرب على عامر فارس مضر ، أندى الناس كفا ، وأشجعهم لقاء ، لسنان رمح عامر أذكر فى العرب من الأحوص ، وعمه ملاعب الأسنة .

فقال له علقمة : أنشدك الله والرحم أن لا تنفر على عامرا ، اجزز ناصيتى ، واحتـكم فى مالى ، وإن كنت لابد أن تفعـل فسو بينى وبينـه ، فقال : انصرف ، فسوف أرى رأيى ، فخرج وهو لايشك أنه سيفضل عليه عامرا . ثم خلا بعامر فقال له : أعلى علقمة تفخر ؟ أنت تناوئه ! أعلى ابن

---

(١) درم العظم : واراه اللحم حتى لم يبين له حجم .

عوف بن الأحوص ! أعف بنى عامر ، وأيمنهم نقيبة ، وأحلمهم وأسودهم ، وأنت أعور عاقر مشئوم ! أما كان لك رأى يزعك عن هذا ! أكنت تظن أن أحدا من العرب ينفرك عليه ؟ فقال عامر : نشدتك الله والرحم أن لا تفضل على علقمة فوالله إن فعلت لا أفلح بعدها أبدا ، هذه ناصيتى فاجززها ، واحتكم فى مالى ، فإن كنت لابد فاعلا فسو بينى وبينه . قال : انصرف فسوف أرى رأيى ؛ فخرج عامر ، وهو لا يشك أنه ينفره عليه .

ثم إن هرماً أرسل إلى بنيه وبنى أبيه : إنى قائل غدا بين هذين الرجلين مقالة ، فإذا فعلت فليطرد بعضكم عشر جزائر(١) ، فلينحرها عن علقمة . ويطرد بعضكم عشر جزائر ينحرها عن عامر ، وفرقوا بين الناس لا تكون لهم جماعة ، فلما اجتمعا وحضر الناس للقضاء قام هرم ، وقال : يابنى جعفر قد تحاكمتما عندى . وأنتما كركبتى البعير الأدرم ، تقعان إلى الأرض معاً ، وليس فيكما أحد إلا وفيه ماليس فى صاحبه ، وكلاكما سيد كريم .

وعمد بنو هرم وبنو أخيه إلى تلك الجزر فنحروها حيث أمرهم هرم ، وفرقوا الناس ، ولم يفضل هرم أحدا منهما على صاحبه ، وكره أن يفعل — وهما ابنا عم — فيجلب بذلك عداوة ، ويوقع بين الحيين شرا .

فارتحلوا عن هرم لما أعيام نحو عكاظ ، فلقيهم الأعشى منحدرا من اليمن — وكان لما أرادها قال لعلقمة : اعقد لى حبلا ، فقال : أعقد لك من بنى عامر ! قال : لا يغنى عنى . قال : فمن قيس ! قال : لا . قال : فما أنا بزائدك ، فأتى عامر بن الطفيل فأجاره من أهل السماء والأرض ؛ فقال له : كيف تجيره من أهل السماء ؟ قال : إن مات وديته — فقال الأعشى لعامر : أظهر أنكما حكمتمانى ، ففعل ؛ فقام الأعشى ، فرفع عقيرته(٢) فى الناس فقال :

---

(١) جزائر : جمع جزور .
(٢) عقيرته : صوته .

حكمتموه فقضى بينكم أبلج مثل القمر الزاهر
لا يأخذ الرشوة فى حكمه ولا يبالى خسر الخاسر
علقم لا ، لست إلى عامر النـــاقض الأوتار والواتر
واللابس الخيل بخيل إذا ثار عجاج الكبة(١) الثائر
إن تسد الحوص فلم تعدهم وعامر ساد بنى عامر
ساد وألفى رهطه سادة وكابرا سادوك عن كابر

وشد القوم فى أعراض الإبل المائة فعقروها ، وقالوا : نفر عامر وذهبت بها الغوغاء ، وجهد علقمة أن يردها فلم يقدر على ذلك ؛ فجعل يتهدد الأعشى فقال :

أتانى وعيد الحوص من آل عامر فياعبد عمرو لو نهيت الأحاوصا
فما ذنبنا إن جاش بحر ابن عمكم وبحرك ساج(٢) لايوارى الدعامصا(٣)
كلا أبويكم كان فرعاً دعامة ولكنهم زادوا وأصبحت ناقصا
تبيتون فى المشتى ملاء بطونكم وجاراتكم غرثى(٤) يبتن خمائصا(٥)
يراقبن من جوع خلال مخافة نجوم العشاء العاتمات الغوامصا(٦)
رمى بك فى أخراهم تركك الندى وفضل أقواما عليك مراهصا(٧)
فعض حديد الأرض إن كنت ساخطا بفيك وأحجار الكلاب الرواهصا(٨)

---

(١) الكبة : الدفعة فى القتال والحملة فى الحرب
(٢) سجى : سكن (٣) الدعموص : دويبة أو دودة سوداء تكون فى الغدران
(٤) غرث : جاع (٥) الخائص : جمع خميصة ، ضامرة البطن أى من شدة الجوع (٦) الغميصاء : إحدى الشعريين ، قال فى القاموس : من أحاديثهم : إن الشعرى العبور قطعت المجرة فسميت عبوراً وبكت الاخرى على أثرها حتى غمصت ويقال لها الغموص أيضا (٧) راهص غريمه : راصده ، قال فى القاموس : والمراهص لم يسمع بواحدها (٨) الكلاب : موضـــع ، والرواهص من الحجارة : التى تنكب الدواب ، والصخور الثابتة

فبكى علقمة لما بلغه هذا الشعر وكان بكاؤه زيادة عليه فى العار (١).

هذا والمحاورة : هى التحاور والتراجع فى الكلام والحديث . وهى من ضرورات المجتمع والحياة .

والعرب كثيرو المحاورة لكثرة خصوماتهم ومفاخراتهم وتنازعهم على الشرف وسواه .

وتشمل المحاورات : المنافرة والمفاخرة،وسواهما من المحاورة العامة.

ا) فالمنافرة : المحاكمة فى المفاخرة ، وأصلها من قولهم : أينا أعز نفرا : فهى التحاكم إلى الأشراف من حكام العرب ، ليفصلوا بينهما ، ويقضوا بالشرف لأحدهما .

ب) والمفاخرة : مصدر فاخر ، وهى تفاخر القوم بعضهم على بعض،وكانوا يفاخرون بالحسب والشرف والأخلاق الكريمة والعز والثروة والكثرة والعدد .

ج) والمحاورة العامة فى شئون الحياة مما لا يتصل بمفاخرة أو منافرة وهى كثيرة ، كثرة مطالب الحياة وشئونها ودواعى اتصال الإنسان بسواه من المجتمع .

— ٩ —

هـ ـ سجع الكهان وصور منه :

١ ـ حديث زبراء الكاهنة مع بنى رئام :

كان ثلاثة بطون من قضاعة متجاورين بين الشحر وحضرموت وهم : بنو ناعب ، وبنو داهن ، وبنو رئام ، وكان بنو ناعب وبنو داهن متظاهرين

---

(١) راجع حديث هرم بن قطبة مع عمر بن الخطاب حول هذه المنافرة فى البيان والتبيين (١٦٨ : ١)

على بنى رئام ، وكانت بنو رئام أقلهم عدداً وأشجعهم لقاء ، وكان لهم عجوز تسمى خويلة ، كان يدخل عليها أربعون رجلا كلهم لها محرم : بنو إخوة ، وبنو أخوات ، وكانت خويلة عقيما ، وكان لها أمة من مولدات العرب تسمى زبراء ، وكانت زبراء كاهنة .

فقالت زبراء لخويلة : انطلقى بنا إلى قومك أنذرهم ، فأقبلت خويلة تتوكأ على زبراء ، فقاموا إجلالا لها .

فقالت: يا ثمر الأكباد ، وشجا الحساد ، هذه زبراء ، تخبركم عن أنباء ، قبل انحسار الظلماء ، بالمؤيد (١) الشنعاء ، فاسمعوا ما تقول ، قالوا : وما تقولين يا زبراء ؟ قالت :

واللوح الخافق ، والليل الغاسق ، والصباح الشارق ، والنجم الطارق ، إن شجر الوادى ليأدو (٢) ختلا ، ويحرق أنيابا عصلا (٣) ، وإن صخر الطود لينذر ثكلا ، لا تجدون عنه معلا (٤) .

وانصرفت عنهم ، فانصرف منهم أربعون رجـــلا ، وبقى ثلاثون ، فرقدوا فى مشربهم ، وطرقتهم بنو راهن وبنو ناعب فقتلوهم أجمعين . وأقبلت خويلة عند الصباح ، فوقفت على مصارعهم ، ثم عمدت إلى خناصرهم فقطعتها ، وانتظمت منها قلادة وألقتها فى عنقها (٥)

٢ ـ وراجع حديث مصاد بن مذعور وخروجه فى طلب الذود ، وما أخبره به الجوارى الأربع الطوارق بالحصا (٦) .

وحديث الرواد الذين أرسلتهم مـذحج ووصفهم الأرض لقـومهم بعد رجوعهم (٧)

---

(١) الداهية والأمر العظيم (٢) أى يختل
(٣) حرق أنيابه : حك بعضها ببعض . والعصل : المعوجة
(٤) أى منجى (٥) راجع ١٢٦ ج ١ الأمالى
(٦) ١٤٢ ج ١ الأمالى (٧) ١٨٠ ج ١ الأمالى

واقرأ حديث سواد بن قارب وكهانته (١)، وحديث ابنة الخس مع أبيها (٢)

ووفود عبد المسيح - رسول كسرى - على سطيح الكاهن (٣).

٣ - وكانت هند بنت عتبة زوجا للفاكه بن المغيرة المخزومى، وكانت داره ناديا لقومه فاتهمها الفاكه برجل واستلحقها بأبيها، فخرج بها والدها إلى بعض الكهان يستخبره عن أمرها، وأخرج معها نسوة من قومها، وأقبل معهم الفاكه فى رجال من قومه. فلما شارفوا ديار الكاهن رأى عتبة من ابنته انكسارا وتغيرا، فقال لها: يابنية لا تكتمينى من أمرك شيئا، فإن كان مابك لريبة نرجع ولا بأس عليك، فقالت هند: لا والله يا أبت، ما ذاك لريبة ولا فاحشة، ولكنكم تقدمون على بشر يخطى ويصيب، وأخشى أن يسمنى بسمة، تبقى على وصمة عار آخر الدهر، قال: سأبلوه لك. ثم خبأ خبيئاً، واقبلوا حتى أتوا الكاهن، فأخبرهم بخبيئهم، ثم أقبل على هند فقال: انهضى غير رسحاء ولا زانية. وستلدين ملكا اسمه معاوية.

ماهى الكهانة؟:

والكهانة قد سبق الحديث عنها وهى تعرف الغيب من الأمور المستقبلة أو الماضية.

وكان فى العرب كهان يتنبأون بالحوادث، وللعرب اعتقاد كبير فيهم، فهم ملاذ المريض، وطمأنينة الحائر، والحكم فى الخصومة.

ومن أشهر هؤلاء الكهان: شق وسطيح الذئبى (٤)، وطريفة الخير امرأة عمرو بن عامر الحميرية وكانت باليمن وهى التى تنبأت بخراب سد مأرب،

---

(١) ٢٨٩ ج ٢ الأمالى (٢) ١٠٧ ذيل الأمالى (٣) ١٧٨ ج ١ العقد ط ١٩٢٨

(٤) كانا متعاصرين فى زمن كسرى أنو شروان وولدا معا

ومنهم: فاطمة الخثعمية وكانت بمكة، ولها قصة مع والد الرسول صلوات الله عليه وسلم عبد الله بن عبد المطلب قبل أن يتزوج بآمنة بنت وهب، ومنهم زبراء، وسواد بن قارب وغير هؤلاء كثيرون.

ويتحدث الرواة بأعاجيب كثيرة لأولئك الكهان وبعجائبهم في الإخبار بالغيب ومعرفة الحوادث.

وكانت الكهانة منتشرة في الجاهلية قبل البعثة. وتدور غالباً حول: التبشير بنبي يبعث، وتفسير الرؤى، ومعرفة ما خفي عنهم من الحوادث.

وهي نوع من الفراسة والإلهام وصدق الحدس وصفاء الروح والقدرة على التحليق في جو سماوي مجرد عن حدود المادة، وكثيراً ما تصدق النبوءات في مثل هذه الأحوال.

ويقول الجاحظ في البيان والتبيين:

(ا) كان كهان العرب يتحاكم إليهم أكثر أهل الجاهلية، وكانوا يدعون الكهانة وأن مع كل واحد منهم رئيا من الجن، مثل حازي جهينة، وشق، وسطيح، وعزى سلمة. وأشباههم، وكانوا يتكهنون ويحكمون بالأسجاع. وكان ضمرة بن ضمرة وهرم بن قطبة والأقرع بن حابس ونفيل بن عبد العزى يحكمون وينفرون بالأسجاع وكذلك ربيعة بن حذار (١)

(ب) ومن أهل الدهاء والنكراء ومن أهل اللسن واللقن، والكلام الصحيح، والأمثال السائرة. والمخارج العجيبة: «هند بنت الخس، وهي الزرقاء.» «وجمعة بنت حابس». وهما داهيتا نساء العرب كما يقول أبو عمرو ابن العلاء (٢). ويذكر حوارا لابنة الخس مع أبيها (٣)

(ج) ويذكر أسماء الكهان والحكام والخطباء والعلماء من قحطان (٤)

---

(١) ١٩٥ ج١ البيان والتبيين. (٢) ٢٠٥ ج ١ المرجع
(٣) ٢١٢ ج ١ المرجع (٤) ٢٣٠ ج ١ المرجع

ومنهم - كما يقول - فى الجاهلية . عبيد بن شرية ، وشق بن الصعب ، وربيع بن ربيعة السطيح الذئبى، والمأمور الحارثى ، والديان الحارثى الشريفان الكاهنان(١) .

صور من القصص الجاهلى

إيثار ابن مامة الإيادى(٢) :

خرج كعب(٣) بن مامة الإيادى فى قفل ، معهم رجل من بنى النمر ابن قاسط ، وكان ذلك فى حر الصيف ؛ فضلوا وشح ماؤهم ، فكانوا يتصافنون(٤) الماء - وذلك أن يطرح فى القعب(٥) حصاة ، ثم يصب فيه من الماء بقدر ما يغمر الحصاة ؛ فيشرب كل واحد منهم قدر ما يشرب الآخر .

ولما نزلوا للشرب ، ودار القعب بينهم ، حتى انتهى إلى كعب ، رأى الرجل النمرى يحد النظر إليه ؛ فآثره بمائه على نفسه . وقال للساقى : اسق أخاك النمرى ، فشرب النمرى نصيب كعب من الماء ذلك اليوم !

ثم نزلوا من الغد منزلهم الآخر ، فتصافنوا بقية مائهم ؛ فنظر إليه كنظره أمس ، وقال كعب كقوله أمس ، وارتحل القوم ، وقالوا : يا كعب ، ارتحل فلم يكن له قوة للنهوض ، وكانوا قد قربوا من الماء ، فقالوا له . رد يا كعب إنك وارد ، فعجز عن الجواب ، ولما أيسوا منه خيموا عليه بثوب يمنعه من السبع أن يأكله ، وتركوه مكانه ؛ فمات ونجا رفيقه !

---

(١) ٢٣١ ج١ المرجع (٢) بلوغ الأرب ص ٨١ ج١ ، المحاسن والمساوىء ٢٠٥ طبعة ليبزج ، الأمثال ص ١٦٧ ج ١ (٣) هو كعب بن مامة بن عمرو بن ثعلبة الإيادى ، الذى يضرب المثل بجوده ، وكان أبوه ملك إياد

(٤) تصافنوا الماء : اقتسموه بالحصص (٥) القعب : القدح يروى الرجل

وفاء السموأل :

لما أراد امرؤ القيس المضى إلى قيصر ملك الروم ، أودع عند السموأل(١) دروعا وسلاحا وأمتعة . تساوى جملة كثيرة ؛ فلما مات امرؤ القيس ، أرسل ملك كندة يطلب الدروع والأسلحة المودعة عند السموأل ؛ فقال السموأل : لا أدفعها إلا إلى مستحقها ، وأبى أن يدفع اليه منها شيئاً ، فعاوده ، فأبى ، وقال : لا أغدر بذمتى ، ولا أخون أمانتى ، ولا أترك الوفاء والواجب على .

فقصده ذلك الملك من كندة بعسكره ، فدخل السموأل فى حصنه(٢) ، وامتنع به ، فحاصره ذلك الملك . وكان ولد السموأل خارج الحصن ؛ فظفر به الملك ، وأخذه أسيراً ، ثم طاف حول الحصن ، وصاح بالسموأل ، فأشرف عليه من أعلى الحصن ؛ فلما رآه قال له : إن ولدك قد أسرته ، وهاهو ذا معى ، فإن سلمت إلى الدروع والسلاح ، رحلت عنك ، وسلمت إليك ولدك ؛ وإن امتنعت من ذلك ذبحت ولدك وأنت تنظر ! فاختر أيهما شئت .

فقال له السموأل : ما كنت لأخفر ذمامى ، وأبطل وفائى ؛ فاصنع ما شئت !

---

(١) راجع المستطرف ص ٢٠١ ج ١ ، الغرر ص ١٩ ، بلوغ الأرب ص ١٣٦ ج ١ ، والسموأل : هو السموأل بن غريض بن عادياء شاعر جاهلى حكيم أشهر شعره لاميته التى مطلعها :

إذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه … فكل رداء يرتديه جميل

ويضرب المثل بوفائه . توفى نحو سنة ٦٥ ق . هـ

(٢) هذا الحصن يسمى الأبلق الفرد ، وقد بناه أبوه بتيماء وفيه يقول السموأل :

لنا جبل يحتله من نجيره … منيع يرد الطرف وهو كليل

هو الأبلق الفرد الذى شاع ذكره … يعز على من رامه ويطول

رسا أصله تحت الثرى وسما به … إلى النجم فرع لا ينال طويل

فذبح ولده، وهو ينظر. ثم لما عجز عن الحصن رجع خائباً، واحتسب السموأل ذبح ولده، وصبر محافظة على وفائه؛ فلما جاء الموسم، وحضر ورثة امرىء القيس، سلم إليهم الدروع والسلاح، ورأى حفظ ذمامه، ورعاية وفائه أحب إليه من حياة ولده وبقائه! وقال في ذلك:

وفيت بأدرع الكندى إنى   إذا ماخان أقوام وفيت

لاحر بوادى عوف(١):

لما مات ليث بن مالك أخذت بنو عبس فرسه وسلبه(٢). ثم مالوا إلى خبائه فأخذوا أهله، وسلبوا امرأته خماعة بنت عوف بن محلم، وكان الذى أصابها عمرو بن قارب وذؤاب بن أسماء؛ فسألها مروان(٣) القرظ بن زنباع من أنت؟ فقالت: أنا خماعة بنت عوف بن محلم، فانتزعها من عمرو وذؤاب، لأنه كان رئيس القوم، وقال لها: غطى وجهك، والله لا ينظر إليه عربى حتى أردك إلى أبيك، وضمها إلى أهله! حتى إذا دخل الشهر الحرام أحسن كسوتها وأخدمها وأكرمها وحملها إلى عكاظ.

فلما انتهى بها إلى منازل بنى شيبان قال لها: هل تعرفين منازل قومك ومنزل أبيك؟ قالت: هذه منازل قومى، وهذه قبة أبى! قال: فانطلقى إلى أبيك، فانطلقت فخبرت بصنيع مروان.

ثم إن مروان غزا بكر بن وائل فقصوا أثر جيشه، فأسره رجل منهم، وهو لا يعرفه؟ فأتى به أمه؛ فلما دخل عليها قالت له أمه: إنك لتختال بأسيرك كأنك جئت بمروان القرظ! فقال لها: وما ترتجين من مروان؟ قالت: عظم

---

(١) راجع الأمثال ص ٢٩٩ ج ٢، بلوغ الأرب ص ١٢٥ ج ١

(٢) السلب: ما يأخذه أحد القرنين فى الحرب من قرنه مما يكون معه وعليه من سلاح ودابة (٣) سمى مروان القرظ. لأنه كان يغزو اليمن وهى منابت القرظ، ويضرب به المثل فى العز، فيقال: أعز من مروان القرظ.

فدائه . قال : وكم ترتجين من فدائه ؟ قالت : مائة بعير ! قال مروان : ذلك لك على أن تؤديني إلى خماعة بنت عوف بن محم !

فمضت به إلى عوف(١) بن محلم ، فبعث اليه عمرو بن هند أن يأتيه به — وكان عمرو وجد على مروان فى أمر ، فآلى ألا يعفو عنه حتى يضع يده فى يده — فقال عوف — حين جاءه الرسول : قد أجارته ابنتى ! وليس إليه سبيل ، فقال عمرو بن هند : قد آليت ألا أعفو عنه أو يضع يده فى يدى . قال عوف : يضع يده فى يدك على أن تكون يدى بينهما ! فأجابه عمرو بن هند إلى ذلك .

فجاء عوف بمروان فأدخله عليه ، فوضع يده فى يده ، ووضع يده بينهما فعفا عنه . وقال عمرو : لاحر بوادى(٢) عوف .

مصرع الزباء :

كان جذيمة(٣) قد ملك على شاطىء الفرات . وكانت الزباء ملكة الجزيرة ، وكان جذيمة قد وترها بقتل أبيها ، فلما استجمع أمرها ، وانتظم شمل ملكها ، أحبت أن تغزو جذيمة ، ثم رأت أن تكتب اليه : انها لم تجد ملك النساء إلا قبحاً فى السماع ، وضعفا فى السلطان ، وإنها لم تجد لملكها موضعا ، ولا لنفسها كفئا غيرك . فأقبل إلى لأجمع ملكى إلى ملكك ، وأصل بلادى ببلادك ، وتقلد أمرى مع أمرك .

فلما أتى كتابها جذيمة ، وقدم عليه رسلها استخفه مادعته اليه ، ورغب

(١) من أشراف العرب فى الجاهلية ، كان مطاعا فى قومه ، قويا فى عصبيته ، وكانت تضرب له قبة فى عكاظ توفى نحو سنة ٤٥ ق . ه

(٢) أى لا سيد به يناوئه .

(٣) مجمع الأمثال ص ٢١٣ ج ١ ، جمهرة الأمثال ص ٦٢

فيما أطمعته فيه ؛ فجمع أهل الحجا والرأى من ثقاته ـ وهو يومئذ ببقة من شاطىء الفرات ـ وعرض عليهم مادعته اليه وعرضت عليه ، فاجتمع رأيهم على أن يسير اليها فيستولى على ملكها .

وكان فيهم قصير ـ وكان أريبا حازما أثيرا عند جذيمة ـ فخالفهم فيما أشاروا به ، وقال : رأى فاتر ، وغدر حاضر(١) . ثم قال لجذيمة : الرأى أن تكتب اليها ، فإن كانت صادقة فى قولها فلتقبل اليك ، وإلا لم تمكنها من نفسك ، ولم تقع فى حبالتها ، وقد وترتها وقتلت أباها . فلم يوافق جذيمة وقال له : رأيك فى الكن لا فى الضِّح(٢) .

ودعا جذيمة عمرو بن عدى ابن أخته فاستشاره ، فشجعه على المسير وقال : إن قومى مع الزباء ولو رأوك صاروا معك ؛ فأحب جذيمة ما قاله ، وعصا قصيرا ، فقال قصير : لا يطاع لقصير أمر(٣) .

واستخلف جذيمة عمرو بن عدى على ملكه وسلطانه ، وسار فى وجوه أصحابه ، فأخذ على شاطىء الفرات من الجانب الغربى ؛ فلما نزل دعا قصيرا فقال : ما الرأى يا قصير ؟ فقال قصير : ببقة خلفت الرأى(٣) . قال : وما ظنك بالزباء ؟ قال : القول رداف ، والحزم عثراته تخاف(٣) .

واستقبلته رسل الزباء بالهدايا والألطاف ، فقال : يا قصير كيف ترى ؟ قال : خطب يسير فى خطب كبير(٣) . وستلقاك الجيوش ، فإن سارت أمامك فالمرأة صادقة ، وإن أخذت جنبتيك ، وأحاطت بك من خلفك فالقوم غادرون بك ، فاركب العصا(٤) فإنها لا يشق غبارها ـ وكانت العصا فرسا لجذيمة لا تجارى ـ وإنى راكبها ومسايرك عليها .

فلقيته الخيول والكتائب ، فحالت بينه وبين العصا ؛ فركبها قصير ، ونظر

---

(١) ذهبت مثلا (٢) الضح : الشمس وضوءها ، والكن : وقاء كل شىء وستره ، ذهبت مثلا .

(٣) ذهبت أمثالا (٤) العصا : اسم فرس ،

إليه جذيمة على متن العصا موليا ، فقال : ويل امه حزما على متن العصا(١) . وجرت به إلى غروب الشمس ثم نفقت ، وقد قطعت أرضا بعيدة .

وسار جذيمة وقد أحاطت به الخيل حتى دخل على الزباء . فلما رأته قالت : أشوار(٢) عروس ترى ؟ فقال : أمر غدر أرى . ثم دعت بالسيف والنطع ، وقالت : إن دماء الملوك شفاء من الكلب ، فأمرت بطست من ذهب قد أعدته له ، وسقته الخمر حتى سكر ، وأخذت منه الخمر مأخذها ، فأمرت براهشيه(٣) فقطعا ، وقدمت اليه الطست ـ وقد قيل لها : إن قطر من دمه شيء في غير الطست طلب بدمه ـ فلما ضعفت يداه سقطتا فقطر من دمه في غير الطست ، فقالت : لا تضيعوا دم الملك . فقال جذيمة : دعوا دما ضيعه أهله(٤) ، فهلك جذيمة .

وخرج قصير من الحي الذي هلكت العصا بين أظهرهم ، حتى قدم على عمرو بن عدي ـ وهو بالحيرة ـ فقال له قصير : أثائر أنت ؟ قال : بل ثائر سائر(٤) .

ووافق قصير الناس وقد اختلفوا ، فأصلح بينهم ، ثم قال لعمرو بن عدي : تهيأ واستعد ، ولا تطلن(٥) دم خالك . قال : وكيف لي بها وهي أمنع من عقاب الجو(٤) ؟

وكانت الزباء سألت كاهنة لها عن هلاكها ، فقالت : أرى هلاكك بسبب غلام مهين غير أمين ، وهو عمرو بن عدي ، وان تموتي بيده ، ولكن حتفك بيدك ، ومن قبله مايكون من ذلك .

فحذرت عمرا ، واتخذت لها نفقا من مجلسها الذي كانت تجلس فيه إلى حصن لها في داخل مدينتها ، وقالت : إن فاجأني أمر دخلت النفق إلى

---

(١) ذهبت أمثالا (٢) الشوار : الهيئة والزينة .
(٣) الراهشان : عرقان في باطن الذراعين (٤) ذهبت أمثالا
(٥) طل دمه : هدر أو ألا يثأر به .

حصنى ؛ ودعت رجلا مصوراً من أجود أهل بلاده تصويراً ، وأحسنهم عملا ، فجهزته وأحسنت إليه ، وقالت : سر حتى تقدم على عمرو بن عدى متنكراً ، فتخلو بحشمه فتنضم اليهم ، وتخالطهم وتعلمهم ما عندك من العلم بالصور ، ثم أثبت لى عمرو بن عـــدى معرفة ؛ فصوره جالسا وقائما وراكبا ومتفضلا ومتسلحا بهيئته ولبسته ولونه ، فإذا أحكمت ذلك فأقبل إلى .

فانطلق المصور حتى قدم على عمرو بن عدى ، وصنع الذى أمرته به الزباء وبلغ من ذلك ما أوصته به ، ثم رجع إلى الزباء بعلم ما وجهته له من الصورة على ما وصفت وأرادت أن تعرف عمرو بن عدى ، فلا تراه على حال إلا عرفته وحذرته ، وعلمت علمه .

وقال قصير لعمرو بن عدى : اجدع أنفى ، واضرب ظهرى ، ودعنى وإياها ، فقال عمرو : ما أنا بفاعل ، وما أنت لذلك مستحقا عندى . فقال قصير : خل عنى إذن وخلاك ذم(١) . فقال له عمرو : فأنت أبصر . فجدع أنفه وأثر آثاراً بظهره ؛ فقالت العرب : لأمر ما جدع قصير أنفه(١) .

ثم خرج قصير كأنه هارب ، وأظهر أن عمرا فعل ذلك به ، وأنه زعم أنه مكر بخاله جذيمة وغره ؛ فسار حتى قدم على الزباء ، فقيل لها : إن قصيرا بالباب . فأمرت به فأدخل ، فإذا أنفه قد جدع ، وظهره قد ضرب ؛ فقالت ما الذى أرى بك ياقصير ؟ قال : زعم عمرو أنى قد غررت خاله ، وزينت له المصير إليك وغششته ومالأتك ؛ ففعل بى ما ترين . فأقبلت إليك ؛ فأكرمته وأصابت عنده من الحزم والرأى ما أرادت .

فلما عرف أنها استرسلت اليه ، ووثقت به قال : إن لى بالعراق أموالا كثيرة وطرائف وثيابا وعطرا فابعثينى إلى العراق ؛ لأحمل مالى وأحمل اليك

---

(١) ذهبت أمثالا

من بزها(١) وطرائفها وثيابها وطيبها ، لتصيبي من ذلك أرباحا عظيمة ، وبعض ما لا غنى للملوك عنه ؛ وكان أكثر ما يطرفها من الصرفان(٢) ، وكان يعجبها ، فلم يزل يزين ذلك حتى أذنت له ، ودفعت اليه أموالا ، وجهزت معه عبيدا .

فسار قصير بما دفعت اليه حتى قدم العراق ، وأتى الحيرة متنكرا ، فدخل على عمرو بن عدى ، فأخبره الخبر ، وقال : جهزنى بصنوف البز والأمتعة لعل الله يمكن من الزباء ؛ فتصيب ثأرك ، وتقتل عدوك . فأعطاه حاجته .

فرجع بذلك إلى الزباء . فأعجبها مارأت وسرها ، وازدادت به ثقة ، وجهزته ثانية . فسار حتى قدم على عمرو . فجهزه وعاد اليها .

ثم عاد الثالثة وقال لعمرو : اجمع لى ثقات أصحابك ، وهيء الغرائر واحمل كل رجلين على بعير فى غرارتين ، فإذا دخلوا مدينة الزباء أقمتك على باب نفقها ، وخرجت الرجال من الغرائر فصاحوا بأهل المدينة ، فمن قاتلهم قتلوه ، وإن أقبلت الزباء تريد النفق جللتها بالسيف .

ففعل عمرو ذلك ، وحمل الرجال فى الغرائر بالسلاح ، وسار يكمن النهار ويسرى بالليل ، فلما صار قريبا من مدينتها تقدم قصير فبشرها ، وأعلمها بما جاء به من المتاع والطرائف ، وقال لها : آخر البز على القلوص(٣) . وسألها أن تخرج فتنظر إلى ماجاء به وقال لها : جئت بما صاء وصمت(٤) .

ثم خرجت الزباء فأبصرت الإبل تكاد قوائمها تسوخ فى الأرض من ثقل أحمالها ، فقالت يا قصير :

---

(١) البز : الثياب (٢) الصرفان : تمر رزين صلب

(٣) ذهبت مثلا ، والبز : الثياب ، والقلوص : الأنثى من الإبل الشابة

(٤) صاء : أراد بما صاء الشاء والإبل . وبما صمت : الذهب والفضة ، وهو يريد أنه جاء بكل شيء ، وقد ذهبت مثلا

ما للجمال مشيها وئيدا   أجندلا يحملن أم حديدا
أم صرفانا تارزا(١) شـديدا

فقال قصير فى نفسه : بل الرجال قبضا قعودا .

فدخلت الإبل المدينة حتى كان آخرها بعيرا مر على بواب المدينة وكانت بيده منخسة . فنخس الغرارة ، فأصابت خاصرة الرجل الذى فيها فسمع له صوتا . فقال : شر فى الجوالق(٢) .

فلما توسطت الإبل المدينة أنيخت ، ودل قصير عمرا على باب النفق الذى كانت الزباء تدخله ، وأرته إياه قبـل ذلك ، وخرج الرجال من الغرائر ، فصاحوا بأهل المدينة ، ووضعوا فيهم السلاح ، وقام عمرو على باب النفق وأقبلت الزباء تريده ، فأبصرت عمرا فعرفته بالصورة التى صورت لها . فمصت خاتمها ـ وكان فيـه السم ـ وقالت : بيدى لا بيد عمرو(٢) . وتلقاها عمرو فجللها بالسيف وقتلها ، وأصاب ما أصاب من المدينة وأهلها وانـكفأ راجعا إلى العراق .

شاس بن زهير :

ورد شاس بن زهير(٣) من عند النعمان بن المنذر ، وقد حباه أفضـل الحبوة : مسكا وكسا وقطفا(٤) وطنافس ، فأناخ ناقته فى يوم شمال وقر(٥) على ردهة(٦) فى جبل رياح بن الأسك الغنوى ، وليس على الردهة غير بيته بالجبل ، فألقى ثيابه بفنائه ، ثم قعد يهريق عليه الماء ، وامرأة رياح قريبة منه

---

(١) التارز : اليابس .   (٢) ذهبت أمثالا .

(٣) راجع الاغانى ص ١٠ ج ٨ ، وابن الاثير ص ٣٣٧ ج ١ ، مهذب الأغانى ص ٨ ج ٢   (٤) القطيفة : دثار مخمل ، جمعه قطف (بضمتين)   (٥) الشمال : الريح التى تهب بين مطلع الشمس وبنات نعش ، ويكون اسما وصفة ، والقر البرد

(٦) الردهة . النقرة يجتمع فيها ماء السماء

وإذا هو مثل الثور الأبيض . فقال رياح لامرأته : أعطيني قوسي ، فمدت اليه قوسه وسهما ، وانتزعت المرأة نصله لئلا يقتله ، فأهوى عجلان اليه ووضع السهم فى مستدق الصلب ، بين فقارتين(١) ففصلهما وخر ساقطا ، وحفر له حفرا ، فهدمه عليه ونحرْ جمله وأكله ، وأدخل متاعه فى بيته .

وفقد شاس وقص أثره ونشد ، وركبوا الى الملك ، فسألوه عن حاله ، فقال لهم : حبوته وسرحته ، فقالوا : وما متعت(٢) به ؟ قال : مسك ونطوع وقطف ، فأقبلوا يقصون أثره ، فلم تتضح لهم سبيله ؛ فمكثوا كذلك ما شاء الله ، حتى انقطع ذكره .

قال الراوى : ثم إن الناس أصابتهم جائحة وجوع ، فنحر زهير(٣) بن جذيمة - أبو شاس - ناقته ، فأعطى امرأة من شحمها وسنامها ، وقال اشترى لى الهدب والطيب ، فخرجت بذلك الشحم والسنام تبيعه حتى دفعت إلى امرأة رياح . فقالت ؛ إن معى شحما أبيعه فى الهدب والطيب ، فاشترت المرأة منها ، ثم أتت المرأة زهيرا بذلك ، فعرف الهدب ، وذهب إلى غنى ، فقالوا نعم ، قتله رياح بن الأسك ونحن برآء منه ، وقد لحق بخاله من بنى الطماح .

ولما تبين لزهير أن رياحا ثأره قال يرثى شاسا :

بكيت لشاس حين خبرت أنه	بماء غنى آخر الليل يسلب
لقد كان مأتاه الرداة(٤) لحتفه	وما كان لولا غرة الليل يغلب
قتيل غنى ليس شكل كشكله	كذاك لعمرى الحين(٥) للمرء يجلب
سأبكى عليه إن بكيت بعبرة	وحق لشاس عبرة حين تسكب

---

(١) الفقرة والفقارة . ما انتضد من عظام الصلب (٢) متع الرجل جاد .

(٣) هو زهير بن جذيمة بن رواحة العبسى ، أمير عبس ، وأحد سادات العرب المعدودين فى الجاهلية . قتله خالد بن جعفر العامرى نحو سنة ٥٠ ق . ه

(٤) الرداة : الصخرة (٥) الحين : الهلاك

وحزن عليه ماحييت وعولة ... على مثل ضوء البدر أو هو أعجب
إذا سيم ضيما كان للضيم منكراً ... وكان لدى الهيجاء(١) يخشى ويرهب
وإن صوت الداعى إلى الخير مرة ... أجاب لما يدعو له حين يكرب
ففرج عنه ثم كان وليَّه ... فقلبى عليه لو بدا القلب ملهب

ثم انصرف إلى قومه من بنى عبس ، فكان لا يقدر على غنوى إلا قتله ، وتجهز بنو عبس لغزو غنى قبل أن يطلبوا قودا أو دية ، وتولى رياستهم الحصين بن زهير أخو شاس ، والحصين بن أسيد بن جذيمة ابن أخى زهير ؛ فقيل ذلك لغنى ، فقالت لرياح : انج لعلنا نصالح على شىء أو نرضيهم بدية وفداء .

فخرج رياح رديفاً لرجل من بنى كلاب ، فبينما هما سائران إذا هما بالقوم أدنى ظلام(٢) ، وقد كانا يظنان أنهما خالفا وجهة القوم ، قال صاحبه لرياح : اذهب فإنى آتى القوم أشاغلهم عنك ، وأحدثهم حتى تعجزهم ، ثم أنا ماض إن تركونى ، فانحدر رياح عن عجز الجمل فأخذ أدارجه ، وعدا إثر الراحلة حتى أتى ضفة ، فاحتفر تحتها مثل مكان الأرنب فولج فيه ، ثم أخذ نعليه ، فجعل إحداهما على سرته ، والأخرى على صفنه(٣) ، ثم شد عليهما العمامة ، ومضى صاحبه حتى لقى القوم فسألوه ، فحدثهم وقال : هذه غنى كاملة ، وقد دنوت منهم ، فصدقوه وخلوا سربه ، فلما ولى رأوا مركب الرجل خلفه ، فقالوا : من هذا الذى كان خلفك ؟ قال : لا مكذبة ذلك رياح فى الأول من السمرات ، فقال الحصينان لمن معهما : قفوا علينا حتى نعلم علمه ، فقد أمكننا الله من ثأرنا ولم يريدا أن يشركهما فيه أحد ، فمضيا ووقف القوم عنهما ، فلما رآهما رياح رمى الأول منهما فبتر صلبه ، وطعنه الآخر قبل أن يرميه ، وأراد السرة فأصاب الربلة(٤) ومر الفرس يهوى به ، فاستدبره رياح بسهم ، رشق به صلبه

---

(١) الهيجاء : الحرب . (٢) أدنى ظلام : أدنى شىء
(٣) الصفن : وعاء الخصية (٤) الربلة : أصول الأفخاذ

فانفقر منحنى الأوصال ، وندت فرساهما فلحقتا بالقوم . وانطلق رياح حتى ورد ردهة ، عليها بيت أنمار بن بغيض ، وفيه امرأة ولها ابنان قريبان منها ، وجمل لها رائع فى الجبل ، وقد مات رياح عطشاً ، فلما رأته يستدمى طمعت فيه ، ورجت أن يأتيها ابناها فقالت له : استأسر ، فقال لها : دعينى ويحك أشرب ! فأبت ، فأخذ حديدة فجذم بها رواهشها(١) ، وعب فى الماء حتى نهل ثم قال فيها وفى الحصينين :

قالت لى استأسر لتكنفنى(٢)	حيناً ويعلو قولها قولى
ولأنت أجرأ من أسامة أو	منى غداة وقفت للخيل
إذ الحصين لدى الحصين كما	عدل الرجازة(٣) جانب الميل

خالد بن جعفر بن كلاب :

لما(٤) قتل خالد بن جعفر بن كلاب زهير بن جذيمة العبسى ضاقت به الأرض ، وعلم أن غطفان غير تاركيه ؛ فخرج حتى أتى النعمان فاستجار به فأجاره ، ومعه أخوه عتبة بن جعفر .

ونهض قيس بن زهير فتهيأ لمحاربة بنى عامر ، وهجم الشتاء ؛ فقال الحارث ابن ظالم : ياقيس أنتم أعلم وحربكم ، وأنا راحل إلى خالد حتى أقتله ! قال قيس : قد أجاره النعمان ! قال الحارث : لأقتلنه ولو كان فى حجره !

وكان النعمان قد ضرب على خالد وأخيه قبة ، وأمرهما بحضور طعامه ومدامه(٥) .

---

(١) جذم: قطع، الرواهش : عروق ظاهر الكف (٢) كنفه : أحاط به وآواه
(٣) الرجازة : شىء يكون مع المرأة فى هودجها فاذا مال أحد الجانبين وضعته فى الناحية الأخرى ليعتدل .
(٤) الأمثال ص ٢٣٤ ج ٢ ، عيون الأخبار ص ١٨٣ ج ١
(٥) المدام : الخمر .

فأقبل الحارث ومعه تابع له من بنى محارب فأتى باب النعمان ، فاستأذن فأذن له النعمان وفرح به . فدخل الحارث ، وكان من أحسن الناس وجهاً وحديثاً ، وأعلم الناس بأيام العرب ، فأقبل النعمان عليه بوجهه يحدثه ، وبين أيديهم تمر يأكلونه .

فلما رأى خالد إقبال النعمان على الحارث غاظه ذلك ، فقال : يا أبا ليلى ؛ ألا تشكرني ! قال علام ؟ قال : قتلت زهيرا فصرت بعده سيد غطفان — وفى يد الحارث تمرات ، فاضطربت يده ، وجعل يرعد ويقول : أنت قتلته ! ! والتمر يسقط من يده .

ونظر النعمان إلى مابه من الزمع(١) ، فنخس خالدا بعصاه وقال : هذا يقتلك ، فقال : أبيت اللعن ! فوالله لو كنت نائما ما أيقظنى ! وافترق القوم ، وبقى الحارث عند النعمان ، وأشرج(٢) خالد قبته عليه وعلى أخيه وناما .

وانصرف الحارث إلى رحله ، فلما هدأت العيون خرج بسيفه حتى أتى قبة خالد فهتك شرجها(٣) بسيفه . ودخل فرأى خالدا نائماً وأخوه إلى جنبه ، فأيقظ خالدا ، فاستوى قائماً ، فقال له الحارث : ياخالد أظننت أن دم زهير كان سائغاً لك ! ؟ وعلاه بسيفه حتى قتله ، وانتبه عتبة فقال له الحارث : لئن نبست(٤) لألحقنك به !

وانصرف الحارث ، وركب فرسه ومضى على وجهه ، وخرج عتبة صارخاً حتى أتى باب النعمان فنادى : يا سوء جواره ! فأجيب : لاروع عليه ! فقال : دخل الحارث على خالد فقتله ، وأخفر(٥) الملك .

فوجه النعمان فوارس فى طلبه فلحقوه سحرا فعطف عليهم ، فقتل جماعة منهم وكثروا عليه ، فجعل لايقصد لجماعة إلا فرقها ، ولا لفارس إلا قتله .

---

(١) هو شبه الرعدة تأخذ الإنسان (٢) أشرج الخيمة : أدخل بعض عراها فى بعض بين أشراجها (٣) الشرج : عرا الخيمة (٤) نبس : أقل الكلام (٥) أخفر الملك : نقض عهده وغدره .

فارتدع القوم عنه ، وانصرفوا إلى النعمان . فقال عمرو بن الإطنابة :

علِّلانى وعلِّلا صاحبيا ... واسقيانى من المروَّق ريا
إن فينا القيان يعزفن بالضر ... ب لفتياننا وعيشاً رضيا
يتناهين فى النعيم ويضربـ ... ـن خلال القرون مسكاً ذكيا
أبلغا الحارث بن ظالم الرعـ(١) ... ـديد والناذر النذور عليا :
إنما تقتل النيام ولا تقـ ... ـتل يقظان ذا سلاح كميا(٢)

وكان عمرو قد آلى ألا يدعوه رجل بليل إلا أجابه ، ولم يسأله عن اسمه فأتاه الحارث ليلا فهتف به ، فخرج اليه ، فقال : ما تريد ؟ قال : أعنى على إبل لبنى فلان ، وهى منك غير بعيد ؛ فإنها غنيمة باردة !

فدعا عمرو بفرسه ، وأراد أن يركب حاسرا ؛ فقال له : البس عليك سلاحك ؛ فإنى لا آمن امتناع القوم ؛ فاستلأم وخرج معه ، حتى إذا برزا قال له الحارث : أنا أبو ليلى فخذ حذرك يا عمرو ، فقال له : امنن على . فجز ناصيته ؛ وقال :

علِّلانى بلذتى قينتيــا ... قبل أن تبكى العيون عليا
قبل أن تذكر العواذل أنى ... كنت قدما لأمرهن عصيا
ما أبالى إذا اصطبحت ثلاثاً ... أرشيدا دعونى أم غويا
غير ألا أسر لله إثمـا ... فى حياتى ولا أخون صفيا
بلغتنى مقالة المرء عمرو ... بلغتنى وكان ذاك بديا
فخرجنا لموعد فالتقينا ... فوجدناه ذا سلاح كميا
غير ما نائم يروع بالليــل معدا بكفه مشرفيا
فرجمنا بالمن منا عليه ... بعد ما كان منه منا بديا

وهذه القصص كلها مع أنها بأسلوب الرواة فيها ملامح جاهلية وشبه بأسلوب الجاهليين فى النثر .

---

(١) الرعديد : الجبان (٢) الكمى : الشجاع ،

الباب الثالث

الشعر الجاهلى

-- ١ --

تمهيد : ماهو الشعر ؟

عرفه أرسطو بأنه كلام مخيل مؤلف من أقوال موزونة متساوية والمخيل هو الكلام الذى ينفعل له الإنسان انفعالا نفسانيا غير فكرى (١). وعرفه قدامة وابن رشيق بأنه كلام موزون مقفى يدل عـلى معنى (٢). ويقول المعرى : الشعر كلام موزون تقبله الغريزة على شرائط إن زاد أو نقص أبانه الحس (٣). ويقول ابن خلدون : الشعر هو الكلام البليغ المبنى على الاستعارات والأوصاف المفصل بأجزاء متفقة فى الوزن والروى مستقل كل جزء منها فى غرضه ومقصده عما قبله وبعده الجارى على أساليب العرب المخصوصة (٤)، والشاعر من شعر يشعر وإنما سمى شاعرا لأنه يشعر من معانى القول وإصابة الوصف بما لا يشعر به غيره، فكل من كان خارجا عن هـذا الوصف فليس بشاعر وإن أتى بكلام موزون (٥) فإذا لم يكن عند الشاعر توكيد معنى ولا اختراعه أو استظراف النظر وابتداعه كان اسم الشاعر عليه مجازا لا حقيقة ولم يكن له إلا فضـل الوزن (٦).

ويعرفه المحدثون بأنه الكلام المنظوم الذى يعتمد فيه صاحبه على الخيال

---

(١) راجع الفن التاسع ـ الشعر ـ من الشفاء لابن سينا

(٢) ١٣ نقد الشعر، ١:٩٩ العمدة (٣) ٥٥ رسالة الغفران للمعرى

(٤) ٥٧٣ مقدمة ابن خلدون (٥) ٧٧ نقد النثر (٦) ٩٦ : ١ العمدة

ويقصد فيه إلى الجمال الفنى(١) ، وبأنه الكلام الموزون المقفى الذى يصور العاطفة (٢) ويعرفه الرصافى بأنه مرآة من الشعور تنعكس فيها صـــور الطبيعة بواسطة الألفاظ انعكاسا يؤثر فى النفوس (٣) ، ويقول آخر : هو الحياة باكية وضاحكة ناطقة وصامتة (٤) ، ويقول أرنولد : هو كمال اللغة البشرية فيه يقرب الإنسان من الحق ويجسر على أن يفوه به (٥) ويقول كارليل : الشعر الحقيقى هو الموسيقى الأزلية التى يسمعها الشاعر من وراء الوجود (٦) ، ويقول غيره : هو المحاولة الخالدة للتعبير عن روح الأشياء(٧)

وبعد فالشعر إلهام يفيض على القلب من عالم الروح ويلبس ثوبا من الخيال الساحر وينطق بلغة العاطفة الشاعرة ويحدث آثارا بعيدة فى المشاعر والوجدان ويستشف معانى الحياة فى كل شىء نفكر فيه ونحس به فى هذا الوجود ، والشاعر ملك يغنى على قيثارة الفن الخالدة ليبعث معانى الطفولة السامية والصوفية المتبتلة فى الحياة وليشرق بفنه مع الفجر روحية وطهرا ومع الصبح نورا وسحرا ومع الضحى قوة وحرارة ومع الأصيل هدوءًا وجمالا ومع الليل رهبة وروعة ، وهو منذ الأزل يغنى وسيعيش فى سرحة الفن يملأ الوجود شدوا وغناء ، فى سبيل أداء الرسالة التى حملها والتى نيط بها بعث الجمال وإيقاظ الشعور وتجديد الأخلاق والسمو بالعواطف ليصل حيوان الأرض الناطق إلى مستوى ملك السماء الطاهر العظيم.

---

(١) ٣٢٧ الأدب الجاهلى

(٢) أصول النقد الأدبى للشايب ، ويقول وردزورث : الشعر هو الحقيقة الرائعة التى تصل إلى القلب بوساطة العاطفة ، ويقول رسكن: هو عرض البواعث النبيلة للعواطف النبيلة بوساطة الخيال(٩٦ مملكة الجمال لمحمود قراعة ط ١٩٣٧)

(٣) ٨٥ ج ١ سحر الشعر

(٤) ١٦٩ ج ١ المرجع

(٥) ١٦٧ ج ١ المرجع

(٦) ٢١ ج ١ المرجع

(٧) ٩٦ مملكة الجمال

- ٢ -

آراء فى الشعر :

١ — الشعر عند بعض الأدباء الكلام البليغ المؤثر ، الذى يصـــور الشعور والإحساس والعاطفة ، وينطق عن حسن تخيل ودقة معان وجمال إلهام ، فهو على هذا لا يجب أن يكون موزونا ، فالنثر قد يكون شعرا إذا اشتمل على لطف التخيل وروعة الشعور ، ولقد قال حسان لابنه عند ما وصف له زنبورا لسعه فأحسن الوصف وسما به إلى درجة جميلة من جمال الخيال والتخيل ، قال : قد قلت الشعر ورب الكعبة يا بنى ، ويروى عن الأصمعى أنه قال : قلت لبشار بن برد إنى رأيت رجال الرأى يتعجبون من أبياتك فى المشورة فقال : أما علمت أن المشاور بين إحدى الحسنيين بين صواب يفوز بثمرته ، أو خطأ يشارك فى مكروهه ، فقلت له : والله أنت فى كلامك هذا أشعر منك فى أبياتك ، فقد جعل الأصمعى وناهيك به من إمام فى الأدب كلام بشار شعرا ، إذ قال له « أنت فى هذا الكلام أشعر » ، واسم التفضيل يقتضى المشاركة والزيادة ؛ فهذا أيضاً يدل على أنهم لا يخصون الشعر بالمنظوم وأن الشعر قد يكون منثوراً . ولم يسم المنظوم شعرا لكونه ذا وزن وقافية ، بل لكونه فى الغالب يتضمن المعانى الشعرية . أو لأن العرب فى الغالب لا تنظم الكلام إلا شعرا . ويؤيد ذلك أن العرب عدوا القرآن شعرا لسحره وروعة تصويره وبليغ أثره .

٢ — وجمهور الأدباء على اشتراط الوزن فى الشعر . ويقتصر بعضهم على الوزن مع الخيال والعاطفة والشعور والإحساس والإلهام الفنى الخاص ، وهؤلاء لا يشترطون فى الشعر أن يكون مقفى بل هم يزدرون القافيـــة ويدعون إلى اطراحها لأنها وإن تعددت فى القصيدة الواحدة — بجعل كل قسم من أقسامها على قافية — هى قيد للشاعر وعبء ثقيل عليه إذ لا تدع الشاعر حراً فى إظهار ما يريده من معنى أو شعور ، وهى عندهم السبب الأكبر فى تأخر

الشعر العربي عن الشعر في الآداب الغربية ، ويرون أنها « عضو أثري قد بقي من كلمات كان يكررها في آخر كل بيت النادب في المناحات والمتحمس في الحرب والصدام، يوم تولد الشعر في عصور الجاهلية الاولى، ولا بد من زواله بالتمام لعدم فائدته اليوم ولتقييده الشعر فلا يتقدم حراً كبقية الفنون ، فإذا حرر الشعر من قيد القافية انصرف الشعراء إلى المعاني التي يريدونها لا إلى الألفاظ، وإلى إظهار الشعور الحقيقي الذي تجيش به نفوسهم لا إلى الشعور الكاذب الذي تضطرهم إلى تصنعه ضرورة القافية وضرورة كونها على صورة خاصة من صور الاعراب في آخر كل بيت [1] » .

ويرى الآخرون تعدد القوافي، ويقولون: إنه إذا اتسعت القوافي لشتى المعاني والمقاصد، وانفرج مجال القول بزغت المواهب الشعرية على اختلافها ، ورأينا بيننا شعراء الرواية وشعراء الوصف وشعراء التمثيل .

وما كانت العرب تنكر القافية المرسلة فقد كان شعراؤهم يتساهلون في التزام القافية [2] كما في قول الشاعر :

ألا هل ترى إن لم تكن أو مالك	بملك يدى أن الكفاء قليل
رأى من رفيقيه جفاء وغلظة	إذا قام يبتاع القلوص ذميم
فقال أقلا واتركا الرحل انني	بمهلكة والعاقبات تدور
فبيناه يشرى رحله قال قائل	لمن جمل رخو الملاط نجيب

وكقول غيره :

بنات وطاء على خد الليل	لا يشتكين عملا ما أنقين

(١) من مقال للشاعر جميل صدقي الزهاوي نشره في السياسة الأسبوعية عدد ٣ - ٩ - ١٩٢٧

(٢) قد يكون ما ذكروه من ذلك ليس إلا بقايا من آثار التطور الفني في الشعر العربي في عصور نشأته الأولى . كما أن اختلاط الوزن في قصيدة عبيد بن الأبرص كان أثراً من آثار التطور الفني في الشعر العربي في عصور نشأته الغابرة .

وقول الآخر :

جارية من ضبة بن أد كأنها فى درعها المنعط

فعندهم القافية ليست من الشعر لان الشعر بالوزن وحده فهو الموسيقى التى تميزه من النثر . وما الحرص على بقاء القافية المشتركة فى القصدة إلا نتيجة الإلف والعادة فإذا ألفت الاسماع الشعر المرسل استهجنت القوافى كما تستهجن الأذواق اليوم السجع فى النثر .

ويرى هؤلاء أنه ليس فى الاوزان القديمة كبير ضرر وهى فى الأغلب أرقى من الاوزان الغربية لأن أكثر البحور مركب من تفاعيل مختلفة بخلاف ما تألف من مقاطع متشابهة ؛ والتركيب دليل الرقى . نعم قد لايوافق فى رأيهم أكثر هذه الاوزان ضروب الغناء العصرى والذنب فى ذلك كما يقولون على العربية نفسها فهى لا تلائم الأغانى الحديثة .

وهؤلاء لا يتقيدون بأوزان الخليل المأثورة ، فعندهم الاوزان العربية ليست ستة عشر وزناً كما هو الشائع بل هى مع تفرعاتها قد تزيد على الخمسين ومن الميسر إكثار هذا العدد .

ويدعو بعضهم إلى التجديد فى أوزان الشعر الحديث وفق ما يقتضيه الذوق وروح العصر ؛

٣ — والجمهور على جعل القافية شرطاً أساسياً فى الشعر ، ولا مانع عند بعضهم من تسهيل صعوبات القافية بتعدد القوافى فى القصيدة الواحدة حسب أغراضها أو على نهج المخمسات والمربعات والموشحات والاراجيز وما شاكل ذلك ؛

٤ — ولكن هل الشعر لفظ ووزن وقافية فحسب ، يرى النقاد أنه لا يكفى فيه ذلك وأنه لابد أن يشتمل على معنى لطيف أو حكمة بارعة أو تشبيه جميل أو خيال بارع ، فالمعنى عنصر من أهم عناصره

وهذا حق وصدق ، فالشعر لا بد أن يحتوى مع الوزن والقافية على إلهام فنى رائع وشعور بالجمال مرهف وإحساس بالكون والطبيعة والبيئة دقيق .

لا بد فيه من المعنى والخيال والعاطفة والشعور بالجمال وروعة التصوير له وعمق النفوذ إلى أسرار المشاعر الإنسانية العامة ، ليكون شعرا وليكون له أثره ومكانته فى الشعر .

ولو كان الشعر هذه الألفاظ الموزونة المقفاة فحسب لكان لغوا من الكلام والشعور والإحساس .

يقول الإمام محمد عبده : « لو سألوا الحقيقة أن تختار لها مكانا تشرف منه على الكون لما اختارت غير بيت من الشعر ، وقديما قال كعب الأحبار : الشعراء أنا جيلهم فى صدورهم تنطق ألسنتهم بالحكمة » .

نشأة الشعر

— ١ —

الشعر الجاهلى لا يعقل أن يكون قد بدأ كما وصل إلينا فى هذه القصائد الطويلة المهذبة التى يظهر فيها أثر الفن والجمال، بل لا بد أن يكون قد قطع مراحل كثيرة خلال الأجيال ، حتى وصل الينا على هذه الصورة الفنية الكاملة .

وليس من المعقول أن يكون امرؤ القيس أو مهلهل هو أول من ابتكر الشعر ونظمه وقلده فيه الشعراء ، أليس هو الذى يقول :

عوجا على الطلل المحيل لعلنا ... نبكى الديار كما بكى ابن خذام

وابن خذام هذا شاعر جاهلى قديم ، قبل امرىء القيس طبعا ، ولا نعرف عنه ولا من أخباره شيئا(١) .

---

(١) راجع ٣١ الجمهرة .

ويقول زهير :

ما أرانا نقول إلا معـارا   أو معادا من قولنا مكرورا

ويقول عنترة :

هل غادر الشعراء من متردم   أم هل عرفت الدار بعد توهم ؟

إننا لا نعرف شيئا عن نشأة الشعر ، ومن غير شك أنه سار فى مراحل كثيرة حتى صار فناً مستقلا مقصوداً وانفصل عن الغناء ، ثم أولاه الشعراء عناية فنية كبيرة ، وقالوا فى أغراض الحياة الجديدة التى لم يقولوا فيها من قبل .

ويهمنا أن نبحث عن التدرج الفنى فى نشأة الشعر ، ثم نعرض للآراء فى تاريخ نشأته، ثم نعرض لذكر قدامى الشعراء الجاهليين .

— ٢ —

ولوصف التدرج الفنى فى نشأة الشعر نقول :

مر على كلام العرب ثلاثة أدوار انتقل فيها بمر الزمان من طور إلى طور : فأولها دور البساطة وهو الدور الذى كان الكلام فيه بسيطا ساذجا خاليا من كل تفنن فى أسلوبه وتصنع فى ألفاظه .

ثم ارتقى مع الزمان بالتدريج حتى وجدت فيه القافية فانتقل بها إلى دوره الثانى وهو دور السجع . والسجع هو الكلام المقفى أو موالاة الكلام على روى واحد . ولا شك أن هذا السجع إنما وجد بادىء بدء فى كلام بعض الأفراد وربما كان وجوده بطريق المصادفة إذ قد يتفق للمتكلم أن يأتى فى كلامه بجملتين متفقتين فى الآخر فى حرف واحد من غير قصد ، وسواء كان وجود أول سجعة فى كلام العرب ناتجا عن قصد أو غير قصد فلابد أنها قد أعجبت السامعين ، وكان لها وقع فى نفوسهم لكونها شيئا جديدا فى الكلام لم تطرق أسماعهم من قبل . ولإعجابهم بها صاروا يقلدون قائلها ويبارونه فى النطق بما يماثلها حتى كثر السجع وفشا فى كلامهم .

كان السجع فاشيا فى كلام العرب الأولين من أهل الجاهلية ، وكانوا

يلتزمون السجع فى أكثر كلامهم ، لاسيما فى خطبهم ومنافراتهم ومفاخراتهم سواء فى ذلك رجالهم ونساؤهم حتى ولدانهم وجواريهم الصغار؛ وكتب الأدب مشحونة بأسجاعهم فإذا رجعت اليها وتدبرتها علمت أن العرب مارسوا السجع وزاولوه فى أزمنة طويلة حتى طبعوا عليه ، فأصبح لهم طبيعة تنتقل فيهم بالإرث الطبيعى من الآباء إلى الأبناء .

ثم إن الكلام بعد أن دخل فى دور السجع أى القافية واستمر فيه قروناً عديدة ارتقى منه إلى دوره الثالث وهو دور الوزن . ومما لا يسترابُ فيه أن الوزن فى الكلام قد تولد من السجع .

ومن الجائز أن يكون الكلام قد أتى موزونا من غير قصد كما نراه واقعاً فى كلام الناس ومحاوراتهم كل يوم ، وقد وقع ذلك فى القرآن أيضا ، فتأتى قرينتان من الكلام المسجع متطابقتين فى الحركات والسكنات ، وذلك هو الوزن .

وساعد على الوصول إلى الوزن : الغناء ، والسجع فالمسافة بين الكلام والوزن قد قصرت بالسجع وازدادت قصرا باقتران السجع بالغناء فاقتران السجع بالغناء يزيد احتمال وقوع الوزن فيه بطريق الاتفاق والمصادفة ، كما ساعد على ذلك الرقص ، واحتمال وقوع الوزن فى الكلام بطريق المصادفة يختلف قوة وضعفا باختلاف الأوزان الشعرية بساطة وتركيبا فما كان من الأوزان أبسط كان ذلك الاحتمال فيه أكثر وأقوى والعكس بالعكس، ونعنى ببساطة الوزن هنا سهولته على القريحة وخفته على الطبع وقرب مأخذه من الكلام المنثور ، بحيث يكون انطلاق اللسان به سهلا وجرى الطبع عليه هينا .

وإذا نظرنا فى أوزان الشعر وجدنا أبسطها الرجز إذ هو أسهلها على القريحة وأخفها على الطبع وأقربها إلى النثر ، وما الفرق بينه وبين الكلام المسجوع سوى وزن قريب المأخذ سهل التناول ، حتى يصح أن يقال إن كل شاعر

تبدأ شاعريته بالرجز ، وما ذلك إلا لسهولته وقرب مأخذه .

ويؤيد كون الرجز أول ما ظهر من الشعر ما ذكروه من أن الرجز أقدم الشعر .

وقد كان الشعر كله عندهم اسمان : الرجز والقصيد . فكل مالم يكن رجزاً سموه قصيدا من أي بحر كان ، ويدل على ذلك قول الأغلب الراجز العجلي لما استنشده المغيرة بن شعبة وهو على الكوفة :

أرجزا تريد أم قصيدا   لقد سألت هينا موجودا

فالشعر عندهم إما رجز وإما قصيد ولا ثالث لهما . والقصيد اسم جنس جمعي واحدته قصيدة . وإذا كان الرجز أقدم من القصيد لزم أن يكون هو أول وزن تولد من الكلام المسجع وذلك ما نؤيده .

والخلاصة أن السجع حلقة اتصال بين النثر والنظم وان الوزن متولد من السجع وان أول ماوجد من أوزان الشعر هو الرجز وان الشعر نشأعن المصادفة وساعد على ظهوره الغناء والرقص .

يقول الرصافي : الرجز مأخوذ من توقيع سير الجمال في الصحراء بحجة أنه أول مااستعمله العرب لسوق الجمال في الحداء هكذا قال كثير ، ومن الغريب أن صاحب هذا الرأى قد ادعى أن تقطيع الرجز يوافق وقع خطى الجمال مع أن في تقطيعه من سرعة الانحدار والتمرد وتدارك المقاطع ماينافى كل المنافاة وقع خطى الجمال ، لما في تلك الخطى من التؤدة والرزانة بسبب انفساح مواقعها وطول القوائم المرتمية من تحت تلك الجثة العالية الضخمة . ولو سلمنا أن تقطيع الرجز يوافق وقع خطى الإبل لما سلمنا أنه يلزم من ذلك كون الرجز مأخوذا من وقع تلك الخطى إذ لو لزم منه ذلك للزم أن يكون وزن الكامل ولا سيما مجزوؤه مأخوذا أيضا من وقع خطى الجمال بطريق الأولى لأنه يوافق وقع تلك الخطى أكثر من الرجز ويطابقها تمام المطابقة ، حتى إنك لو امتطيت جملا وجعلت وهو سائر بك

سيرا وئيدا ننشد عليه شعرا من الكامل أو مجزوؤه لرأيت عند تمام كل جزء من تفاعيله وقع يد من يدى جملك كما هو ظاهر للمتأمل .

فألفاظ الشاعر كانت سجعا ثم صارت رجزا ثم صارت شعرا، والأناقص من الأشعار والأقصر هى المتقدمة فى النشأة لأن الطباع أسهل وقوعا عليها . ومن ذلك النوع القصير : الأبيات السائرة والأمثال والحكم القصيرة .

يقول الأستاذ لطفى جمعة(١) : إن العربى سمع أصوات النواعير(٢) وحفيف أوراق الأشجار وخرير المـــاء وبكاء الحمائم ، فلذ له صوت تلك الطبيعة المترنمة ، ولذ له أن يبكى لبكائها وأن يكون صداها الحاكى لنغماتها، فاذا هو ينظم الشعر من حيث لا يفهم أنه خيال قريحته ولا يدرك من أوزانه وضروبه إلا أنها صورة من حركات ناقته .

وقال كليمان هيوار ـ المتشرق الفرنسى ١٨٥٤ - ١٩٢٧ م - : إن الأسفار الطويلة على ظهور الإبل حببت إلى العربى نشيد الألحان يتلهى بها ويشفى ما يصيبه من أوصاب ، ثم أدرك العربى المنشد أو الحادى أنه كلما سارع فى الإنشاد رفعت الناقة رأسها وأوسعت خطاها كأن بين خطاها وأوزان الشعر ارتباطا فظهرت تلك الضروب عفوا لأنها ثمرة طبيعية من ثمار العبقرية البدوية .

— ٣ —

ومن الناحية التاريخية لنشأة الشعر الجاهلى نقول :

كتب مؤرخ يونانى هو «سوزومين» ٣٣٥- ٤٠٠ م قبيل مطلع القرن الخامس الميلادى يقول : إنه فى الربع الأخير من القرن الرابع للمسيح تغلبت ملكة العرب مافيا على جيوش الرومان وهزمتها فى فلسطين وفينيقيا ؛ فنظم شعراء العرب الأناشيد والأغانى وحفظوها ورددوها وتغنوا بها تخليدا للانتصار .

---

(١) الشهاب الراصد ص ٢٧٧

(٢) هذا غريب من القول فأين النواعير وخرير الماء فى الصحراء والبادية؟

وأثبت سانت تيلوس أحد حكام القسطنطينية وقد ترهب فى آخر القرن الرابع الميلادى أنه سمع أناشيد العرب الجميلة من صحراء سيناء[١] ، فالشعر العربى المحكى قديم يرجع عهده إلى القرن الرابع للميلاد .

ويقول ابن سلام[٢] : « ولم يكن لأوائل العرب من الشعراء إلا الأبيات يقولها الرجل فى الحاجة تعرض له كقول دويد بن زيد حين حضره الموت وهو جاهلى قديم :

اليوم يبنى لدويد بيته لو كان الدهر بلى أبليته
أو كان قرنى واحدا أكفيته

وإنما قصدت القصائد على عهد عبد المطلب أو هاشم بن عبد مناف » ، وكان أول بادىء لهذه النهضة الشعرية وسائر فى اتجاهها المهلهل بن ربيعة . ثم جاء امرؤ القيس ، فرفع اللواء . فكان أول من وقف واستوقف وبكى واستبكى ووصف النساء بالظباء والمها والبيض ، وشبه الخيل بالعقبان والعصى وفرق بين القصيد وما سواه من الشعر ، وقرب مآخذ الكلام وقيد أوابده وأجاد الاستعارة والتشبيه والكناية ، ورقق الأسلوب وجمله عذبا جزلا .

وأول من يروى له قصيدة تبلغ ثلاثين بيتا من الشعر : مهلهل[٣] . ويقال : بل ذؤيب بن كعب بن عمرو بن تميم ، ثم ضمرة الكنانى ، وكان بين هؤلاء وبين

---

(١) ٢٧٨ الشهاب الراصد .

(٢) ٢٩٤ ج ٢ المزهر ، ١٧ طبقات الشعراء لابن سلام

(٣) هو مهلهل بن ربيعة ، ومهلهل لقب له سمى به لأنه أول من أرق المراثى ، واسمه عدى ، وقيل سمى مهلهلا لقوله : « هلهلت أثأر جابرا أو صنبلا » (راجع ١٢٩ ج ٢ الأمالى) وفيه يقول الفرزدق : « ومهلهل الشعر ذاك الأول» . ويقول ابن سلام فى طبقات الشعراء : وأول من قصد القصائد وذكر الوقائع : المهلهل بن ربيعة التغلبى (٢١ طبقات الشعراء ، ٢٩٥ ج ٢ المزهر للسيوطى)

الإســـلام أربعمائة سنة . وجاء امرؤ القيس بعد هؤلاء بمـائتين وخمسين سنة تقريبا .

— ٤ —

وبعد فإن الباحثين يختلفون فى أول من أحدث هذه النهضة الفنية فى الشعر فهذبه وأطال فيه ، وأسماء مهلهل وامرىء القيس والأفوه الأودى ولقيط بن يعمر الإيادى وعمرو بن قميئة تتردد فى هـــذا المجال . ويقول السيوطى فى مزهره نقلا عن عمر بن شبة م ٢٦٢ هـ : « للشعر والشعراء أول لا يوقف عليه وقد اختلف فى ذلك العلماء وادعت كل قبيلة لشاعرها أنه الأول ولم يدعوا ذلك لقائل البيتين والثلاثة لأنهم لا يسمون ذلك شعرا ، فادعت اليمانية لامرىء القيس ، وبنو أسد لعبيد بن الأبرص ، وتغلب لمهلهل ، وبكر لعمرو بن قميئة والمرقش الأكبر ، وإياد لأبى دؤاد ، وزعم بعضهم أن الأفوه الأودى أقدم من هؤلاء ، وأنه أول من قصد القصيد ، وهؤلاء النفر متقاربون ، ولعل أقدمهم لا يسبق الهجرة بمائة سنة أو نحوها(١) » . وقد ضاع من الشعر الجاهلى الكثير « ولم يحفظ من الموزون عشره(٢) » « ولا يحاط بشعر قبيلة واحدة من قبائل العرب كما يقول ابن سلام(٣) » وكان عند النعمان بن المنذر منه ديوان فيـــه أشعار الفحول وما مدح به هو وأهل بيته فصار ذلك إلى بنى مروان(٣) » . ويروى أن الامير الاموى خالد بن يزيد بن معاوية هو أول من جمع شعر العرب الجاهليين .

ويقول أبو عمرو بن العلاء : ما انتهى إليكم ممـا قالت العرب إلا أقله ، ولو جاءكم وافرا لجاءكم علم وشعر كثير(٤) .

---

(١) ٢٩٦ ج ٢ المزهر طبع صبيح (٢) ٢٩٢ ج ٢ المرجع

(٣) ٢٩٣ ج ٢ المرجع ٢ و ص ١٦ طبقات الشعراء لابن سلام طبـــع المطبعة المحمودية .

(٤) ١٦ طبقات الشعراء

الشعر فى الجاهلية

- ١ -

تمهيد :

كان الشعر فى الجاهلية ديوان العرب ، والمصور لآمالهم وآلامهم وحياتهم ومشاهد الوجود بينهم ، أودعوه وقائعهم ومفاخرهم وأحسابهم وأنسابهم وأيامهم وآثارهم وذكرياتهم وأوصاف بيئتهم .

وكان له سحره وروعة تأثيره فى نفوسهم ، إذ كان صوت القبيلة ، ولسان القوم ، والذائد الحامى الذمار ، والمدافع عن الأحساب والأنساب والشرف ، والناطق بالحجة ، والداعى إلى الخير . وكان الشعراء ذوى مكانة كبيرة بينهم فهم الذين ينطقون بمجد القبيلة ، ويفخرون بجلالها وماضى أيامها ؛ وحسبك من مكانة الشعر عند العرب أنه لما بعث النبى صلى الله عليه وسلم بالقرآن المعجز نظمه المحكم تأليفه وأعجب قريشاً ماسمعوا منه قالوا : ما هذا إلا سحر ، وقالوا فى النبى : شاعر نتربص به ريب المنون . ويقول الأصمعى : « الشعر جزل من كلام العرب ، تقام به المجالس ، وتستنتج به الحوائج ، وتشفى به السخائم » .

ونبغ فى الشعر كثير من الشعراء والشاعرات ، ممن خلدت ذكرهم كتب الأدب والشعر ومصادرهما الأولى .

ولا تزال مصادر الأدب والشعر الجاهلى صورة ناطقة ببلاغتهم وسحرهم وشدة تأثيرهم وقوة بلاغتهم وجلال أثرهم فى حياة العرب فى جزيرتهم طول هذا العصر الجاهلى الغابر .

ومن قدر الشعر عندهم أن كانت القبيلة إذا نبغ فيها الشاعر أتت القبائل

فهنأتها بذلك ووضعت الأطعمة واجتمع النساء يلعبن بالمزاهر كما يصنعن فى الأعراس، وكانوا لا يهنئون إلا بغلام يولد أو شاعر ينبغ أو فرس تنتج. وكانت البنات ينفقن إذا شبب بهن الشعراء.

ولم يترك العرب شيئاً مما وقعت عليه أعينهم أو وقع إلى آذانهم أو اعتقدوه فى أنفسهم إلا نظموه فى سمط من الشعر حتى إنك ترى فى مجموع أشعارهم ديوانا فيه من عوائدهم وأخلاقهم وآدابهم وأيامهم وما يستحسنون ويستهجنون، ولذلك قالوا: كان الشعر ديوان العرب ومعدن حكمتها وكنز أدبها.

وقال دعبل: «كان امرؤ القيس من أدباء الملوك؛ وكان من أهل بيته وبنى أبيه أكثر من ثلاثين ملكا فبادوا وباد ذكرهم وبقى ذكره إلى يوم القيامة، وإنما أمسك ذكره شعره».

— ٢ —

تأثير الشعر فى النفوس:

كان الشعر فى الجاهلية هو المقيد لأيامها، والشاهد على أخبارها والناطق بمجدها والمصور لمفاخرها. وكان لكل قبيلة شاعرها الذى يذود عنها ويناضل عن شرفها ويساجل خصومها وينازلهم فى كل مجال. وكانت العرب أمة يسحرها البيان وتروعها البلاغة ويستبد بإعجابها الشعر الجيد البليغ.

كان الشعر قوة فعالة فى الحياة الجاهلية، وكان له تأثيره فى نفوس العرب وسلطانه فى حياتهم وقدره وخطره فيما بينهم؛ يرفع الخامل ويضع الفذ العظيم، وينوه بشأن القبيلة، ويزرى بأعدائها وخصومها، ويحفظه الناس ويروونه وينشدونه فى كل مكان.

وقصة المحلق الكلابى مع الأعشى حيث استضافه وأكرمه وكان

فقيراً مملقاً وكانت له بنات عوانس ، فمدحه الأعشى بقصيدته :

أرقت وما هذا السهاد المؤرق؟ وما بي من سقم وما بي تعشق

يقول فيها :

لعمري لقد لاحت عيون كثيرة إلى ضوء نار باليفاع تحرق

تشب لمقرورين يصطليانها وبات على النار الندى والمحلق

فسارت القصيدة في كل مكان ، وخطب بنات المحلق الكثير من سادات العرب .

وذهب الأعشى قاصدا رسول الله ليمدحه ويعلن إسلامه وكان قد نظم قصيدته :

ألم تغتمض عيناك ليلة أرمدا وبت كما بات السليم مسهدا

فتصدت له قريش وحالت بينه وبين ذلك خوفا من تأثير شعره وأهدت له هدية سنية فرجع .

والذين هجوا فوضعوا من قدر من هجوه ، ومدحوا فرفعوا من قدر من مدحوه ، كثيرون مشهورون في الجاهلية وبعدها (١) .

- ٣ -

منزلة الشاعر :

كان للشاعر في الجاهلية منزلة كبيرة وشأن خطير لأنه هو الذي ينطق بمجد القبيلة ويشيد بمآثرها ومفاخرها وأحسابها وأبطالها . ويرد على خصومها ويذود عنها أعداءها ، وكانت القبيلة في الجاهلية تفرح إذا نبغ فيها شاعر فرحا عظيما ؛ قال ابن رشيق :

وكانت القبيلة من العرب إذا نبغ فيها شاعر أتت القبائل فهنأتها بذلك

---

(١) راجع من رفعه الشعر ووضعه الهجاء ٤١٤ ج ٣ العقد

وصنعت الأطعمة واجتمعت النساء يلعبن بالمزاهر كما يصنعن فى الأفراح وتتباشر الرجال والولدان لأنه حماية لأعراضهم وذب عن أحسابهم وتخليد لمآثرهم وإشادة بذكرهم وكانوا يهنأون بغلام يولد أو شاعر ينبغ أو فرس تنتج

وكان للشاعر مكانته الكبيرة فى الحياة الاجتماعيــة فى الجاهلية فهو لسان القبيلة وحكمها ، فلا يعارض ، ويستشفع فيشفع ، ويقول فيمضى لقوله ، ويشير فلا يرد له رأى .

وكان الشاعر أرفع قــدراً من الخطيب فلما كثر الشعراء وكثر الشعر صار الخطيب أعظم قدراً من الشاعر (١) ويقول أبو عمرو بن العلاء : كان الشاعر فى الجاهلية يقدم على الخطيب لفرط حاجتهم إلى الشعر الذى يقيد عليهم مآثرهم ويفخم شأنهم فلما كثر الشعر والشعراء واتخذوا الشعر مكسبة ورحلوا إلى السوقة وتسرعوا إلى أعراض الناس صار الخطيب عندهم فوق الشاعر (٢) .

- ٤ -

التكسب بالشعر :

ولمكانة الشعر فى الجاهلية وعظمة شأن الشاعر كان الشعراء يأنفون أن يمدحوا إنساناً إلا لأغراض شريفة ومقاصد نبيلة . حتى وجدت طبقة من الشعراء قصدت بشعرها الملوك والامراء وانتجعت الرؤساء والاشراف وأزرت بالشعر ومكانته والشاعر ومنزلته إزراء شديدا . . ومن هؤلاء الشعراء الذين تكسبوا بالشعر :

(ا) النابغة الذبيانى ، فقد قصد بشعره ملوك الحيرة وغسان يمدحهم

---

(١) ٣/٢٥٩ البيان والتبيين للجاحظ

(٢) ١٧٠ جـ ١ المرجع

ويثنى عليهم ويشيد بأعمالهم فأغدقوا عليه المال وكافأوه على ذلك مكافأة كبيرة ، ولكنه مع ذلك كان يعتز بنفسه كثيراً ، فيقول عن ملوك بنى غسان يخاطب النعمان بن المنذر ويعتذر إليه :

ملوك وإخوان إذا ما أتيتهم   أحكم فى أموالهم وأقرب

(ب) وزهير ، فقد مدح هرم بن سنان والحارث بن عوف ، وأشاد بهرم إشادة البليغ الشاعر الساحر .

(ج) وكذلك أمية بن أبى الصلت ، وهو القائل يمدح عبدالله بن جدعان وكان سيدا جوادا مضيافا :

كريم لا يغيره صباح   عن الخلق الجميل ولا مساء
يبارى الريح مكرمة ومجدا   إذا ما الكلب أجحره الشتاء
فهل تخفى السماء على بصير   وهل بالشمس طالعة خفاء ؟

(د) وكذلك الأعشى فقد جاب البلاد ومدح الرؤساء وسواهم وتكسب بشعره تكسباً شديدا ، وقالوا إنه أول من سأل بشعره (١) .

(هـ) ثم جاء بعد هؤلاء الحطيئة فاتخذ الشعر تجارة ومكسباً وحرفة بين الناس . وذلك مما غض بالشعر . وأزرى به عند الخاصة .

شاعرية العرب

الشعر الجاهلى كثير كثرة هائلة ، والشعراء المعروفون بالشعر فى قبائلهم وعشائرهم فى الجاهلية والإسلام أكثر من أن يحيط بهم باحث ، أو يقف على عددهم واقف . ولو أفنى عمره فى التنقير عنهم ، واستفرغ مجهوده فى البحث والسؤال ، ولا أحسب أحدا من علمائنا استغرق شعر قبيلة

---

(١) ٢٩ طبقات الشعراء لابن سلام ، ويروى أن المرقش الأكبر هو أول من أطال المدح ٢٩٩ جـ ٢ المزهر .

حتى لم يفته منها شاعر إلا عرفه ، ولا قصيدة إلا رواها(١) ، ويذكر ابن قتيبة أن أبا ضمضم أنشد شعرا لمائة شاعر كلهم اسمهم عمرو(١) .

فما السر فى هذه الشاعرية التى لم تعرف لأمة من الأمم من قبل ولا من بعد ؟

١ - أول أسباب شاعرية العرب هو الصحراء وجوها الذى يوحى بالشعر ويلهم الخيال ويذكى العاطفة ويثير الشعور .

٢ - وثانيها هو حياة العرب أنفسهم فى الجاهلية ، هذه الحياة الحماسية التى دفعتهم إليها عواطفهم الثائرة ، ووحدتهم فى قلب هذه الصحراء الواسعة المترامية الأطراف ، ويضاف إلى ذلك رجوع العربى إلى عاطفته أكثر مما يرجع إلى عقله ، وتنقله فى بطن الصحراء على جمله أو فرسه وسط الرمال والجبال والمتاهات ، وحاجته إلى الغناء فى هذه الوحدة الشاملة ليسلى هموم نفسه وأحزانها وآلامها .

٣ - هذا عدا الاستعداد الفطرى للشعر فى نفس كل عربى وعربية مما كان يذكيه الخيال ، ويولده التأمل وتلك الحياة الشبيهة بالحياة الصوفية المتبتلة .

٤ - ونجد كذلك ظروف الحياة الاجتماعية فى الصحراء وكثرة حروبهم وغاراتهم وحاجتهم إلى الترنم بمفاخرهم ومآثرهم وأحسابهم وأنسابهم ، مما لا بد فيه من نوع جميل من الأدب يخلده ويرويه ويذيعه بين الناس ، وليس هذا النوع سوى الشعر .

٥ - قوة حافظة العرب وأنهم أمة أمية تعتمد على الذاكرة لا على التدوين ، والشعر أسهل فى الحافظة رواية وأبقى تعلقا بالخاطر .

٦ - يضاف إلى ذلك اللغة العربية نفسها فإنها بإقرار الباحثين فى أصول اللغات لغة شعرية بزنين مفرداتها وأساليبها وروحها ومعانيها .

٧ - إلى غير ذلك من الأسباب الكثيرة ، التى من أهمها هذا الفراغ

---

(١) ٦ الشعر والشعراء ط ١٩٣٢

الكثير الذي كان يتمتع به العربي لعدم اشتغاله بصناعة أو تدبير ملك وسياسة أو لإدارة مرافق دولة .

وبعد فقد كان العرب شعراء بالفطرة ، نظم الشعر كل عربي وعربية ، كما نظمه الملوك والأمراء والسادة والحكماء والفرسان والصعاليك (١) والعبيد وسواهم من شتى الطبقات مما بلغ حد الكثرة الهائلة لولا أن ضاع أغلبه على مر الأجيال حتى قال أبو عمرو بن العلاء « ما انتهى اليكم مما قالت العرب إلا أقله ولو جاءكم وافرا لجاءكم علم كثير وشعر كثير (٢) » .

لون الشعر العربي الجاهلي

ينقسم الشعر عند الإفرنج إلى : غنائي وقصصي وتمثيلي ، وقد ظهرت هذه الأنواع في الشعر اليوناني ، الذي قلده الرومانيون بالنظم في شتى هذه الألوان . كما بني الشعر الأوربي الحديث على الأصول اليونانية اللاتينية من حيث الأقسام الثلاثة المعروفة .

أما الشعر القصصي : فهو الذي يصور الوقائع والعادات وأحوال الشعوب ويصف الاجتماع وسير الأبطال ، ويستوحي الآلهة والأساطير .

وأما الشعر التمثيلي : فيعتمد على الحوار وتمثيل الحوادث والأشخاص وإظهار حركاتهم وما في خواطرهم من مشاعر ونزعات .

وأما الشعر الوجداني أو الغنائي فيصور العواطف الإنسانية ومشاعر الشاعر وأفكاره ونزعاته ويتحدث عن الجمال والطبيعة حديث المتأمل المفكر فهو يعبر عن الشاعر وخواطره وآماله وآلامه وأحلامه وتأملاته ومشاعره تعبيرا صادقا واضحا قويا مؤثرا .

---

(١) منهم تأبط شرا وعروة بن الورد وسواهما .

(٢) ٢٩٤ ج ٢ المزهر .

والشعر العربي أو الجاهلي بصفة خاصة شعر غنائي لا أثر للون القصصي أو التمثيلي فيه ، فهو يمثل عواطف الشاعر ومشاعره ، وينبع من الفطرة والوجدان والخيال والحياة العامة .

لم يكن الشاعر الجاهلي قاصا ، فلم ينظم الشعر القصصي ، وإنما كان ينطق بما يمليه عليه شعوره ووجدانه ويتحدث عن نفسه ومجتمعه وبيئته . ذلكم أن الشعر القصصي يحتاج إلى نفس طويل وفراغ كثير ، وروح فنية متحضرة أو هو لون من ألوان الحضارة لأنه تدوين وتأريخ لقصة من قصص الأبطال أو فترة من تاريخ الأمة وحياتها ، والعربي لم يكن يعرف أسباب الحضارة ولا وسائلها من الكتابة والتدوين والتأريخ . وإن كان بعض الشعراء الجاهليين قد أجاد في القصص الشعرى الصغير ، كقول امرىء القيس :

سموت إليها بعد ما نام أهلها   سمو حباب الماء حالا على حال
فقالت سباك الله إنك فاضحى   ألست ترى السمار والناس أحوالى
فقلت يمين الله أبرح قاعدا   ولو قطعوا رأسي لديك وأوصالى

وقول الأسود بن يعفر :

ماذا أؤمل بعد آل محرق   تركوا منازلهم وبعد إياد
جرت الرياح على محل ديارهم   فكأنهم كانوا على ميعاد
فأرى النعيم وكل ما يلهى به   يوما يصير إلى بلى ونفاد

إلى غير ذلك من الكثير من ألوان هذا القصص الشعرى الصغير (١) ، ولكن مهما كان فلا نجد في الشعر الجاهلي شعرا قصصيًا بالمعنى المعروف ، إذ

---

(١) يقول الدكتور طه حسين : لست واثقا كل الثقة من أن الأدب العربي يخلو من القصص ، فالذين يقرأون الشعر الجاهلي والشعر الأموى كشعر جرير والفرزدق والأخطل يلاحظون أن مزايا كثيرة من خصائص الشعر القصصي موجودة في الشعر العربي (١٤ ، ١٥ من حديث الشعر والنثر) .

لا نجد قصائد تصور حياة الأبطال مثلا فى عدة آلاف من الأبيات ، ونفس العربى لا يساعده على هذا الطول ، فوق قيود الوزن والقافية؛ فضلا عن أن شدة تعلق العربى بالحرية ونزوعه اليها وإلى الاستقلال بذاته عمن عداه ، دعته إلى أن يوجه همته إلى وصف عواطفه وتحليل مشاعره وذكر ما يعيش فيه من سلام وحرب وشوق وحنين ، إلى ماسوى ذلك من شتى ألوان شعوره ، مما صبغ شعره بصبغة غنائية وجدانية خالصة ، وإن كان لا ينفى ذلك أن الشعر الجاهلى أشد ما يكون تمثيلا للبيئة الجاهلية وللحياة العربية فيها ، لأن كل ذلك كان وثيق الصلة بنفس الشاعر ووجدانه .

كذلك لم ينظم الشاعر الجاهلى شعراً تمثيليا ، لأن هذا لون من الشعر يحتاج إلى لون من ألوان المعيشة المتحضرة وإلى قبس من روح الفلسفة والتفكير العميق والنظرات البعيدة للأشياء والحياة ، وذلك مالم يكن له وجود عند العرب فى جاهليتهم .

وإن كان بعض الشعراء الجاهليين قد أكثر من الحوار العادى الساذج القصير فى شعره ، مما نجده فى بعض القصائد الجاهلية (١) ، فإن هذا اللون ليس هو مانعنيه بالشعر التمثيلى .

وهذا لا يعيب الشعر الجاهلى ولا ينقص من قيمته ، فهو وان كان شعرا غنائيا جال فى كل ميدان وتحدث فى كل ناحية ، ووصف مشاهد البيئة ومناظر الطبيعة ومشاعر النفس البشرية واحساساتها ، مما لا يزال شاهد صدق ومؤرخ حق للحياة فى الجاهلية وما كان فيها من أحداث وما كان يختلج بنفس الشاعر فيها من عواطف وآمال .

---

(١) مثل قول الأعشى :

كن كالسموأل إذ طاف الهمام به ... فى جحفل ، كهزيم الليل ، جرار

إذ سامه خطتى خسف ، فقال له ... قل ماتشاء ، فانى سامع ، حار

إلى آخر هذه الأبيات .

تنقل الشعر فى القبائل

تختلف النظريات بين القدامى والمحدثين حول هذا الموضوع اختلافا كثيرا ونحن نعرض هنا الآراء المختلفة ، ونناقشها مناقشة هادئة منصفة .

١ — يقول ابن سلام :

« كان شعر الجاهلية فى ربيعة ، وأولهم : المهلهل ، والمرقشان ، وسعد ابن مالك ، وطرفة . وعمرو بن قميئة ، والحارث بن حلزة ، والمتلمس ، والأعشى ، والمسيب بن علس .

ثم تحول فى قيس ، فمنهم : النابغة الذبيانى ، وزهير ، وابنه كعب ، ولبيد ، والجعدى ، والحطيئة ، والشماخ ومزرد ، وخداش بن زهير .

ثم آل إلى تميم . فلم يزل فيهم إلى اليوم[1] . . .

وخلاصة ذلك أن الشعر كان فى اليمن ثم انتقل إلى ربيعة فظهر فى قبائلها وعلى ألسنة شعرائها ، ثم انتقل إلى قيس من مضر ، ثم استقر فى تميم ومنهم أوس بن حجر » [2] .

٢ — ويذهب طه حسين فى الأدب الجاهلى كما سيأتى إلى عكس ذلك ، فيرى أن الشعر كان فى مضر ثم انتقل إلى ربيعة فاليمن ثم إلى شعراء الموالى[3] وهذا بناء على نظريته فى انتحال الشعر وسيأتى تفصيل ذلك .

ورأي طه حسين لا سند له من الواقع والتاريخ ، ويرد عليه الأستاذ محمد لطفى جمعة فى كتابه « الشهاب الراصد[4] » .

---

(١) ٢١ و٢٢ طبقات الشعراء لابن سلام طبع المطبعة المحمودية ، ٢٩٥ ر٢ المزهر للسيوطى (٢) وكان زهير راويته « ٢٩٦ جـ ٢ المزهر »

(٣) ٢٠٦ الأدب الجاهلى (٤) راجع ٢٩٦ وما بعدها من الشهاب الراصد

٣ - والواقع أن الشعر كان فى القبائل اليمنية، ومنهم : امرؤ القيس (١) وسواه.. ثم انتقل إلى ربيعة (وهى قبائل كثيرة منها بكر وتغلب وعبدالقيس والنمر بن قاسط ويشكر وشيبان وذهل وسدوس) ، وكانوا قديما يقيمون فى اليمن ثم رحلوا إلى نجد ، وهذا يفسر سر وراثتهم الشعر عن اليمن ، وظهر منهم فى نجد شعراء كثيرون : ومنهم المهلهل ، والمرقشان ، وطرفة ، والمتلمس ، وعمرو بن قميئة ، وسعد بن مالك ، والمسيب ، والأعشى ، والحارث ابن حلزة ، وعمرو بن كلثوم . ثم تحول الشعر فى قيس من مضر ، (ولقيس بطون كثيرة منها : عبس وذبيان وغطفان وسليم وهوازن وعدوان وثقيف وعامر بن صعصعة وعقيل وقشير وجعدة ونمير) ، وكانت مساكن هذه القبائل فى نجد وأعالى الحجاز ، وظهر منهم كثير من الشعراء : كالنابغتين ، وزهير ، وابنه كعب ، ولبيد ، والحطيئة ، والشماخ ، ومزرد ، وعنترة . ثم استقر الشعر فى تميم وهى من كبرى قبائل مضر ، (ولها بطون كثيرة منها : مازن ودارم ويربوع ومجاشع ومالك) ، وكانت تميم تقيم فى تهامة ونزحت إلى بادية العراق وما يليها جنوبا قبل الإسلام بنحو خمسين ومائة سنة ، ومن شعرائها أوس . ثم ظهر الشعر فى بطون مدركة بعد ذلك : من هذيل وأسد وكنانة وقريش والدئل .

أما المدن فشعراؤها قليل ومن أشهرهم : حسان بن ثابت شاعر رسول الله صلوات الله عليه .

شياطين الشعراء

١ - كان العقل البشرى فى العصر الجاهلى لم يستحكم نضوجه الفكرى والاجتماعى ، وكان الناس كثيرا ما يعيشون على الأوهام . وللعرب أوهام

---

(١) والمهلهل خال امرىء القيس ..«وكان امرؤ القيس وطرفة وعبيد وعمرو ابن قميئة والمتلمس فى عصر واحد» ٢٢ طبقات الشعراء لابن سلام.

كثيرة نزلت عندهم منزلة الحقائق .

فقد كانوا يعتقدون بوجود الغول وأنها تتشكل وتتلون فى ضروب الثياب والصور ، يقول تأبط شرا :

ألا من مبلغ فتيان فهم ... بما لاقيت عند رحى بطان

بأنى قد لقيت الغول تهوى ... بمرت كالصحيفة صحصحان

إلى آخر هذه الأبيات .

وكانوا ينسبون إلى الجن أساطير وخرافات(١) ، ويذكرون أن من مدنهم « عبقر » التى ينسبون إليها كل فائق الصفة من الأشياء وكل غريب الشكل من الناس بل كل ما أرادوا تمييزه عن أنواعه من المعانى ، قال أعرابى : « ظلمنى والله ظلما عبقريا » ، والرسول (ص) فى عمر : « فلم أر عبقريا يفرى فريه » ، وأكثر صعاليك العرب من التحدث عن الجن : كعمرو بن براق ، والشنفرى والسليك بن السلكة وتأبط شرا وسواهم .

ويروى أبو إسحاق النظام - كما رواه الجاحظ فى الحيوان - أن أصل ذلك كله هو الأوهام الناشئة عن الحياة فى أرض مقفرة بعيدة عن العمران قليلة المسالك والمعالم مما يحدث للسائر فيها ألوانا من الخوف النفسى ، ويقول عبيد بن أيوب وكان جوابا فى مجاهل الأرض يشرح أسباب الخوف وما ينشأ من الوهم :

فلله در الغول أى رفيقة ... لصاحب قفر خائف متنظر

وقد كثر فى الشعر الجاهلى ذكر الجن والغيلان والسعالى وسوى ذلك .

٢ - وأدى ذلك إلى أن جعل العرب للشياطين شعراء يلهمونهم الشعر والخيال ، وسموهم بأسماء ، وافتخر كل شاعر بشيطانه ، ولاشك أن كل ذلك ناشىء عن تصورهم للجن ، فحين رأوا الشاعر إنسانا يختلف فى أطواره عن مشابهيه وينزل بفكره إلى أودية لم يعتادوا الخوض فيها ، وحين رأوا لكلامه

---

(١) راجع حديث سواد بن قارب لعمر بن الخطاب حول كلام جنى لسواد فى صدق الرسول صلوات الله عليه « ٢٥ و ٢٦ الجمهرة »

فعل الخمر وتأثير السحر وأنه إذا أراد قبح الحسن وحسن القبيح فأدخل على النفوس الوهم بقبحه أو حسنه فبان رائقا معجبا وجميلا فاتنا ، وأنه إذا شاء أوغر الصدور ، ثم إذا شاء أطفأ هذه النار التى ألهبها ، وأنام هذه الفتنة التى أيقظها، وأنه هو الذى جمع فى قلب واحد بين الفتك والنسك والعهر والطهر، فكان عابدا متخشعا ثم طامعا متطلعا وقانعاً متعففاً ثم جباراً متصلفاً ، وأنه هو رب الحكمة يرسلها نور هدى ، والكلمة الفاجرة يحملها شرك غواية وغواية، وأنه القادر على ما شاء من برهان وبهتان . ما كان هذا شأن الشاعر وكان فيه إنسانا كشيطان توهموا أن روح ذلك الشيطان لابسته فنطق بهواها وأدى نجواها .

ومن شياطين الشعراء الشيصبان ، ولافظ شيطان امرىء القيس ، وهبيد شيطان عبيد ، وهاذر صاحب النابغة ، ومسحل صاحب الأعشى، إلى ماسوى ذلك من شياطين الشعراء .

٣ - وصور الجاهليون عقيدتهم حول شياطين الشعراء، فى شعرهم فقال شاعر:

فان شيطانى أمـــير الجن   يذهب بى فى الشعر كل فن

وقال حسان :

ولى صاحب من بنى الشيصبان   فطورا أقول وطورا هوه

وقال الأعشى فى شيطانه مسحل :

دعوت خليلى مسحلا ودعوا له   جهنام ، جـــدعا للهجين المذمم

وجهنام : شيطان عمرو بن قطن .

ويقول أيضا : إذا مسحل يسدى لى القول أعلق . وراجع أسطورة عن هبيد صاحب عبيد فى الجمهرة(١) وفى الجمهرة : « لشعراء العرب شياطين تنطق به على ألسنتها(٢) » .

ومن أسماء شياطين الشعراء : هياب ، وهاذر صاحب النابغة ، ولافظ صاحب امرىء القيس(٣) ، وسوى ذلك.

---

(١) ص ٢٠ و ٢١ الجمهرة ط ١٩٢٦ (٢) ص ٢٢ المرجع (٣) راجع ٢٣ و ٢٤ من المرجع

٤ - ويرد ابن حزم(١) عقيدة العرب فى شياطين الشعراء إلى ما ألقى فى روعهم من أن الجن مظنة القوة والتفوق على الإنس فنسبوا اليهم كل عظيم يعجز عنه البشر .

طبقات الشعراء الجاهليين

— ١ —

الطبقة كل جماعة عاشوا متقاربين فى الزمان وجرت عليهم أحكام واحدة من تأثير البيئة وإن لم يتحدوا فى المنزع أو يدخلوا فى مناقضة أو يتزاحموا على باب ملك(٢) ومعنى الطبقة أنهم نظراء (٣) وأنهم قريبون من بعض فى منزلتهم الأدبية العامة وإن اختلفوا فى اتجاهاتهم الفنية وإنتاجهم الفنى .

والشعراء أربع طبقات : جاهليون ومخضرمون وإسلاميون ومولدون وهم الذين فسدت فيهم ملكة اللسان فعالجوها بالصناعة وهم شعراء بنى العباس(٤)، ويضيف اليهم الشهاب الخفاجى : المحدثون ثم المتأخرون والعصريون(٥) .

والمخضرمون هم الذين أدركوا الجاهلية والإسلام وقالوا فيه الشعر كالجعدى والحطيئة وحسان ، أما لبيد فجاهلى لأنه حرم الشعر على نفسه بعد إسلامه ولم يقل إلا بيتا أو بيتين فيه(٦) .

---

(١) ٢٢ جـ ٥ الملل والنحل (٢) ٤٠١ الأدب العباسى لمحمود مصطفى (٣) ٨٤ تاريخ النقد الأدبى عند العرب (٤) ٤٥ تاريخ الأدب العربى للزيات ، و ٣١٠ الريحانة للشهاب الخفاجى (٥) ٣١٠ و ٣١١ الريحانة للشهاب الخفاجى .

(٦) يقول ابن سلام : كان لبيد فارسا شاعرا شجاعا وكان عذب المنطق رقيق حواشى الكلام وكتب عمر إلى عامله أن سل لبيدا والأغلب ما أحدثا من الشعر فى الاسلام ، فقال الأغلب :

أرجزا سألت أم قصيدا فقد سألت هينا موجودا

وقال لبيد : قد أبدلنى الله سورة البقرة وآل عمران فزاد عمر فى عطائه . وكان فى الجاهلية خير شاعر لقومه يمدحهم ويرثيهم ويعدد أيامهم ووقائعهم وفرسانهم (٤٨ طبقات الشعراء)

أما الإسلاميون فهم الذين نشأوا فى الإسلام إلى آخر عهد الدولة الأموية والمحدثون بعد ذلك وهم العباسيون ، وقال ابن رشيق : «طبقات الشعراء أربع جاهلى ومخضرم وإسلامى ومحدث،ثم صار المحدثون طبقات أولى وثانية على التدريج إلى وقتنا» ـ ٣٠٤ ج ٢ مزهر .

— ٢ —

ويقسم ابن سلام فى كتابه « طبقات الشعراء » شعراء الجاهلية إلى عشر طبقات ، وهى :

١ ـ الطبقة الأولى : امرؤ القيس ، والنابغة ، وزهير ، والأعشى .

٢ ـ « الثانية : كعب والحطيئة .

٣ ـ « الثالثة : الجعدى وأبو ذؤيب والشماخ ، ولبيد .

٤ ـ « الرابعة : طرفة وعبيد وعلقمة وعدى .

٥ ـ « الخامسة : خداش ، والأسود بن يعفر ، والمخبل ، وتميم بن أبى بن مقبل .

٦ ـ والطبقة السادسة : عمرو بن كلثوم ، والحارث بن حلزة ، وعنترة ، وسويد بن أبى كاهل .

٧ ـ والطبقة السابعة : سلامة بن جندل ، والحصين بن الحمام المرى ، والمتلمس ، والمسيب .

٨ ـ والطبقة الثامنة : عمرو بن قميئة ، والنمر بن تولب ، وأوس بن علفاء ، وعوف بن عطية .

٩ ـ والطبقة التاسعة : ضابىء بن الحارث ، وسويد بن كراع بن الحويدرة ، وسحيم .

١٠ ـ والطبقة العاشرة : ابن الأسكر وابن مخفض وعمرو بن شاس

١١ ـ ويضيف اليهم أصحاب المراثى وهم : متمم والخنساء وأعشى باهلة وكعب بن سعد . ثم شعراء القرى العربية وهى :

(ا) المدينة وشعراؤها حسان وكعب بن مالك وابن رواحة وقيس بن الخطيم وابن الأسلت، ويهودها الشعراء: السموأل والربيع بن أبى الحقيق وكعب بن الأشرف وشريح بن عمران وشعبة بن غريض وأبو قيس بن رفاعة وأبو الذيال ودرهم بن زيد.

(ب) مكة وشعراؤها: ابن حذافة وهبيرة وابن الزبعرى وأبو طالب وأبو سفيان ومسافر وضرار بن الخطاب وأبو عزة الجمحى.

(حـ) الطائف وشعراؤها: أبو الصلت. وأمية بن أبى الصلت؛ وغيلان وكنانة بن عبد ياليل،

(د) البحرين وشعراؤها: المثقب والممزق العبدى والمفضل.

ونلاحظ أنه يضع الشعراء المخضرمين مع الجاهليين، لأنهم أدركوا جانبا من الجاهلية.

— ٣ —

وقال أبو عبيدة:

أشعر الناس أهل الوبر خاصة وهم:

(ا) امرؤ القيس، وزهير، والنابغة

(ب) وفى الطبقة الثانية: الأعشى، ولبيد، وطرفة.

(حـ) وفى الطبقة الثالثة: المرقش، وكعب بن زهير، والحطيئة، وخداش، ودريد بن الصمة، وعنترة؛ وعروة بن الورد، والنمر بن تولب والشماخ، وعمرو بن أحمر.

قال صاحب الجمهرة: والقول عندنا ما قال أبو عبيدة:

امرؤ القيس ثم زهير والنابغة والأعشى ولبيد وعمرو وطرفة (١)

---

(١) ٤٥ الجمهرة. ويلاحظ أن فيمن عدهم أبو عبيدة في الطبقة الثالثة شعراء

— ٤ —

وأما أشعر الشعراء الجاهليين فقد اختلفوا فيه ، قال عمر بن شبة فى « طبقات الشعراء » : وادعت كل قبيلة لشاعرها أنه الأول ، فادعت اليمانية لامرىء القيس ، وبنو أسد لعبيد بن الأبرص وتغلب لمهلهل وبكر لعمرو ابن قميئة والمرقش الأكبر ، وإياد لأبى دؤاد (١) .

وحكى الأصمعى عن ابن أبى طرفة : كفاك من الشعراء أربعة : زهير إذا رغب والنابغة إذا رهب والأعشى إذا طرب وعنترة إذا كلب ، وقيل لكثير أو لنصيب : من أشعر العرب ؟ فقال امرؤ القيس إذا ركب وزهير إذا رغب والنابغة إذا رهب والأعشى إذا شرب (٢) .

وقال أبو عمر : أشعر الناس : امرؤ القيس والنابغة وطرفة ومهلهل .

وروى عن رسول الله (ص) فى امرىء القيس : أنه أشعر الشعراء وقائدهم إلى النار ، وقال العباس بن عبدالمطلب عن امرىء القيس هو سابق الشعراء (٣) ، وقدمه كذلك الفرزدق (٤) وقتيبة بن مسلم (٥) ومروان بن أبى حفصة (٣٨١ ج ٣ العقد) .

وقدم خلف الأعشى ، وكذلك سوى خلف من العلماء (٣٠٠ ج ٢ المزهر) وكذلك الأخطل (٤٥ الجمهرة)

مخضرمون ، والمخضرمون مشتق من الخضرمة وهى القطع يقال بعير مخضرم إذا قطع طرف أذنه فسمى الشاعر مخضرما لانقطاعه عن الجاهلية إلى الإسلام أو لأن رتبة المخضرمين فى الشعر قد نقصت فى الاسلام ، وقيل هو من الحضرمة بالحاء وهى الخلطة لأنه خلط الجاهلية والاسلام (٣٠٤و٣٠٥ : ٢ المزهر)

(١) ٢٩٦ : ٢ المزهر .

(٢) ٢٩٧ : ٢ المزهر (٣) ٢٩٦ : ٢ المزهر (٤) ٢٩٧ : ٢ المزهر . وكان الفرزدق أروى الناس لأخبار امرىء القيس وأشعاره (٣٥٣ : ٤ العقد) ، وراجع يوم دارة جلجل فيه (٣٤٢ : ٤)

(٥) ٢٩٨ : ٣ المرجع

وقدم جرير زهيراً، وكذلك قدمه ابن أحمر (١)، ويروى أن جريرا قدمه على الشعراء (١).

وكان علماء البصرة يقدمون امرأ القيس وأهل الكوفة يقدمون الأعشى وأهل الحجاز والبادية يقدمون زهيرا والنابغة وكان أهل العالية لا يعدلون بالنابغة أحدا وأهل الحجاز لا يعدلون بزهير أحدا (١)

والخلاف فى تقديم شاعر من هؤلاء الشعراء على الآخرين كثير ولا داعى للإفاضة فيه (٢).

والذين يقدمون امرأ القيس يقدمونه لكثرة ما ابتكر من معان وخلق من أساليب فى الغزل وسواه (٣).

والذين يقدمون النابغة يقولون هو أوضحهم معنى وأبعدهم غاية وأكثرهم فائدة (٤).

والذين يقدمون الأعشى يقولون هو أمدحهم للملوك وأوصفهم للخمر وأغزرهم شعرا وأحسنهم قريضا (٥).

والذين قدموا لبيدا قالوا هو أفضلهم فى الجاهلية والإسلام وأقلهم لغوا فى شعره (٥).

والذين قدموا عمر بن كلثوم قالوا هو من قدماء الشعراء وأعزهم نفسا وأكبرهم امتناعا وأجودهم واحدة (٦).

والذين قدموا طرفة قالوا هو أشعرهم إذ بلغ بحداثة سنه ما بلغ القوم فى طول أعمارهم، نخب وركض معهم (٧).

---

(١) ٢٩٩ : ٢ المرجع (٢) راجع فى ذلك ٣١ - ٤٦ من الجمهرة
(٣) راجع ٢:٢٩٧ المزهر وراجع ٣١ الجمهرة و ٣٤ الشعر والشعراء
(٤) ٢٣ الجمهرة وما بعدها
(٥) ٣٨ الجمهرة وكانت عائشة رضى الله عنها تروى ألف بيت للبيد (٣:٣٨٢ العقد) (٦) ٤٠ الجمهرة (٧) ٤١ المرجع

- ٥ -

ويقسمون الشعراء إلى أربعة : شاعر خنذيذ وهو الذى يجمع إلى جودة الشعر رواية الجيد من شعر غيره ، وشاعر مفلق وهو الذى لا رواية له إلا أنه مجيد كالخنذيذ فى شعره ، وشاعر فقط وهو فوق الردىء بدرجة ، وشعرور وهو لاشىء له . قال بعض الشعراء :

يا رابع الشعراء كيف هجوتنى ... وزعمت أنى مفحم لا أنطق

وقيل هم : شاعر مفلق وشاعر مطبق وشويعر وشعرور (١)

رواية الشعر

لم تكن العرب تدون شعرها فى الجاهلية فى ديوان أو سفر وإنما كان محفوظاً فى الصدور تعيه حافظتهم وقلوبهم وأذواقهم وملكاتهم الأدبية الفطرية .

وقد تعجب مما تقرأ من رواة العرب بعد الإسلام وكثرة ما كانوا يحفظون ؛ ولكن لاعجب ؛ فملكات الذكاء والحفظ قوية عند العرب وكانت تعينهم على تخليد الشعر العربى حتى لا يضيع ؟

ولقد كان الأصمعى يقول : ما بلغت الحلم حتى رويت اثنى عشرة ألف أرجوزة ، وكان خلف أروى الناس للشعر وأعلمهم بجيده ، وكان خلف مع روايته وحفظه ، يقول الشعر فيحسن وينحله الشعراء . ويقال إن القصيدة :

إن بالشعب الذى دون سلع ... لقتيلا دمه ما يطل

لخلف الأحمر نحلها ابن أخت تأبط شرا . وكذا كان يفعل حماد محقق الشعر القديم ويقول : مامن شاعر إلا قد حققت فى شعره أبياتاً لجازت عنه

(١) ٢:٣٠٥ المزهر ، وراجع ٢:٢٢٤ البيان والتبيين للجاحظ

إلا أعشى بكر فإنى لم أزد فى شعره غير بيت (١) . ويقول المفضل : سلط على الشعر من حماد ما أفسده .

ورغم هذه الرواية والحافظة القوية فقد ضاع الكثير من الشعر العربى الجاهلى وغيره ، حتى قال أبو عمرو بن العلاء : «ما انتهى إليكم مما قالت العرب إلا أقله ولو جاءكم وافراً لجاءكم علم وشعر كثير (٢)» .

وأصيب الشعر العربى مع الضياع بالافتراء والاختلاق عليه من بعض الرواة لأسباب كثيرة منها العصبية أو الرغبة فى تفادى الاحراج أو سوى ذلك .

ولكن النقاد اهتموا بتمييز الصحيح من المنحول ونبهوا على الكثير من المختلق ، وألفوا كتبا كثيرة جمعوا فيها ما صح من الشعر الجاهلى والآثار الأدبية الاخرى .

وكان لكل شاعر راوية يحفظ شعره وينشده ويأخذ من الشاعر فن الشعر ومذهبه فى القريض :

فكان امرؤ القيس راوية أبى داؤد الايادى . وزهير راوية أوس بن حجر ، والاعشى راوية المسيب ، كما كان الحطيئة راوية زهير .

رواة الشعر الجاهلى (٣)

١ - أبو عمرو بن العلاء البصرى م ١٥٤ . له روايات ولم يترك مؤلفات (٤)

٢ - حماد الراوية (٧٥ - ١٥٦ هـ) ، كوفى وليس له مؤلفات (٥)

---

(١) راجع ٢ : ٤٠٢ : ٣ العقد (٢) ٢ : ٤٩٤ : ٢ المزهر

(٣) راجع : بغية الوعاة - طبقات الادباء لابن الانبارى - معجم الأدباء لياقوت - وفيات الاعيان - فوات الوفيات - الأغانى - الفهرست .

(٤) ٤٢ فهرست (٥) ١٣٤ فهرست . ويقول ابن سلام فيه : وكان أول

٣ - الخليل بن أحمد بصرى (١٠٠ - ١٧٤ هـ) وهو مخترع علم العروض.

٤ - خلف الأحمر بصرى (م ١٨٠ هـ) وليس له مؤلفات ، ونقل عن السيوطى أنه ألف كتاب ، الجبال وما فيها من شعر ، ؛ وله ديوان خاص ، وقيل إنه صاحب لامية العرب(١) المنسوبة للشنفرى .

٥ - يونس بن حبيب البصرى م ١٨٢ هـ .

٦ - المفضل الضبى م ١٨٩ هـ ، كوفى ، وهو أقدم من جمع المختار من شعر العرب فى كتاب (المفضليات) . وأول من فسر الشعر بيتا بيتا ، ويقال إنه أول من جمع أشعار الجاهليين .

٧ - أبو عبيدة بصرى م ٢٠٩ هـ . وله مؤلفات فى اللغـــة ، ومجاز القرآن ، والنقائض .

٨ - الأصمعى البصرى م ٢١٦ هـ ، وله مؤلفات فى اللغة ، وكتاب الأصمعيات طبع أوربا وكتاب فى الكروم والنخيل .

٩ - محمد بن سلام الجمحى م ٢٣١ هـ له طبقات الشعراء ، وغريب القرآن (٢) .

١٠ - النضر بن شميل م ٢٠٤ هـ

١١ - مؤرج السدوسى م ١٩٥ هـ

١٢ - ابن الكلبى هشام بن محمد م ٢٠٤ هـ

١٣ الهيثم بن عدى كوفى رواية أديب وله مؤلفات وتوفى سنة ٢٠٦ هـ

١٤ - أبو زيد الأنصارى م ٢١٦ هـ ، ثقة وله مؤلفات .

١٥ - أبو عبيد بن القاسم ٢٢٣ هـ .

١٦ - ابن الاعرابى م ٢٣١ ؛ كوفى ثقة ، وله مؤلفات .

من جمع أشعار العرب وساق أحاديثها حماد الرواية وكان غير موثوق به ، ويقال إن خالد بن يزيد بن معاوية هو أول من جمع شعر العرب

(١) ٤ الصناعتين (٢) ١٦٥ فهرست

الشعر الجاهلي بين التجديد والتقليد

- ١ -

لم يعرض النقاد لبحث الشعر الجاهلي ومظاهر التجديد والتقليد فيه ، ولا يسلم القدماء منهم خاصة بحديث التقليد فى الشعر الجاهلى ، لأنه كله عندهم جديد بكر ؛ ومظاهر التشابه الفنى بين القصائد الجاهلية لا يصح أن يعرض لها أو يتحدث عنها حتى لا نسلم بالتقليد فى شعر كله جديد وكله روعة وجمال ، وإذا أخذ الشاعر الجاهلى من شاعر قبله بيتاً أو أبياتاً فلنقل إن ذلك من توارد الخواطر واتفاق الشاعرية ، أولنذهب إلى ماذهب إليه ابن رشيق فى عمدته : من أن ذلك « استلحاق » ، والاستلحاق عنده أخذ الشاعر بيتاً من شاعر سبقه على جهة المثل ، وكان أبو عمرو بن العلاء وغيره لا يرون ذلك عيبا وقد يصنع المحدثون مثل هذا . وقد يسلم المنصفون من النقاد القدامى بأن الشاعر الجاهلى يخطىء كما يخطىء غيره ولكنهم لا يسلمون بأنه ينسج قصيدته على نهج قصيدة أخرى لشاعر سبقه ؛ ولم يبحث أحد منهم مذاهب الشعراء الفنية ، وأثر كل طبقة فى شعر الطبقة التى تليها . ونحن نعلم أن ابن سلام قسم الشعراء الجاهليين عشر طبقات ، وأضاف إليهم شعراء المراثى وشعراء المدن العربية ، وجعل فى الطبقة الأولى امرأ القيس وزهيرا والأعشى والنابغة ؛ وأن أبا عبيدة قسم الجاهليين ثلاث طبقات ، ووضع فى الأولى امرأ القيس وزهيرا والنابغة ؛ وفى الثانية الأعشى وطرفة ولبيدا . ووافقه على ذلك صاحب الجمهرة أبو زيد الأنصارى ؛ ولكنك تعلم أن شعراء كل طبقة لم يجمعهم عصر واحد ، مما يؤدى إلى أن يكون فى كل طبقة شعراء تأثرهم إخوانهم فى الطبقة نفسها ؛ ومع ذلك كله فإن النقاد لم يبحثوا الصلات الفنية بين الشعراء الجاهليين ، ولا بين طبقاتهم المختلفة ؛ بل إن قصيدتين مثل قصيدة علقمة الفحل م ٥٦١ والتى مطلعها : « ذهبت من الهجران فى غير مذهب » ، وقصيدة امرىء القيس :

خليلى مرا بى على أم جندب لنقضى حاجات الفؤاد المعذب

رغم تشابههما فى شتى مظاهر الشاعرية والخيال، ورغم أن علقمة متأثر بامرىء القيس فى قصيدته وناسج على منوالها؛ لا يذكر النقاد شيئا عن مظاهر التشابه الفنى بين القصيدتين. وهناك قصيدتان أخريان هما: معلقة عمرو بن كلثوم: «ألا هبى بصحنك فاصبحينا»، وجمهرة أمية بن أبى الصلت: «عرفت الدار قد أقوت سنينا» واللتى نسج فيها أمية على منوال قصيدة عمرو واحتذاه فيها؛ ومع ذلك فإن النقاد لا يتحدثون عن شىء، ولا يلمون بحديث هذا التقليد الفنى الغريب؛ وهناك الكثير من أبيات الشعر تجدها نفسها مكررة فى شعر كثير من الشعراء، وقد لا نستطيع أن نشك فى روايتها، ومع ذلك فالرأى السائد عندهم أن ذلك أثر لاتفاق الشاعرية.

وعلماء الأدب يعرفون أن الشعر كان فى اليمن ثم انتقل إلى ربيعة ثم تحول فى قيس من مضر ثم صار إلى تميم، ولا يخالف فى ذلك إلا الدكتور طه حسين الذى رأى أن الشعر كان فى مضر ثم انتقل إلى ربيعة فاليمن فالموالى؛ ومع ذلك فعلماء الأدب القدماء لم يبالوا ببحث آثار هذه الوراثات الشعرية المختلفة.

ويقولون: إنه كان لكل شاعر فى الجاهلية راوية يروى له ويأخذ عنه نهجه فى الشعر ويتلمذ عليه ويتأثر بشعره، فكان امرؤ القيس راوية أبى دؤاد الأيادى، وطرفة راوية المتلمس، والأعشى راوية المسيب بن علس، وزهير راوية أوس وطفيل الغنوى معاً، والحطيئة راوية زهير، كما كان الفرزدق وهدبة راويتان للحطيئة، وأبو حية النميرى راوية للفرزدق، وجميل راوية لهدبة، وكثير راوية لجميل، فى العصر الإسلامى. ومع ذلك كله فلا تزال هذه الأستاذية فى الشعر فى حاجة إلى بحث كثير للكشف عن مظاهرها وآثارها الفنية. ولا نرى لذلك أثراً يذكر فى بحوث النقاد القدماء.

ومدرسة « المصنعين » من الشعراء الجاهليين كزهير وتلاميذه ، وكالنابغة وأوس وطفيل الغنوى والنمر بن تولب ، لا تزال فى حاجة ملحة إلى الكشف الدقيق عن خصائص مذهبهم الفنى ونشأته وأثره فى الشعر العربى ، وإن كان الدكتور طه حسين قد ألم بجوانب من هذا البحث فى « الأدب الجاهلى » .

وإذا كان النقاد القدماء قد قسموا الشعراء الجاهليين إلى طبقات ، وأغفلوا أثر الوراثات الشعرية بين هذه الطبقات ، ولم يذكروا شيئا عن مظاهر الأستاذية والتلمذة بين هؤلاء الشعراء ، فخليق بنا أن نقسمهم من جديد تقسيما أدبيا إلى طبقات متفاوتة ، بحيث نستطيع أن نحكم على عمل كل طبقة ومدى تأثرها بمن قبلها وأثرها فى الطبقة التى تليها ، ليستطيع الباحث أن يفهم الشعر الجاهلى فهما جيدا على أسس جديدة ، كما يفهم كل ما يتصل بطبقة بشار وطبقة أبى نواس وطبقة أبى تمام والبحترى مثلا من الشعراء المحدثين ، وكما يفهم مذهب البارودى ومذهب شوقى ومذهب غيرهما فى الشعر الحديث .

– ٢ –

وبعد فنحن لا نجد بدا من أن نقسم الشعراء الجاهليين إلى هذه الطبقات الأدبية :

١ – طبقة مهلهل م ٥٣١ ؛ ومن شعرائها : الشنفرى م ٥١٠ ، وتأبط شرا م ٥٣٠ ، وأبو دؤاد الأيادى م ٥٤٠ ، وسواهم ، وزعيم هذه الطبقة مهلهل ، وهو أول من نقل الشعر العربى من طور الأراجيز والمقطعات الصغيرة إلى مرحلة القصيد ، فهو أول من قصد القصائد وقال فيها الغزل ، وأول من هلهل نسج الشعر وخاصة الرثاء أى رققه وهذبه ، وشعره من أعلى طبقات شعر المتقدمين كما يقول ابن نباتة ، وهو من شعراء نجد ، وله رثاء كثير فى أخيه كليب زعيم ربيعة والعرب بعد مقتله عام ٤٩٤ م ، وقصيدته القافية : « جارت

بنو بكر ولم يعدلوا ، إحدى القصائد السبع « المنتقيات » ، وكانت العرب تسميها « الداهية » .

ولا شك أن هذه الطبقة هي التي مهدت سبيل التجديد في الشعر أمام امرىء القيس ، كما أنها جددت ولا شك فيه بنقله إلى هذه النهضة الفنية الكبيرة .

٢ – والطبقة الثانية طبقة امرىء القيس م ٥٦٠ ؛ ومن شعرائها : علقمة م ٥٦١ ، والمرقش الأكبر م ٥٢٥ وهو أول من أطاح المدح ، والمرقش الأصغر م ٥٦٠ ، وعبيد م ٥٥٥ ، والأفوه الأودي م ٥٧٠ ، والمتلمس م ٥٨٠ . والمثقب العبدي م ٥٨٧ والحارث بن حلزة م ٥٨٠ ، وطرفة م ٥٦٥ .

وزعيم هذه الطبقة هو ولا شك امرؤ القيس ، وقد تتلمذ في الشعر على أبي دؤاد الإيادي وعلى خاله المهلهل ، وهو أول من وقف واستوقف وبكى واستبكى ووصف النساء بالظباء والمها والبيض وشبه الخيل بالعقبان والعصى وقرب مآخذ الكلام وقيد أوابده ، وأجاد الاستعارة والتشبيه والكناية ورقق الأسلوب وجعله عذباً في جزالة وجمال ، وأول من شرع للناس مذهب هذا الغزل القصصي الحلو ، وهذا الطرد الجميل القوي ، ولا تزال كلماته « قيد الأوابد » ، « ونؤوم الضحى » وسواهما ذات رنين بعيد ، والذي في شعر امرىء القيس - كما يقول الآمدي في الموازنة - : من رقيق المعاني وبديع الوصف ولطيف التشبيه ، وبديع الحكمة فوق ما استعار سائر الشعراء في الجاهلية والإسلام ؛ وهذه الطبقة على أي حال ورثت الشعر عن الطبقة التي سبقتها وأثرت في الطبقة التي تليها .

٣ والطبقة الثالثة طبقة النابغة م ٦٠٤ ، وزهير م ٦٣١ ، والأعشى م ٦٢٩ وهو أول من تكسب بشعره ؛ وعنترة م ٦١٥ . وحاتم م ٦٠٥ ، وعمرو ابن كلثوم م ٦٠٠ ؛ ولبيد م ٦٦٢ ؛ وأمية بن أبي الصلت م ٦٢٤ .

وزعيم هذه الطبقة هو النابغة ولا شك ، فهو أستاذهم وحكمهم في سوق

عكاظ ، والذى تأثر به الكثير من الشعراء كحسان وسواه .

وزهير من أعلام هذه الطبقة وهو زعيم طبقة « المصنعين » وأستاذ الحطيئة وسواه من الشعراء .

٤ - والطبقة الأخيرة هى طبقة حسان وقيس بن الخطيم وسواهما من الشعراء الذين عاشوا فى الجاهلية وشاهدوا زمن النبوة ، وهم الذين يسميهم النقاد « المخضرمين » .

ولا غنى لنا بعد ذلك من أن نقول إنه كان لكل طبقة من هذه الطبقات مذهب فنى خاص ، وكانت هذه المذاهب أثراً لوراثات كثيرة وعوامل سياسية واجتماعية أخرى ، كما يبدو فيها أثر التقليد والتجديد جميعاً .

ولا شك أن قيام الأسواق الأدبية ، وحكومة النقاد بين الشعراء ، وتقرب الشعراء بشعرهم إلى الملوك والأمراء واتخاذه وسيلة للثراء ، وأداة للغناء ولساناً لإذاعة مفاخر القبيلة ومحامدها وهجاء خصومها ، وهذه النهضة الفنية الكبيرة التى بلغها الشعر فى نجد حيث الهجرات العربية والحروب المستمرة ؛ كل هذه الأمور وسواها كانت تدفع بالشعر الجاهلى دائماً إلى الأمام ، وتدعو إلى تجويده وتهذيبه والتجديد فيه .

وقد تتاح لنا فرصة أخرى للحديث عن هذه المذاهب الفنية المختلفة ، وأثرها فى الشعر الجاهلى خاصة والعربى عامة .

الشعر الجاهلى بين الطبع والصنعة

١ - المطبوع من الشعراء كما يقول ابن قتيبة من سمح بالشعر واقتدر على القوافى وأراك فى صدر البيت عجزه وفى فاتحته قافيته وتبينت على شعره رونق الطبع ووشى الغزيرة(١) . والمصنوع هو المنقح المثقف من الشعر الذى قومه

(١) ٢٤ الشعر والشعراء

صاحبه بالثقاف ونقحه بطول التفتيش ولم يذهب فيه مذهب المطبوعين(١) مما يظهر للنقاد مهما كان محكما(٢) وتجد البيت فيه مقرونا بغير جاره ومضموما إلى غير لفقه(٣)، على أن أئمة الصنعة فى الشعر العربى كانوا يجعلون قصائدهم نمطا واحـــدا مما يجعلها مستوية الشاعرية كالحطيئة وسواه ، ولذلك قال الأصمعى : الحطيئة عبد لشعره . قال الجاحظ : عاب شعره حين وجده كله متخيرا مستويا لمكان الصنعة والتكلف والقيام عليه(٤) ، وقال الأصمعى أيضا : زهير والحطيئة وأشباههما عبيد الشعر وكذلك كل من يجود فى جميع شعره ويقف عند كل بيت قاله وأعاد فيه النظر حتى تخرج أبيات القصيدة كلها مستوية فى الجودة(٥) ، قال ابن رشيق : يريد الأصمعى أنهما يتكلفان إصلاحه ويشغلان به حواسهما وخواطرهما(٦) ، وكان الأصمعى يقول : وإنما الشعر المحمود كشعر الجعدى ورؤبة ولذلك قالوا فى شعره : مطرف بآلاف وخمار بواف(٧) ، وكان الأصمعى يفضله من أجل ذلك(٨) ، قال الجاحظ : وكان يخالف فى ذلك جميع الرواة والشعراء(٩) ؛ وأرى أنه مسبوق بذلك الرأى ،

---

(١) ١٦ المرجع (٢) ٢٢ المرجع

(٣) ٢٣ المرجع ولذلك أخذ النقاد القدماء كالصاحب والثعالبى والبديعى على المتنبى كثرة التفاوت فى شعره .

(٤) ٢٥ ج ١ البيان والتبيين .

(٥) ٢٥ ج ٢ المرجع وتروى كلمة الأصمعى برواية أخرى هى : زهير والنابغة وكان النقاد يعدون النابغة من المصنعين ويروى عن أبى عبيدة قال سمعت أبا عمرو يقول : زهـــير والحطيئة عبيد الشعر لأنهم نقحوه ولم يذهبوا فيه مذهب المطبوعين (١٠٥ إعجاز القرآن)

(٦) ١١٢ ج ١ البيان والتبيين .

(٧) ٢٥ : ٢ البيان .

(٨) ١٥٠ ج ١ البيان

(٩) ٢٦ ج ٢ البيان . وكان الأصمعى مع كراهته للصنعة يستحسن التفاوت فى الشاعرية لأنه مظهر الطبع وخلو الشعر من آثار الصناعة .

فقد روى أنه قيل للرماح : لو أصلحت شعرك لذكرت به ، فقال : إنما الشعر كنبل فى جفيرك ترمى به الغرض فطالع وواقع وقاصد(١) ، ورد بشار على من عابه بالتفاوت فى شعره بأن الشاعر المطبوع كالبحر يقذف مرة صدفة ويقذف طورا خرزة(٢) . وعلى هذا الرأى يسير بعض المحدثين ممن يرى أن التفاوت فى شعر الشاعر دليل على عبقريته وطبعه وهو الآية الناطقة على شاعرية المتنبى عنده(٣) . وإذا كان الشاعر مصنعاً بان جيده من سائر شعره كأبى تمام وإذا كان الطبع غالباً عليه لم يبن جيده كل البينونة وكان قريباً من قريب كالبحترى ومن شاكله(٤) .

ويرى بعض المحدثين أن الشعر إذا كان صادرا عن ذات نفس الشاعر كان هو شعر الطبع أو شعر الفطرة(٥) فأينما وجدت النفس المتأثرة بما يزحمها من بواعث الشعور فقد وجدت هنالك شعر الفطرة(٦) ، ويذهب إلى ذلك العقاد حيث يرى أن شعور الشاعر بنفسه حد بين الطبع والتكلف فإذا كان الشعر صادقا مؤثرا فهو من شعر الطبع وإلا فهو متكلف (٧) ، ويرى أن الأديب المطبوع من كان غير مقلد فى معناه أو فى لفظه وأن يكون صاحب هبة فى نفسه وعقله لا فى لسانه فقط(٨) وكذلك ذهب صاحب « تاريخ النقد الأدبى عند العرب » الذى ذكر رأى ابن قتيبة وحلله بأنه يريد من الطبع فى الشعر معنى الارتجال لا الطبع والشعور والملكة الشعرية الموهوبة ثم بنى على ذلك نقده لابن قتيبة ورأيه(٩) .

ورأى المحدثين إصلاح جديد فى الطبع والصنعة ومعناهما ، وهو لا يناقض الرأى الأول الذى ذهب إليه القدماء . بل لعل القدماء قد لاحظوه واكتفوا

---

(١) ٨٨ ج ٢ الأغانى (٢) ٢٧٥ ج ١ زهر (٣) ٢٧٦ مطالعات العقاد
(٤) ١١١ ج ١ العمدة (٥) ص ٧ الطبع والصنعة فى الشعر
(٦) ١٦ المرجع (٧) ٢٧٧ مطالعات
(٨) ٢٢٦ مطالعات (٩) ١٣١ تاريخ النقد الأدبى عند العرب

فى تعريفهم للطبع والصنعة بآثارهما الفنية فى الأدب والشعر .

ونحن نرى أن الأولى فى تحديد معنى الطبع والصنعة أن نجمع بين الرأيين، فالطبع هو الملكة القادرة فى نفس الشاعر والأديب التى توحى إليه بفنه وأدبه وحى الفطرة والطبيعة واستجابة لعواطفه ومشاعره دون تكلف ودون تعب فى الصوغ أو استجداء لترف الأسلوب والصناعة ، وإذا جاء شىء من آثار هذا التكلف الفنى فى شعر المطبوعين من الشعراء فإنما يجىء عفواً وعن غير قصد إليه وتعمد له وإنما طلبه الذوق واستدعاه المعنى ، ونطقت به الشاعرية دون قصد ودون عناء ودون أن يطغى شىء على نفس الشاعر وشعوره وخلجات قلبه ونزعات عقله وإحساسه . والصنعة هى : إحساس الشاعر أو الأديب بآثار الجمال الفنى وترف الأداء ، وزخرف الأسلوب ، وحبه لهذا الجمال والترف والزخرف ، وهيامه الفنى بها وقصده إليها وتعمده لها فى شعره وأدبه ، حتى ليطلب الفن للفن ، ويستلهم الجمال للجمال ، ويستوحى الشعر من ملكاته الفنية التى غلبت عليها هذه النزعة واستبد بها هذا الأسلوب ، وكادت تكون فناً خالصاً يطغى على نفس الشاعر وشعوره وعواطفه وإحساسه بالحياة ، ويستبد بالظهور والغلبة عليها فى الفن ، أو يشاركها فى تراث الشاعر والأديب الفنى فيقلل من ظهور نزعاته ووجداناته فيه ، ولذلك عاب القدماء من النقاد الصنعة والتصنيع ، وكرهوا الصانعين والمصنعين ، ورأوا مذهبهم يخالف مذهب القدماء من الشعراء فى الجاهلية والإسلام .

٢ — ولقد كان الشعر العربى أثراً للفطرة والقريحة ، واستجابة لمشاعر الشاعر وشعوره بالحياة فى الجاهلية ، وكان أكثره ارتجالاً أو ما يشبه الارتجال ، ينظمه الشاعر على البديهة ويأتى به عفو الخاطر ، ترد إلى ذهنه المعانى وتتابع فتنثال عليه الألفاظ انثيالا ، وتأتيه الأساليب شعراً وشعوراً وسحراً وجمالا ، كل ذلك فى سهولة وتدفق وفطرة ودون تثقيف وتهذيب وتنقيح ، وقد يتفق للشاعر منهم فى شعره من آثار الصنعة التى لم يقصدها البيت

والبيتان في القصيدة ،، وربما قرئت ، من شعر أحدهم قصائد من غير أن يوجد فيها بيت بديع ، وكان يستحسن ذلك منهم إذا أتى نادراً . ويزداد حظوة بين الكلام المرسل(١) ، وليس متكلفاً تكليف أشعار المولدين ، وإنما وقع لهم عن غير قصد ولا تعمل لكن بطباع القوم عفوا . فلم تكن العرب تنظر في أعطاف شعرها بأن تجنس أو تطابق أو تقابل فتترك لفظة للفظة أو معنى لمعنى كما يفعل المحدثون ، ولكن نظرها في فصاحة الكلام وجزالته وبسط المعنى وإبرازه ، وإتقان بنية الشعر وإحكام عقد القوافي وتلاحم الكلام بعضه ببعض(٢) ، فكل شيء للعرب فإنما هو بديهة وارتجال وكأنه الهام ، وليس هناك معاناة ولا مكابدة ولا إجالة فكرة ، وإنما هو أن يصرف وهمه إلى الكلام وإلى جملة المذهب والعمود الذي إليه يقصد فتأتيه المعاني إرسالا وتنثال عليه الألفاظ انثيالا(٣) .

وفي العصر الجاهلي بدأ لون جديد من ألوان التثقيف والصنعة في الشعر على يد أوس وزهير وتلاميذهما ، كان أوس من أصحاب التنقيح ، وكان يسمى محبراً لحسن شعره(٤) وتتلمذ عليه زهير(٥) وكان طفيل كذلك وقد قيل إن زهير روى له(٦) وتتلمذ عليه ، وكذلك كان النمر بن تولب من أصحاب التثقيف والتهذيب وكان أبو عمرو بن العلاء يسميه الكيس(٧) ، ومن أبرز رجال هذه المدرسة زهير ، ، وكان زهير يصنع الحوليات على وجه التثقيف والتنقيح ، يصنع القصيدة ثم يكرر نظره فيها خوفا من التعقب ، بعد أن يكون قد فرغ من عملها في ساعة أو ليلة ، وربما رصد أوقات نشاطه فتباطأ عمله لذلك(٨) ، ، وكان يعمل القصيدة في ستة أشهر ويهذبها في ستة أشهر ثم يظهرها فتسمى الحوليات(٩) ، ، وعمل سبع قصائد في سبع سنين

(١) ١٦ البديع (٢) ١٠٨ ج ١ العمدة (٣) ١٥ ج ٣ البيان
(٤) ١١٢ ج ١ العمدة (٥) ١٧٢ ج ١ المرجع
(٦) ١١٢و١٧٤و١٧٥ ج ١ العمدة (٧) ١١٢ ج ١ العمدة
(٨) ١٠٨ ج ١ العمدة (٩) ١٣٤ صناعتين

وكان يسميها الحوليات(١) ، وقيل كان ينظمها فى شهر ثم لا يزال يهذبها حتى يمر عليها الحول(٢) . قال الجاحظ : ومن شعراء العرب من كان يدع القصيدة تمكث عنده حولا كريتا(٣) ، وزمنا طويلا يردد فيها نظره ويقلب فيها رأيه اتهاما لعقله وتتبعا على نفسه وكانوا يسمون تلك القصائد الحوليات والمنقحات والمحكمات والمقلدات(٤) ، وقال : وكان زهير وهو أحد الثلاثة المتقدمين يسمى كبار قصائده الحوليات(٥) ، ولعل رأى النقاد فى أنه كان يدع القصيدة عنده حولا يهذبها ويقوم ثقافها ويصبغها بصبغة من الصنعة والتنقيح مبالغة فى إطالة نظره فيها وصنعته لها . وقد احتج أصحاب مذهب الصنعة بأن امرأ القيس كان يثقف شعره ويعيد فيه نظره ويسقط رديئه ويثبت جيده(٦) وكان امرؤ القيس راوية أبى داؤاد الايادى مع قوة غريزة . وكان يلوذ به فى شعره ويتوكأ عليه كثيرا(٧) ، وقد سار تلامذة زهير على نهج أستاذهم فكان الحطيئة صانعا حاذقا يقوم على شعره وينقحه(٨) ، وكان يعمل القصيدة فى شهر وينظر فيها ثلاثة أشهر ثم يبرزها(٩) ، وكان يقول خير الشعر الحولى المنقح(١٠) أو المحكك(١١) ، ويشبهون طريقة الحطيئة فى الشعر بطريقة زهير (١٢) وكان الأصمعى يعيبه من أجل (١٣) صنعته ، وكان الحطيئة رواية زهير (١٤) ، وكان الفرزدق يروى للحطيئة كثيرا وكان أبو حية النميرى وهو من أحسن

---

(١) ٢٦٦ سر الفصاحة (٢) ٣٨ ج ٣ الرافعى

(٣) أى كاملا (٤) ٢١ ج ٢ البيان والتبيين

(٥) ١٤٩ ج ١ و ٢٤ ج ٢ البيان و ١٠٥ إعجاز القرآن

(٦) ١٨٤ ج ١ العمدة (٧) ١١٢ ج ١ العمدة

(٨) ٦٠ من التصحيف والتحريف للعسكرى

(٩) ١٣٥ صناعتين (١٠) ١٤٩ ج ١ البيان

(١١) ٢٥ ج ٢ ، ١٧٥ ج ١ العمدة ، ويروى ذلك عن زهير (٦٦ سر الفصاحة)

(١٢) ٢٦٧ سر الفصاحة

(١٣) ١٥٠ ج ١ و ٢٥ ج ٢ البيان (١٤) ٧٨ ج ٧ الأغانى

الناس شعراً وألطفهم كلاماً مؤتماً بالفرزدق آخذاً عنه كثير التعصب له والرواية عنه(١)، كما كان هدبة بن الخشرم رواية الحطيئة وجميل رواية هدبة وكثير رواية جميل(٢).

وهكذا استمر هذا المذهب مذهب التثقيف وطول التهذيب منهجاً فنياً يسير عليه بعض الشعراء حتى بعد العصر الجاهلي. وكان أساساً لمذهب البديع الذي نشأ على يد مسلم وأبي تمام من المحدثين.

بين القدامى والمحدثين من النقاد خلاف كبير في تحديد معنى الطبع والصنعة: يرى الأولون أن التهذيب الفني للأسلوب هو الصنعة، فالمصنوع هو المثقف المهذب من الشعر؛ أما الطبع فهو خلو الأثر الأدبي من آثار التجويد والتنقيح، ويرى الآخرون أن شعور الشاعر بنفسه حد بين الطبع والصنعة، فإذا كان الشعر صادقاً مؤثراً فهو من شعر الطبع، وإلا فهو مصنوع متكلف، والأديب المطبوع عندهم من كان غير مقلد في معناه أو في لفظه، وكان صاحب موهبة في نفسه وعقله لا في لسانه فقط.

ورأي المحدثين المعاصرين من النقاد اصطلاح جديد في معنى الطبع والصنعة. وأرى أن الأولى في تحديد معناهما أن نجمع بين الرأيين اللذين يتلاقيان ولا يتناقضان، فالطبع هو الملكة القادرة في نفس الشاعر والأديب التي توحي إليه بفنه وأدبه وحي الفطرة والطبيعة واستجابة لعواطفه ومشاعره

---

(١) ١٧٢ و ١٧٣ ج ١ العمدة، ٢٩٩ الشعر والشعراء

(٢) ٤٨ ج ٣ الرافعي، ٣٠٠ الأدب الجاهلي، ١٧٢ ج ١ العمدة وكان كثير راوية جميل ومفضلا له (١٦ ج ٤ العقد)

دون تكلف وتعب فى الصوغ أو استجداء لترف الأسلوب والصناعة ، أما الصنعة فهى إحساس الشاعر أو الأديب بآثار الجمال الفنى وترف الأداء وزخرف الأسلوب وحبه لهذا الجمال والترف والزخرف، وهيامه الفنى بها، وقصده إليها ، وتعمده لها فى شعره ، حتى ليطلب الفن للفن ويستلهم الجمال للجمال . ويستوحى الشعر من ملكاته الفنية التى استبدت بها هذه النزعة ، مما يطغى على نفس الشاعر وشعوره وعواطفه وإحساسه بالحياة .

ويجمع جمهور النقاد فى القديم والحديث على عيب الصنعة والتصنيع ، وسمو المصنعين من الشعراء فى العصر الجاهلى : عبيد الشعر ، وعابوا شعرهم ، قال الأصمعى الأديب الراوية الناقد م ٢١٦ هـ : زهير والنابغة وأشباههما عبيد الشعر ، وقال . الحطيئة - وهو شاعر إسلامى مشهور - عبد لشعره ، قال الجاحظ إمام الأدباء والنقاد ٢٥٥ هـ : عاب الأصمعى شعره حين وجده كله متخيراً مستويا لمكان الصنعة والتكلف والقيام عليه ، وكان الأصمعى يستحسن التفاوت فى الشاعرية لأنه مظهر الطبع وخلو الشعر من آثار الصناعة ، وعلى هذا الرأى يسير بعض المحدثين ممن يرى أن التفاوت فى شعر الشاعر دليل على عبقريته وطبعه ، ويعده النقاد الآية الناطقة على شاعرية المتنبى وعظيم مكانته فى الشعر .

ولقد كان للشعر العربى أثراً للفطرة والبديهة واستجابة لمشاعر الشاعر وشعوره بالحياة فى الجاهلية وكان أكثره ارتجالا أو ما يشبه الارتجال ، ينظمه الشاعر على البديهة ، ويأتى به عفو الخاطر ، ترد إلى ذهنه المعانى وتتتابع ، فتنثال عليه الألفاظ وتأتيه الأساليب شعراً وشعوراً وسحراً وجمالا ، كل ذلك فى سهولة وتدفق وفطرة دون تثقيف وتهذيب وتنقيح ، حتى قال الجاحظ : وكل شىء للعرب فإنما هو بديهة وارتجال وكأنه إلهام ،

وليس هناك معاناة ولا مكابدة ولا إجابة فكرة وإنما هو أن يصرف وهمه إلى الكلام وإلى جملة المذاهب والعمود الذى إليه يقصـــد ، فتأتيه المعانى أرسالا ، وتنثال عليه الألفاظ انثيالا .

وفى العصر الجاهلى بدأ لون جديد من ألوان التهذيب والصنعة فى الشعر على يد أوس وزهير وتلاميذهما .

كان أوس بن حجر من أصحاب التنقيح ، وكان يسمى محبرا لحسن شعره ، وتتلمذ عليه زهير ، وكان طفيل الغنوى كذلك ، وكان النمر بن تولب أصحاب التثقيف والتهذيب ، وكان أبو عمرو بن العلاء الناقد الراوية م ١٥٤ هـ يسميه الكيس لحذقه بالشعر ، والنقاد يعدون النابغة الذبيانى أيضاً من المصنعين ، ويقول أنصار الصنعة إن امرأ القيس أيضاً كان يثقف شعره ويعيد النظر فيه فيسقط رديئه ويثبت جيده ، وكان امرؤ القيس راوية أبى دؤاد الأيادى ؛ وكان يلوذ به فى شعره ويتوكأ على معانيه كثيراً ، ولكن امرىء القيس ينفى عنه الصنعة والتصنيع ؛ وفرق بين أن يجىء عفواً فى شعره بعض آثار الصناعة الفنية وأن يكون مصنعاً ينحت فنه كما ينحت الفنانون تماثيلهم .

وأبرز رجال هذه المدرسة على أى حال هو زهير ، قال بعض النقاد : عمل سبع قصائد فى سبع سنين كان يسميها الحوليات . وكان زهير يصنع الحوليات على وجه الثقيف والتهذيب ، يصنع القصيدة ثم يكرر نظره فيها ـ خوفاً من النقد والنقاد ـ بعد أن يكون قد فرغ من عملها فى ساعة أو ليلة ، وقيل كان ينظم القصيدة فى شهر ثم لا يزال يهذبها حتى يمر عليها الحول ، وقيل : بل كان يعمل القصيدة فى ستة أشهر ويهذبها فى ستة أشهر ، وقال الجاحظ : كان زهير يسمى كبار قصائده الحوليات . وقد سار تلامذة زهير على نهج أستاذهم كالحطيئة الشاعر الإسلامى وسواه .

وكان هذا المذهب الفنى فى الشعر الجاهلى ـ مذهب الصنعة والتصنيع ـ

أثراً للتنافس بين الشعراء وقيام الأسواق الأدبية كعكاظ وسواء بالحكومة الأدبية بينهم وكان النابغة تقام له قبة في عكاظ ويتحاكم إليه الشعراء ، كما كان أثراً للتكسب بالشعر واتخاذه وسيلة للثراء وعكوف الشعراء المصنعين على تجويد مدائحهم ليستخرجوا بها سني الهدايا والألطاف من ممدوحيهم ، وكان ارتباط الشعر الجاهلي بالغناء ورغبة بعض الشعراء في التجويد والتجديد في المعاني من أسباب نشأة هذا المذهب الفني أيضاً .

وإذا نظرنا إلى الشعر الجاهلي نفسه وجدنا الفرق كبيراً بين آثار أصحاب الطبع والبديهة كطرفة وامرىء القيس ومهلهل وآثار الشعراء المصنعين .

والمعلقات السبع وهي من أشهر القصائد الجاهلية في البلاغة الأدبية وأحفلها بمواهب الشاعرية والفن والخيال وخصب الملكات ، كلها من آثار الطبع الأدبي الموهوب ، وليس فيها شيء من مظاهر الصناعة الفنية : فمعلقة امرىء القيس أروع صورة لحياة الشاعر وترفه ولهوه ، ومعلقة عمرو بن كلثوم ملحمة تاريخية تصور التاريخ القومي والحربي والسياسي لقبيلة الشاعر « تغلب » ، ومعلقة عنترة حديث عذب جميل بين الحب والحرب والبطولة ، ومعلقة زهير دعوة للسلام ووصف لأهوال الحرب وقسوتها على الناس والبشرية ، ويكاد يكون زهير فيها أشبه شيء بالمطبوع ، ويكاد أسلوبه فيها يبعد عن الصنعة وآثارها الفنية .

وشتان بين معلقة زهير هذه وبين قصيدة النابغة :

كليني لهم يا أميمة ناصب   وليل أقاسيه بطيء الكواكب

أو قصيدة أخرى لزهير نفسه هي :

صحا القلب عن سلمى وأقصر باطله   وعرى أفراس الصبا ورواحله

لبعد ما بين الأثر المطبوع والأثر المصنوع .

دفاع عن الشعر الجاهلى

- ١ -

كثرت فى العصر الحديث مقالات الأدباء والنقاد فى الزراية بالشعر الجاهلى، وتنقصه، ورميه بالقدم والجمود، والدعوة إلى تركه والانصراف عنه، وعيبه حينا بخلوه من الشعر التمثيلى والقصصى، وحينا بتفككه وعدم وجود وحدة للقصيدة فى آثاره الفنية الباقية، وباضطراب معانيه وعدم تمثيلها إلا للبيئة البدوية الجاهلية وحدها، وحينا آخر يرمونه من ناحية الصياغة واللفظ والنظم بأكثر مما يعاب به شعر قديم أو حديث.

وقد حمل لواء هذه الدعوات أدباء كان نصيبهم من دراسة الأدب العربى أو الأدب الجاهلى وحده محدوداً ضئيلا، وآخرون قرأوا الأدب الجاهلى فلم يطربوا له ولم يرتاحوا إليه، ولم يفهموه حق الفهم، وفريق آخر تدفعه إلى ذلك الشعوبية الحديثة التى نرى مظهرها باديا فى تنقص كل ما هو عربى أو قديم والتعصب لكل ماهو غربى أو حديث.

ولا شك أن فى أكثر آرائهم جوراً فى الحكومة الأدبية وإسرافاً ومغالاة كثيرين، «فلكل شعر جيد - كما يقول الدكتور طه حسين فى الأدب الجاهلى - ناحيتان مختلفتان، فهو من ناحية مظهر من مظاهر الجمال الفنى المطلق، وهو من هذه الناحية موجه إلى الناس جميعا مؤثر فيهم، ولكن بشرط أن يعدوا لفهمه وتذوقه، وهو من ناحية أخرى مرآة يمثل فى قوة أو ضعف شخصية الشاعر وبيئته وعصره، وهو من هذه الناحية متصل بزمانه ومكانه، فازدراء الشعر الجاهلى غلو ليس أقل إمعاناً فى الخطل من ازدراء الشعر الأجنبى».

إننا لا ننكر أنه تحول دون فهم الشعر الجاهلى وتذوقه صعوبات كثيرة

أهمها : صعوبة لغته وأسلوبه ، وبعد الأمد بصور البيئة العربية القديمة وألوان الحياة الاجتماعية فى العصر الجاهلى ، ومشاهد الطبيعة والوجود إبان ذلك العهد البعيد ، ولكن ذلك لا يمكن أولا يصح أن يصرفنا عن هذا الجمال الفنى الرائع الذى نجده فى الشعر الجاهلى ، فضلا عما فيه من تخليد لآثار الحياة العربية الأولى وأحداثها ومظاهر التفكير فيها . ومع ذلك كله فان الشعر الجاهلى أقوى دعامة للعربية وحفظها وخلودها بعد القرآن الكريم .

فهو من حيث إنه صورة من صور الفن والخيال والجمال ، ومن حيث إنه أساس الثقافة الأدبية والعربية ، لا يمكن لذلك ولغيره أيضاً الاستغناء عن هذا الشعر القديم ونبذه وراءنا ظهريا .

فى الشعر الجاهلى جمال ، وهو أيضاً لا يخلو من هنات ، وفيه روعة ، وإن كنا لا نبرئه من العيب ، ومع ذلك فإننا نستطيع أن ندرس المذهب الفنى الذى يمثله الشعر الجاهلى ، وأن نتعرف خصائصه وعناصره لنرى إلى أى حد يصح أن نجارى هؤلاء وهؤلاء من النقاد والمتعصبين على الشعر الجاهلى القديم ، وإلى أى مدى يصح أن نسير فى الدفاع عنه ، فذلك أقرب إلى العدالة الأدبية فى البحث والمناقشة .

— ٢ —

١ — أول ما نعرفه من خصائص الشعر الجاهلى : البساطة والصدق والوضوح وعدم التكلف أو الإغراق فى الأداء . وهذا شىء يسلمه النقاد للشعر الجاهلى تسليما ، ويجزمون به ، وهو ما يدفعنا إلى الإعجاب به واللذة الفنية حين نقرؤه ونستمع إليه ، ولا يمكن أن يكون فى ذلك ما يدعو إلى التهوين من شأنه ، فالجمال أو أحد أسبابه لا يدعو إلا إلى الإعجاب والحب والمتعة . بل إن هذه الميزة الواضحة فى الشعر الجاهلى هى نفس ما يدعو إليه نقادنا المحدثون ودعاة التجديد فى الأدب العربى الحديث : « بعد أن أبعد المحدثون الشعر عن البساطة والإخلاص ، وهما الصفتان اللتان كانتا حسناً

له ، كما يقول الدكتور ضيف(١) .

٢ – ويمتاز الشعر الجاهلي أيضا بالزهد في المحسنات وألوان التزيين الفني ؛ وهذه سمة غالبة عليه . وأدباؤنا المحدثون لا يزالون يدعون إلى هذا المذهب . ولقد كان الشعر المصري الحديث في أول نهضته مثقلا بقيود الزخرف البديعي الذي ورثه عن العصر التركي والعثماني وأواخر العصر العباسي إلى أن ثار النقاد على ذلك النهج ودعوا إلى الخلاص من آثاره ، حتى برىء الشعر الحديث من عاهته وسار طليقاً إلى غاياته . وقد ظهرت في الآداب الأوربية أيضاً صبغة الزخرف الفني في العصور الوسطى ؛ كما حدث في الأدب الإنجليزي بعد عصر اليصابات ، وفي فرنسا بعد عهد لويس الرابع عشر ؛ أفنقول بعد ذلك إن الشعر الجاهلي يعاب لهذه الحسنة الظاهرة ؟ ويزدرى لذلك الفضل الظاهر ؟ .

٣ – ومن خصائص الشعر الجاهلي : متانة الأسلوب وقوته وجزالته وأسره ، وللبيئة البدوية أثر بعيد في ذلك ؛ وقد سار المحدثون في العصر العباسي على هذا النهج حيناً ، وحينا آخر أغرقوا في العذوبة والسلاسة والسهولة التي ورثوا بعضها عن العصر الأموي ومدرسة العذريين التي شاعت فيه . وقد دافع بعض النقاد عن الجزالة والقوة ، كما دافع آخرون عن العذوبة والرقة ، ووقف آخرون محددون مواقف هذه ومواقف تلك كابن الأثير في المثل السائر وسواه ، ولكن العصور الأخيرة كانت تعد العذوبة ضعفا في الشاعر وميلا منه إلى العامية ، وبهذه النظرة كانوا يحكمون على شعر البهاء زهير الشاعر المصري المشهور .. ولكننا نقول للناشئين : ربوا ذوقكم الأدبي ، وأرهفوا مشاعركم الفنية ، وتأثروا في حياتكم ومذاهبكم الأدبية بالحياة والحضارة التي تعيشون فيها ، وستدركون بأنفسكم الحقيقة الأدبية في هذه المسألة الفنية ، ولا شك أن عذوبة الأسلوب وسلامته يجب أن تبرز في إنتاج الشاعر وفنه ، لأثر

(١) ١٨٢ مقدمة لدراسة بلاغة العرب

الحياة والحضارة فى نفسه ، ومع ذلك فهذه العذوبة والرقة يجب ألا تنقلبا ضعفا وعامية ، وأن توشى بألوان من الجزالة فى مواقف خاصة تستدعيها حياة الشاعر ونفسيته قبل كل شيء ؛ كما يجب ألا تنقلب الجزالة حوشية وإغرابا وتعقيداً عند الشعراء الذين يحافظون على الجزالة . وأحسب أن شعراءنا المعاصرين الذين يتكلفون الألفاظ اللغوية الكثيرة البعيدة فى قصائدهم إنما يفعلون ذلك تقليداً فحسب وفى مطلع حياتهم الفنية التى يكثر فيها الناشئون من التقليد ؛ ونحن على أى حال لا يمكن أن نعيب الشعر الجاهلى لجزالته ، فقد رأيت موقف النقاد من الجزالة وإعجاب الكثير منهم بها ودفاعهم عنها ؛ فوق أنها أثر من آثار البيئة فى الشعر الجاهلى .

٤ — ومن خصائص الشعر الجاهلى أيضا القصد إلى المعنى فى إيجاز ويسر وقلة إطناب ولاشك أن العصور الأدبية التى تلت العصر الجاهلى وتعددت فيها ألوان الثقافات ومظاهر الحضارات قد أبعدت الشعر عن هذا الاتجاه ، ودفعته إلى الأطناب وشتى ألوان التصوير ؛ ووقف النقاد حيال ذلك طوائف : طائفة تدعو إلى الإيجاز وتراه البلاغة والبيان ، وطائفة تشيد بالأطناب وترى فيه جمال الفصاحة وروعة التصوير ، وأخرى تحدد للأطناب مواضع وللإيجاز مواضع : كقدامة فى نقد النثر وابن سنان فى سر الفصاحة . ونحن لا نقول للشاعر المعاصر : آثر الإيجاز أو اعمد إلى الأطناب ، وإنما نقول له : إن أساس الجودة الفنية أن تؤدى معانيك فى رفق ويسر وقلة فضول . وفى الآداب الغربية الآن مذاهب تدعو إلى القصد فى التصوير البيانى والاكتفاء بشرح الأفكار الجديدة وترك ما عداها .

٥ — ولاشك أن أهم طابع للشعر الجاهلى بعد الذى ذكرناه سابقا هو هذا الطابع البدوى الواضح الذى يفجؤك فى شتى القصائد الجاهلية ، مما هو أثر للبيئة والحياة الجاهلية ونحن ندعو كما يدعو كل منصف إلى ترك هـــذا الاتجاه فى الأداء والتصوير فقد أصبح لا يلائم منهج الحياة فى القرن العشرين كما أن إبراز هذا الطابع البدوى فى شعر الشاعر المعاصر يكون تقليداً سخيفا

لامبرر له ، ويحول دون ظهور نزعاته الفنية ومواهبه الخاصة المستقلة فى شعره ، وهذا ضرر بعيد .

ومن آثار هذا الطابع فى الشعر الجاهلى :

ا ـ شدة تمثيله للبيئة البدوية ، وقد سار بعض الشعراء المحدثين على هذا النهج ، فملأوا شعرهم بصور الحياة البدوية ، من وصف الناقة والجمل والظليم والمدن والديار القديمة ، مما سخر به بعض النقاد والشعراء ودعوا إلى التحرر منه . فقال مطيع بن إياس :

لأحسن من بيد تحار بها القطا   ومن جبلى طى ووصفكما سلما
تلاحظ عينى عاشقين كلاهما   له مقلة فى وجه صاحبه ترمى

وهذه دعوة جديرة بالعناية ، خليقة بالإيثار وقد دعا المجددون فى الأدب الحديث . وأكثروا من الدعوة إلى أن يكون الشعر صورة لحياة الشاعر ونفسيته وبيئته وعصره ، وإلى أن يخلو من آثار التقليد للقدامى فى أغراض الشعر وفنونه وموضوعاته ، وهذا اتجاه جليل قد سار بالشعر العربى الحديث خطوات واسعة نحو التجديد والجمال والروعة ، فالشاعر هو الذى يكون غير مقلد فى معناه أو فى لفظه . ويكون صاحب هبة فنية فى نفسه وعقله ، ويتأثر ببيئته ويؤثر فيها . ويمثلها فى جدها ولهوها وفرحها وحزنها وسلامها وحربها وألمها وأملها أتم تمثيل .

ب ـ ومن آثار هذا الطابع البدوى فى الشعر الجاهلى أيضا بدء أغلب القصائد الجاهلية بذكر الأطلال ، ووصف الديار . وهذا مذهب أغلبية الجاهليين ، لا يشذ عن ذلك إلا القليل ، كعمرو بن كلثوم فى معلقته التى بدأها بذكر الراح ، وكتأبط شرا فى قصيدته اللامية المشهورة :

إن بالشعب الذى دون سلع   لقتيلا دمه ما يطل

والتى يسميها بعض المستشرقين نشيد الانتقام . . ويدافع ابن قتيبة فى أوائل كتابه « الشعر والشعراء » عن نهج الجاهليين دفاعا حارا ، فقد صور

نهج العرب فى وحدة القصيدة وما كانوا يبدأونها به من ذكر الديار والآثار ووصلهم ذلك بالنسيب والشكوى وألم الوجد وفرط الصبابة ثم ذكر الرحلة إلى الممدوح تخلصا إلى مدحه واستجلابا لرضائه وسنى ألطافه ، وقال : والشاعر المجيد من سلك هذه الأساليب ، وعدل بين هذه الأقسام(١) .

وقد سار الكثير من المخضرمين والإسلاميين على هذا النهج أيضا ، فأكثروا من بدء قصائدهم بوصف الأطلال والديار ؛ كما أكثر الكثير منهم من بدئها بالغزل ولم يشذ عن ذلك إلا أبو نواس الذى دعا إلى بدء القصيدة بذكر الراح . قال :

وصف الطلول بلاغة القدم فاجعل صفاتك لابنة الكرم

وتبعه ابن المعتز فقال :

أف من وصف منزل بعكاظ فحومل
غير الريح رسمه بجنوب وشمأل

وكان أبو نواس شعوبيا فى مذهبه ، أليس هو الذى يقول :

تبكى على طلل الماضين من أسد ثكلت أمك قل لى من بنو أسد
ومن تميم ومن قيس ومن يمن ؟ ليس الأعاريب عند الله من أحد

ولكن ابن المعتز كان ناقدا يبحث عن الصلة بين الأدب والحياة ويحاول أن يلائم بينهما وينادى بتحضر الشعر وترك البداوة فيه وتمثيله لحياة الشاعر وآرائه فى الحياة . . وقد ثار ابن رشيق على منهج الجاهليين فى القصيد، ورأى - مع من رأوا - أنه لا معنى لذكر الحضرى الديار(٢) وأنه ليس بالمحدث من الحاجة إلى وصف الإبل والقفار لرغبة الناس فى عصره عن تلك الصفات وعلمهم بأن الشاعر إنما يتكلفها، وأن الأولى وصف الخمر والقيان(٣) . .

---

(١) ١٤ و ١٥ من الشعر والشعراء
(٢) ١٩٩ : ١ العمدة
(٣) ١٧٩ : ٢ المرجع

وقد تكفلت الحياة نفسها بصرف الشعراء المعاصرين عن هذا النهج الفني في القصيدة ، فليس منهم والحمد لله من يبدأ قصيدته بذكر الإبل والقفار والديار والآثار ، بل إن ذلك لو فعله أحد الآن لرمي بالجنون ؛ ولكن ليس معنى ذلك ألا يصف الشاعر المعاصر معاهد أهله وأحبابه في شعره أبداً ، أو ألا يبدأ قصيدة من قصائده بذكرها ، ولكنا نقول إن المعيب هو التزام بدء القصيدة بوصف الاطلال القديمة تقليداً للجاهليين ، وإذا التزم شاعر معاصر بدء قصائده بذكر معاهد حياته وأحبابه ولم يتخل عن هذا المنهج ، لم نحاسبه على ذلك ، إلا إذا قيد هذا من حريته الفنية أو حبس مواهبه وملكاته الأدبية ، فإنه يجب بحق ألا يقيد الشاعر نفسه بأي قيد لا تلزمه به نفسه ومواهبه وملكاته الفنية وحدها ، وإلا كان مقلداً لا نصيب له من الشعور بالحياة والإحساس بها والتمتع النفسي العميق بمشاهدها وصورها وألوانها .

ج — وهناك في الشعر الجاهلي ظاهرة أخرى نشأت عن الطابع البدوي الموروث ، وهي كثرة الغريب والوحشي ، ولا شك أن ذلك مذهب العرب القدامى وحدهم لأثر البيئة البدوية الجافة الخشنة في عقولهم ونفوسهم . وما أروع ما يقول صفي الدين الحلي الشاعر المتوفى عام ٧٥٠ هـ :

إنما الحيزبون والدردبيس	والطخا والنقاخ والعطلبيس
لغة تنفر المسامع منهـــا	حين تروى وتشمئز النفوس
وقبيح أن يذكر النافر الوحـ	شي منها ويترك المأنوس
أين قولي : هذا كثيب قديم	ومقالي : عقنقل قدموس
إنما هذه القلوب حديد	ولذيذ الألفاظ مغناطيس

وليس هناك الآن والحمد لله أحد يدعو إلى استعمال هذه الألفاظ ، أو يرتاح قلبه حين سماعها ، فهي ألفاظ تاريخية يجب أن نفهمها فحسب .

— ٣ —

بقيت بعد ذلك صور البيان الأدبي نفسه . أنصوغ أسلوبنا على الصور

القديمة التى يمثلها الشعر الجاهلى ، أم نستمد صوره من ألوان حياتنا وبيئتنا وثقافتنا . ولنضرب مثالا واحداً لذلك : لا شك أن الجمل كان عماد الحياة فى العصر الجاهلى ، وفى أساليب البيان صور كثيرة استمدت منه ، فقد قالت العرب : ألقى الحبل على الغارب ، واقتعد غارب المجد وسنامه ، ووطئه بمنسمه وضرسه بأنيابه ، وألقى عليه جرانه ، وناء وأناخ عليه بكلكله ، وقالوا لا ناقة لى فيها ولا جمل ، وأخذ بزمام الأمر .

وقد حاول النقاد والبلاغيون فى العصور القديمة أن يدعوا إلى توليد صور البيان وتنميتها من مشاهد الحياة والبيئة التى تتجدد دائماً .

فهل نأخذ صور البيان القديمة فى أساليبنا لنرضى العرب القدامى . أو نولد فيها لنرضى عبدالقاهر والقاضى الجرجانى وسواهما ؟

لست أدعو إلى الأول ولا أحبه ، وإن كنت لا أرى فى الرأى الثانى ضيراً أو ضرراً ، وأوثر أن يضيف الأديب إلى الصور التى يولدها صورا جديدة يستمدها خياله من حياتنا وبيئتنا وألوان الحضارة التى نعيش فيها ، والاختراعات التى تجد دائماً بيننا والتى تبعد اللغة عنها ونحاول ألا نستمد بها صورنا الأدبية .

وبعد فهذه سمات الشعر الجاهلى والصلة الفنية بين حياتنا الفنية الحاضرة وما يصح وما لا يصح أن نقلده فيه .

صلة الشعر العربى بالتاريخ

تمهيد :

الشعر العربى الجاهلى كما يقول ابن فارس : « ديوان العرب وبه حفظت الأنساب وعرفت المآثر ، ومنه تعلمت اللغة ، وهو حجة فيما أشكل من غريب كتاب الله وغريب حديث رسوله صلوات الله عليه (١) » ، وهو

(١) ٢٩١ : ٢ المزهر

كما يقول ابن سلام : « ديوان علمهم ومنتهى حكمتهم به يأخذون وإليه يصيرون (١) » .

ويحق أن الشعر الجاهلي وثيق الصلة بحياة الجاهليين وعاداتهم وأخلاقهم ومعارفهم لأنه يمثلها أصدق تمثيل، مما يجعله سجلا لتاريخ العرب قبل الإسلام.

وإذا كان العرب فى الجاهلية لم يستطيعوا تخليد حياتهم وتاريخهم فى كتاب أو على الآثار ، فقد خلدوها على صفحات شعرهم الذى ضمنوه أخبارهم وحياتهم وأسماء بلادهم وحبواناتهم ونباتهم ، وأودعوه عاداتهم وتقاليدهم ومعارفهم وحروبهم ومجتمعاتهم ، حتى كان الشعر الجاهلى أكبر مصدر تاريخى لحياة العرب فى الجاهلية ؛ وفيه أسماء محبوباتهم وأبطالهم وشعوبهم وقبائلهم وأيامهم ووقائعهم وأسماء منازلهم ومياههم وعتاق خيولهم وأوصاف سيوفهم وملاعب ولدانهم إلى ماسوى مما سبق الإلمام به .

الشعر الجاهلى صورة لأخلاق العرب فى الجاهلية :

وأهم أخلاق العربى قبل الإسلام : الشجاعة والكرم والوفاء والأنفة والإباء والحمية والعفة وحب الاستقامة والأخذ بالثار

يمثل شجاعتهم قول عمرو بن معد يكرب :

هم ينذرون دمى وأنذر إن لقيت بأن أشدا
كم من أخ لى صالح بوأته بيدى لحدا
ما إن جزعت ولا هلعت ولا يرد بكاى زندا
ألبسته أثوابه وخلقت يوم خلقت جلدا

وقول الحصين بن الحمام المرى :

تأخرت أستبقى الحياة فلم أجد لنفسى حياة مثل أن أتقدما

---

(١) ٢٩٣ : ٢ المزهر

فلسنا على الأعقاب تدمى كلومنا ولكن على أقدامنا تقطر الدما

وقول ودّاك :

إذا استنجدوا لم يسألوهم من دعاهم لأية حرب أم بأى مكان

ويمثل كرمهم قول عتبة بن بجير :

فقالوا غريب طارق طوحت به متون الفيافى والخطوب الطوائح
فقمت ولم أجثم مكانى ولم تقم مع النفس علات البخيل الفواضح
وناديت شبلا فاستجاب وربما ضمنا قرى عشر لمن لا نصافح
فقام أبو ضيف كريم كأنه وقد جد من فرط الفكاهة مازح
إلى جذم مال قد نهكنا سوامه وأعراضنا فيه بواق صحائح
جعلناه دون الذم حتى كأنه إذا عد مال المكثرين المنائح(١)
لنا حمد أرباب المئين ولا يرى إلى بيتنا مال مع الليل رائح

ويمثل عفتهم قول النابغة :

رقاق النعال طيب حجزاتهم يحيون بالريحان يوم السباسب

وقول ابن الاطنابة :

المانعين من الخنا جاراتهم والحاشدين على طعام النازل

وقول شقران متهكما :

أولئك قومى بارك الله فيهم على كل حال ما أعف وأكرما

وقول حجر بن حية العبسى :

لا أحرم الجارة الدنيا إذا اقتربت ولا أقوم بها فى الحى أخزيها

إلى غير ذلك مما يمثل شتى أخلاقهم تمام التصوير .

---

(١) جمع منيحة وهى الناقة أو الشاة تدفع إلى الجار لينتفع بلبنها مادام فيها لبن

الشعر الجاهلي سجل لعقائد العرب :

ورغم ما ضاع من الشعر الوثني للعرب في جاهليتهم فقد بقي منه الكثير مما يعطيك صورة واضحة لحياة العرب الدينية .

(ا) يقول عبد العزى المزني يحلف بمناة :

إني حلفت يمين صدق برة　　بمناة عند محل آل الخزرج

ويقول أوس بن حجر يحلف باللات والعزى :

وباللات والعزى ومن دان دينها　　وبالله إن الله منهن أكبر

ويقول عبيد في «اليعبوب» وهو صنم لجديلة طيء وكان لهم صنم أخذته منهم بنو أسد فتبدلوا «اليعبوب» بعده :

فتبدلوا «اليعبوب» بعد إلههم　　صنما فقروا يا جديل وأعذبوا

إلى غير ذلك مما قيل في الأصنام والأوثان .

(ب) وكان من العرب دهريون ، ويقول شاعر منهم :

منع البقاء تقلب الشمس　　وطلوعها من حيث لا تمسى
وطلوعها حمراء صافية　　وغروبها صفراء كالورس
تجرى على كبد السماء كما　　يجرى حمام الموت في النفس
اليوم أعلم ما يجيء به　　ومضى بفصل قضائه أمس

(ح) وكان منهم الثائرون على الوثنية المتطلعون لدين من التوحيد ، قال زيد بن عمرو بن نقيل :

أربا واحداً أم ألف رب　　أدين اذا تقسمت الأمور
عجبت وفي الليالي معجبات　　وفي الأيام يعرفها البصير
بأن الله قد أفنى رجالا　　كثيراً كان شأنهم الفجور

ويقول أمية بن أبي الصلت :

الحمد لله ممسانا ومصبحنا بالخير صبحنا ربي ومسانا
رب الحنيفة لم تنفد خزائنه مملوءة طبق الآفاق أشطانا

وقال النابغة :

مجلتهم ذات الإله ودينهم قويم فما يرجون غير العواقب

وقال الأعشى :

استأثر الله بالوفاء وبالعد ل ، وولى الملامة الرجلا

وقال أبو قيس صرمة من بني النجار :

سبحوا الله شرق كل صباح طلعت شمسه وكل هلال
يا بني الأرحام لا تقطعوها وصلوها قصيرة من طوال
يا بني النجوم لا تظلموها إن ظلم النجوم داء عضال

ولكثير من الشعراء الجاهليين حتى امرىء القيس أشعار تدل على عقيدتهم الدينية ، أليس هو الذي ينسب إليه :

الله أنجح ما طلبت به والبر خير حقيبة الرحل

ويقول : ومن الطريقة جائر وهدى قصدالسبيل ومنه ذو دخل(١)

معارف العرب فى الشعر الجاهلي:

والشعر الجاهلي يصور لك معارف العرب فى جاهليتهم بوضوح ودقة ، فحول الطب ومعرفتهم به الكثير من الأبيات التي تدل بصورة واضحة على هذا اللون من معارفهم ، قال الشاعر :

فهل لكم فيها إلى فانني خبير بما أعيا النطاسي خذيما؟

وفى العرافة جاء قول الشاعر :

جعلت لعراف اليمامة حكمه وعراف نجد إن هما شفياني

ويدل على معرفتهم بالكتابة قول لبيد :

---

(١) وتنسب لا مرىء القيس بن عابس

وجلا السيول عن الطلول كأنها زبر تجد متونها أقلامها

وقول المرقش : «كما رقش فى ظهر الأديم قلم»

وفى معرفتهم بالملاحة قول عمرو بن كلثوم :

ملأنا البر حتى ضاق عنا ونحن البحر نملؤه سفينا

وقول طرفة :

كأن حدوج المالكية غدوة خلايا سفين بالنواصف من دد
عدولية أو من سفين ابن يامن يجور بها الملاح طورا ويهتدى
يشق حباب الماء حيزومها بها كما قسم الترب المفايل باليد

وفى الزجر قول الشاعر :

خبير بنو لهب فلا تك ملغيا مقالة لهبى إذا الطير مرت

إلى غير ذلك من شتى أشعارهم التى تدل على معارفهم .

الشعر الجاهلى والحياة الاجتماعية عند العرب :

والشعر الجاهلى يصور لنا الحياة الاجتماعية فى الجاهلية وعادات العرب فيها أدق تصوير .

١ — فقد كانوا يطلقون نساءهم ، قال الأعشى :

أيا جارتا بينى فإنك طالقة كذاك أمور الناس غاد وطارقة

وكانوا يتزوجون نساء آبائهم بعد وفاتهم ، قال عمرو بن معد يكرب :

فلولا إخوتى وبنىَّ منها ملأت لها بذى شطب يمينى

٢ — وكانوا يشربون الخمر ، قال عنترة :

فإذا سكرت فإننى مستهلك مالى وعرضى وافر لم يكلم
وإذا صحوت فما أقصر عن ندى وكما علمت شمائلى وتكرمى

وقال عمرو بن كلثوم :

ألا هبي بصحنك فاصبحينا ولا تبقي خمور الأندرينا

وكان بعضهم يحرمها على نفسه ، قال قيس بن عاصم :

لعمرك إن الخمر مادمت شاربا لسالبة مالي ومذهبة عقلي

٣ — وكانوا يعنون بالخيل أتم عناية ، وحفظ الشعر الجاهلي أسماء الكثير منها ، قال الحارث بن عباد :

قربا مربط النعامة مني لقحت حرب وائل عن حيال(١)

ويقول بشر بن أبي خازم في الفخر :

وبكل أجرد سابح ذي ميعة متماحل في آل أعوج ينتمي

وكانوا يحضرون الحلبة(٢) ويشتركون في السباق ، قال عنترة :

فلله عينا من رأى مثل مالك عقيرة قوم إذ جرى فرسان
فليتهما لم يجريا قيد خطوة وليتهما لم يرسلا لرهان

وفي سباق داحس والغبراء وقعت هذه الحرب المشهورة .

٤ — وكانوا يعقرون نوقهم وأفراسهم على قبور العظماء ، من ذلك قول الشاعر :

فإذا مررت بقبره فانضح به كوم الجلاد وكل طرف سابح
وانضح جوانب قبره بدمائها فلقد يكون أخا دم وذبائح

٥ — والميسر والقمار عندهم شائع . قال لبيد :

وجزور أيسار دعوت لحتفها بمغالق متشابه أجسامها

وقال امرؤ القيس :

---

(١) أي عقم

(٢) هي الدفعة من الخيل في الرهان وخيل يجتمع للسباق من كل أوب ، وتطلق على مكان السباق تجوزا .

وما ذرفت عيناك إلا لتضربى بسهميك فى أعشار قلب مقتل

٦ - وكانوا يستقسمون بالأزلام ، فإذا أرادوا عمل شىء جاءوا إلى هبل وهو أعظم صنم لقريش بمكة فى الكعبة ومعهم مائة درهم فأعطوها صاحب القداح أجراً له حتى يجيل القداح لهم ؛ وهى سبعة محفوظة عند خازن الكعبة . اثنان للمضى فى الأمور المهمة أو للتريث فيها كتب على أحدهما « أمرنى ربى » وعلى الآخر « نهانى ربى » ، وثلاثة لمعرفة النسب على أحدهما « منكم » وعلى الثانى « من غيركم » وعلى الثالث « ملصق » ، واثنان لمعرفة القاتل ، على أحدهما « عقل » والثانى « غفل » ، وكانوا يستقسمون عند ذى الخلصة أيضاً . واستقسم عنده امرؤ القيس حين عزم على الأخذ بثأر أبيه فنهاه فقال :

لو كنت ياذا الخلص الموتورا لم تنه عن قتل العداة زورا

٧ - ومن عاداتهم تعليق الحلى والخلاخل على اللديغ ليفيق ، قال النابغة :

فبت كأنى ساورتنى ضئيلة من الرقش فى أنيابها السم ناقع
يسهد من ليل التمام سليمها لحلى النساء فى يديه قعاقع

٨ - ومن عاداتهم تحريم الخمر على أنفسهم فى مدة طلب الثأر ، قال تأبط شراً :

فادركنا الثأر فيهم ولما ينج م الحيين إلا الأقل
حلت الخمر وكانت حلالا وبلاى ما ألمت تحل

٩ - وكانوا يئدون بناتهم وكان ذلك فى بعض القبائل ، خوف الفقر أو العار وذلك مشهور لاداعى للكلام فيه . ويفتخر الفرزدق بجده فى الجاهلية لأنه أجار البنات حتى لا يوأدن فيقول :

أجار بنات الوائدين ومن يجر من الموت فاعلم أنه غير مخفر

١٠ ـ وكانوا إذا أوردوا البقر فلم ترد ضربوا الثور ليقتحم البقر بعده قال الشاعر :

إنى وقتــلى سليكا ثم أعقله   كالثور يضرب لما عافت البقر

وإذا أصاب الجرب الإبل كووا الصحيح ليبرأ السقيم ، قال النابغة :

وكلفتنى ذنب امرىء وتركته   كذى العر يكوى غيره وهو راتع

١١ ـ وإذا قتل منهم قتيل لم يؤخذ بثأره قالوا : إنه يخرج من رأسه هامة فتنادى على قبره « اسقونى فإنى صدية » ، قال ذو الإصبع العدوانى :

يا عمرو إلا تدع شتمى ومنقصتى   أضربك حتى تقول الهامة اسقونى

وكانوا يؤخرون البكاء على القتيل ويحرمون الخمر عليهم حتى يؤخذ بثأره

١٢ ـ وكان الرجل البغيض إذا نزل ضيفاً عندهم أكرموه فإذا رحل كسروا شيئاً من الأوانى وراءه حتى لا يعود ، قال الشاعر :

كسرنا القدر بعد أبى سواح   فعاد وقدرنا ذهبت ضياعا

وقال آخر :

ولا نكسر الكيزان فى إثر ضيفنا   ولكننا نقضيه زادا ليرجعا

١٣ ـ وكانوا يعتقدون أن المرأة إذا شقت رداء الرجل وشق الرجل برقعها صلح حبهما ودام . قال سحيم :

وكم شققنا من رداء محبر   ومن برقع عن طفلة غير عابس

نروم بهذا الفعل بقيا على الهوى   وإلف الهوى يغرى بهذى الوساوس

وكانت النساء إذا غاب عنهن من يحببنه أخذن ترابا من موضع قدمه ويزعمن أن ذلك أسرع فى رجوعه ، قالت امرأة :

أخذت ترابا من مواطىء رجله   غداة غد ، كيما يؤوب مسلما

١٤ ـ وكانوا يحيون الملوك بالريحان فى الأعياد ، قال النابغة « يحيون بالريحان يوم السباسب » .

١٥ - ومن عاداتهم النسيء وهو تأخير حرمة القتال فى المحرم إلى صفر، وكانت كنانة هى التى يلجأ إليها فى ذلك ، قال عمرو بن قيس الكنانى الشاعر الجاهلى :

ألسنا الناسئين على معد شهور الحل نجعلها حراما

١٦ - وكان الرجل منهم إذا أراد سفرا عمد إلى شجرة وشد غصنين منها ، فإن رجع ووجدهما على غير حالها علم أن أهله خانته . ويسمون ذلك عقد الرتم وهو ضرب من الشجر واحدته رتمة ، والرتمة والرتيمة خيط يشد على الإصبع تستذكر به الحاجة ، قال شاعر :

خانته لما رأت شيبا بمفرقه وغره حلفها ، والعقد للرتم

١٧ - ومنها ذهاب خدر الرجل بذكر الحبيب ، يقول الشاعر :

وأنت لعينى قرة حين نلتقى وذكرك يشفينى إذا خدرت رجلى

١٨ - وكانوا يستشفون من عضة الكلب بدم الرؤساء وشرب قطرة منه مخلوطة بالماء قال الشاعر :

بناة مكارم وأساة كلم دماؤهم من الكلب الشفاء

١٩ - وكانت العرب تؤرخ بالنجوم ، ثم أرخوا بالحوادث المشهورة فأرخوا بعام الفيل ، وأرخت قريش بموت هشام بن المغيرة المخزومى لجلالته فيهم .

إلى غير ذلك من شتى عاداتهم التى يمثلها الشعر الجاهلى أدق تمثيل .

ويقول نيكلسون : « إن الشعر الجاهلى وصف نقدى لحياة الجاهلية وأفكارها ، ومعظم الشعر الذى قيده أبو تمام خاص بشجاعة العرب فى الحروب وصبرهم على الشدائد » ، ورأى نيكلسون أن شعر الحماسة يعد صورة لحياة الجاهلية ووصفا لأخلاقهم .

المعلقات ومنزلتها من الشعر الجاهلى

سبب تسميتها المعلقات :

— ١ —

١ ـ قال المفضل ـ فى « امرىء القيس م سنة ٥٦٠ ، وزهير م سنة ٦٣٥ ، والنابغة سنة ٦٠٤ ، والأعشى سنة ٦١٢ ، ولبيد م سنة ٦٤٥ ، وعمرو بن كلثوم ، وطرفة م سنة ٥٦٥ م » ـ : هؤلاء أصحاب السبع الطوال التى تسميها العرب « السموط » ، وقد أدركنا أكثر أهل العلم يقولون إن بعدهن سبعا ما هن بدونهن ولقد تلا أصحابهن أصحاب الأوائل فما قصروا ، وهن « المجمهرات » لعبيد وعنترة م سنة ٦٠٠ وعدى م سنة ٥٨٠ ، وبشر بن أبى خازم وأمية بن أبى الصلت وخداش بن زهير والنمر بن تولب ، وأما منتقيات العرب فهن للمسيب والمرقش والمتلمس وعروة بن الورد ومهلهل ودريد بن الصمة والمتنخل ، وأما المذهبات فللأوس والخزرج خاصة ، وهن لحسان وابن رواحة ومالك ابن العجلان وقيس بن الخطيم وأحيحة بن الجلاح وأبى قيس بن الأسلت وعمرو بن امرىء القيس ، « وعيون المراثى سبع » لأبى ذؤيب وعلقمة بن ذى جدن (م ٥٤٠ م) وكعب بن سعد الغنوى والأعشى الباهلى وأبى زبيد الطائى ومالك بن الريب ومتمم بن نويرة ، وأما « مشوبات العرب » وهن اللاتى شابهن الكفر والإسلام فللجعدى وكعب بن زهير والقطامى والحطيئة والشماخ وعمرو بن أحمر وابن مقبل ، وأما الملحمات السبع ، فهن للفرزدق وجرير والأخطل والراعى وذى الرمة والكميت والطرماح . قال المفضل : فهذه التسع والأربعون قصيدة عيون أشعار العرب فى الجاهلية والإسلام(١) .

ونحن فى هذا النص نجد تقسيما جديدا لا إلف لنا به للقصائد الشعرية فى الجاهلية والإسلام ، حيث يقسمها المفضل م ١٨٩ هـ إلى سبعة أنواع ويعدها.

(١) ص ٤٥ جمهرة أشعار العرب ط ١٩٢٦

(ب) والظاهر أن صاحب الجمهرة وهو أبو زيد محمد بن أبى الخطاب القرشى كان يتتلمذ على المفضل وتأثر به وبرأيه هذا فرتب الجمهرة وقصائدها وفق هذا التقسيم. كما نلاحظ أنه بدلا من أن يقول «السموط» سماها «المعلقات»، وعرضها واحدة بعد واحدة بعد أن قدمها بوصف المعلقات ولكنه زاد عليها واحدة هى قصيدة عنترة، فهى عند أبى زيد ثمان، وهى:

١ — معلقة امرىء القيس : قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل
٢ — « زهير : أمن أم أوفى دمنة لم تكلم
٣ — « النابغة ومطلعها :

عوجوا لخيوا لنعم دمنة الدار ماذا تحيون من نؤى وأحجار ؟

٤ — معلقة الأعشى ومطلعها :

ما بكاء الكبير بالأطلال وسؤالى وما ترد سؤالى

٥ — معلقة لبيد : عفت الديار محلها فمقامها
٦ — معلقة عمرو بن كلثوم : ألا هبى بصحنك فاصبحينا
٧ — « طرفة : لخولة أطلال ببرقة ثهمد
٨ — « عنترة : هل غادر الشعراء من متردم ؟

وبذلك نجد أنفسنا أمام اسم «المعلقات»، وهى قصائد سبع أو ثمان لأشهر شعراء الجاهلية (١).

---

(١) قال حماد الراوية: كانت العرب تعرض أشعارها على قريش فما قبلوا منه كان مقبولا وماردوا منه كان مردوداً فقدم عليهم علقمة الفحل فأنشدهم قصيدته التى أولها:

هل ما علمت وما استودعت مكتوم أم حبلها إذ نأتك اليوم مصروم

فقالوا: هذه سمط الدهر ثم عاد إليهم العام المقبل فأنشدهم قصيدته التى أولها: «طحا بك قلب»، فقالوا: هاتان سمطا الدهر

كما يروى أن حماداً لما رأى زهد الناس فى الشعر جمع لهم هذه القصائد السبع

(ح) ويروى أن زهيرا كان يسمى كبار قصائده الحوليات (١) .

ويقول الجاحظ : « ومن شعراء العرب من كان يدع القصيدة عنده حولا كريتا (٢) وزمنا طويلا يردد فيها نظره ، وكانو يسمون تلك القصائد « الحوليات » و « المقلدات » و « المنقحات » و « المحكمات » ليصير قائلها ، فحلا خنذيذا وشاعرا مفلقا » (٣) .

ونجد فى هذه النصوص أسماء جديدة للقصائد الجاهلية ، ولكن الذى يهمنا من كل هذه الأسماء هو « المعلقات »

(د) ويقول ابن قتيبة فى قصيدة عبيد بن الأبرص « أقفر من أهله ملحوب » : « وهذه القصيدة أجود شعره وهى « إحدى السبع (٤) » فكأنه يعدها من السبع الطوال أو السبع المعلقات . ويقول فى قصيدة عنترة : « هل غادر الشعراء من متردم ؟ » : وكانت العرب تسميها

وقال : هذه هى المشهورات، فسميت « القصائد المشهورة » ، وعلى هامش شرح الزوزنى للمعلقات ما نصه: « إنما سميت المعلقات لأن العرب فى الجاهلية كان الرجل منهم يقول الشعر فى أقصى الأرض فلا يعبأ به ولا ينشده أحد حتى يأتى مكة فيعرضه على أندية قريش فان استحسنوه روى وكان فخرا لقائله وإن لم يستحسنوه طرح ولم يعبأ به ، قال أبو عمرو بن العلاء : وكانت العرب تجتمع فى كل عام بمكة وكانت تعرض أشعارها على هذا الحى من قريش ، قال ابن الكلبى : فأول شعر امرىء القيس علق على ركن من أركان الكعبة أيام الموسم حتى نظر اليه فعلقت الشعراء بعده وكان ذلك فخرا للعرب فى الجاهلية وعدد من علق شعره سبعة إلا أن عبد الملك طرح شعر أربعة منهم وأثبت مكانهم أربعة ، وروى آخرون إن بعض أمراء بنى أمية أمر من اختار له سبعة أشعار فسماها المعلقات الثوانى ، وبذلك نجد أول تفسير لتسمية القصائد بالمعلقات وهى تعليقها على الكعبة وأول من قال بذلك ابن الكلبى .

(١) ١٦ الشعر والشعراء ، ١٤٩ ج ١ البيان والتبيين

(٢) أي كاملا (٣) ٢١ ج ٢ البيان والتبيين (٤) ص ٨٥ الشعر والشعراء

الذهبية » (١) . ويقول فى قصيدة عمرو بن كلثوم : « ألا هبى بصحنك الخ » . « وهى من جيد شعر العرب وإحدى السبع المعلقات » (٢) .

(ه) ويقول ابن عبد ربه فى العقد :

وقد بلغ من كلف العرب وتفضيلها للشعر أن عمدت إلى سبع قصائد من الشعر القديم فكتبتها بماء الذهب فى القباطى المدرجة وعلقتها فى أستار الكعبة ، فمنه يقال مذهبة امرىء القيس ، ومذهبة زهير ، والمذهبات سبع وقد يقال لها المعلقات (٣) » .

ونجد أنفسنا فى هذا النص أمام تفسير للمعلقات وبيان لسر تسميه هذه القصائد بهذا الاسم (٤) ، وهو مقتبس من من رأى ابن الكلبى .

(و) وفى المزهر للسيوطى مأخوذ عن العمدة لابن رشيق : وكانت المعلقات تسمى المذهبات وذلك أنها اختيرت من سائر الشعر فكتبت فى القباطى بماء الذهب وعلقت على الكعبة ، وقيل بل كان الملك إذا استجودت قصيدة يقول : علقوا لنا هذه لتكون فى خزانته » (٥) .

فنراه يذكر - رواية عن غيره - سبباً آخر لتسمية هذه القصائد بالمعلقات (٦)

---

(١) ٧٦ المرجع (٢) ٦٧ المرجع

(٣) ٢٧٩ ج٣ العقد ، ٣٠٩ تهذيب العقد الفريد

(٤) ويسير على ذلك الرأى البغدادى فى خزانة الأدب ، وابن خلدون فى المقدمة

(٥) ٢٩٨ ج٢ المزهر ، ويقول ابن رشيق . «وكانت المعلقات تسمى المذهبات وذلك أنها اختيرت من سائر الشعر القديم فكتب فى القباطى بماء الذهب وعلقت على الكعبة فلذلك يقال مذهبة فلان إذا كانت أجود شعره وذكر ذلك غير واحد من العلماء » .

(٦) وهذا الرأى هو رأى أبى جعفر النحاس م سنة ٣٣٨ م

قال أبو جعفر النحاس فى شرحه للمعلقات : « وقيل إن العرب كانوا يجتمعون بعكاظ فيتناشدون الأشعار فإذا استحسن الملك - لعله النعمان بن المنذر - قصيدة قال : علقوا لنا هذه وأثبتوها فى خزائنى . فأما قول من قال إنها علقت فى

وقريب من هذا ماذكره الاسكندرى تفسيرا لتسميتها بالمعلقات ، وهو أن العرب لم تكن تكتب فى دفاف وإنما كانوا يكتبون فى رقاع مستطيلة من الحرير أو الجلد يوصل بعضها ببعض ثم تطوى على عود أو خشبة وتعلق فى جدار الرواق أو الخيمة .

ويقول الألوسى صاحب بلوغ الأرب فى الجزء الأول منه : وفيها — أى فى سوق عكاظ — علقت القصائد السبع الشهيرة افتخارا بفصاحتها على من يحضر الموسم من شعراء القبائل .

هذا ولكن المستشرقين ينكرون تعليق القصائد بأى حال .

— ٢ —

وبعد فنحن أمام رأيين فى سر تسمية هذه القصائد الجاهلية المشهورة بالمعلقات ، وهما :

الرأى الأول : أنها علقت على الكعبة ، ويذهب إليه ابن عبد ربه فى العقد ، وابن خلدون فى المقدمة والبغدادى فى خزانة الأدب (١) وتبعهم كثيرون . وقيل : التعليق كان فى سوق عكاظ وهو رأى الألوسى ، وقيل إن التعليق كان فى الرواق أو الخيمة وهو رأى الاسكندرى ، وقيل إن التعليق كان فى خزانة الملك وهو رأى أبى جعفر النحاس العالم اللغوى الأديب م ٣٢٨ ه ولعله يريد بالملك النعمان بن المنذر الذى كان عنده ديوان مكتوب

الكعبة فلا يعرفه أحد من الرواة ، وأصح ماقيل ان حمادا الراوية لما رأى زهد الناس فى الشعر جمع هذه السبع وحضهم عليها وقال لهم هذه المشهورات فسميت القصائد المشهورة لهذا ، ، وقال أبو جعفر فى شرحه على تلك المعلقات : «واختلفوا فى جمع القصائد السبع ، وقيل : إن العرب كانوا يجتمعون بعكاظ فيتناشدون الأشعار فاذا استحسن الملك قصيدة قال : علقوا لنا هذه وأثبتوها فى خزانتى ، وأما قول من قال إنها علقت بالكعبة فلا يعرفه أحد من الرواة

(١) وأول من قال بتعليقها على الكعبة وتسميتها بالمعلقات من أجل ذلك هو - كما فى كتاب الآداب العربية للرافعى - هشام بن الكلبى الراوية م ٢٠٤ ه

جمع فيه أشعار الفحول ، وينكر أبو جعفر تعليقها على الكعبة ذاكراً أن ذلك لا يعرفه أحد من الرواة . وبعض الباحثين كابن رشيق والسيوطى يذكر الرأيين « أنها علقت على الكعبة أو فى خزانة الملك »

أما الرأى الثانى : فينكر مسألة تعليقها بأى شكل من الأشكال ولون من الألوان ، ومن أصحاب هذا الرأى المستشرق الألمانى نولدكه الذى كتب بحثا فى هذا الموضوع ، ورجح(١) أن المعلقات معناها المنتخبات وأنها سميت بذلك تشبيها لها بالقلائد التى تعلق فى النحور ، واستدل على ذلك بأن من أسمائها السموط والقلائد . وقد أيد رأيه الأستاذ كليمان هيوار الفرنسى الذى ألف باللغة الفرنسية كتاباً فى الأدب العربى ، فرأى أن المعلقات جمع معلقة بمعنى القلادة بدليل أنهم يسمونها أيضاً السموط بمعنى العقود واللآلىء وأيد هذا الرأى « اسكندر أغا ابكاريوس » فى كتابه « تزيين نهاية الارب فى أنباء العرب » حيث قال : إن العلماء من المتقدمين قد انتخبوا من نفائس أشعار القدماء القصائد المسبعات التى هى سبعة أسابيع ورواها صاحب الجمهرة وأولها المعلقات ، ويرجح نيكلسون المستشرق الإنجليزى المشهور أن كلمة معلقة قد اشتقت من قولهم « علق » ، وهو الشىء النفيس الثمين العالى المستوى ، وذلك لأن الإنسان يتعلق بها تعلقاً شديداً ثم قال : وقد ظهرت خرافة تزعم أن تسمية المعلقات بهذا الاسم راجعة لتعليقها بأستار الكعبة تقديراً لفضلها الذى قضى لها به المحكمون فى عكاظ على مقربة من مكة حيث يجتمع الشعراء متنافسين فى إنشاد أروع ما دبجته قرائحهم وأنها كانت تكتب بماء

---

(١) ونص كلام نولدكه - كما ورد فى الفصل الذى كتبه عن المعلقات فى دائرة المعارف البريطانية - هو : « إن قصة القول بأن هذه القصائد كتبت بالذهب ترجع إلى تسميتها بالقصائد المذهبات وهى تسمية مجازية للدلالة على عظم أمرها وكذلك يجب أن نؤول تسميتها بالمعلقات على هذا الأساس نفسه فمن المحتمل جدا أن تعنى هذه التسمية أن هذه القصائد قد سمت إلى درجة خاصة ، وهناك اشتقاق آخر من المادة نفسها وهو كلمة علق بمعنى الشىء النفيس »

الذهب على القباطى الواردة من مصر قبل تعليقها على الكعبة (١) .

وممن استبعد تعليقها على الكعبة الأستاذ حامد مصطفى وأيد رأيه بعدة أدلة (٢) ، وذهب إلى أنها سميت بالمعلقات لتعلقها وحفظها فى الرأس أو فى الدفاتر عناية بها لنفاستها .

ورد أصحاب الرأى الأول على من ينكرون تعليقها على الكعبة بأن تعليق الصحف الخطيرة على الكعبة كان سنة فى الجاهلية والإسلام ، كتعليق قريش الصحيفة التى وكدوا فيها على أنفسهم مقاطعة بنى هاشم والمطلب ، وكتعليق هرون الرشيد لعهده بالخلافة من بعده إلى ابنيه الأمين والمأمون، فأى مانع يمنع أن تكون هذه القصائد لخطرها وبعد أثرها قد علقت فى الكعبة ؟ ولذلك مثيل فى الادب الاغريقى القديم . فإن القصيدة التى نظمها زعيم الشعر الغنائى بندار فى المدح قد كتبها الإغريق بالذهب على جدران معبد أثينا فى لندوس . هكذا يقول التبريزى : وذهب فريق إلى أن وجه تسميتها بالمعلقات علوقها بأذهان صغارهم وكبارهم ومرؤوسيهم ورؤسائهم وذلك لشدة اعتنائهم بها

وبعد : فالمعلقات كانت مثار إعجاب الرواة والأدباء والنقاد وتقديرهم وحبهم ، علقت بأذهان الجميع ، وحفظوها ورددوها .

فليس ببعيد أن يكون رأى التبريزى هو أرجح الآراء فى هذه التسمية لتلك القصائد الرائعة .

---

(١) أما أن بعض هذه المعلقات قد أنشد فى عكاظ فمسلم وأما أنها سميت بالمذهبات لكتابتها فى القباطى بماء الذهب فغير مسلم ، إذ ربما كانت تسميتها بالمذهبات لجليل قيمتها الأدبية وعظم خطرها الفنى

(٢) ١٨٨ تاريخ أدب اللغة العربية فى العصر الجاهلى ط ١٣٦٠هـ . ومن هذه الأدلة : ما فى بعض المعلقات من خرم يبعد تعليقها على الكعبة ، واختلاف الرواة فى عددها وأصحابها ، وعدم ورود شىء لنا عنها فى عصر الرسول . ولأن أول من ذكر تعليقها على الكعبة هو ابن الكلبى م ٢٠٤هـ وهو راوية غير موثوق به .

عدد المعلقات :

وعدد هذه القصائد وأصحابها مختلف فيه :

١ - فقد سبق أن ذكرنا نقلا عن المفضل وسواه أنها سبع لامرىء القيس والنابغة وزهير والاعشى وطرفة ولبيد وعمرو بن كلثوم .

٢ - ويجعلها صاحب الجمهرة ثمانية بإضافة عنترة ومعلقته الميمية إلى ما سبق .

٣ - ويجعلها الزوزني تسعة : لامرىء القيس والنابغة والاعشى وزهير وطرفة ولبيد وعمرو بن كلثوم والحارث بن حلزة وعنترة ، بزيادة الحارث ابن حلزة .

٤ - ويجعلها النعساني الحلبي شارح المعلقات فى كتابه نهاية الأرب من شرح معلقات العرب ، الذى ألفه سنة ١٣٢٤ هـ - عشرة وذلك بإضافة قصيدة عبيد بن الأبرص :

ليس(١) رسم على الدفين ببالى ... فــلوى ذروة فجنبي ذيال

ولكنه يجعل معلقة الأعشى هى :

ألم تغتمض عيناك ليلة أرمدا ... وبت كما بات السليم مسهدا (٢)

ومعلقة النابغة هى :

يا دارمية بالعلياء فالسند ... أقوت وطال عليها سالف الأمد

٥ - وأكثر الرواة على أنها سبع لامرىء القيس وزهير وطرفة ولبيد

---

(١) الدفين : قرب مكة . اللوى : منقطع الرمل . ذروة : واد لبني فزارة ذيال : رملة تواجه ذروة

(٢) وذلك بدلا من قصيدته : ما بكاء الكبير بالأطلال . وبعض الرواة يذكرون أن معلقة الأعشى هى :

ودع هريرة إن الركب مرتحل ... وهل تطيق وداعا أيها الرجل

وعنترة وعمرو بن كلثوم والحارث بن حلزة .

شراح المعلقات :

وقد شرح هذه المعلقات كثيرون منهم . أبو جعفر النحاس م ٣٣٨ ﻫ . والزوزني م ١٧٥ ﻫ ، ومحمد بدر الدين أبو فراس النعساني الحلبي في القرن الرابع عشر الهجري ، كما شرحها كثيرون ممن عداهم .

وطبعت المعلقات طبعات كثيرة باللغة العربية في الشرق والغرب وطبعها سير شارلز ليول سنة ١٨٩٤ بكلكتا ، كما ترجم نولدكة خمس معلقات ؛ مسقطا معلقتى امرىء القيس وطرفة وأرفق بها شرحا بالألمانية وهى أمتع ترجمة كما ترجمها إلى الانجليزية شعراً مع شيء من التصرف مستر ولفرد بلنت ولادى آن بلنت ، ومن أشهر طبعاتها طبعة ليبسيا بعناية العلامة أرنولد سنة ١٨٥٠م

منزلة المعلقات في الشعر الجاهلي :

والمعلقات منزلة عظيمة في الشعر الجاهلي ، فهى أعلى قصائده طبقة في البلاغة وبعد الأثر وجلال التأثير والسحر ؛ وهى لشعراء ممتازين في منزلتهم في هذه الجزيرة المقفرة البدوية ، فوق أنها هى الناطقة بمجد العرب ومحامدهم وأخبارهم ، شاهد صدق على أخلاقهم وطباعهم وعاداتهم ولون تفكيرهم ، وتمتاز بطولها ورقتها وتهذيبها وروعتها وبجمال معانيها وسحر أساليبها وجزالتها وشدة أسرها . فوق تنوع فنونها وأغراضها ، وما فيها من تشبيه ساحر واستعارة نادرة وكناية طريفة . وهى مع ذلك ثروة لغوية كبيرة لا غنى عنها للباحثين والمتعلمين .

واهتمام الرواة والعلماء والأدباء والنقاد والشارحين والناشرين بها دليل على ما لها من مكانة في الأدب العربي قديم والحديث على السواء(١) .

وسنحلل هذه المعلقات الآن واحدة واحدة فنقول :

---

(١) راجع في تفسير كلمة المعلقات ٣٧٩ : ٣ العقد الفريد ، و ٥٨١ مقدمة ابن خلدون .

معلقة طرفة

١ – طرفة بن العبد البكرى شاعر جاهلى مشهور ، نشأ يتيما فى كفالة أعمامه ، يؤثر اللهو والدعة والبطالة ويدمن الخمر ، ويهجو الناس حتى الملك عمرو بن هند الذى أضمر له الشر وأرسله لعامله بالبحرين فقتله ، ولم يتجاوز السادسة والعشرين ، وتقول أخته الخرنق فى رثائه :

عددنا له ستا وعشرين حجة   فلما توفاها استوى سيدا ضخما

وكان طرفة ملتهب المشاعر والعواطف ، حاد التفكير واللسان ، متأجج الشاعرية ، نظم الشعر يصور فيه حياته وآماله وبطالته ، وكان يصف فيجيد الوصف ويأتى بالحكمة العالية والفكرة الرائعة ، « وهو أجود الجاهليين طويلة كما يقول ابن قتيبة(١) وشعره قليل بأيدى الرواة(٢) .

٢ – ومطلع هذه المعلقة الرائعة :

لخولة أطـــلال ببرقة ثهمد   تلوح كباقى الوشم فى ظاهر اليد(٣)

وقد عد بها الشاعر من فحول الشعراء الجاهليين ومشهوريهم ، واستحق من أجلها أن يضعه أبو عبيدة فى الطبقة الثانية منهم وابن سلام فى الطبقة الرابعة وأن يذهب بعض الشعراء والنقاد إلى أنه أشعر الجاهليين . وهى أطول المعلقات ، أبياتها خمسة ومائة بيت ، وتمتاز بكثرة معانيها وجزالة أسلوبها . نظمها طرفة بعد عودته إلى أرض قومه إثر تنقله فى الأحياء حين كان مغاضبا لقومه وعشيرته ، وقبل أن يتصل بملوك الحيرة وينادمهم .

ويبدو من روح المعلقة ولهجتها أن الشاعر نظمها عتابا لابن عمه ، ويبدو أيضا أن السبب فى عتابه له أن أخاه « معبدا » كان له إبل يرعاها هو وأخوه

---

(١) ٤٩ الشعر والشعراء (٢) ٤٩ الشعر والشعراء ، و٩٤ طبقات الشعراء

(٣) خولة : اسم محبوبته . ثهمد : أكمة فى بلاد خثعم تلوح : تظهر

طرفة ، فأنبهاطرفة في المرعى حتى دخلت مرعى ابن عمه فحجزها ، ولام معبد أخاه ، وألقى عليه عبء طلبها واستردادها من ابن عمه . فذهب طرفة إليه ، فلم يجد كلامه معه ، وعاد ثائراً غاضباً ، ونظم قصيدته يعاتب فيها عبد عمرو عتاباً شديداً قاسياً نما تقرؤه في المعلقة في قوله :

فمالى أرانى وابن عمى مالـكا	متى أدن منه ينأ عنى ويبعد
وأيأسنى من كل خير طلبته	كأنا وضعناه على رمس ملحد
على غير شيء قلته غير أننى	نشدت فلم أغفل حمولة معبد
وإن أدع للجلى أكن من حماتها	وإن تأتك الأعداء بالجهد أجهد
فلو كان مولاى امرأ هو غيره	لفرج كربى أو لأنظرنى غدى
ولـكن مولاى امرؤهو خانقى	على الشكر والتسآل أو أنا مفتد
وظلم ذوى القربى أشد مضاضة	على المرء من وقع الحسام المهند
فلو شاء ربى كنت قيس بن خالد	ولو شاء ربى كنت عمرو بن مرثد(١)
فأصبحت ذا مال كثير وعادنى	بنون كرام سادة لمسود

ولما سمع عبد عمرو بن مرثد معلقة طرفة أرسل اليه ، فقال له : أما الولد فالله يعطيكه ، وأما المال فلا تبرح حتى تـكون من أوسطنا فيه ، وأمر سبعة من أبنائه وثلاثة من بني أبنائه أن يعطوه عشرا عشرا من الإبل ففعلوا .

ويذكر بعض الباحثين من المستشرقين أن المعلقة لم توضع مرة واحدة ، كقوله :

إذا مت فانعيني بمـا أنا أهله   وشقى على الجيب يا ابنة معبد

وما يليه من أبيات قالها وهو في سجن البحرين قبيل موته وهذا خطأ في البحث ، فلم يقل طرفة هذه الأبيات وهو في سجن البحرين ، بل نظمها ونظم

---

(١) قيس بن خالد ذو الجدين من عظماء سادة الشيبانيين ، وعمرو بن مرثد هو ابن عم الشاعر .

القصيدة كلها مرة واحدة وهو صحيح مقيم في أرض قومه ، والقصيدة قطعة واحدة من الشعر الحي والتصوير الرائع والديباجة الساحرة ، والوصف الصادق .

٣ - وتمتاز المعلقة بوفرة معانيها وتنوع أغراضها وجمعها بين السهولة والغرابة في اللفظ ، وبين الرقة والمتانة في الأسلوب ، وبين الحكمة واللهو والجد والهزل في النهج والحياة .

وتصور الشاعر وحياته وأمانيه ومطامحه ولذاته ولهوه وبيئته والحياة فيها تصويراً جميلا رائعاً بالغاً حد الدقة والإحكام والجمال .

٤ - وحدة القصيدة وفنونها :

ونحن نقف أمامها معجبين بجمالها وانسجامها وقوة شاعريتها وتأجج عواطف الشاعر فيها ، وهذه الوحدة التامة الظاهرة على أغراضها وفنون القول فيها :

ا - بدأها الشاعر بالغزل : فذكر أطلال خولة محبوبته ووقف عليها وبكاها :

لخولة أطلال ببرقة ثهمد تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد
وقوفاً بها صحبي على مطيهم يقولون لا تهلك أسى وتجلد

ثم يذكر قباب خولة وهي ظاعنة ، ويشبهها بالسفينة تشبيهاً جميلا قويا فيقول :

كأن حدوج المالكية غدوة خلايا سفين بالنواصف من دد
عدولية أو من سفين ابن يامن يجور بها الملاح طوراً ويهتدي
يشق حباب الماء حيزومها بها كما قسم الترب المفايل باليد(١)

---

(١) الحدوج : القباب . المالكية : هي خولة . الخلايا : جمع خلية وهي السفينة الكبيرة . النواصف : مجاري الماء إلى البحر . دد أرض معروفة ، وعدولية :

وهو فى هذا الوصف يرسم صورة جميلة للسفن الكبيرة التى كان يراها ويشاهدها تسير فى الماء على شواطىء البحرين وسواها .

ثم يصف جمال محبوبته وينعتها نعتا جميلا قويا مؤثرا عذبا يدل على امتلاء نفسه بالحب وعلى خضوعه لأسر الجمال :

وفى الحى أحوى ينفض المرد شادن
مظاهر سمطى لؤلؤ وزبرجـد(١)
وتبسم عن ألمى كأن منوراً تخلل حر الرمل دعص له ندى(٢)
ووجه كأن الشمس حلت رداءها عليه ، نقى اللون لم يتخدد(٣)

ب ـ ثم يأخذ الشاعر فى وصف ناقته التى يسير عليها ليسلى عن نفسه الهموم والأحزان ، ووصفه لها طويل فى خمسة وثلاثين بيتا ، ويجىء به فى

أى قديمة ، أو هى الكبيرة من السفن ، وتنسب إلى موضع يقال له عدولى . ابن يامن : ملاح قديم من أهل البحرين . يجور : يضل . يهتدى : أى يعرف طريق السير .

حباب الماء : طرائقه وما ارتفع منه . الحيزوم : الصدر . المفايل : الذى يجمع ترابا ويخبىء فيه شيئا مثل الحلقة ويقسم الترب نصفين ويطلبه فى أحدهما فان أصاب ظفر وإن أخطأ قمر

(١) أحوى : فى لونه حوة وهى السواد . والمرد : شجر الأراك . الشادن : ولد الظبية إذا قوى . سمطى : خيطى . مظاهر : يضع واحدا على آخر . اللؤلؤ والزبرجد : جوهران معروفان

(٢) تبسم : يفتر ثغرها . اللمى : سواد فى الشفة . المنور : الأقحوان . تخلله توسطه ودخل فيه . حر الرمل : النقى منه . الدعص : الكثيب الصغير من الرمل . الندى : من صفة الاقحوان يصفه بالنداوة

(٣) حلت : ألقت . رداءها : بهاءها . يتخدد : يضطرب حتى تصير فيه شقوق .

لفظ غامض غريب لا تكاد تفهمه إلا بصعوبة وعسر ومشقة ومراجعة وطول عناء .

قال طرفة فيما قال فى وصف ناقته :

وإنى لأمضى الهم عند احتضاره ... بعوجاء مرقال تروح وتغتدى(١)

أمون كألواح الأران نسأتها ... على لاحب كأنه ظهر برجد(٢)

إلى أن يقول :

وإن شئت لم ترقل وإن شئت أرقلت ... مخافة ملوى من القد محصد(٣)

على مثلها أمضى إذا قال صاحبى ... ألا ليتنى أفديك منها وأفتدى(٤)

وجاشت إليه النفس خوفاً وخاله ... مصاباً ولو أمسى على غير مرصد(٥)

ج - ثم يفتخر الشاعر بنفسه ويفرغ لها ويصف فتوته وكرمه ولذاته ومجده ولهوه بشرب الراح ، فى وضوح وسهولة فيقول :

إذا القوم قالوا : من فتى ؟ خلت أننى

عنيت ، فلم أكسل ولم أتبلد(٦)

---

(١) الهوجاء : الخفيفة الفؤاد ، ويروى بعوجاء وهى المهزولة . مرقال صفة للناقة ، أى كثيرة الارقال ، وهو شدة السير

(٢) الأمون : المأمونة العثار . الأران : التابوت الذى تحمل فيه الموتى . نسأتها : زجرتها . اللاحب : الطريق الواضح . البرجد : كساء من أكسية العرب شبه استقامة الطريق بخط أبيض يكون فى الكساء من قطن

(٣) الإرقال : ضرب من السير . القد : السوط . المحصد : المحكم الفتل

(٤) الضمير فى « منها » للمفازة والبرية

(٥) جاشت : علت . خاله : ظن نفسه . وإن أمسى الخ : أى وإن أمسى لا يرصد ولا يخاف

(٦) أتبلد : أتحير . الكسل : العجز

ولست بحلال التلاع مخافة ... ولكن متى يسترفد القوم أرفد(١)
وإن تأتنى فى حلقة القوم تلقنى ... وإن تقتنصنى فى الحوانيت تصطد(٢)
وإن يلتق الحى الجميع تلاقنى ... إلى ذروة البيت الرفيع المصمد(٣)
نداماى بيض كالنجوم وقينة ... تروح علينا بين برد ومجسد(٤)

ثم يذكر أثر لهوه وشربه الخمر فى حياته وبين قبيلته ، ويتحدث عن لذاته فى الحياة ويصفها . ويلوم من يعذله فى اللهو والإسراف ويفند رأيهم ويقول إن الكريم المسرف والبخيل المقتر مآلهما واحد إلى القبر :

وما زال تشرابى الخمور ولذتى ... وبيعى وإنفاقى طريفى ومتلدى(٥)
إلى أن تحامتنى العشيرة كلها ... وأفردت إفراد البعير المعبد(٦)
رأيت بنى غبراء لا ينكروننى ... ولا أهل هذاك الطراف الممدد(٧)
ألا أيها اللائمى أحضر الوغى ... وأن أشهد اللذات هل أنت مخلدى
فإن كنت لا تستطيع دفع منيتى ... فدعنى أبادرها بما ملكت يدى

ويعتد بلذاته اعتدادا كبيرا ويذكرها :

---

(١) التلاع : الأرض المرتفعة والمنخفضة ، والمراد هنا المعنى الثانى لأن البخيل يحل فى الأماكن المنخفضة ، لئلا يراه أحد . وأرى أنه يجوز أن يحل فى الأماكن المرتفعة حتى لا يصل إليه أحد

(٢) حلقة القوم : مجالس أشرافهم . الحوانيت : بيوت الخمارين

(٣) الذروة : أعلى الشىء ، المصمد : الذى يصمد إليه أى يقصد

(٤) الندامى : الأصحاب على الخمر . القينة الجارية ، البرد : الثوب الأبيض . المجسد : المصبوغ بالجساد وهو الزعفران

(٥) الطريف : المكتسب . التليد أو المتلد : الموروث

(٦) تحامتنى : اجتنبتنى . العشيرة : بنو العم ، أفردت : أبعدت ، المعبد : المذلل المطلى بالقطران

(٧) بنو غبراء : اللصوص . الطراف : بيت من جلد . يريد أنه لا ينكره صعلوك ولا غنى

فلولا ثلاث هن من عيشة الفتى   وجدك لم أحفل متى قام عودى
فمنهن سبق العاذلات بشربة   كميت متى ما تعل بالماء تزبد(١)
وكرى إذا نادى المضاف مجنبا   كسيد الغضا نبهته المتورد(٢)
وتقصير يوم الدجن والدجن معجب   ببهكنة تحت الطراف المعمد(٣)

أى شرب الراح وركوب الخيل ، واللهو مع امرأة جميلة :

أرى قبر نحام بخيل بماله   كقبر غوى فى البطالة مفسد(٤)
أرى الموت يعتام الكرام ويصطفى   عقيلة مال الفاحش المتشدد(٥)
أرى الدهر كنزا ناقصا كل ليلة   وما تنقص الأيام والدهر ينفد
لعمرك إن الموت ما أخطأ الفتى   لكالطول المرخى وثنياه باليد(٦)

د - ثم ينتقل إلى عتاب ابن عمه مالك وقد سبق أن ذكرناه فى أول المعلقة .

هـ - يعود إلى التحدث عن نفسه ووصفها بالذكاء والشجاعة ، ويتنبأ بموته ويطلب من ابنة أخيه معبد أن تبكيه إذا مات :

إذا مت فانعينى بما أنا أهله   وشقى على الجيب يا ابنة معبد
ولا تجعلينى كامرىء ليس همه   كهمى ولا يغنى غنائى ومشهدى

---

(١) كميت : خمرة تضرب إلى السواد ، تعل : أى يصب الماء عليها

(٢) كرى : عطفى ، المضاف : الذى أضافته الهموم ، المجنب : الفرس المعوجة الساقين ، السيد : الذئب . الغضا : شجر

(٣) الدجن : المطر الخفيف ، معجب أى يعجب من رآه ، البهكنة : التامة الخلق أو الحسناء

(٤) النحام : يريد البخيل ، الغوى : الذى يتبع هواه ولذته . البطالة : اتباع الهوى والجهل

(٥) يعتام : يختار ، الكرام : الخيار الأماجد ، يصطفى : ينتخب ، عقيلة كل شىء : خيرته . الفاحش : القبيح السىء الخلق : المتشدد : كثير البخل

(٦) الطول : الحبل ، ثنياه : طرفاه

وهو فى هذا البيت يعرض بابن عمه .

و - ثم ينتقل إلى الحكمة ، فيأتى منها بحكم رائعة وأمثال بليغة رويت على مر الزمان :

ستبدى لك الأيام ما كنت جاهلا	ويأتيك بالأخبار من لم تزود
لعمرك ما الأيام إلا معارة	فما اسطعت من معروفها فتزود
عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه	فكل قرين بالمقارن يقتدى
لعمرك ما أدرى وإنى لواجل	أفى اليوم إقدام المنية أو غد
إذا أنت لم تنفع بودك أهله	ولم تنك(١) بالبؤسى عدوك فابعد

معلقة امرىء القيس(٢)

— ١ —

« قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل   بسقط اللوى بين الدخول فحومل

مطلع معلقة امرىء القيس الرائعة الذائعة الشهرة ، التى تدل على شخصية صاحبها المرحة ، وروحه الموهوب ، ومجونه المأثور .

أسلوب القصيدة أسلوب جزل فيه أسر وقوة فى عذوبة حيناً ، مع الجمال والصدق والتنقل فى الخيال ، ومع سحر المطلع وفخامته .

ومعانيها قريبة ، لا تعقيد فيها ، تتكىء على الحس والمشاهدات ، فهو حين يتحدث عن الحب يصف جمال المرأة ومحاسنها ، وحين يصف الفرس يتحدث عن ساقه ومتنه وشعره ، وحين يتحدث عن المطر يصف كثرته وأنه ألقى مياهه على جبل كذا وكذا ففزعت العصم وهدمت البيوت وسقطت جذوع

---

(١) نكى عدوه : ألحق به العطب والضرر

(٢) درس الباقلانى فى كتابة « اعجاز القرآن » المعلقة دراسة نقد وموازنة وهى دراسة رائعة جديدة .

النخيل ، دون أن يتحدث الشاعر عما وراء هذه الأوصاف الحسية فى الخيل والمطر أو عن عواطفه الإنسانية فى حبه وغزله .

وتمتاز المعلقة بأنها مظهر للبلاغة العربية ، بما فيها من أساليب البيان ، ومناهج الأداء ، وصور التعبير ، وألوان الرسم والخيال والتفكير ؛ وبها تشبيهات جميلة كثيرة ، واستعارات بالغة حد الجمال وكنايات أنيقة ساحرة ، وسوى ذلك من أدوات التعبير والبيان .

-- ٢ --

ولتفصيل ذلك كله نقول :

١ - للمعلقة مطلعها الساحر القوى ، وأسلوبها الجزل ، وخيالها البدوى الموهوب ، وتشبيهاتها الحسية الساذجة المكرورة أحيانا ، وفيها فوق ذلك ورغم الكثير من ألفاظها البدوية الجافة رقة النسيب ودقة الوصف وتنوع الأغراض وبراعة التصوير والبيان ، وفيها جل ما ابتكره امرؤ القيس من المعانى الشعرية التى فضل بها على غيره من الشعراء وعد بها أميرهم وقائدهم ، ففيها بكاء الديار ، واستيقاف للصحب ، وتجويد فى النسيب ، وتصوير لاستهتاره ومجونه ، وقص لذكرياته وأيامه ، وإبداع فى وصف الليل وطوله ، والفرس ومحاسنه ، والبرق ، والمطر وآثاره .

٢ - وفى المعلقة الكثير من التشبيهات الجميلة : كتشبيه موقفه حين رحيل أحبابه بموقف ناقف الحنظل فى غزارة ما ينهمر منهما من دموع ، وكتشبيه عبق الرائحة من حبيبه بعبق رائحة النسيم وقد جاء بريا القرنفل ، وتشبيه شحم ناقته بهداب الدمقس المفتل ، والثغر بالأقحوان المنور ، وتعرض الثريا فى السماء بتعرض أثناء الوشاح المفصل ، وتشبيه ترائب المرأة بالمرآة المجلوة ، وجيدها بجيد الظباء ، وبنانها بأساريع الظبى ، وجمالها المشرق بمنارة الراهب المتبتل ، وتشبيه الليل بموج البحر ، واهتزام الفرس بغلى المرجل ، وأنه أخذ الحسن من جميع الحيوانات ، أخذ من الظبى خاصرته ومن النعامة ساقها ، ومن الذئب والثعلب مشيهما ، فهو جواد وناله من جواد ، ضافى

الذيل مستقيم العسيب(١) ، لماع الظهر كما تلمع صلاية الحنظل بما يعلق بها من الدهن اللامع أو صلاية عروس تدق فيها العطر والطيب ، وكأن دماء هوادى فريساته فى نحره المخضوب عصارة حناء فى شيب مسرح .

٣ ـ وتمتاز المعلقة بكناياتها الساحرة ، كنؤومة الضحى فى وصف المرأة بالترف والنعمة ، وقوله « لم تنتطق عن تفضل » فى وصفها بأنها عزيزة منعمة لم تعز بعد ذل ولم تنعم بعد شقاء ، وقوله « إذا ما اسبكرت بين درع ومجول » يريد إذا بلغت سن الشباب لأن الدرع هو قميص المرأة والمجول ثوب تلبسه الفتاة وتجول فيه قبل أن تخدر ، وقوله « قيد الأوابد » فى وصف الفرس بسرعة العدو ، وقوله « ولم ينضح بماء فيغسل » فى وصفه بالنشاط . وفيها كثير من المجازات الجميلة والاستعارات المبدعة ، كقوله « فسلى ثيابى من ثيابك تنسلى » يريد بالثياب القلب أو الصداقة ، وقوله « وبيضة خدر » يريد امرأة كريمة مخدرة ، وقوله فى وصف الليل بالطول « فقلت له لما تمطى بصلبه » . وقوله « وتتقى بناظرة من وحش وجرة » ، وكذلك قوله : « له أيطلا ظبى وساقا نعامة » من أساليب التجريد أو التشبيه .

٤ ـ وقد نجد فى المعلقة تنقلا فى الخيال وفى رسم الصور الشعرية ولكن لا ضير فى ذلك : لأن الشعر فن ، والفنون تأبى أن تخضع لقيود المنطق والفلسفة ، وحريتها فى التعبير والتصوير هو سر جمالها وخلودها ، وفوق ذلك فان الشعر صورة للحياة العربية ، فى سذاجتها وبساطتها فضلا عن أثر الارتجال والبديهة فى نظم الشعر وإنشاده وخاصة فى العصر الجاهلى .

٥ ـ وفى المعلقة وصف لما يحبه العربى من مظاهر الجمال فى المرأة وفى الفرس ، وفيها بيان مفصل لزينة المرأة وترفها .

وفيها نواة للقصص الشعرى وخاصة فى الغزل ، مما نهج نهجه عمر بن

---

(١) عظم الذنب .

أبى ربيعة ، ثم بشار ، وأبو نواس .

وليس فيها أثر للمدح ، لأن شخصية امرىء القيس العظيمة أرفع من المدح ، ولأن المعلقة لم تنظم إلا لوصف ذكرياته ولهوه وترفه ومجونه ، مما يرجح أنها نظمت فى أيام صبواته وشبابه قبل أن يحمل عبء الأخذ بثأر والده ، حيث تجدها خالية من ذكر الأحداث التى أطافت به بعد ذلك .

وتعدد الأغراض والفنون فى القصيدة يتفق ونهج العربى والشعراء الجاهليين فى صياغة قصائدهم ، حيث كانوا يروحون عن أنفسهم وسامعيهم بهذا الاستطراد الجميل ، وبتعدد نواحى القصيدة ومراميها ، حتى تكون أشد أثراً وسحراً .

٦ - وروح الشاعرية فى المعلقة متحدة متناسقة إلا فى أبيات يضيفها بعض الرواة إليها وهى :

وقربة أقوام جعلت عصامها   على كاهل منى ذلول مرحل

ومابعده من أبيات مما تخالف روحها روح المعلقة . والصحيح أن هذه الأبيات لتأبط شرا وأنكرها الكثير من الرواة ، وقيل هى لامرىء القيس فى عصر مشيبه وكهولته وأضيفت إلى المعلقة إضافة فهى لا تمثل روحه فى فترة شبابه اللاهية الماجنة التى تراها فى معلقته .

٧ - وتمثل هذه المعلقة الحياة العربية فى كثير من نواحيها المختلفة ، كما تصور حياة امرىء القيس وترفه وروحه اللاهية المسرفة فى العبث والمجون أتم التصوير . فهى صورة جميلة واضحة لحياة الشاعر وقومه . وأثر أدبى كبير نستطيع أن نفهم منه الكثير من عادات العرب وأخلاقهم .

— ٣ —

وقد نشأ امرؤ القيس فى بيت سؤدد ومجد ونعمة ، فخب فى سبل اللهو وذاق أفاويق الجمال والحب وقضى أيام شبابه فى مغازلة الغيد الحسان . فكانت له معهن أيام وذكريات قص الكثير منها فى هذه المعلقة ، وما برح فى لهوه ومجونه حتى ضاق به والده ذرعا فأبعده عنه ، فأقام مع أمثاله من أهل البطالة

واللهو ، حتى قتل أبوه ، فذهبت سكرته ، وطالت حسرته ، وهب للأخذ بثأره، حتى قضى عليه أخيرا إسرافه فى الانتقام .

ذلك هو امرؤ القيس قائد الشعراء فى الجاهلية ، وحامل لواء الشعر فى ذلك العصر البعيد ، والمفتن فى أبواب الشعر وأغراضه . والمجلى فى بيان أسرار الجمال واللهو ، وفى رقة الأسلوب وسحره ، وفى جزالة اللفظ وأسره ، وفى روائع التشبيه وبدائع الخيال ، وفى ابتداع الكثير من المعانى الشعرية الطريفة التى قلده فيها سواه من الشعراء .

وتتناول المعلقة كثيرا من فنون الشعر ، وتحوى الكثير من الأفكار المتنوعة ، ففيها بكاء لديار أحبابه فى ثلاثة أبيات وتصوير لحيرته وذهوله يوم رحيلهن واستيقاف لأصحابه ليحملوا معه عبء الحزن والشجى فى بيتين ، وفيها شرح للهوه وعبثه وقصص لذكرياته وأشجانه مع محبوباته ووصف للجمال العربى وزينة المرأة فى الجاهلية ولأثر الجمال وسحره فى النفوس وذلك فى عشرين بيتا ، وفيها مناجاة لليل وذكر لطوله وآلامه فيه فى خمسة أبيات ، ووصف دقيق لفرسه فى ثمانية عشر بيتا وللبرق والمطر ونشوة الطبيعة فى عشرة أبيات ، فأبياتها تبلغ الستين أو تزيد . وهى كلها فى درجة من الإحسان ليس بعدها من مزيد . ويقول الزوزنى فى سبب إنشاد هذه القصيدة :

« السبب فى إنشادها هو قصة غدير دارة جلجل حيث كان امرؤ القيس يحب ابنة عمه عنيزة فتركها تستحم فى هذا الغدير مع أتراب لها وجمع ملابسهن ثم لم يعطها لهن إلا بعد مرورهن أمامه عاريات ، ثم ذبح لهن ناقته ، وقسم متاعه عليهن يحملنه ، وركب مع عنيزة فى هودجها » .

-- ٤ --

صور من المعلقة :

١ ـ بدأها الشاعر ببكاء الديار :

قفا نبك من ذكر حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل(١)

وهو مطلع جميل ساحر . ثم يستمر فى وصف الديار وآثارها حتى يقول :

وقوفا بها صحبى على مطيهم يقولون لاتهلك أسى وتجمل
وإن شفائى عبرة مهراقة فهل عند رسم دارس من معول ؟(٢)

٢ ـ ثم يصف ذكريات لهوه وعبثه فيقول فيما يقول :

ويوم عقرت للعذارى مطيتى فيا عجبا من كورها المتحمل(٣)
فظل العذارى يرتمين بلحمها وشحم كهداب الدمقس المفتل(٤)
ويوم دخلت الخدر خدر عنيزة فقالت لك الويلات إنك مرجلى(٥)
تقول(٦) وقد مال الغبيط بنا معا عقرت بعيرى يا امرأ القيس فانزل
فقلت(٧) لها سيرى وأرخى زمامه ولا تبعدينى من جناك المعلل
فمثلك(٨) حبلى قد طرقت ومرضع فألهيتها عن ذى تمائم محول

ثم يستمر فى غزله :

---

(١) اللوى : ما التوى من الرمل . سقط اللوى : منتهاه . الدخول وحومل وتوضح والمقراة : أسماء أماكن يقع بينها سقط اللوى وفيه منزل الحبيب .

(٢) مهراقة : مراقة مسكوبة . المعول . المستعان به

(٣) المطية هنا : الناقة . العذارى : الابكار . الكور الرحل . المتحمل المحمول

(٤) هداب الدمقس : أطراف الحرير . المفتل : المفتول .

(٥) الخدر : الهودج وهو فى الاصل الستر . عنيزة اسم محبوبته . مرجلى . فاضحى بين رجالى .

(٦) الغبيط : الرحل . عقرت بعيرى : أدميت ظهره لثقله .

(٧) الجنى : الثمر . المعلل : الذى جنى مرة بعد مرة

(٨) محول : مضى علية حول

أفاطم مهلا بعض هذا التدلل   وإن كُنت قد أزمعت صرمى فأجملى (١)
وأنك قسمتُ الفؤاد فنصفه   قتيل ونصف بالحديد مكبل (٢)
فإن تك قد ساءتك منى خليقة   فسلى ثيابى من ثيابك تنسلى (٣)
وما ذرفت عيناك إلا لتضربى   بسهميك فى أعشار قلب مقتل (٤)

إلى أن يقول :

تضىء الظلام بالعشاء كأنها   منارة ممسى راهب متبتل
تسلت عمايات الرجال عن الصبا   وليس فؤادى عن هواك بمنسلى (٥)
أغرك منى أن حبك قاتلى   وأنك مهما تأمرى القلب يفعل

٣ ـ ثم يصف الليل وطوله فيقول :

وليل كموج البحر أرخى سدوله   على بأنواع الهموم ليبتلى (٦)
فقلت له لما تمطى بصلبه   وأردف أعجازا وناء بكلكل (٧)
ألا أيها الليل الطويل ألا انجلى   بصبح وما الإصباح منك بأمثل
فيالك من ليل كأن نجومه   بكل مغار الفتل شدت بيذبل (٨)

٤ ـ ثم يصف فرسه فيقول :

---

(١) أزمع الامر : ثبت عزمه على إمضائه ، الصرم : الهجر . الإجمال : الرفق
(٢) مكبل : مقيد ، من الكبل وهو القيد
(٣) الخليقة السجية . الثياب هنا : القلب . تنسل . تسقط
(٤) ذرف دمعه : سال . السهمان هناهما العينان . الاعشار : أجزاء الجزور الذى ينحر فى الميسر يأخذ منه السهم المعلى سبعة والرقيب ثلاثة . مقتل : أهلكه العشق .
(٥) تسلت : تكشفت وانزاحت . عمايات : ضلالات وغوايات منسل سال
(٦) السدول : الستور ، يبتلى ، يختبر
(٧) الصلب : الظهر ، الاعجاز : المآخير ، الكلكل : الصدر : ناء : نهض
(٨) مغار : محكم شديد . يذبل : اسم جبل ، يصف نجوم الليل بالثبات

وقد أغتدى والطير فى وكناتها بمنجرد قيد الأوابد هيكل(١)
مكر مفر مقبل مدبر معا كجلمود صخر حطه السيل من عل(٢)

ثم يذكر الصيد الذى صاده وطهى الطهاة له وسط الصحراء :

فظل طهاة اللحم ما بين منضج صفيف شواء أو قدير معجل (٣)

٥ — ثم يصف البرق والمطر فى عذوبة وسحر وجمال ، مما لا داعى لذكره فى هذه العجالة السريعة ، فليرجع إليه القارىء فى مجموعات المعلقات المطبوعة .

معلقة عمرو بن كلثوم التغلبى

١ — عمرو بن كلثوم شاعر قديم ، قتل عمرو بن هند الملك . أمه ليلى بنت مهلهل بن ربيعة وعمها كليب أعز العرب ، ووالده كلثوم بن عتاب فارس العرب ، وكان عمرو سيدا فى قومه من بنى تغلب ، وتوفى فى أواخر القرن السادس الميلادى .

وعمرو شاعر قوى الشاعرية مجيد ، ومعلقته « ألا هبى بصحنك فاصبحينا » مشهورة ، « وهى من جيد شعر العرب وإحدى السبع المعلقات » ، وكان قام بها خطيباً فيما كان بينه وبين عمرو بن هند (٤)

يمتاز عمرو فى شعره بالبديهة والارتجال ، وبأسلوبه الرائق ، وأغراضه العالية . وهو مقل لم ينظم فى فنون الشعر جميعها . وكل ما روى عنه معلقته

(١) وكنات جمع وكنة وهى العش . منجرد : قصير الشعر رقيقه ، الاوابد : الوحش النافرة

(٢) مكر مفر : سريع الكر والفر ، عل : فوق

(٣) الطهاة : جمع طاه وهو الطباخ . لحم صفيف : صف على النار ليشوى أو فى الشمس ليقدد . قدير : مطبوخ فى القدر

(٤) ٦٧ الشعر والشعراء

وبعض مقطوعات لا تخرج عن موضوعها . وقد أجاد في الفخر إجادة منقطعة النظير

٢ — والمعلقة مشهورة بالرقة والسلاسة والسهولة وفيها تكرير في بعض معانيها وألفاظها ، ومبالغة واضحة شديدة في الفخر بما لم يؤلف نظيرها في الشعر الجاهلي ، مثل :

إذا بلغ الرضيع لنا فطاما   تخر له الجبابر ساجدينا

ومثل :

لنا الدنيا ومن أضحى عليها   ونبطش حين نبطش قادرينا

وفنون المعلقة كثيرة :

(ا) فقد بدأها عمرو بن كلثوم بوصف الخمر ؛ وهذه المعلقة فريدة في هذه الناحية ، فلم تبدأ معلقة أو قصيدة بوصف الخمر في الجاهلية إلا هذه القصيدة ولعل من ذلك أن تغلب كانت النصرانية موجودة في بعض ربوعها وأن الخمر كانت شائعة في هذه الربوع ، قال :

ألا هبي بصحنك فاصبحينا   ولا تبقي خمور الأندرينا (١)
مشعشعة كأن الحص فيها   إذا ما الماء خالطها سخينا (٢)
صددت الكأس عنا أم عمرو   وكان الكأس مجراها اليمينا (٣)
وما شر الثلاثة أم عمرو   بصاحبك الذي لا تصبحينا (٤)
وكأس قد شربت ببعلبك   وأخرى في دمشق وقاصرينا (٥)
إذا صمدت حمياها أريبا   من الفتيان خلت به جنونا (٦)

(ب) ثم يأخذ في الغزل ووصف محبوبته وجمالها .

---

(١) هبي : استيقظي ، الصحن : القدح العريض ، اصبحينا : أسقينا الصبوح وهو الشرب في الغداة . الأندرينا : جمع الأندر وهي قرية بالشام جمعها بما حوالها

(٢) مشعشعة : ممزوجة . الحص : الورس . سخينا : جدنا وتكرمنا من السخاء

(٣) صددت : أي صرفت . أم عمرو : هي والدته

(٤) أي لست أنا شر الثلاثة فتعدلي عني الكأس   (٥) بلاد معروفة

(٦) صمدت : قصدت . الحميا : سورة الراح . الأريب : العاقل

قفى قبل التفرق يا ظعينا   نخبرك اليقين وتخبرينا
قفى نسألك هل أحدثت صرماً   لوشك البين أم خنت الأمينا؟ (١)
أفى ليلى يعاتبنى أبوها   وإخوتها وهم لى ظالمونا؟

(ح) ثم ينتقل إلى الفخر بقومه ومجدهم وعزتهم ، ويهدد الملك عمرو بن هند وينذره ويتوعده فى أسلوب قوى جزل مع عذوبة وجمال ، والظاهر أن ذلك كان أيام التحاكم أمام عمرو بن هند والمفاخرة بين تغلب وبكر :

أبا هند فلا تعجل علينا   وأنظرنا نخبرك اليقينا
بأنا نورد الرايات بيضا   ونصدرهن حمراً قد روينا
وأيام لنا غر طوال   عصينا الملك فيها أن ندينا
ورثنا المجد قد علمت معد   نطاعن دونه حتى يبينا

والجزء الثانى من المعلقة يبدو أنه نظم بعد قتل عمرو بن هند ، وهو :

بأى مشيئة عمرو بن هند   تطيع بنا الوشاة وتزدرينا
تهددنا وتوعدنا رويدا   متى كنا لأمك مقتوينا
وان قناتنا يا عمر أعيت   على الأعداء قبلك أن تلينا

ثم ينتقل إلى ذكر وقائع قومه مفتخراً بها على بكر ، ومنها يوم خزاز ، ثم يختمها بفخر قوى منه :

وأنا الحاكمون إذا أردنا   وأنا النازلون بحيث شينا
وأنا النازلون بكل ثغر   يخاف النازلون به المنونا
إذا ما الملك سام الناس خسفا   أبينا أن نقر الخسف فينا
ألا لا يجهلن أحد علينا   فنجهل فوق جهل الجاهلينا
ملأنا البر حتى ضاق عنا   ونحن البحر نملؤه سفينا
إذا بلغ الفطام لنا رضيع   تخر له الجبابر ساجدينا
لنا الدنيا ومن أمسى عليها   ونبطش حين نبطش قادرينا

---

(١) الصرم : الهجر . الوشك : السرعة . البين : الفراق . الأمين : الوفي بعهده

٣ – وبعد فالمعلقة من روائع الفخر، ويقال إنها كانت تزيد على الألف بيت وإنما وصل إلينا بعضها مما حفظه الناس منها.

والغالب – كما ذكرنا – أن الشاعر نظمها على مرتين: فى مفاخرته لبكر عند عمرو بن هند، وفى حادثة أمه، ولذلك رأينا فيها إشارة إلى كلتيهما وقد وقف عمرو بن كلثوم بهذه المعلقة فى عكاظ فأنشدها فى موسم مكة، وكان بنو تغلب يعظمونها ويرويها صغارهم وكبارهم لما حوته من الفخر والحماسة مع جزالتها وسهولة حفظها.

وقد أثرت هذه القصيدة فى نفوس قبيلة تغلب وفخروا بها، واتخذوها أنشودتهم، حتى قال فيها بعض البكريين:

ألهى بنى تغلب عن جل أمرهم قصيدة قالها عمرو بن كلثوم
يفاخرون بها مذ كان أولهم يا للرجال لشعر غير مسئوم

والميزة الواضحة فيها السهولة والقوة؛ والاعتداد بالنفس والقبيلة؛ والمبالغة فى الفخر، وأنها شعر صدر عن سيد قومه يعتز بسيادته وسيادة قبيلته ومجدها وأيامها وبطولة أبطالها وانتصاراتهم.

وبدؤها بالخمر يرجع إلى انتشار النصرانية فى تغلب وانتشار الخمر بينهم، وتكاد تكون هى القصيدة الوحيدة فى بدئها بالخمر على غير عادة الشعراء الجاهليين.

ويعجب النقاد بمعلقة عمرو إعجاباً شديداً، قال ابن قتيبة: وهى من جيد شعر العرب وإحدى السبع المعلقات (١)؛ وقدمه بها النقاد (٢)، وقال مطرف عن عيسى بن عمر: لو وضعت أشعار العرب فى كفة وقصيدة عمرو ابن كلثوم فى كفة لمالت بأكثرها (٣).

---

(١) ص ٦٧ الشعر والشعراء (٢) ص ٤٠ جمهرة أشعار العرب
(٣) ص ٤١ المرجع

معلقة زهير

— ١ —

وهى أثر آخر من آثار البلاغة العربية القديمة ، تقع فى تسعة وخمسين بيتا صاحبها زهير بن أبى سلمى ربيعة بن رباح المزنى ، نشأ فى أقاربه بنى غطفان ، وتخرج فى الشعر على خال أبيه بشامة بن الغدير ، وكان يروى لأوس ابن حجر أيضاً وكان أوس زوج أمه ، فكان شاعراً فحلا ، كما كان صائب الرأى عاقلا حازما حكيما .

كان يتأله ويتعفف فى شعره ؛ ويدل شعره على إيمانه بالبعث :

يؤخر فيوضع فى كتاب فيدخر ليوم حساب أو يعجل فينقم(١)

وفضله عمر بن الخطاب على الشعراء لأنه كان لا يعاظل بين القول ولا يتبع حوشى الكلام ولا يمدح الرجل إلا بما هو فيه (٢) ،

وكان زهير أحكمهم شعراً وأبعدهم من سخف وأجمعهم لكثير من المعنى فى قليل من المنطق وأشدهم مبالغة فى المدح (٣) .

كانت حرب داحس والغبراء بين عبس وذبيان تؤرق زهيرا وتضنيه ، وتثير شاعريته ، ولما سعى هرم بن سنان والحارث بن عوف المريان فى الصلح وحقن الدماء وتحملا ديات القتلى أنطقت تلك المأثرة زهيراً ، فنظم معلقته هذه يمدح هذين السيدين وينوه بعملهما الجليل ويدعو إلى السلم وينفر من الحرب ويصف مآسيها وآلامها ، وهى قصيدة رائعة ، وتمتاز بحكمها الكثيرة وكان زهير ذا حكمة فى شعره .

تحليل للقصيدة :

— ٢ —

١ - بدأ زهير معلقته بذكر الديار وزيارته لها ووقوفه فيها بعد

(١) ٤٥ الشعر والشعراء (٢) ٤٤ المرجع ، ٢٩ طبقات الشعراء ، ٣٠٥ ج ٢ المزهر ، وراجع ٣٢ الجمهرة (٣) ٢٩ طبقات الشعراء لابن سلام

عشرين عاما طوالا يتذكر ذكريات حبه ووفائه ، قال :

أمن أم أوفى دمنة لم تكلم   بحومانة الدراج فالمتثلم؟ (١)
وقفت بها من بعد عشرين حجة   فلأيا عرفت الدار بعد توهم (٢)
فلما عرفت الدار قلت لربعها   ألا انعم صباحا أيها الربع واسلم

ثم أخذ يصف النساء اللاتي ارتحلن عنها ، فيتبعهن ببصره كئيباً حزيناً، ويصف الطريق التي سلكها ، والهوادج التي كن فيها والمياه التي نزلنها في عذوبة وسهولة وجمال إلى أن يقول :

فلما وردن الماء زرقا جمامه   وضعن عصي الحاضر المتخيم (٣)
تذكرني الأحلام ليلي ومن تطف   عليه خيالات الأحبة يحلم

٢ — ثم ينتقل إلى مدح هرم والحارث والإشادة بمنقبتهما الكريمة في إنقاذ السلام وإطفاء الحرب بين عبس وذبيان وتحملهما ديات القتلى من مالهما وقد بلغت ثلاثة آلاف بعير . قال :

سعى (٤) ساعيا غيظ بن مرة بعدما   تبزل ما بين العشيرة بالدم
فأقسمت (٥) بالبيت الذي طاف حوله   رجال بنوه من قريش وجرهم
يمينا لنعم (٦) السيدان وجدتما   على كل حال من سحيل ومبرم

---

(١) أم أوفى : محبوبة الشاعر . الدمنة : آثار الديار . تكلم : تتكلم . حومانة الدراج والمتثلم : موضعان

(٢) الحجة : السنة . لأيا : أي بعد لأي ومشقة . توهم : ظن

(٣) جمام الماء : ما اجتمع منه . والجمام الزرق : المياه الصافية . وضع العصى كناية عن الإقامة . الحاضر : النازل على الماء . المتخيم : المقيم

(٤) غيظ بن مرة من غطفان اسم جد القبيلة . تبزل : تفجر . الساعيان هما هرم والحارث

(٥) البيت : الكعبة

(٦) السحيل : ضد المبرم : والمبرم ، المفتول . والسحيل كناية عن الرخاء والمبرم عن الشدة

تداركتما عبسا (١) وذبيان بعدما ... تفانوا ودقوا بينهم عطر منشم
وقد قلتما (٢) إن ندرك السلم واسعا ... بمال ومعروف من الأمر نسلم
فأصبحتما (٣) منها على خير موطن ... بعيدين فيها من عقوق ومأثم

٣ — ثم ندد بالحرب ووصف فظائعها ودعا إلى السلم وأكده وأوجبه على المتحاربين، قال:

وما الحرب إلا ما علمتم وذقتم ... وما هو عنها بالحديث المرجم (٤)
متى تبعثوها تبعثوها ذميمة ... وتضر إذا ضريتموها فتضرم (٥)

ثم ينصح قومه بأن يبقوا على السلم، ويندد بالحصين بن ضمضم وبآثار عمله فى تهييج الشر وإعادة نار الحرب، وكان الحصين حين اجتمع القوم للصلح قد حمل على رجل له عنده ثأر فى الحرب فقتله، ويعيد التنويه بالرجلين اللذين احتملا ديات القتلى واحدا واحدا على غير جريرة أو ذنب كان منهما

٤ — ثم ينتقل من هذا المجال الرهيب مجال النصح والتوجيه وتأكيد السلام إلى مجال الحكمة الإنسانية العامة، حكمة الرجل المجرب للحياة الذى ذاقها وخبرها وعاش فى خضمها ثم امتد به العمر فزهدها وانصرف عنها قال:

ومن يك ذا فضل فيبخل بفضله ... على قومه يستغن عنه ويذمم
ومن لا يذد عن حوضه بسلاحه ... يهدم ومن لا يظلم الناس يظلم
ومن لا يصانع فى أمور كثيرة ... يضرس بأنياب ويوطأ بمنسم (٦)

---

(١) منشم: امرأة من خزاعة كانت تبيع عطرا فاذا حاربوا اشتروا منها كافورا لموتاهم.
(٢) واسعا: ممكنا أو خالصا
(٣) العقوق: قطيعة الرحم. المأثم: الاثم والعدوان
(٤) المرجم: المظنون
(٥) ضريته فضرى: أى هجته فهاج. تضرم: تشتعل
(٦) المصانعة: المداراة. يضرس: يمضغ بالأضراس. المنسم، الحافر

ومن يجعل المعروف من دون عرضه   يفره ، ومن لا يتق الشتم يشتم(١)
ومهما تكن عند أمرى من خليقة   وإن خالها تخفى على الناس تعلم
سئمت تكاليف الحياة ومن يعش   ثمانين حولا لا أبالك يسأم
وأعلم ما فى اليوم والأمس قبله   ولكننى عن علم ما فى غد عم
رأيت المنايا خبط عشواء من تصب   تمته ومن تخطىء يعمر فيهرم

ويختمها بتأكيد معروف السيدين الممدوحين عليه فيقول :

سألنا فأعطيتم وعدنا فعدتم   ومن يكثر التسآل يوما سيحرم

معلقة عنترة

— ١ —

عنترة بن عمرو بن شداد العبسى م ٦١٥ م أحد فرسان العرب وأبطالها وشعرائها ، كان عبداً أسود ، وكان لا يقول من الشعر إلا البيتين أو الثلاثة فخاصمه رجل وعيره بسواده وسواد أمه وسوى ذلك ، وأنه لا يقول الشعر فقال عنترة : والله إن الناس ليترافدون الطعام فما حضرت أنت ولا أبوك ولا جدك مرفد الناس قط ، وإن الناس ليدعون فى الغارات فيعرفون بقسويهم فما رأيتك فى خيل مغيرة فى أوائل الناس قط ، وإن اللبس ليكون بيننا فما حضرت أنت ولا أبوك ولا جدك خطة فصل . وإنى لأحضر البأس ، وأوفى المغنم ، وأعف عن المسألة ، وأجود بما ملكت يدى ، وأفصل الخطة الصماء ، وأما الشعر فستعلم . فغاب حيناً وعاد إليه فأنشده معلقته :

هل غادر الشعراء من متردم؟   أم هل عرفت الدار بعد توهم؟

وهى أجود شعره ، وكانت العرب تسميها الذهبية .

وشجاعة عنترة وبسالته وشاعريته دفعت أباه إلى أن يستلحقه بنسبه ، وإلى أن

---

(١) يفره أى يصونه ويبقيه

يزوجه عمه ابنته عبلة ، وأصبح فارس داحس والغبراء ، كما كان فارس عبس ، وأحد أغربة العرب المشهورين .

— ٢ —

تحليل ونقد للمعلقة :

١ - هي إحدى المعلقات السبع ، ومن روائع الشعر العربي القديم ، مطلعها :

هل غادر الشعراء من متردم   أم هل عرفت الدار بعد توهم

وتمتاز بالسهولة واللين ، البادبين فيها ، والذين قلما يوجدان في الشعر النجدي القديم ، والذين لايخلوان من فخامة وجزالة ، فهي واضحة جلية ، سهلة اللفظ ، قريبة المعنى ، ليس بينها وبين النفس حجاب من هذه الجزالة التي تكاد تبلغ الغرابة ، وإنما تسير في سهولة ويسر ، وترتفع عن الإسفاف والابتذال دون تورط في الغلظة والاغراب .

وعنترة فيها رقيق في غزله والإشادة ببطولته ، بل هو رقيق في حديثه عن أعدائه ، أليس هو الذي يقول :

فشككت بالرمح الأصم ثيابه   ليس الكريم على القنا بمحرم

بل هو رقيق على فرسه ، يألم لآلامه ، ويشفق لشقائه ، ويرى بكاءه ، ويسمع توجعه حين تعبث به رماح الأعداء :

فازور من وقع القنا بلبانه   وشكا إلي بعبرة وتحمحم
لو كان يدري ما المحاورة اشتكى   ولكان لو علم الكلام مكلمي

وعنترة لاتنتهي به الرقة إلى الضعف ، كما لاتنتهي به الشدة إلى العنف ، وكما لا ينتهي به السكر إلى ما يفسد الأخلاق والمروءة ، أو الصحو إلى التقصير والعيب والبخل . وهو مقدم إذا كانت الحرب ، عفيف إذا قسمت الغنائم ، يحاول أن يصف من أخلاقه ما يشرف به الرجل العربي مما يستغنى عن الإبانة عنه ، فيقول هذه الكلمة الرائعة «وكما علمت شمائلي وتكرمي» .

والمعلقة تصوير واضح لنفسية الشاعر ومشاعره وحياته وعواطفه وبطولته وقوته وبأسه ونضاله الأعداء ، ولا عجب فهى تنبع من نفسه وحياته وتصورهما تمام التصوير .

ولو لم نعرف عنترة أو نسمع بأخباره وحياته ، لعرفناه من معلقته بطلا مقداما ، وشجاعا فارسا ، وعربيا كريم الخلق ، رقيق العاطفة ، حار الشعور ، يضع روحه فى كفه ، ويبذلها مضحيا فى سبيل كرامته وشرفه وبطولته .

٢ - وقد سار الشاعر فيها على نهج غيره من الشعراء ، فذكر الديار كما ذكروها ، ووصف الناقة كما وصفوها ، وافتخر بالكرم والنجدة والبطولة . وفيها كما يقول الدكتور طه حسين معان قلما انتهى إلى مثلها غير عنترة من الشعراء ، ولم يخطىء ابن سلام حين قال : إن هذه القصيدة نادرة ، فهى نادرة حقا ، وكأنها طائفة من الأنغام الموسيقية الكثيرة المختلفة فيما بينها أشد الاختلاف ، وفيها نغمة واحدة متصلة منذ بدء القصيدة إلى نهايتها ، تظهر واضحة حينا وتحسها النفس وإن لم تسمعها الأذن حينا آخر ؛ وهذه النغمة التى تكوّن وحـــدة هذه القصيدة كما كوّنت الوحدة فى معلقة لبيد ، هى حديث الشاعر إلى صاحبته واستحضار صورتها فى نفسه منذ بدء القصيدة ؛ ولكن بين هذه النغمة فى قصيدة عنترة وقصيدة لبيد فرقا واضحاً جداً ، فهى فى قصيدة عنترة حلوة رقيقة تمازج النفس فتمتزج بها لأن عنترة فيما يظهر كان حلو النفس رقيق القلب ، قوى العاطفة ، جاءه ذلك من أنه عز بعد ذلة ، وتحرر بعد رق ، فهو قد شقى فى صباه وطفولته ، واحتمل الأذى فى شبابه ، والذل الذى يمتزج بالنفس فيصفى عواطفها ، ويلطف حدتها ، على حين تجد هذه النغمة عند لبيد غليظة خشنة ، لبيد يتحدث عن صاحبته فى أول القصيدة ويذكرها أثناءها ولكنه ليس متهالكا عليها ولا متحرجاً من الصد عنها ، فهو يبادل القطيعة بالقطيعة والهجر بالهجر ، أما عنترة فيقول :

ولقد نزلت فلا تظني غيره   منى بمنزلة المحب المكرم

٣ ـ وفيها عدة تشبيهات رائقة ، كتشبيه الظليم وقد تبعته النعام بالعبد الأسود وقد ثابت إليه الإبل :

تأوى له قلص النعام كما أوت   حزق يمانية لأعجم طمطم

ومثل هذا التشبيه الرائع الذى يعجب به النقاد من القدماء ويحبونه ، فى الأبيات التى وصف فيها ثغر صاحبته بالجمال وطيب النشر ، فذكر فأرة المسك وذكر الروضة الأنف التى ألح عليها الغيث حتى زكا نبتها وكثر فيها الذباب مبتهجا نشوان مترنما :

وكأن فأرة تاجر بقسيمة   سبقت عوارضها إليك من الفم
أو روضة أنفا تضمن نبتها   غيث قليل الدمن ليس بمعلم
جادت عليه كل بكر حرة   فتركن كل قرارة كالدرهم
سحا وتسكابا فكل عشية   يجرى عليها الماء لم يتصرم
وخلا الذباب بها فليس ببارح   غردا كفعل الشارب المترنم
هزجا يحك ذراعه بذراعه   قدح المكب على الزناد الأجذم

٤ ـ وكثير جداً من أبيات هذه المعلقة قد ظفر بحظ كبير من الإيجاز والامتلاء والبراءة من اللغو والفضول حتى جرى مجرى الأمثال . وأى الناس لا يتمثل قوله :

وإذا شربت فإننى مستهلك   مالى وعرضى وافر لم يكلم
وإذا صحوت فما أقصر عن ندى   وكما علمت شمائلى وتكرمى

أو قوله :

يخبرك من شهد الوقيعة أننى   أغشى الوغى وأعف عند المغنم

أو قوله :

ولقد خشيت بأن أموت ولم تدر   للحرب دائرة على ابنى ضمضم
الشاتمى عرضى ولم أشتمهما   والناذرين إذا لقيتهما دمى

مما احتذاه جميل فقال :

وليت رجالا فيك قد نذروا دمى — وهموا بقتلى يابثين لقونى

أو قوله :

إن يفعلا فقد تركت أباهما — جزر السباع وكل نسر قشعم

وجل هذه القصيدة يجرى مجرى المثل ، وينشد على اختلاف العصور والبيئات والظروف ، فلا يمل إنشاده . ولا تحس النفس نبواعنه ، أو نفورا منه ، وإنما تحس كأنها تجرى فيه أو كأن هذا الشعور مرآة صافية صادقة لكل نفس كريمة ولكل قلب ذكى ولكل خلق نقى .

ذلك لأن عنترة بحياته وشخصيته ومشاعره وعواطفه وآماله وآلامه كان كأنما يتحدث عن النفوس ، ويصف حياة الناس ، ويأخذ من تجاربه وخبرته ومن فراسته وذكائه أساليبه وصوره ، ويستمد من إلمامه بالحياة ومعرفته ببيئته مادة بيانه وشعوره وشعره .

فعنترة فى معلقته شاعر يتحدث عن البطولة فى البادية وعن المجتمع الذى كان يعيش فيه وعن الحياة التى كان يتأثر بها وعن عواطف الشاعر وعن دخائل نفسه حديث المصور الماهر والشاعر العبقرى .

وبعد فكل ما فى المعلقة جيد ، وكل أبياتها خليق أن نطيل الوقوف عنده والتفكير فيه والإعجاب به كما يقول الدكتور طه حسين .

— ٣ —

وفنون المعلقة كثيرة :

١ — بدأها عنترة بالغزل فى ابنة عمه عبلة ومخاطبة دارها ذات الذكريات الجميلة ، قال :

هل غادر الشعراء من متردم — أم هل عرفت الدار بعد توهم ؟(١)

---

(١) غادر : ترك . متردم : شىء يصلح لم يكونوا أصلحوه . التوهم : الوهم

يا دار عبلة بالجواء تكلمى   وعمى صباحاً دار عبلة واسلمى(١)
وتحل عبلة بالجواء وأهلنا   بالحزن فالصمان فالمتثلم
حييت من طلل تقادم عهده   أقوى وأقفر بعد أم الهيثم

٢ – واستطرد إلى وصف الروضة :

أو روضة أنفاً تضمن نبتها   غيث قليل الدمن ليس بمعلم(٢)
جادت عليه كل بكر حرة   فتركن كل قرارة كالدرهم(٣)
وخلا الذباب بها فليس ببارح   غرداً كفعل الشارب المترنم(٤)
هزجاً يحك ذراعه بذراعه   قدح المكب على الزناد الأجذم(٥)

٣ – ثم يصف ناقته فى أبيات كأبيات طرفة تمتاز بالغرابة :

هل تبلغنى دارها شدنية   لعنت بمحروم الشراب مصرم(٦)

٤ – ثم يفتخر بنفسه وشجاعته :

أثنى على بما علمت فاننى   سهل مخالقتى إذا لم أظلم
فاذا ظلمت فان ظلمى باسل   مر مذاقته كطعم العلقم
وإذا شربت فاننى مستهلك   مالى ، وعرضى وافر لم يكلم

---

(١) الجواء : بلد فى نجد من أماكن عبس ، عمى : أى انعمى

(٢) الأنف . التام فى كل شىء ، الدمن : المطر الخفيف ، الغيث : المطر ، المعلم : ذو العلامة

(٣) جادت : من الجود وهو المطر الكثير : البكر ، السحابة فى أول الربيع والحرة : البيضاء ، القرارة : القاع كالدرهم . يعنى فى البياض والاستدارة

(٤) خلا : انفرد ، بارح : تارك ، غرداً : مترنماً

(٥) الهزج : السريع الصوت ، قدح المكب : أى الذى أكب على الزناد يقدحه ، الاجذم : مقطوع اليد

(٦) تبلغنى : توصلنى ، دارها : منزلها ، شدنية : ناقة ، لعنت : جف ضرعها بمحروم الشراب : أى ضرع لا لبن فيه ، مصرم : جاف

وإذا صحوت فما أقصر عن ندى   وكما علمت شمائلى وتكرمى

ويستمر فى التنويه بشجاعته إلى أن يقول :

ولقد ذكرتك والرماح نواهل   منى وبيض الهند تقطر من دمى
فوددت تقبيل السيوف لأنها   لمعت كبارق ثغرك المتبسم
لما رأيت القوم أقبل جمعهم   يتذامرون كررت غير مذمم
يدعون عنتر والرماح كأنها   أشطان بئر فى لبان الأدهم(١)
مازلت أرميهم بثغرة نحره   ولبانه حتى تسربل بالدم(٢)
فازور من وقع القنا بلبانه   وشكا إلى بعبرة وتحمحم
لوكان يدرى ما المحاورة اشتكى   ولكان لو علم الكلام مكلمى
ولقد شفى نفسى وأبرأ سقمها   قيل الفوارس : ويك عنتر أقدم

٥ — ثم يختمها بتهديد ابنى ضمضم وكانا قد نذرا دمه وتربصا له لأنه قتل أباهما فى الحرب ، قال :

ولقد خشيت بأن أموت ولم تدر   للحرب دائرة على ابنى ضمضم
الشاتمى عرضى ولم أشتمهما   والناذرين إذا لم ألقهما دمى
إن يفعلا فلقد تركت أباهما   جزر السباع وكل نسر قشعم(٣)

معلقة لبيد

١ — لبيد بن ربيعة العامرى من سادة العامريين القيسيين وأشرافهم وكان يقال لأبيه ربيعة المعترين ، وعمه ملاعب الأسنة عامر بن مالك أخذ أربعين مرباعا فى الجاهلية .

---

(١) أشطان . حبال ، لبان : صدر ، الأدهم : الفرس الأسود
(٢) الثغرة : الهزمة التى فى الحلق ، اللبان : الصدر ، تسربل : لبس السربال
(٣) جزر السباع . أى طعمة لها ، القشعم . الكبير من النسور

كان لبيد من شعراء الجاهلية وفرسانهم ، وقال الشعر فى الجاهلية فى كل غرض ، وأدرك الإسلام وأسلم وهجر الشعر ، وأقام بالكوفة إلى أن مات عام ٤١ ﻫ عن مائة وسبع وخمسين سنة .

« وسئل لبيد من أشعر الناس ؟ فقال : الملك الضليل ، ثم الشاب القتيل ثم الشيخ أبو عقيل يعنى نفسه(١) » . وهو من أصحاب المعلقات ، وكان نظم لبيد فى الجاهلية فخم العبارة منضد اللفظ قليل الحشو مزادنا بالحكمة العالية والحكم الرائعات ، وهو أحسن الجاهليين تصرفا فى الرثاء ، وأكثرهم قدرة على تصوير عواطف المفجوع الحزين ، بلفظ رائق وأسلوب مؤثر ، وقدمه بعض النقاد « لأنه أفضل الشعراء فى الجاهلية والإسلام وأقلهم لغواً فى شعره(٢) » .

٢ — ومعلقة لبيد تمتاز بقوة اللفظ ومتانة الأسلوب ، وبما فيها من تصوير للبادية والحياة والأخلاق فيها .

ا — بدأها لبيد بذكر الديار وخلوها من أصحابها وتعرضها للرياح والأمطار تعبث بها وتمحو معالمها ، قال :

عفت الديار محلهـــا فمقامها ... بمنى تأبد غولها فرجامها(٣)
وجلا السيول عن الطلول كأنها ... زبر تجد متونها أقلامها(٤)
فوقفت أسألها، وكيف سؤالنا ... صما خوالد ما يبين كلامها(٥)

---

(١) ٢٩٧ ج ٢ المزهر . وراجع ٨٨ الشعر والشعراء

(٢) ٣٨ الجمهرة ، وراجع ص ٣٩ من الجمهرة أيضا .

(٣) عفت : درست . المحل والمقام : موضع الحلول والاقامة . منى : موضع قريب من طخفة . تأبد : توحش . الغول : ماء معروف للضباب بجوف طخفة به نخل . الرجام : جبال بقلوعة الحمى حمى ، ضرية .

(٤) يريد أن السيول كشفت عن الطلول فظهرت كالكتب تجدد ظهورها . والزبر جمع زبور وهو الكتاب

(٥) صم : جمع صماء . خوالد : بواق جمع خالدة . والصم البواقى هى الأثافى يبين : يظهر .

ثم يصف رحيل أحبابه عنها حتى يقول :

بل ما تذكر من « نوار » وقد نأت   وتقطعت أسبابها ورمامها(١)
مرية ، حلت بفيد ، وجاورت   أهل الحجاز ، فأين منك مرامها(٢)

وأخيراً يرى لا أن يتسلى ويتعزى حتى يصل إلى رجائه وأمله ، ولكن أن يقطع أمله منها ويترك رجاءه فيها ويقطع صلته بها مادامت نوار قد تغير وصلها :

فاقطع لبانة من تعرض وصله   ولشر واصل خلة صرامها(٣)

ب - ثم يأخذ فى وصف ناقته فى لفظ غريب وتعبير بدوى متين ؛ ويطيل فى هذا الوصف ، ويشبهها بالأتان الوحشية وبالظبية الرؤوم المفجوعة إلى أن يقول :

فبتلك إذ رقص اللوامع بالضحى   واجتاب أردية السراب أكامها(٤)
أقضى اللبانة لا أفرط ريبة   أو أن يلوم بحاجة لوامها(٥)
أو لم تكن تدرى نوار بأننى   وصال عقد حبائل جذامها(٦)
تراك أمكنة إذا لم أرضها   أو يرتبط بعض النفوس حمامها

حـ - ثم يتحدث عن نفسه وعزتها ، ولذات الراح التى شارك فيها ،

---

(١) نوار : اسم حبيبته . الرمام : جمع رمة وهى القطعة من الحبل البالى ، يريد أن الوصل تقطعت به الأسباب

(٢) مرية : تنسب إلى مرة بن عوف . فيد : موضع فى طريق مكة . مرامها : منالها

(٣) اللبانة : الحاجة . تعرض : تغير . الخلة : الصداقة .

(٤) رقص : ارتفع . اللوامع بالضحى : بمعنى الآل . اجتاب : لبس . أردية : جمع رداء . السراب : ما يتراءى للسائر فى الصحراء من شبه الماء مما يكون لازقا بالقيعان . أكامها : جمع أكمة

(٥) اللبانة : الحاجة . لا أفرط أى لا أترك . الريبة : الشك والمخافة . أن يلوم : أى أن لا يلوم . (٦) أى أصل وأقطع . وهذا مذهب لا يرتضيه المتيمون فى الحب .

وشجاعته وبطولته في مواقف النزال والنضال، وكرمه وسخائه ونواله للجار الفقير والضيف النازل والجار الغريب وللبائسين والمساكين :

وجزور أيسار دعوت لحتفها　　بمغالق متشابه أعلامها(١)
فالضيف والجار الغريب كأنما　　هبطا تبالة مخصبا أهضامها(٢)
تأوي إلى الأطناب كل رزية　　مثل البلية قالص أهدامها(٣)

د - ثم يفتخر بقومه ومآثرهم وشرفهم ومجدهم فيقول :

من معشر سنت لهم آباؤهم　　ولكل قوم سنة وإمامها
فبنوا لنا بيتا رفيعاً سمكه　　فسما إليه كهلها وغلامها
فاقنع بما قسم المليك فإنما　　قسم الخلائق بيننا علامها
وإذا الأمانة قسمت في معشر　　أوفى بأعظم حظنا قسامها
فهم السعاة إذا العشيرة أفظعت　　وهم فوارسها وهم حكامها
وهم ربيع للمجاور فيهم　　والمرملات إذا تطاول عامها

معلقة الحارث بن حلزة

الحارث بن حلزة اليشكري من بكر، كان سيدا في قومه، وشاعراً مجيدا، ارتجل معلقته ارتجالا في مجلس عمرو بن هند يستدني بها عطفه ويستجلب رضاه ويذود بها عن قومه، وكان هوى عمرو بن هند مع تغلب، فتحول إلى

---

(١) الأيسار : اللذين يحضرون القسمة ويضربون بالقداح . المغالق : جمع مغلاق وهو السابع من سهام الميسر . متشابه : أي يشبه بعضه بعضاً

(٢) تبالة : قرية في نجد مشهورة بالخصب . أهضام : جمع هضم وهي بطون الأرض المطمئنة .

(٣) الرزية : المرأة التي قد أرزها أهلها أي أهزلها : البلية ناقة الرجل تعقل عند قبره حتى تموت . الاطناب : حبال الفساطيط . الأهدام : الخلقان . قالص : قصير مرتفع .

العطف على البكريين بسبب هذه القصيدة الرائعة . وليس للحارث إلا آثار قليلة من الشعر مع معلقته هذه

وتمتاز معلقة الحارث بإحكام نسجها وتنوع أعراضها وبأنها أثر من آثار البديهة والارتجال :

ا - بدأها بالغزل فى محبوبته أسماء :

آذنتنا ببينهـا أسمـاء رب ثاو يمل منه الثواء(١)
بعد عهـد لنا ببرقة شما ء فأدنى ديارها الخلصاء(٢)
لاأرى من عهدت فيها فأبكى اليـوم دلهـا وما يحير البكاء(٣)

ب - ثم انتقل إلى وصف ناقته وكما يقول :

أتلهى بها الهواجر إذ كل ابن هم بلية عميـاء(٤)

حـ - ثم يعاتب إخوانه من بنى تغلب لصلفهم على قومه :

إن إخواننا الأراقم يغلو ن علينا فى قيلهم إحفاء(٥)
يخلطون البرىء منا بذى الذنـب ولا ينفع الخلى الخلاء(٦)
أجمعوا أمرهم عشاء ، فلما أصبحوا أصبحت لهم ضوضاء
من مناد ومن مجيب ، ومن تصـهال خيل خلال ذاك رغاء
أيها الناطق المرقش عنـا عند «عمرو» ، وهل لذاك بقاء؟(٧)

---

(١) الإيذان : الاعلام البين : الفراق . الثواء : الاقامة .
(٢) العهد : اللقاء . وبرقة شماء والخلصاء : موضعان قريبان من دياره
(٣) يحير : يرد ، الدله : الحزن والتحير وذهاب العقل
(٤) الهواجر جمع هاجرة وهى لفح الحر وقت الظهيرة . عمياء : شديدة
(٥) الاراقم : بطون من تغلب . الغلو . مجاوزة الحد . الإحفاء : الالحاح القيل : القـول
(١) الخلى البرىء الخالى من الذنب
(٢) الناطق المرقش : أى الواشى المنمق أكاذيبه ووشاياته وأباطيله .

فبقينا على غراتك إنا قبل ما قد وشى بنا الأعداء(١)
فبقينا على الشناءة تنميـــنا حصون وعزة قعساء(٢)

ثم يمدح الملك عمرو بن هند حيناً ويستمر فى عتاب إخوانه من تغلب حيناً آخر :

ملك مقسط ، وأفضل من يمشـــى ، ومن دون ما لديه الثناء(٣)
أيما خطة أردتم فأدو ها إلينا تمشى بها الأملاء(٤)

ويسير على هذا النهج من المدح والعتاب .

جـ - ثم يفتخر بقومه ومجدهم وأيامهم فى صدق وجمال وقوة عاطفة :

هل علمتم أيام ينتهب النا س غوارا لكل حى عواء(٥)

إلى آخر هذه القصيدة الرائعة التى يصح لنا أن نعدها ملحمة شعرية مصغرة تنطق بمجد بكر ومفاخرها فى الحرب والسلم فى الجاهلية .

أبواب الشعر الجاهلى

١ — المدح

ا - من أهم أبواب الشعر العربى ، وكان للمدح مكانة كبيرة فى العصر الجاهلى ، وخاصة بعد أن تكسب الشعراء بالشعر واتخذوه صناعة ومدحوا به الملوك والرؤساء كالأعشى والنابغة وزهير وغيرهم .

(١) الغراة : اسم بمعنى الاغراء .
(٢) الشناءة : البغضاء . تنمينا : ترفعنا
(٣) مقسط : عادل
(٤) الخطة : الأمر العظيم الذى يحتاج إلى التخلص منه . أدوها أى فوضوها . الأملاء : الجماعات من الاشراف .
(٥) الغوار المغاورة العواء : صوت الذئب وهو مستعار للضجيج والصياح

كان الشعراء فى الجاهلية يمدحون أبطال القبيلة وساداتها ، ويشيدون بمكانتهم بين القبائل ، ويصفون أخلاقهم ومآثرهم ومحامدهم وشجاعتهم ويتغنون ببطولتهم .

ثم قصد المتكسبون بالشعر منهم رؤساء القبائل والأمراء والملوك فمدحوهم وأشادوا بمفاخرهم ومكارمهم وأخلاقهم وخلقهم ، وقصة النابغة مع النعمان وزهير مع هرم مشهورة .

وتمتاز المدائح الجاهلية ببساطتها وصدقها وبعدها عن الغلو والمبالغة ، وهى أثر جميل لشاعريتهم القوية .

ب ـ صور للمدح الجاهلى :

قال الأعشى الشاعر الجاهلى الفحل يمدح الأسود بن المنذر وهو أخو النعمان لأمه ، وكان النعمان ولاه على بنى سعد وغيرهم ، وكان عنده أسرى من بنى سعد بن ضبيعة فأتاه الأعشى فمدحه وسأله أن يطلقهم ففعل ، ويعد صاحب الجمهرة هذه المدحة من المعلقات ، ومطلع هذه القصيدة :

ما بكاء الكبير بالأطلال وسؤالى وما ترد سؤالى

ومنها يخاطب الناقة :

لاتشكى الى وانتجعى الأسـود أهل الندى وأهل الفعال
فرع نبع يهتز فى غصن المجـد ، غزير الندى شديد المحال
عنده البر والتقى وأسى الشق[1] وحمل المضلات الثقال
وصلات الأرحام قد علم الناس وفك الأسرى من الأغلال
وهوان النفس الكريمة للذكر إذا ما التقت صدور العوالى
أنت خير من ألف ألف من القوم إذا ما كبت وجوه الرجال
ووفاء إذا ما أجرت فما غر ت[2] حبال وصلتها بحبال

(١) الشق : الصدع والكسر . وأسى الشق . رأبه وإصلاحه
(٢) أى نقضت

وعطاء إذا سئلت إذ العذ ... رة(١) فينا عطية البخال

أريحى صلت(٢) يظل له القو ... م وقوفا قيامهم للهلال

وأرى من عصاك أصبح محزو ... نا وكعب الذى يطيعك عالى

جندك الطارف التليد من الغا ... رات أهل الهبات والآكال(٣)

للعدا عندك البوار ومن وا ... ليت لم يعر عقده باغتيال

لن يزالوا كذلكم ، ثم لازا ... لت لهم خالداً خلود الجبال

وقال زهير يمدح هرم بن سنان والحارث بن عوف المرى سيدى بنى غطفان لسعيهما فى الصلح بين عبس وذبيان ، وهى قصيدة من النمط العالى ، ولها مكانتها فى البلاغة العربية قال :

تداركتما الأحلاف قد ثل عرشها ... وذبيان قد زلت بأقدامها النعل

فأصبحتما منها على خير موطن ... سبيلكما فيه وإن أحزنوا سهل

رأيت ذوى الحاجات حول بيوتهم ... قطينا بها حتى إذا نبت البقل

وفيهم مقامات حسان وجوههم ... وأندية ينتابها القول والفعل

على مكثريهم رزق من يعتريهم ... وعند المقلين السماحة والبذل

وإن جئتهم ألفيت حول بيوتهم ... مجالس قد يشفى بأحلامها الجهل

سعى بعدهم قوم لكى يدركوهم ... فلم يفعلوا ولم يليموا(٤) ولم يألوا

فما يك من خير أتوه فإنما ... توارثه آباء آبائهم قبل

وهل ينبت الخطى إلا وشيجه ... وتغرس إلا فى منابتها النخل؟

وقال أبو البرج القاسم بن حنبل المرى فى زفر بن أبى هاشم بن مسعود ابن سنان :

---

(١) العذرة : المعذرة

(٢) الاريحى : من الأريحية وهى الارتياح للندى . الصلت : الماضى فى الحوائج

(٣) أى الاطماع

(٤) يليموا : أى لم يأتوا ما يلامون عليه . ويألوا : يقصروا

من البيض الوجوه بنى سنان ... لو أنك تستضىء بهم أضاءوا
هم حلوا من الشرف المعلى ... ومن حسب العشيرة حيث شاءوا
بناة مكام وأساة كلم ... دماؤهم من الكلب الشفاء
فلو أن السماء دنت لمجد ... ومكرمة دنت لكم السماء

وقصائد النابغة فى مدح ملوك الحيرة وغسان مشهورة معروفة ولا داعي لذكرها فى هذا المجال الضيق الموجز .

٢ — الهجاء

ا ـ كان الهجاء فى الجاهلية يقصد به الحط من شأن قبيلة أو عشيرة ، أو فرد من أعداء قبيلة الشاعر وخصومها ، وكان الهجاء سوطاً يصبه الشاعر على خصومه وخصوم قبيلته . فيثلبهم وينتقص من مقامهم ، ويزرى بهم ، ويضع من مكانتهم ، وينسب اليهم البخل والجبن والذلة والهوان . وكانت الخصومات الكثيرة بين القبائل ، والحروب المشتعلة فى الجزيرة العربية فى العصر الجاهلى ، سببا فى الاكثار من شعر الهجاء ، ولكن المأثور من هذا الباب لا يضارع المأثور من باب المديح .

ويمتاز فن الهجاء فى الجاهلية بالقصد فى السب والشتم وتعمد الأوصاف الاجتماعية المزرية بالفرد والقبيلة من الهوان والبخل والجبن وسواها .

ب ـ صور لفن الهجاء :

قال عارق الطائى وهو شاعر جاهلى يهجو المناذرة :

والله لو كان ابن جفنة(١) جاركم ... لكسا الوجوه غضاضة وهوانا
وسلاسلا يثنين فى أعناقكم ... وإذاً لقطع تلكم الأقرانا(٢)

---

(١) يريد به ملك غسان

(٢) الاقران جمع قرن بفتح الراء وهو الحبل . وتقطيع الاقران كناية عن تبديد جمعهم

وقال مساور بن هند بن قيس بن زهير يهجو بنى أسد :

زعمتم أن إخوتكم قريش لهم إلف وليس لكم إلاف
أولئك أومنوا جوعا وخوفا وقد جاعت بنو أسد وخافوا

وقال قريظ بن أنيف أحد بنى العنبر :

لكن قومى وإن كانوا ذوى عدد ليسوا من الشر فى شىء وإن هانا
يجزون من ظلم أهل الظلم مغفرة ومن إساءة أهل السوء إحسانا
كأن ربك لم يخلق لخشيته سواهم من جميع الناس إنسانا
فليت لى بهم قوما إذا ركبوا شدوا الإغارة فرسانا وركبانا

وقال مدرك الفقعسى يهجو عبسا :

وأعرضت عن سلمى وقلت لصاحبى سواء علينا بخل سلمى وجودها
فلا تحسدن عبسا على ما أصابها وذم حياة قد تولى زهيدها
تشبه عبس هاشما إن تسربلت سرابيل خز أنكرتها جلودها

٣ — الفخر

وهو تباهى الرجل بنفسه أو قبيلته أو قومه أو أمته . والفخر باب كبير فى الشعر الجاهلى ، أكثر الشعراء فيه من الفخر بأحسابهم وأنسابهم وأيامهم وأبطالهم ومآثرهم .

وصوره كثيرة فى الشعر الجاهلى، قال عمرو بن كلثوم يفتخر بقومه أمام الملك عمرو بن هند ملك الحيرة :

أبا هند فلا تعجل علينا وأنظرنا نخبرك اليقينا
بأنا نورد الرايات بيضا ونصدرهن حمرا قد روينا
وأيام لنا غر طوال عصينا الملك فيها أن ندينا
ورثنا المجد قد علمت معد نطاعن دونه حتى يبينا
وقد علم القبائل غير فخر إذا قبب بأبطحها بنينا

بأنا العاصمون إذا أطعنا وأنا الغارمون إذا عصينا
وأنا المنعمون إذا قدرنا وأنا المهلكون إذا أتينا
وأنا الحاكمون بما أردنا وأنا النازلون بحيث شينا
ونشرب إن وردنا الماء صفوا ويشرب غيرنا كدرا وطينا
إذا ما الملك سام الناس خسفا أبينا أن نقر الخسف فينا
إذا بلغ الفطام لنا رضيع تخر له الجبابر ساجدينا
لنا الدنيا ومن أضحى عليها ونبطش حين نبطش قادرينا

وعلى نمطها يقول أمية بن أبي الصلت :

ورثنا المجد عن كبرى نزار فأورثنا مآثرنا البنينا
وكنا حيثما علمت معد أقمنا حيث ساوروا هاربينا
وأنا النازلون بكل ثغر وأنا الضاربون إذا التقينا
وأنا المانعون إذا أردنا وأنا المقبلون إذا دعينا
وأنا الرافعون على معد أكفا فى المكارم ما بقينا
نشرد بالمخافة من أتانا ويعطينا المقادة من يلينا(١)

وقال الخصفي من محارب واسمه عامر المحاربي :

وأبقيت لنا آباؤنا من تراثهم دعائم مجد كان فى الناس معلما
ونرمى إلى جرثومة أدركت لنا حديثا وعاديا من المجد خضرما(٢)
بنى من بنى منهم بناء فمكنوا مكاناً لنا منه رفيعاً وسلماً
أولئك قومى إن يلذ ببيوتهم أخو حدث يوما فلن يتهضما
وكم فيهم من سيد ذى مهابة يهاب إذا ما رائد الحرب أضرما
لنا العزة القعساء تحتطم العدى بها ، ثم نستعصى بها أن نحطما

---

(١) راجع القصيدة فى الجمهرة ١٨٦ - ١٩٠ ، وقصيدة عمرو بن كلثوم فى الجمهرة أيضا ١١٧ - ١٢٩

(٢) الجرثومة : الاصل . العادي : القديم . الخضرم : الكثير أو الواسع

وهم يدعمون القوم فى كل موطن ... بكل خطيب يترك القوم كظما
وكنا نجوما كلما انقض كوكب ... بدا زاهر منهن ليس بأقتما
فما يستطيع الناس عقدا نشده ... وننقضه منهم وإن كان مبرما

وقال حجر بن خالد الثعلبى وهو شاعر جاهلى :

وجدنا أبانا حل فى المجد بيته ... وأعيا رجالا آخرين مطالعه
فمن يسع منا لا ينل مثل سعيه ... ولكن متى ما يرتحل فهو تابعه

وقال عوف بن عطية التيمى(١) :

لعمرك إنى لأخو حفاظ ... وفى يوم الكريهة غير غمر(٢)
أجود على الأباعد باجتداء ... ولم أحرم ذوى قربى وإصر(٣)
ومابى ، فاعلموه ، من خشوع ... إلى أحد ، وما أزهى بكبر
ألم تر أننا مردى حروب ... نسيل كأننا دفاع بحر(٤)
ونلبس للعدو جلود أسد ... إذا نلقاهم وجلود نمر
ونرعى ما رعينا بين عبس ... وطيئها وبين الحى بكر
وكلهم عدو غير مبق ... حديث قرحه يسعى بوتر

٤ — الرثاء

ا — هو ذكر مناقب الميت ومآثره ومفاخره ، ووصف الحزن عليه والجزع لفقده ، وبيان مكانته فى قومه وأثره فى مجتمعه الذى كان يعيش فيه . والرثاء كثير فى الشعر الجاهلى ، ومن أمثلته عينية لبيد فى رثاء أخيه أربد ، ورائية المهلهل فى رثاء أخيه كليب ، والرثاء هو الذى هيج شاعرية المهلهل فأطال القصيد فى رثاء كليب سيد بنى ربيعة ، ولامية تأبط شرا فى رثاء ابن أخته ، وسوى ذلك من عيون الرثاء فى الشعر الجاهلى .

---

(١) شاعر جاهلى مفلق ومن فرسان العرب .
(٢) الغمر : الذى لم يجرب الامور .   (٣) الإصر : العهد
(٤) مردى حروب : أى نقوم بها ، وأصل المردى الحجر يرمى به .

ب — صور لفن الرثاء :

قال المهلهل يرثى أخاه كليبا :

أهاج قذاة عينى الادكار   هدوا فالدموع لها انحدار
وصار الليل مشتملا علينا   كأن الليل ليس له نهار
وبت أراقب الجوزاء حتى   تقارب من أوائلها انحدار
أصرف مقلتى فى إثر قوم   تباينت البلاد بهم فغاروا
دعوتك يا كليب فلم تجبنى   وكيف يجيبنى البلد القفار؟
أجبنى يا كليب خلاك ذم   ضنينات النفوس لها مزار
أجبنى يا كليب خلاك ذم   لقد فجعت بفارسها نزار
سقاك الغيث إنك كنت غيثا   ويسرا حين يلتمس اليسار
أبت عيناى بعدك أن تكفا   كأن غضا القتاد لها شفار
وإنك كنت تحلم عن رجال   وتعفو عنهم ولك اقتدار
وتمنع أن يمسهم لسان   مخافة من يجير ولا يجار
وكنت أعد قربى منك ربحا   إذا ما عدت الربح التجار
فلا تبعد فكل سوف يلقى   شعوباً يستدير بها المدار
يعيش المرء عند بنى أبيه   ويوشك أن يصير بحيث صاروا
أرى طول الحياة وقد تولى   كما قد يسلب الشىء المعار
كأنى إذ نعى الناعى كليباً   تطاير بين جنبي الشرار
فدرت وقد عشى بصرى عليه   كما دارت بشاربها العقار
سألت الحى أين دفنتموه؟   فقالوا لى بسفح الحى دار
فسرت إليه من بلدى حثيثا   وطار النوم وامتنع القرار
وحادت ناقتى عن ظل قبر   ثوى فيه المكارم والفخار
أتغدو يا كليب معى إذا ما   جبان القوم أنجاه الفرار ؟
أتغدو يا كليب معى إذا ما   حلوق القوم يشحذها الشفار ؟
أقول لتغلب والعز فيها   أثيروها لذلكم انتصار

تتابع إخوتى ومضوا لأمر | عليه تتابع القوم الحسار(١)
ولست بخالع درعى وسيفى | إلى أن يخلع الليل النهار
وإلا أن تبيد سراة بكر | فلا يبقى لها أبدا أثار

وقال تأبط شرا فى الرثاء :

إن بالشعب الذى دون سلع | لقتيلا دمه ما يطل (٢)

---

(١) جمع حاسر وهو : من لا مغفرة له ولا درع ولا جنة ، ويروى : الخيار
(٢) الشعب : طريق فى الجبل . سلع : موضع وهو أرض قوم تأبط شرا . طل دمه : ذهب هدرا لا يثأر به. المعنى: أن القتيل الذى بالشعب دون سلع لن يذهب دمه هدرا .

ترجمة الشاعر :

هو ثابت بن جابر بن سفيان شاعر جاهلى مجيد . سمى تأبط شرا لأنه تأبط سيفا وخرج فقيل لأمه : أين هو ؟ فقالت: تأبط شرا وخرج وكان أحد لصوص العرب المغيرين ، وكان هو والشنفرى الأزدى وعمرو بن براق من أعدى العدائين فى العرب . والشنفرى هو ابن أخت تأبط شرا ، ويصف الشنفرى خاله تأبط شرا فى قصيدة تائية له فى المفضليات فى الأبيات ١٩ - ٢٧ من القصيدة العشرين (ص ١٠٦ : ١ المفضليات طبعة المعارف ١٣٦١) . والشنفرى شاعر جاهلى فحل وتجد ترجمة لتأبط شرا فى الشعر والشعراء (ص ٩٢ ط الخانجى ١٣٢٢ هـ)

القصيدة :

القصيدة عالية الطبقة فى الفصاحة وهى من عيون الشعر الجاهلى ورواها صاحب الحماسة (٣٤٨ : ١ ديوان الحماسة طبعة محمود توفيق) وقد ترجمها جوته إلى الألمانية ونشرها فى الديوان الشرقى .

وكانت هذيل قد قتلت ابن تأبط شرا ورمت به فى غار فرثاه والده وذكر أخذه بثأره فى هذه القصيدة أو هى له فى رثاء ابن أخت له . وقيل إن القصيدة للشنفرى يرثى بها خاله تأبط شرا ، وقيل إن القصيدة منحولة نحلها بعض الرواة لتأبط شرا وليست له وأنها مولدة ، بدليل قوله « جل حتى دق فيه الاجل »، فان ذهن الجاهلى لا يكاد يصل إلى مثل هذه الدقة فى الاسلوب والتفكير، وبدليل ذكره

خلف العبء على وولى   أنا بالعبء له مستقـــل(١)
ووراء الثأر منى ابن أخت   مصع عقدته ما تحـــل(٢)
مطرق يرشح سما كما أطـــرق .أفعى ينفث السم صل(٣)
خبر ما ، نابنا ، مصمئل   جل حتى دق فيه الأجل(٤)
بزنى الدهر وكان غشوما   بأبى جاره ما يذل(٥)
شامس فى القر حتى إذا ما   زكت الشعرى فبرد وظل(٦)

لسلع وسلع بالمدينة وأين تأبط شرا من سلع ولكنه قتل فى بلاد هذيل،ويمكننا أن نقول:إنهم رموا بجثته بعيدا عن بلادهم أو أن قومه نقلوه من هذيل إلى سلع أرض قومه .

(١) العبء : الثقل . مستقل : محتمل يقال استقل كذا حمله ورفعه .والمعنى أنه ترك ثقل الثأر على وذهب وأنا قادر على حمل ثقله غير عاجز عن طلبه

(٢) المصع : الشديد الثابت الشجاع . العقدة : العزيمة . والمعنى : أن هذا الثار الذى أطلبه إن لم أقدر على أخذه فخلفى ابن أخت ثابت الجنان قوى العزيمة لا تنتقض عزيمته .

(٣) أطرق : أرخى عينيه ينظر إلى الأرض . الرشح كالعرق . ينفث. يقذف الصل : الخبيث من الأفاعى . السم ما يقتل وهو مثلث السين .

المعنى : إن ابن أختى يطرق إلى الأرض إطراق الحيـــة الرقطاء ، شجاع فى الحرب، مقدام فى النزال لا يسلم أعداؤه من شره .

(٤) المصمئل : الشديد . جل : عظم . دق : صغر . الأجل : الجليل

والمعنى أن الذى نزل بنا وأصابنا بخبر موته أمر كبير يصغر عنده ماهو عظيم جليل من الحوادث

(٥) بزه الشىء : سلبه إياه والمراد : فجعنى به . الغشوم : الظلوم . الأبى : الذى لا يحتمل الضم .

والمعنى أن الدهر بتجبره وظلمه فجعنى وسلبنى رجلا عزيزاً ذا أنفة لا يحتمل الذل يحمى جاره فيعز ولا يضام .

(٦) الشامس : الكائن فى الشمس . القر : البرد ذكت . استعلت

والمعنى أن هـذا الرجل ذو كرم وسخاء فمن لجأ إليـه فى الشتاء وجد عنده

يابس الجنبين من غير بؤس　　وندى الكفين شهم مدل(١)
ظاعن بالحزم حتى إذا ما　　حل حل الحزم حيث يحل(٢)
غيث مزن غامر حيث يجدى　　وإذا يسطو فليث أبل(٣)
مسبل فى الحى أحوى رفل　　وإذا يغزو فسمع أزل(٤)
وله طعمان أرى وشرى　　وكلا الطعمين قد ذاق كل(٥)

ما يدفئه من الطعام واللباس كالشمس تدفىء المقرور ومن وفد عليه فى الصيف حين يطلع نجم الشعرى وجد عنده ظلا ظليلا وماء باردا يطفىء به حرارة جوفه

(١) يابس الجنبين أى هزيل وذلك دليل الشجاعة والقوة . البؤس : الفقر: الشهم : الذكى القلب . المدل : الواثق بنفسه وبعدته

والمعنى أنه قليل الأكل هزيل لاعن فقر بل لأنه سخى يؤثر أضيافه بالزاد على نفسه ، وهو ذكى القلب يقظان واثق بنفسه وبما أعده لحوادث الدهر

(٢) الظعن : ضد الاقامة . والمعنى أنه متصف بالحزم فى جميع شئونه وأحواله والحزم ملازم له حيث كان .

(٣) المزن جمع مزنة وهى السحابة البيضاء والمراد السحابة التى فيها الماء لأن السحاب الأبيض لاماء فيه . غمره الماء : علاه . يجدى : يعطى الجدوى وهى العطية . يسطو : يقهر ويصول . الليث الأبل : المصمم الماضى على وجهه لا يبالى ما لاقى

والمعنى : أنه جواد كريم شجاع إذا أعطى أجزل العطاء كالسحاب الذى يغمر الناس بكثرة أمطاره وإذا صال فكالأسد الهصور لا يبالى بالعدو

(٤) مسبل فى الحى مفعوله محذوف أى مسبل إزاره فى الحى وهم يمدحون ذا النعمة بذلك وقت السلم فاما فى الشدائد فانهم يمدحون الرجل بالتشمير وعدم اللين . الأحوى : من فى شفتيه سواد وهو محمود فيهما . الرفل : الكثير اللحم. والسمع : ولد الذئب . الأزل : السريع المشى الممسوح العجز

والمعنى أنه يتنعم فى حاله السلم ويسبل رداءه ويأكل ما يشتهى وإذا نزل فى الحرب كان كالسبع الضارى

(٥) الأرى : العسل . الشرى : الحنظل ، وكلا مفعول ذاق . والمعنى أنه رجل سهل الجانب حلو المذاق لمحبه ، مر الطعم لعدوه ، وكل من المحب والعدو قد ذاق كلا الطعمين

يركب الهول وحيدا ولا يصحبه إلا اليماني الأفل(١)
وفتو هجروا ثم أسروا ليلهم حتى إذا ما انجاب حلوا(٢)
كل ماض قد تردى بماض كسنا البرق إذا ما يسل(٣)
فادركنا الثأر منهم ولما ينج م الحيين إلا الأقل(٤)
فاحتسوا أنفاس نوم فلما هوموا رعتهم فاشمعلوا(٥)
فلئن فلت هذيل شباه لبما كان هذيلا يفل(٦)
صليت منى هذيل بخرق لا يمل الشر حتى يملوا(٧)

---

(١) وحيدا حال ، اليماني : السيف الأفل : المنثلم ، المعنى انه شجاع لايخاف الأهوال لكثرة ممارسته لها يقتحمها بنفسه ولا يستصحب معينا إلا السيف اليماني المنثلم من كثرة الضرب به

(٢) فتو : جمع فتى ، هجر : سار وقت الهاجرة وهى اشتداد الحر فى نصف النهار . أسروا : لغـة فى سروا ، والسرى : السير فى الليل خاصة ، انجاب : انكشف ، حلوا : أقاموا ، والمعنى ورب فتيان واصلوا سيرهم من وقت الهاجرة إلى آخر الليل فاذا انكشف الضوء أقاموا

(٣) تردى بسيفه مثل ارتدى به إذا تقلده ويسمى السيف رداء ، سنا البرق : ضوءه ، والمعنى ان كل رجل ماض منهم قد تقلد بالسيف الماضى الذى يحكى سنا البرق عند إخراجه من الغمد

(٤) ادركنا : أخذنا ، والمعنى أخذنا ثأرنا منهم ولم ينج منهم إلا اليسير

(٥) احتسى الشراب : تناوله شيئا فشيئا ، الأنفاس : الجرع ، هوم الرجل : إذا هز الرأس من النعاس ، اشمعلوا : أسرعوا فى السير ، رعتهم : أفزعتهم ، يقول : كانوا فى النعاس فلما أفزعتهم جدوا فى السير

(٦) الفل : كسر حد السيف . الشبا : الحد . وقوله « لبما كان » معناه كثيرا ما كان

(٧) صليت بكذا : قاست شدته . الخرق : الشجاع الكريم والمعنى أن هذيلا قاست الشدائد من شجاع ذى صبر وثبات على القتال فلا يسأمه حتى يجد السآمة من أعدائه فيرأف بهم

ينهل الصعدة حتى إذا ما نهلت كان لها منه عل(١)
حلت الخمر وكانت حراما وبلأى ما ألمت تحل(٢)
فاسقنيها ياسواد بن عمرو إن جسمى بعد خالى لخل(٣)
تضحك الضبع لقتلى هذيل وترى الذئب لها يستهل(٤)
وعتاق الطير تغدو بطانا تتخطاهم فما تستقل(٥)

ولدريد بن الصمة قصيدة فى الرثاء يرثى بها أخاه عبد الله بن الصمة لما قتل ، ومن الغريب أنه بدأها بالغزل ، ومطلعها :

أرث جديد الحبل من أم معبد لعاقبة أم أخلفت كل موعد

ومنها :

تنادوا فقالوا : أردت الخيل فارسا فقلت أعبد الله ذلكم الردى
فإن يك عبد الله خلى مكانه فما كان وقافا ولا طائش اليد
صبا ما صبا حتى علا الشيب رأسه فلما علاه قال للباطل ابعد

---

(١) أنهله الشراب : سقاه إياه أول مرة . وعله : سقاه الثانية . الصعدة : القناة تنبت مستوية . المعنى أنه لا يكتفى بطعن أعدائه بقناته مرة بل يكرره مرة بعد أخرى كالشارب الذى لا يكفيه النهل فيشتاق إلى العلل

(٢) ألمت من الالمام وهى الزيارة الخفيفة . اللأى : البطء . والمعنى أنه فاز بأخذ الثأر بعد بطء ومضى مدة فصارت الخمر حلالا له بعد أن حرمها على نفسه جريا على عادتهم من تحريم الخمر وغسل الرأس قبل أخذ الثأر

(٣) سواد : مرخم سوادة . الخل : المهزول . والمعنى : اسقنى الخمر الآن فان جسمى قد هزل بعد خالى

(٤) تضحك الضبع استعارة عن سرورها ومثله الاستهلال للذئب . والمعنى أن الضبع والذئب فى سرور بقتلى هذيل لحصولهما على كثرة الغذاء من لحومهم

(٥) عتاق الطير : جوارحها . تستقل : تطير . والمعنى أن جوارح الطير تنزل على القتلى من هذيل فتملأ بطونها حتى لا تكاد تطيق الطيران لكثرة أكلها من قتلاهم

والقصيدة رواها صاحب الجمهرة (١) وصاحب الحماسة (٢) .

وقصيدة جليلة - في رثاء كليب ورثاء حياتها الزوجية بعد أن ارتكب أخوها جساس جرما فظيعا بقتله كليبا - مشهورة ذائعة ، وقد سبق بعضها .

وقال امرؤ القيس لما بلغه مقتل أبيه حجر :

أرقت لبرق بليل أهل	يضيء سناه بأعلى الجبل
أتاني حديث فكذبته	بأمر تزعزع منه القلل
بقتل بني أسد ربهم	ألا كل شيء سواه جلل
فأين ربيعة عن ربها	وأين تميم وأين الخول ؟
ألا يحضرون لدى بابه	كما يحضرون إذا ما استهل

وقال لبيد في رثاء النعمان :

ألا تسألان المرء ماذا يحاول	أنحب فيقضى أم ضلال وباطل ؟
ألا كل شيء ماخلا الله باطل	وكل نعيم لا محالة زائل
وكل أناس سوف تدخل بينهم	دويهية تصفر منها الأنامل
فإن أنت لم ينفعك علمك فانتسب	لعلك تهديك القرون الأوائل
وإن لم تجد من دون عدنان والدا	ودون معد فلتزعك العواذل

وقال عبدة بن الطبيب :

عليك سلام الله قيس بن عاصم	ورحمته ما شاء أن يترحما
فما كان قيس هلكه هلك واحد	ولكنه بنيان قوم تهدما

ولأم السليك ترثيه :

طاف يبغي نجوة من هلاك فهلك
ليت شعري ضلة أي شيء قتلك

---

(١) راجعها في ٢٢٤ - ٢٢٧ الجمهرة

(٢) ٣٢٦ - ٣٤٠ : ١ ديوان الحماسة لأبي تمام

أمريض لم تعـد أم عدو ختلك
أم تولى بك ما غال فى الدهر السلك
والمنايا رصـد للفتى حيث سلك
أى شىء حسن لفتى لم يك لك ؟
كل شىء قاتل حين تلقى أجلك
طالما قد نلت فى غير كد أملك
إن أمرأ فادحا عن جوابى شغلك
سأعزى النفس إذ لم تجب من سألك
ليت قلبى ساعة صبره عنك ملك
ليت نفسى قدمت للمنـايا بدلك

وقصيدة أوس فى رثاء فضالة بن كلدة والتى مطلعها :

أيتها النفس أجملى جزعا إن الذى تحذرين قد وقعا

مشهورة معروفة .

٥ - الحماسة

وهى ما أثر عن العرب فى جاهليتهم من شعر قالوه فى وصف شجاعتهم ونضالهم وحروبهم ووقائعهم ، وفى الدعوة إلى الأخذ بالثأر والانتقام من العدو ، وفى التحريض على القتال ، وبعث عزائم الأبطال فى الحروب ، وفى ماسوى ذلك من شتى أغراض شعر الحماسة ومناحيه .

وهو باب كبير فى الشعر الجاهلى ، وصدر به أبو تمام حماسته ، ونماذجه كثيرة ، ولنعرض هنا شواهد لهذا الفن من فنون الشعر .

قال الفند الزمانى فى حرب البسوس :

صفحنا عن بنى ذهل وقلنا القوم إخوان(١)

---

(١) صفحنا : أعرضنا .

عسى الأيام أن يرجعن قوما كالذى كانوا(١)
فلما صرح الشر فأمسى وهو عريان(٢)
ولم يبق سوى العدوان دناهم كما دانوا(٣)
مشينا مشية الليث غدا والليث غضبان(٤)
بضرب فيه توهين وتخضيع وإقران(٥)
وطعن كفم الزق غذا والزق ملآن(٦)
وبعض الحلم عند الجهل للذلة إذعان(٧)
وفى الشر نجاة حين لا ينجيك إحسان(٨)

والفند الزمانى شاعر جاهلى كان أحد فرسان ربيعة المشهورين المعدودين شهد حرب بكر وتغلب وقد قارب المائة سنة واسمه أشهل بن شيبان ابن ربيعة بن زمان ؛

وهذه القصيدة من عيون الشعر الجاهلى رواها صاحب الحماسة (٥١ ج ١ ديوان الحماسة طبعة محمود توفيق) . وقد نظمها الشاعر فى حرب البسوس

---

(١) كالذى كانوا : أى مثل ما كانوا ودا واخلاصا

(٢) صرح : انكشف : قوله « عريان » ضربه مثلا لظهور الشر ووضوحه ويروى « فأضحى » وهو أحسن لان الشىء فى الضحى أظهر وأبين .

(٣) العدوان : الظلم الصريح . دناهم : جزيناهم والدين الجزاء يقول : جزيناهم بفعلهم القبيح كما ابتدأونا به .

(٤) غدا : ابتكر . والمعنى مشينا إليهم مشية الاسد ابتكر وهو جائع غضبان

(٥) التوهين : التضعيف . والتخضيع : التذليل ، الاقران : الاسترخاء أو التتابع

(٦) غذا : سال : شبه الطعنة إذا سال منها الدم بفم الزق – وعاء الخمر – إذا سال منه الخمر .

(٧) الاذعان : الانقياد : اعتذر فى هذا البيت عن تركهم التحلم مع الاقرباء لأنه يفضى إلى الذل

(٨) الشر : الانتقام . الإحسان : العفو

التي كانت بين بكر وتغلب وذلك أن بكر بن وائل قوم الفند بعثوا إلى بني حنيفة في حرب البسوس يستنصرونهم فأمدوهم به وبقومه بني زمان .

وقال وداك بن ثميل المازني وهو شاعر جاهلي :

رويد بني شيبان بعض وعيدكم ... تلاقوا غدا خيلي على سفوان
تلاقوا جيادا لا تحيد عن الوغى ... إذا ما غدت في المأزق المتداني
عليها الكماة الغر من آل مازن ... ليوث طعان عند كل طعان
مقاديم وصالون في الروع خطوهم ... بكل رقيق الشفرتين يماني
إذا استنجدوا لم يسألوا من دعاهم ... لأية حرب أم بأي مكان

وقال عمرو بن معديكرب الزبيدي :

ليس الجمال بمئزر ... فاعلم وإن رديت بردا
إن الجمال معادن ... ومناقب أورثن مجدا
أعددت للحدثان سا ... بغة وعداء علندى (١)
وعلمت أني يوم ذا ... ك منازل كعبا ونهدا
قوم إذا لبسوا الحديـ ... ـد تنمروا حلقا وقدا (٢)
كل امرىء يجري إلى ... يوم الهياج بما استعدا
لما رأيت نساءنا ... يفحصن بالمعزاء شدا (٣)
وبدت لميس كأنها ... بدر السماء إذا تبدى
وبدت محاسنها التي ... تخفى ، وكان الأمر جدا
نازلت كبشهم ولم ... أر من نزال الكبش بدا
هم ينذرون دمي وأنـ ... ـذر إن لقيت بأن أشدا
كم من أخ لي صالح ... بوأته بيدي لحدا

(١) السابغة : الدرع الواسعة. العداء : الفرس كثير العدو. العلندى: الشديد
(٢) الحلق : الدروع . القد : شبه درع كان يتخذ من الجلد
(٣) المعزاء : الأرض الصلبة . ويفحصن أي يؤثرن فيها من شدة الجري

ما إن جزعت ولا هلعـ ت ولا يرد بكاى زندا
ألبستــه أثوابه وخلقت يوم خلقت جلدا
أغنى غناء الذاهبيـن أعـد للأعـداء عـدا
ذهب الذين أحبهم وبقيت مثل السيف فردا

وقال الحصين بن الحمام المرى :

تأخرت أستبقى الحياة فلم أجد لنفسى حياة مثل أن أتقدما
فلسنا على الأعقاب تدمى كلومنا ولـكن على أقدامنا تقطر الدما
نفلق هاما من رجال أعزة علينا وهم كانوا أعز وأكرما

وقال الحارث بن وعلة الجرمى وهو شاعر جاهلى من فرسان قضاعة وأعلامها :

قومى هم قتلوا - أميم - أخى فإذا رميت يصيبنى سهمى
ولئن عفوت لأعفون جللا ولئن سطوت لأوهين عظمى
لا تأمنن قوماً ظلمتهمو وبدأتهم بالشتم والرغم
وزعمتم ألا حلوم لنا إن العصا قرعت لذى الحلم

وقال عبد الشارق بن عبد العزى :

ألا حييت عنا يا ردينا نحييها وإن كرمت علينا
ردينة لو رأيت غداة جئنا على أضماتنا وقد اختوينا (١)
فأرسلنا أبا عمرو ربيئاً فقال ألا انعموا بالقوم عينا
ودسوا فارساً منهم عشاء فلم نغدر بفارسهم لدينا
فجاءوا عارضا بردا وجئنا كمثل السيل نركب وازعينا (٢)
تنادوا يا لبهثة إذ رأونا فقلنا : أحسنى ضرباً جهينا
سمعنا دعوة عن ظهر غيب فجلنا جولة ثم ارعوينا

---

(١) الأضم : شدة الحقد. اختوينا : أى لم نطعم شيئا .
(٢) الوازع : الذى يرتب الجيش ويصلحه ، أى جئنا خلفه مباشرة

فلما أن تواقفنا قليلا أنخنا للكلاكل فارتمينا
فلما لم ندع قوساً وسهما مشينا نحوهم ومشوا إلينا
تلألؤ مزنة برقت لأخرى إذا حجلوا بأسياف ردينا
شددنا شدة فقتلت منهم ثلاثة فتية وقتلت قينا (١)
وشدوا شدة أخرى فجروا بأرجل مثلهم ورموا جوينا (١)
وكان أخي جوين ذا حفاظ وكان القتل للفتيان زينا
فآبوا بالرماح مكسرات وأبنا بالرماح قد انحنينا

٦ - العتاب

العتاب فن ليس بذائع في الشعر الجاهلي. وشواهده عديدة ومن مثله:
قول أمية بن أبي الصلت يعاتب ابنه :

غذوتك مولودا وعلتك يافعاً تعل بما أدني إليك وتنهل
إذا ليلة نابتك بالشكو لم أبت لشكواك إلا ساهدا أتململ
كأني أنا المطروق دونك بالذي طرقت به دوني وعيني تهمل
تخاف الردى نفسي عليك وإنها لتعلم أن الموت حتم مؤجل
فلما بلغت السن والغاية التي إليها مدى ما كنت فيك أومل
جعلت جزائي منك جبها وغلظة كأنك أنت المنعم المتفضل
فليتك إذ لم ترع حق أبوتي فعلت كما الجار المجاور يفعل
وسميتني باسم المفند رأيه وفي رأيك التفنيد لو كنت تعقل
تراه معدا للخلاف كأنه برد على أهل الصواب موكل

وقال حكيم بن أقبيصة الضبي يعاتب ابنه بشرا :

لعمر أبي بشر لقد خانه بشر على ساعة فيها إلى صاحب فقر
فما جنة الفردوس هاجرت تبتغي ولكن دعاك الخبز أحسب والتمر

---

(١) اسم فارس .

وقال ذو الأصبع العدوانى :

لاه ابن عمك لا أفضلت فى حسب | عنى ولا أنت ديانى فتخزونى[1]
ولا تقوت عيالى يوم مسغبة | ولا بنفسك فى العزاء تكفينى
فان ترد عرض الدنيا بمنقصتى | فان ذلك مما ليس يشجينى
إن الذى يقبض الدنيا ويبسطها | إن كان أغناك عنى سوف يغنينى
الله يعلمكم والله يعلمنا | والله يجزيكم عنى ويجزينى
ماذا علىّ وإن كنتم ذوى رحمى | أن لا أحبكم اذ لم تحبونى
لو تشربون دمى لم يرو شاربكم | ولا دماؤكم جميعا ترونى
ياعمرو إلا تدع شتمى ومنقصتى | أضربك حتى تقول الهامة اسقونى
كل امرىء صائر يوماً لشيمته | وإن تخلق أخلاقا إلى حين
يا عمرو لو لنت لى ألفيتنى بشرا | سمحا كريما أجازى من يجازينى
والله لو كرهت كفى مصاحبتى | لقلت إذا كرهت قربى لها بينى

٧ — الاعتذار

وأول من أجاد فيه واشتهر به هو النابغة الذبيانى ، واعتذارياته إلى النعمان بن المنذر ملك الحيرة من عيون الشعر الجاهلى .

وقصيدة النابغة :

أتانى - أبيت اللعن - انك لمتنى | وتلك التى أهتم منها وأنصب
ومنها : فانك شمس والملوك كواكب | إذا طلعت لم يبد منهن كوكب

وقصيدته :

أتانى — أبيت اللعن — أنك لمتنى | وتلك التى تستك منها المسامع
والتى منها : فانك كالليل الذى مدركى | وإن خلت أن المنتاى عنك واسع

قصيدتان مشهورتان فى الاعتذار .

(١) أى لله ابن عمك . الديان : القائم بالأمر القاهر . خزاه : ساسه ودبره

وقال النابغة يعتذر إلى النعمان :

فلا لعمرو الذى قد زرته حججا   وما هريق على الأنصاب من جسد
والمومن العائذات الطير يمسحها   ركبان مكة بين الغيل والسند
ما إن نديت بشيء أنت تكرهه   إذاً فلا رفعت سوطى إلى يدى
إذاً فعاقبنى ربى معاقبة   قرت بها عين من يأتيك بالحسد
إلا مقالة أقوام شقيت بهم   كانت مقالتهم قرعا على الكبد
هذا التبرؤ من قول قذفت به   كانت نوافذه حرا على الكبد
مهلا فداء لك الأقوام كلهم   وما أؤمل من مال ومن ولد
أنبئت أن أبا قابوس أوعدنى   ولا قرار على زأر من الأسد

٨ — الحكمة والأخلاق

وهى كثيرة فى الشعر الجاهلى .

تجدها فى معلقة زهير حيث يقول :

ومن يك ذا فضل فيبخل بفضله   على قومه يستغن عنه ويذمم
ومن يغترب يحسب عدوا صديقه   ومن لا يكرم نفسه لا يكرم
ومن لا يذد عن حوضه بسلاحه   يهدم ومن لا يظلم الناس يظلم
ومن لم يصانع فى أمور كثيرة   يضرس بأنياب ويوطأ بمنسم
ومن يجعل المعروف من دون عرضه   يفره ومن لا يتق الشتم يشتم
ومهما تكن عند امرىء من خليقة   وإن خالها تخفى على الناس تعلم
سئمت تكاليف الحياة ومن يعش   ثمانين حولا لا أبالك يسأم
وأعلم ما فى اليوم والأمس قبله   ولكننى عن علم ما فى غد عمى
رأيت المنايا خبط عشواء من تصب   تمته ومن تخطىء يعمر فيهرم

كما تجدها فى معلقة طرفة حيث يقول :

أرى الموت يعتام الكرام ويصطفى   عقيلة مال الفاحش المتشدد

أرى الدهر كنزاً ناقصاً كل ليلة ... وما تنقص الأيام والدهر ينفد
لعمرك إن الموت ما أخطأ الفتى ... لكالطول المرخى وثنياه باليد
وظلم ذوى القربى أشد مضاضة ... على النفس من وقع الحسام المهند
ستبدى لك الأيام ما كنت جاهلا ... ويأتيك بالأخبار من لم تزود
لعمرك ما الأيام إلا معارة ... فما اسطعت من معروفها فتزود
عن المرء لاتسأل وسل عن قرينه ... فكل قرين بالمقارن يقتدى

وفى قصيدة عبيد بن الأبرص البائية حكمة كثيرة وقد رواها صاحب الجمهرة . ويقول منها :

وكل ذى غيبة يؤوب ... وغائب الموت لا يؤوب
من يسأل الناس يحرموه ... وسائل الله لا يخيب
والله ليس له شريك ... علام ما أخفت القلوب
والمرء ما عاش فى تكذيب ... طول الحياة له تعذيب

وكذلك فى دالية عدى بن زيد التى رواها صاحب الجمهرة ويقول منها :

أعاذل ما يدريك أن منيتى ... إلى ساعة فى اليوم أو فى ضحى الغد
أعاذل ما أدنى الرشاد من الفتى ... وأبعده منه إذا لم يسدد
أعاذل إن الجهل من لذة الفتى ... وإن المنايا للرجال بمرصد
ذرينى فإنى إنما لى ما مضى ... أمامى من مالى إذا خف عودى
وللوارث الباقى من المال فاتركى ... عتابى فإنى مصلح غير مفسد
كفى زاجراً للمرء أيام دهره ... تروح له بالواعظات وتغتدى
فنفسك فاحفظها عن الغى والردى ... متى تغوها يغو الذى بك يقتدى
عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه ... فكل قرين بالمقارن يقتدى
وبالعدل فانطق إن نطقت ولا تلم ... وذا الذم فاذممه وذا الحمد فاحمد
عسى سائل ذو حاجة إن منعته ... اليوم سؤلا أن ييسر فى غد

إلى آخر ما فى هذه القصيدة الطويلة من حكم وتجارب وآراء(١). ويقول الأفوه الأودى :

لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم ولا سراة إذا جهالهم سادوا
تهدى الأمور بأهل الرأى ما صلحت فإن تولت فبالأشرار تنقاد

إلى ما سوى ذلك من ألوان الحكمة الكثيرة فى الشعر الجاهلى مما لا داعى إلى الإطالة فى نشر صحائفه ، ويمكنك أن تقرأ قصيدة عبدة بن الطبيب فى المفضليات(٢) التى مطلعها :

أبنى إنى قد كبرت ورابنى بصرى ، وفىّ لمصلح مستمتع

ويقول منها :

ونصيحة فى الصدر صادرة لكم مادمت أبصر فى الرجال وأسمع
أوصيكم بتقى الإله فإنه يعطى الرغائب من يشاء ويمنع
وببر والدكم وطاعة أمره إن الابر من البنين الأطوع
إن الكبير إذا عصاه أهله ضاقت يداه بأمره ما يصنع
إن الذين ترونهم إخوانكم يشفى غليل صدورهم أن تصرعوا

فستجد حكمة وجمالا ونصائح خلقية كريمة .

٩ — الوصف

وهو باب واسع فى الشعر الجاهلى سعة مناظر الحياة ومشاهد الوجود نفسها . ولقد صور الشاعر الجاهلى بيئته وحياته وألوان معيشته فى شعره تصويراً رائعاً بديعاً ، مما لا يمكن إحصاؤه وتعداد القول فيه .

فقد وصف الجبال والرمال والوديان والمياه والأمطار والسيول والبرق

---

(١) راجعها فى الجمهرة ١٧٤ - ١٨٠

(٢) ١٤٣ جـ ١ وما بعدها المفضليات طبع مطبعة المعارف سنة ١٣٦١

والرياح واختلافها . كما وصف الإبل والغنم والخيل والوحش والصيد وما فى بلاده من حيوان ونبات وجماد ، ووصف دياره وأماكن نزوله ومواضع لهوه وكره ، ووصف معارك الحرب والأسلحة التى يستعملها فيها ، ووصف ملابسه وكل ما يتصل به أو ببيئته ، مما نكتفى بالإشارة إلى شواهد قليلة له .

قال امرؤ القيس فى وصف الليل :

وليل كموج البحر أرخى سدوله ... على بأنواع الهموم ليبتلى
فقلت له لما تمطى بصلبه ... وأردف أعجازاً وناء بكلكل
ألا أيها الليل الطويل ألا انجلى ... بصبح وما الإصباح منك بأمثل
فيا لك من ليل كأن نجومه ... بكل مغار الفتل شدت بيذبل

وقال طرفة يصف السفينة :

كأن حدوج المالكية غدوة ... خلايا سفين بالنواصف من دد .
عدولية ، أو من سفين ابن يامن ... يجور بها الملاح طورا ويهتدى
يشق حباب الماء حيزومها بها ... كما قسم الترب المفايل باليد

وقال عنترة يصف روضة :

ولقد مررت بدار عبلة بعد ما ... لعب الربيع بربعها المتوسم
جادت عليه كل عين ثرة ... فتركن كل قرارة كالدرهم
سحا وتسكابا فكل عشية ... يجرى عليها الماء لم يتصرم
وخلا الذباب بها فليس ببارح ... غردا كفعل الشارب المترنم
هزجاً يحك ذراعه بذراعه ... قدح المكب على الزناد الأجذم

ولحسان السعدى يصف القمر :

مهما يكن ريب المنون فانى ... أرى قمر الليل المعذب كالفتى
يهل صغيرا ثم يعظم ضوءه ... وصورته حتى إذا ماهو استوى

تقارب يخبو ضوءه وشعاعه ... ويمصح(١) حتى يستسر(٢) فما يرى

ويصف عنترة الغراب فيقول :

ظعن الذين فراقهم أتوقع ... وجرى ببينهم الغراب الأبقع
خرق الجناح كأن لحيى رأسه ... جلمان ، بالأخبار هش مولع

ويصف فرسه الذى خاض به المعركة فيقول :

ما زلت أرميهم بثغرة نحره ... ولبانه ، حتى تسربل بالدم
فازور من وقع القنا بلبانه ... وشكا إلى بعبرة وتحمحم
لو كان يدرى ما المحاورة اشتكى ... ولكان لو علم الكلام مكلمى
ولقد شفى نفسى وأبرأ سقمها ... قيل الفوارس ويك عنتر أقدم
والخيل تقتحم الخبار عوابسا ... مابين شيظمة وأجرد شيظم

ويصف طرفة ناقته فيقول :

وإنى لأمضى الهم عند احتضاره ... بعوجاء مرقال تروح وتغتدى
أمون كألواح الأران نسأتها ... على لاحب كأنه ظهر برجد
لها فخذان أكمل النحض فيهما ... كأنهما بابا منيف ممرد
فإن شئت لم ترقل وإن شئت أرقلت ... مخافة ملوىّ من القد محصد

إلى آخر هذا الوصف الغريب . وحسبنا فى باب الوصف ذلك فهو ينبىء عن شاعرية موهوبة وملكة مطبوعة .

١٠ — النسيب

وهو من أكثر أبواب الشعر العربى ، وأغزرها ، وقد أكثر الشعراء الجاهليون منه ، وابتدأوا به قصائدهم(٣) .

---

(١) يذهب (٢) يخفى

(٣) لا تكاد تخلو قصيدة منه اللهم إلا قصيدة عمرو بن كلثوم :

ألا هبى بصحنك فاصبحينا ... ولا تبقى خمور الاندرينا

والنسيب هو ذكر جمال المرأة ووصف محاسنها وأثر تبريح الشوق بالشاعر وحنينه اليها وقص ذكرياته مع محبوبته وساعات لقائها ، والديار التى كانت تنزل بها ، ومسارح اللهو واللعب التى كانت تلعب وتلهو فيها ، إلى غير ذلك من حديث الجمال والظمأ اليه وذكريات الحب والحنين والشوق إلى المرأة . والغزل والنسيب متقاربان فى المعنى وإن كان بعض الباحثين يعرف الغزل بأنه « الاشتهار بمودات النساء وتتبعهن والحديث إليهن » ، والتشبيب قاصر على ما يأتى به الشاعر فى مطلع كلامه من ذكر المرأة والأطلال والديار وذكريات اللقاء والحب ، وإن كان بعض الباحثين يرى أن الجميع بمعنى واحد لا اختلاف فى مدلولها .

وامرؤ القيس هو أول من رقق الغزل وأطاله وشبه المرأة بالمها والظبى والظليم ووصف دبيبه اليها وفجوره فى حبه ولهوه مع محبوباته . وهاهى ذى أمثلة للنسيب من الشعر الجاهلى .

قال امرؤ القيس إمام الشعراء ، وشيخ النسيب والغزل ومبتدئه ، من لاميته الطويلة المشهورة :

بلى رب يوم قد لهوت وليلة	بآنسة كأنها خط تمثال
يضيء الفراش وجهها لضجيعها	كمصباح زيت فى قناديل ذبال
كأن على لباتها جمر مصطل	أصاب غضى جزلا وكف بأجذال
ومثلك بيضاء العوارض طفلة	لعوب تنسينى إذا قمت سربالى
تنورتها من أذرعات وأهلها	بيثرب أدنى دارها نظر عال
نظرت اليها والنجوم كأنها	مصابيح رهبان تشب لقفال
سموت اليها بعد ما نام أهلها	سمو حباب الماء حالا على حال
فقالت سباك الله إنك فاضحى	ألست ترى السمار والناس أحوالى
فقلت يمين الله أبرح قاعدا	ولو قطعوا رأسى لديك وأوصالى
فلما تنازعنا الحديث وأسمحت	هصرت بغصن ذى شماريخ ميال

فصرنا إلى الحسنى ورق كلامنا ورضت فذلت صعبة أى اذلال
حلفت لها بالله حلفة فاجر لناموا فما إن من حديث ولاصال
فأصبحت معشوقا وأصبح بعلها عليه القتام كاسف الظن والبال
يغط غطيط البكر شد خناقه ليقتلنى والمرء ليس بقتال
أيقتلنى والمشرفى مضاجعى ومسنونة زرق كأنياب أغوال

وقال الأعشى :

ودع هريرة إن الركب مرتحل وهل تطيق وداعا أيها الرجل؟
غراء فرعاء مصقول عوارضها تمشى الهوينا كما يمشى الوجى الوحل
كأن مشيتها من بيت جارتها مر السحابة لا ريث ولا عجل
ليست كمن يكره الجيران طلعتها ولا تراها لسر الجار تختتل
يكاد يصرعها لولا تشددها إذا تقوم إلى جاراتها الكسل
إذا تقوم يضوع المسك أصورة والزنبق الورد من أردانها شمل
ما روضة من رياض الحزن معشبة خضراء جاد عليها مسبل هطل
يضاحك الشمس منها كوكب شرق مؤزر بعميم النبت مكتهل
يوماً بأطيب منها نشر رائحة ولا بأحسن منها إذ دنا الأصل
قالت هريرة لما جئت زائرها ويلى عليك وويلى منك يا رجل
اما ترانا حفاة لا نعال لنا إنا كذلك ما نحفى وننتعل
وقد أخالس رب البيت غفلته وقد يحاذر منى ثم ما يئل
وقد أقود الصبى يوماً فيتبعنى وقد يصاحبنى ذو الشرة الغزل

وقال النابغة :

عوجوا فحيوا لنعم دمنة الدار ماذا تحيون من نؤى وأحجار؟
أقوى وأقفر من نعم وغيره هوج الرياح بهابى الترب موار
وقفت فيها سراة اليوم أسألها عن آل نعم أمونا عبر أسفار

فاستعجمت دار نعم ما تكلمنا   والدار لو كلمتنا ذات أخبار
فما وجدت بها شيئا ألوذ به   إلا الثمام وإلا موقد النار
وقد أرانى ونعماً لاهيين بها   والدهر والعيش لم يهمم بامرار
أيام تخبرنى نعم وأخبرها   ما أكتم الناس من حاجى وأسرارى
لولا حبائل من نعم علقت بها   لأقصر القلب عنها أى إقصار
نبئت نعماً على الهجران عاتبة   سقياً ورعياً لذاك العاتب الزارى
رأيت نعماً وأصحابى على عجل   والعيس للبين قد شدت بأكوار
فريع قلبى وكانت نظرة عرضت   حيناً وتوفيق أقدار لأقدار
بيضاء كالشمس وافت يوم أسعدها   لم تؤذ أهلا ولم تفحش على جار
والطيب يزداد طيباً أن يكون بها   فى جيد واضحة الخدين معطار
أقول والنجم قد مالت أواخره   إلى المغيب ، تثبت نظرة حار
ألمحة من سنا برق رأى بصرى   أم وجه نعم بدا لى أم سنا نار
بل وجه نعم بدا والليل معتكر   فلاح من بين أثواب وأستار

وقال المخبل السعدى :

ذكر (الرباب)، وذكرها سقم   فصبا وليس لمن صبا حلم (١)
وإذا ألم خيالها طرفت   عينى ، فماء شؤونها سجم (٢)
كاللؤلؤ المسجور أغفل فى   سلك النظام فخانه النظم (٣)
وأرى لها داراً بأغدرة السيـ   ـدان لم يدرس لها رسم (٤)

---

(١) الرباب : اسم محبوبته ـ الصبوة : العشق ، الحلم : العقل

(٢) الشؤون : مجارى الدمع واحدها شأن ، سجم مصدر من سجم الدمع : سال والمراد بالمصدر اسم الفاعل

(٣) المسجور ، المنظوم المسترسل ، أغفل ، أهمل ، والمعنى أنه حين يرى خيال حبيبته تسيل دموعه كأن قطراتها در منظوم فى سلك انقطع فتحدر منه الدر

(٤) الأغدرة جمع غدير ، السيدان : أرض لبنى سعد قوم المخبل ، الرسم : الأثر بلا شخص ، درس : عفا وذهب ، يريد أن دار حبيبته لم تذهب آثارها

إلا رماداً هامداً دفعت عنه الرياح خوالد سحم (١)

فكأن ما أبقى البوارح وال أمطار من عرصاتها الوشم (٢)

وكأن أطلاء الجآذر وال غزلان حول رسومها البهم (٣)

والمخبل أبو يزيد التميمي السعدى ، شاعر مشهور ، واسمه ربيعة بن مالك عمر فى الجاهلية والإسلام طويلا ، ومات فى خلافة عمر أو عثمان وهو شيخ كبير (راجع ترجمته فى الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٩٦ ط الخانجى ٣٢٢ ، هـ ، و١٧٧ المؤتلف للآمدى)

والقصيدة عالية الطبقة فى البلاغة ، رواها صاحب المفضليات وذكر منها أربعين بيتا .

بل بقيت بعض رسومها ، فهو حين يراها ، يذكر صاحبته ويحزن كثيرا لفراقها و بعدها

(١) هامد : خامد ، وإنما همد لطول مكثه . الخوالد : البواقى قصد بها الأثافى وهى الحجارة التى تنصب عليها القدور . سحم من السحمة وهو لون يضرب إلى السواد . يريد أن الأثافى حفظت الرماد من أن تذروه الرياح .

وقوله «إلا رمادا» «إلا» هنا بمعنى الواو كما يقول أبو عبيدة ، يقول: وأرى لها رمادا .

(٢) « ما » اسم موصول . البوارح الرياح الشديدة من الشمال خاصة وهى من رياح الصيف . العرصات : جمع عرصة وهى ساحة الدار . الوشم : النقش فى اليد .

والمعنى : أن الآثار الباقية من دار حبيبته التى كادت تعفوها الرياح والامطار تبدو كأنها الرسم المنقوش فى اليد .

(٣) الاطلاء : جمع طلا وهو الصغير من ذوات الظلف . الجآذر : جمع جؤذر وهو الصغير من ولد البقر . البهم . صغار أولاد المعزى الواحدة بهمة

وقد بدأها الشاعر بالذكرى والطيف، ووصف دار صاحبته الدارسة ثم وصف جمالها وبياض وجهها وكثافة فرعها، ثم أنحى على لائمته التي لامته على كرمه وإنفاقه، واحتج بأن الخلود في البذل والجود لا في الثراء والشح، وبأن المنية غاية الاحياء ومنها:

ولقد تحل بها الرباب لها سلف يفل عدوها فخم (١)
بردية سبق النعيم بها أقرانها وعلا بها عظم (٢)
وتريك وجها كالصحيفة لا ظمآن مختلج ولا جهم (٣)
كعقيلة الدر استضاء بها محراب عرش عزيزها العجم (٤)
وتضل مدراها المواشط في جعد أغم كأنه كرم (٥)

وتقول عاذلتي وليس لها بغد ولا ما بعده علم (٦)
إن الثراء هو الخلود وإن المرء يكرب يومه العدم (٧)

---

(١) السلف: الخيل المتقدمة. يفل، يهزم، يريد أن قومها ذوو شجاعة واستعداد ضخم في الحرب

(٢) بردية أي كبردية، يشبهها بالبردي في صفائها وبياضها واستوائها، علا: ارتفع، المعنى أنها بيضاء زاد النعيم والترف في شبابها حتى لتراها كبيرة السن عن أقرانها وهي صغيرة، كبيرة الجسم والعظم.

(٣) يشبه وجهها بالصحيفة لملاسته ولينه، المختلج: القليل اللحم الضامر. الجهم: الكثير اللحم البشع.

(٤) العقيلة: الكريمة، وعقيلة كل شيء خيرته. العجم فاعل استضاء وهو لازم، ومحراب منصوب على نزع الخافض، والمحراب صدر المجلس

(٥) المدرى: المشط. الجعد: الشعر المتقبض ليس بالسبط. الأغم: الشعر الكثير. الكرم. شجر العنب شبهه به لكثرته

(٦) العاذلة: اللائمة

(٧) يكرب: يدنى. العدم: الفقر

إنى وجــدك ما تخلدنى   مائة يطير عفاؤها ، أدم (١)
ولئن بنيت لى المشقر فى   هضب تقصر دونه العصم (٢)
لتنقبن عنى المنيـــة إن الله ليس كحكمـه حـكم (٣)
إن وجدت الأمر أرشده   تقوى الأله وشره الأثم (٤)

وقال المنخل اليشكرى وهو شاعر جاهلى كان يعاصر النابغـة ونادم النعمان بن المنذر :

ولقد دخلت علـى الفتا   ة الخـدر فى اليوم المطير
الـكاعب الحسناء تر   فل فى الدمقس وفى الحرير
فدفعتهـــا فتـدافعت   مشى القطاة إلى الغدير
ولثمتهـا فتنفست   كتنفس الظبى الغرير
فـدنت وقالت يا منخــل ما بجسمك من حرور
ما شف جسمى غير حبـــك فاهدئى عنى وسيرى
وأحبهـــا وتحـبنى   ويحب ناقتهـا بعــيرى

وقال ورد الجعدى :

خليـلى عوجا بارك الله فيـكما   وإن لم تـكن هند لأرضكما قصدا
وقولا لها ليس الضلال أجارنا   ولـكننا جرنا لنلقاكمو عمـدا

وقال المرقش الأكبر :

---

(١) يطير عفاؤها : يذهب وبرها من سمن . الأدم : الإبل الخالصة البياض
(٢) المشقر : حصن بالبحرين ، وكان المخبل وأولاده قد هاجروا إلى البصرة وأقام بعض أبنائه بالاحساء والبحرين ، وهم شعراء . العصم : الوعول واحدها أعصم يريد أن الهضبة عالية لا ترقاها الوعول
(٣) تنقب : تبحث : المنية : الموت
(٤) أرشده من الرشد وهو الهدى والاستقامة . الاثم : الذنب

وهى قصيدته المفردة فى الغزل (١) :

سرى ليلا خيال من سليمى ... فأرقنى وأصحابى هجود
فبت أدير أمرى كل حال ... وأرقب أهلها وهو بعيد
على أن قد سما طرفى لنار ... يشب لها بذى الأرطى وقود (٢)
حواليها مهاجم التراقى ... وأرآم وغزلان رقود
نواعم لا تعالج بؤس عيش ... أوانس لا تراح ولا ترود
سكن ببلدة وسكنت أخرى ... وقطعت المواثق والعهود
فما بالى أفى ويخان عهدى ... وما بالى أصاد ولا أصيد
ورب أسيلة الخدين بكر ... منعمة لها فرع وجيد
وذو أشر شتيت النبت عذب ... نقى اللون براق برود
لهوت بها زماناً من شبابى ... وزارتها النجائب والقصيد
أناس كلما أخلقت وصلا ... عنانى منهم وصل جديد

وقال طرفة : (وهى قصيدته المفردة فى الغزل) ، ومطلعها :

أتعرف رسم الدار قفرا منازله ... كجفن اليمانى زخرف الوشى مائله

ومنها :

ديار سليمى إذ تصيدك بالمنى ... وإذ حبل سلمى منك دان تواصله
وإذ هى مثل الرئم صيد غزالها ... لها نظر ساج إليك تواغله
غنينا وما نخشى التفرق حقبة ... كلانا غرير ناعم العيش باجله
ليالى أقتاد الصبا ويقودنى ... يجول بنا ريعانه ونجاوله

ثم يصف خيالها ، ويتعجب لاهتدائه إليه ثم يقول :

وقد ذهبت سلمى بعقلك كله ... فهل غير صيد أحرزته حبائله ؟

---

(١) راجعها فى المفضليات ٢٣ ج ٢ طبع دار المعارف ١٣٦١ هـ

(٢) سما : ارتفع . يشب : يرفع الحطب حوالها وهو الوقود . الأرطى بسكون الراء : شجر ينبت فى الرمل : وذو الأرطى : موضع

كما أحرزت أسماء قلب مرقش   بحب كلمع البرق لاحت مخايله

ثم يذكر قصة المرقش مع محبوبته أسماء ، ويختمها بقوله :

فوجدى بسلمى مثل وجد مرقش   بأسماء إذ لا تستفيق عواذله

قضى نحبه وجدا عليها مرقش   وعلقت من سلمى خيالا أماطله

النقد الأدبي في الجاهلية

- ١ -

النقد الأدبي هو الحكم الذى تصدره على الشعر والنثر ؛ وهو عند المحدثين تقدير النص الأدبي تقديراً صحيحاً وبيان قيمته ودرجته الأدبية (١) وهو كما أقول : تحليل الآثار الأدبية والحكم عليها وبيان قيمتها الأدبية والموازنة بينها وبين ما يشابهها من الآثار ، وأصول النقد قراءة وفهم وتفسير وحكم ، والغرض منه دراسة الأساليب أو الكتاب أو الآراء والأفكار (٢)

لم يكن النقد الأدبي عند العرب فى أول نشأته بهذا اللون من الدراسة والموازنة ، إنما كان تعبيرا خاطفا ينم عن رأى فى الإجادة أو الاستهجان للنصوص الأدبية العامة ، ثم تدرج فى الدقة فى أحكامه الأدبية عصراً بعد عصر حتى وصل إلى ماهو عليه وعلى مانفهمه الآن .

نشأ النقد فى الجاهلية مرتجلا ، وكان هينا يسيرا ملائما لروح العصر وللشعر العربى نفسه (٣) ، عربى النشأة كالشعر لم يتأثر بمؤثرات أجنبية ولم يقم إلا على الذوق العربى السليم (٤) .

وجد فى أطوار تهذيب الشعر وفى اختيار المعلقات وتعليقها على الكعبة (٥)

---

(١) أصول النقد الأدبي للشايب (٢) ٩٠ وما بعدها مقدمة لدراسة بلاغة العرب (٣) ٢٤ تاريخ النقد الأدبي عند العرب (٤) ٢٥ تاريخ النقد الأدبي عند العرب (٥) ٣٧٩:٣ العقد

وفى حكومة أم جندب بين امرىء القيس وعلقمة (١) . وحكومة النابغة بين الشعراء وكان تضرب له قبة حمراء فى عكاظ ويأتيه الشعراء وينشدونه أشعارهم (٢) ، ومن حكم ربيعة بن حذار الأسدى على الزبرقان بن بدر والمخبل السعدى وعبدة بن الطبيب وعمرو بن الأهتم (٣) ، ووجد فى نقد الشعراء للشعر ، فامرؤ القيس يمر بكعب وأخويه : الغضبان والقعقاع فأنشدوه فقال : إنى لأعجب كيف لا تمتلىء عليكم نارا جودة شعركم فسموا ابنى النار (٤) ويقول النابغة : أشعر الشعراء من استجيد كذبه وأضحك رديئه (٥) ، وسمى كعب الغنوى كعب الأمثال لكثرة ما فى شعره (٦) منها ، وسمى طفيل الغنوى طفيل الخيل لكثرة وصفه إياها ، والنمر بن تولب المحبر لحسن شعره (٧) ، وسموا قصيدة سويد بن أبى كاهل : « بسطت رابعة الحبل لنا » اليتيمة كما سموا بعد ذلك خطبة لسحبان الشوهاء لحسنها (٨) ، ويقول زهير ويروى لحسان :

وإن أشعر بيت أنت قائله بيت يقال إذا أنشدته صدقا

ورأى لبيد بعد شيخوخته أن أشعر الناس امرؤ القيس ثم طرفة ثم نفسه (٩) إلى غير ذلك من مظاهر النقد فى الجاهلية .

---

(١) ١٢٨ : ٨ الأغانى ، ونقد الرافعى هذه الحكومة (٢٢٥ - ٢٣٤ : ٣ آداب العرب للرافعى) وتابعه فى ذلك محمد هاشم (١٨٤ الأدب العربى فى العصر الجاهلى) ويرتاب باحث فى صحة هذه الحكومة ويرى جورها ويقول : ولعل ذلك مما حمل ابن المعتز على أن ينكر هذه القصيدة فيما أنكره من شعر أمرى القيس (٢١ و ٢٢ تاريخ النقد الادبى عند العرب)

(٢) ١٢٣ الشعر والشعراء

(٣) ١٤ تاريخ النقد الادبى عند العرب و ٧٥ موشح (٤) ٧٠ من المؤتلف للآمدى

(٥) ٢٥٦ سر الفصاحة لابن سنان ، ٥٠ و ٥٨ : ٢ العمدة

(٦) ٣٤١ معجم الشعراء

(٧) ١٨٤ المؤتلف ، ١١٢ : ٢ العمدة (٨) ٢٢٥ : ١ البيان والتبيين

(٩) ٢٠ الجمهرة ، ٣٨٠ : ٣ . ويقول ابن عبد ربه :

- ٢ -

صورة من النقد الأدبى فى الجاهلية :

١ - كان النابغة تضرب له قبة حمراء فى سوق عكاظ فتأتيه الشعراء وتنشده أشعارها ، فأتاه الأعشى فأنشده ، ثم أتاه حسان فأنشده ، فقال لولا أن أبا بصير أنشدنى آنفا لقلت أنك أشعر الجن والإنس ، قال حسان والله لأنا أشعر منك ومن أبيك وجدك ، فقبض النابغة على يده ثم قال يا ابن أخى أنت لا تحسن أن تقول :

فإنك كالليـل الذى هو مدركى   وإن خلت أن المنتأى عنك واسع

ثم قال للخنساء وقد أنشدته :

قذى بعينك أم بالعين عوار   أم أقفرت إذ خلت من أهلها الدار؟

فلما بلغت قولها ،

وإن صخرا لتأتم الهداة به   كأنه علـم فى رأسه نار

قال : ما رأيت ذا مثانة أشعر منك قالت ولا ذا خصيتين (١) وتزاد فى هذه الرواية زيادات فيها مبالغة كثيرة تتصل بنقد قول حسان :

لنا الجفنات الغر يلمعن بالضحى   وأسيافنا يقطرن من نجدة دما
ولدنا بنى العنقاء وابنى محرق   فأكرم بنا خالا وأكرم بنا ابنما

وهى مشهورة ولا داعى لذكرها .

٢ - وسمع طرفة وهو صغير بيت خاله المسيب بن علس :

وقد أتناسى الهم عند احتضاره   بناج عليـه الصيعرية مكدم

وهذا - أى تفضيل شاعر وأنه أشعر الشعراء - مما لا يدرك غايته ولا يوقف على حد منه والشعر لا يفوت به أحد ولا يأتى منه بديع إلا أتى ماهو أبدع منه ، ولله در القائل : أشعر الناس من أنت فى شعره (٣:٣٨١ العقد)

(١) راجع ١٢٣ الشعر والشعراء

فنقده وأزرى بقوله : « استنوق الجمل »، لأنه وصف الفحل بالصيعرية وهى عندهم من صفات إناث الإبل .

٣ — وتنازع امرؤ القيس وعلقمة بن عبدة حول قصيدتين لهما وأيهما أشعر من الآخر ، والقصيدتان فى وصف الفرس والصيد ، ومطلع قصيدة امرىء القيس :

خليلى مرا بى على أم جندب   لنقضى حاجات الفؤاد المعذب

ومطلع قصيدة علقمة :

ذهبت من الهجران فى كل مذهب   ولم يك حقا كل هذا التجنب

فتحاكما إلى أم جندب الطائية زوج امرىء القيس ، ففضلت علقمة عليه، قالت وقد سمعت قول امرىء القيس :

فللسوط ألهوب وللساق درة   وللزجر منه وقع أهوج منعب (١)

وقول علقمة :

فأدرك لم يجهد ولم يثن شأوه   يمر كمر الرائح المتحلب

فقالت له : فرس علقمة أجود من فرسك لأنك حركته بساقك وامتريته بسوطك وزجرته بصوتك ، وأدرك فرس علقمة ثانيا من عنانه

٤ — وقال الأعشى يمدح قيس بن معديكرب :

ونبئت قيساً ولم أبله   وقد زعموا ساد أهل اليمن

فعابوا عليه قوله « زعموا » .

٥ — وتحاكم الزبرقان بن بدر وعمرو بن الأهتم وعبدة بن الطبيب والمخبل السعدى إلى ربيعة بن حذار الأسدى فى الشعر أيهم أشعر فقال الزبرقان : أما أنت فشعرك كلحم أسخن لا هو أنضج فأكل ولا ترك نيئا فينتفع به . وأما أنت

---

(١) الالهوب : شدة الجرى . الدرة : الجرى اللين . الأهوج : الأحمق . المنعب : الذى يستعين بصوته .

يا عمر فإن شعرك كبرود حبر يتلألأ فيها البصر فكلما أعيد فيها النظر نقص البصر . وأما أنت يا مخبل فإن شعرك قصر عن شعرهم وارتفع عن شعر غيرهم ، وأما ما أنت يا عبدة فإن شعرك كمزادة أحكم خرزها فليس تقطر ولا تمطر (١)

وتروى برواية أخرى فى المرجع نفسه وهو الموشح ، قال المرزبانى : اجتمع الزبرقان وعمرو بن الاهتم وعبدة بن الطبيب والمخبل التميميون فى موضع فتناشدوا أشعارهم فقال لهم عبدة : والله لو أن قوماطاروا من جودة الشعر لطرتم فإما أن تخبرونى عن أشعاركم وإما أن أخبركم قالوا : أخبرنا . قال : فإنى أبدأ بنفسى ، أما شعرى فمثل سقاء وكيع (٢) وغيره من الأسقية أوسع منه .

وأما أنت يا زبرقان فإنك مررت بجزور منحورة فأخذت من أطايبها وأخابثها (٣) .

إلى غير ذلك من مظاهر النقد فى الجاهلية

فنون الشعر الجاهلى أو اغراضه

- ١ -

أغراض الشعر هى فنونه وموضوعاته التى يقول فيها الشعراء من مدح وهجاء وفخر ورثاء وغزل وحكمة وما شا كل هذه الموضوعات التى عرفها الشعر والشعراء من قديم .

وأغراض الشعر طرقها الشعراء فنا ولكن لم يصطلحوا عليها اصطلاحا ، وكانت « أقسام الشعر فى الجاهلية كما يقول أبو هلال خمسة : المديح والهجاء والوصف والتشبيب والمراثى حتى زاد فيها النابغة سادساً هو الاعتذار فأحسن فيه ولا أعرف أحداً من المحدثين بلغ مبلغه فيه إلا البحترى (٣) ،

---

(١) ٧٥ موشح (٢) شديد (٣) ٩١ - ١ ديوان المعانى .

وليس للعرب شيء ينسب إلى التهاني وما جاء عنهم من شكلها فهو من جملة المدح(١)

وقالوا : بنى الشعر على المدح والهجاء والنسيب والرثاء ، وقالوا : قواعد الشعر : الرغبة ومنها يكون المدح والشكر ، والرهبة ومعها يكون الاعتذار والاستعطاف ، والطرب ومعه يكون الشوق ورقة النسيب ، والغضب ومعه يكون الهجاء والعتاب . وقال الرماني : أكثر أغراض الشعر خمسة : النسيب والمدح والهجاء والفخر والوصف (٢)

وقالوا : للشعراء فنون كثيرة تجمعها أربعة : المديح والهجاء والحكمة واللهو ، ثم يتفرع من كل صنف من ذلك فنون : فمن المديح المراثى والافتخار والشكر واللطف فى المسألة وغير ذلك مما أشبهه وقارب معناه ، ومن الهجاء الذم والعتب والاستبطاء والتأنيب وما أشبه ذلك وجانسه ، ومن الحكمة الأمثال والتزهيد والمواعظ وما شاكل ذلك ، ومن اللهو الغزل والطرد وصفة الخمر وما أشبه ذلك وقاربه (٣) . وأول من عد فنون الشعر وميز بينها تمييزاً هو أبو تمام فإنه رتب كتابه الحماسة فى عشرة أبواب : الحماسة ، والمراثى ، والأدب ، والتشبيب ، والهجاء ، والأضياف والمديح ، والصفات ، والسير ، والملح ومذمة النساء .

أما البحترى فقد خالف أبا تمام فى ذلك وجعل حماسته التى عارض بها حماسة أستاذه أبى تمام ١٧٤ بابا وأهداها للفتح بن خاقان . ونجد الحماسة البصرية(٤) لأبى الحسن البصرى اثنى عشر بابا : الحماسة والمديح . الرثاء . الأدب . الغزل . الأضياف . الهجاء . مذمة النساء . الصفات . النعوت . السير . الأكاذيب والخرافات . الزهد

ويجعل عبد العزيز بن أبى الأصبع أغراض الشعر ثمانية عشر(٥) .

---

(١) ٩٢ : ١ المرجع السابق (٢) ١٠٠ : ١ العمدة
(٣) ٨١ نقد النثر (٤) ٥٢٠ أدب مخطوط بدار الكتب الملكية
(٥) ٧١ : ٣ تاريخ آداب العرب للرافعى .

ورواة الشعر العربي في العصور الأولى كان لهم أثر كبير في تقسيم الشعر إلى فنون وأبواب :

فجامع ديوان أبي نواس(١) يقسمه إلى فنون ثمان : المديح . المراثي . العتاب . الهجاء . الزهد . الطرد . الخمريات . الغزل والمجون

وديوان أبي تمام(٢) مقسم إلى أبواب : المديح . المراثي . المعاتبات . الأوصاف . الغزل . الفخر . الهجاء

وديوان ابن المعتز رواية الصولي مقسم إلى عشرة أبواب : الفخر . الغزل المديح . الهجاء . الخمريات . المعاتبات . الطرد . الأوصاف . الرثاء . الزهد.

وكان كثير من دواوين الشعر ترتب بحسب الحروف الهجائية للقوافي لا بحسب الأغراض، ومنها ديوان البحتري(٣)، أما ديوان ابن الرومي فلم يطبع إلا مختارات منه ولا نعلم على أي نهج سار جامعه في ترتيب شعره(٤) على أنه ليس من السهل تقسيم الشعر العربي إلى أبواب شاملة تستوعب جميع ما جادت به قرائح الشعراء. فالأبواب التي يطرقها الشعراء تختلف باختلاف العصور وباختلاف شخصيات الشعراء .

وبعض العلماء والنقاد يدخل بعض هذه الفنون في بعض . فقدامة يرجع في نقد الشعر الرثاء إلى المدح ويرى أن لا فرق بينهما إلا في اللفظ دون

---

(١) اعتنى بجمع شعره جماعة منهم الصولي وعلي بن حمزة الأصفهاني وإبراهيم ابن أحمد الطبري .

(٢) جمعه الصولي ورتبه على الحروف وجمعه علي بن حمزة الاصفهاني ورتبه على الأنواع (٢٨٣ : ١ كشف الظنون)

(٣) جمعه الصولي ورتبه على الحروف وجمعه علي بن حمزة الاصفهاني ورتبه على الأنواع (٣٧٨ : ١ كشف الظنون)

(٤) عمل شعره ورتبه على الحروف الصولي وجمعه أبو الطيب وراق ابن عبدوس من جميع النسخ فزاد فيه نحو ألف بيت وابن سينا انتخبه وشرح مشكلات شعره (٢٨٢ : ١ كشف)

المعنى(١)، وإن كان هذا لم يحل بينه وبين أن يجعل أغراض الشعر ستة: المديح والهجاء والرثاء والتشبيه والوصف والنسيب.

وأغراض الشعر عند ابن رشيق كما عدها في عمدته: النسيب والمديح والافتخار والرثاء والاستنجاز والعتاب والوعيد والانذار والهجاء والاعتذار

ثم جاء البارودى فى العصر الحديث فسار قريبا من نهج أبى تمام فى تقسيم الشعر إلى فنونه المختلفة وهى عنده سبعة: الأدب والمديح والرثاء والصفات والنسيب والهجاء والزهد.

هذا وأدباء الغرب يجعلون أبواب الشعر عامة ثلاثة: الشعر القصصى أو شعر الملاحم، والشعر الغنائى أو الانشادى والشعر التمثيلى أو المسرحى، وهذه الأقسام الثلاثة قد ظهرت للمرة الأولى فى الأدب اليونانى ثم أخذ الرومان يقلدون اليونان فى فنونهم وسار الأدب اللاتينى فى الطريق التى سار فيها الأدب اليونانى، وفى عهد النهضة أخذ الأوربيون يدرسون الأصول اليونانية فتأثرت بها آدابهم تأثراً مباشراً، وبنى الشعر الأوربى الحديث على الأصول اليونانية اللاتينية من حيث الأقسام الثلاثة المعروفة(٢)، والعرب مع اطلاعهم على علوم اليونان وفلسفتهم لم يهتموا بالإنتاج الأدبى اليونانى فلم يصل فن التمثيل إلى البلاد العربية إلا فى العصر الحديث عن طريق الغربيين، كذلك لم ينشىء شعراء العربية قصصاً منظومة على طريقة الإلياذة(٣) والشعر العربى الذى بأيدينا اليوم كله من الشعر الغنائى(٤).

— ٢ —

وبعد فإنى أرى أن يقسم الشعر إلى أقسام يكون من أهمها:

١ — الشعر الوجدانى، وهو الذى يصف عواطف النفس ومشاعرها وآمالها وآلامها وأحزانها ومسراتها وحبها ولهوها

---

(١) ٦١ نقد الشعر

(٢) ٢٥٨ التوجيه الأدبى (٣) ٢٢٠ المرجع. ويمكننا اعتبار أرجوزة ابن المعتز في المعتضد وتاريخه من شعر الملاحم والقصص (٤) ٢٢١ التوجيه

٢ — الشعر الاجتماعى ، وهو الذى يحدثك عن المجتمع وحالته والبيئة والمؤثرات فيها والشخصيات وأثرها الاجتماعى فى حياة المجموعة العامة

٣ — الشعر السياسى ، ويتناول وصف الحياة السياسية وأحداثها والرجال الذين بيدهم زمام الأمور فى الدولة ممن تربطهم بالشاعر صلات خاصة أو عامة

٤ — شعر الآداب والحكم والأخلاق

٥ — الشعر الفنى ، وهو الذى يصور الحيـــاة ويصف مظاهر الطبيعة والأحياء ويرسم لك صورا حية لكل مافى الوجود من كائنات .

٦ — الشعر الإنسانى الذى يتناول وصف أحداث الحياة والكون والوجود وقضايا البشرية العامة ، وحقائق الحياة الخالدة ، بالعرض والتفصيل .

ولكن لا ضير علينا فى أن نقول إن الشعر الجاهلى ينقسم الى فنون كثيرة منها : المدح . الهجاء . الرثاء . الفخر . الوصف . الغزل . الاعتذار . الحماسة . الحكمة . العتاب

وسيأتى الكثير من مثل كل فن من هذه الفنون والشواهد له من صميم الشعر الجاهلى وعيونه

معانى الشعر الجاهلى

١ — يقول الآمدى فى الموازنة : « وهذا مذهب من مذاهب العرب عام فى أن يصفوا الشىء على ما هو وعلى ما شوهد من غير اعتماد لإغراب ولا إبداع(١) » ، ويقول فى امرىء القيس :

« وبهذه الخلة — لطف المعانى — دون ماسواها ، فضل امرؤ القيس ، لأن الذى فى شعره من دقيق المعانى وبديع الوصف ولطيف التشبيه وبديع الحكمة ، فوق ما استمار سائر الشعراء ، من الجاهلية والإسلام ، حتى إنه لا تكاد تخلو له قصيدة واحدة من أن تشتمل من ذلك على نوع وأنواع ،

---

(١) ١٨٩ الموازنة طبعة صبيح

ولولا لطيف المعاني ، واجتهاد امرىء القيس فيها ، وإقباله عليها ، لما تقدم على غيره ، ولكان كسائر شعراء أهل زمانه ، إذ ليست له فصاحة توصف بالزيادة على فصاحتهم ، ولا لألفاظه من الجزالة والقوة ما ليس لألفاظهم ، ألا ترى أن العلماء بالشعر إنما احتجوا فى تقديمه بأن قالوا هو أول من شبه الخيل بالعصى وذكر الوحش والطير ، وأول من قال « قيد الأوابد » ، وأول من قال كذا وكذا . فهل هذا التقديم إلا لأجل معانيه(١) » .

وهكذا نجد بعض التصوير لمعاني الشعر الجاهلي فى كتب الأدب والنقد كالوساطة والصناعتين وسر الفصاحة وسواها .

ب - وبعد فمعاني الشعر الجاهلي تمتاز بما يأتي :

١ - البساطة والوضوح والصدق وعدم التكلف أو الإغراق ، وقلة المبالغة ، وإنما يعبر الشاعر الجاهلي عن المعاني التى تدور بخلده فى سذاجة وصدق ويسر لا مثيل لهما .

وما فى الشعر الجاهلي من بعض المبالغات ، مثل قول النابغة فى السيوف :

تقد السلوقى المضاعف نسجه ... وتوقد بالصفاح نار الحباحب

وقول امرىء القيس :

من القاصرات الطرف لو دب محول ... من الذر فوق الإتب منها لأثرا

وقوله :

تنورتها من أذرعات وأهلها ... بيثرب أدنى دارها نظر عالى

وقول المتلمس :

أحار إنا لو تساط(١) دماؤنا ... تزايلن حتى لا يمس دم دما

---

(١) ١٨٠ و ١٨١ المرجع . وقد ذكر ابن رشيق بعض ما اخترعه امرؤ القيس من معاني الشعر (٢٣٢ : ٢ العمدة) : وكذلك ابن سلام فى طبقات الشعراء (٢٦ طبقات الشعراء) ، و ٢٩٧ : ٢ المزهر للسيوطى . (٢) أى تخلط

يقول إن دماءهم تمتاز من دماء غيرهم ، وهذا ما لا يكون كما يقول ابن قتيبة(١) :

وقول المهلهل :

ولولا الريح أسمع من بحجر صليل البيض تقرع بالذكور(٢)

وقول عنترة :

وأنا المنية فى المواطن كلها والطعن منى سابق الآجال

وقول النمر بن تولب فى السيف :

تظل تحفر عنه إن ضربت به بعد الذراعين والساقين والهادى

وإنما كل هذه المبالغات مثل مفردة فى الشعر الجاهلى الذى يمتاز فى عمومه بقلة المبالغة والتكلف والتهويل فى الوصف لأن الشعراء الجاهليين كانوا يسلكون دائماً فى معانيهم التعبير الصادق الواضح الساذج البرىء من الغلو والإسراف .

٢ — عدم تركيب المعانى أو تعقيدها ، وقلما تجد معانى مركبة فى الشعر الجاهلى ، وإنما قد توجد معانى حسية متعددة تلاحظ أشكالها وألوانها كأنها متصلة بعضها عن البعض الآخر ، كقول النابغة :

فانك شمس والملوك كواكب إذا طلعت لم يبد منهن كوكب

وقول امرىء القيس :

كأن قلوب الطير رطبا ويابساً لدى وكرها العناب والحشف البالى

وقول زهير يشبه امرأة بثلاث أشياء فى بيت واحد :

نازعت المها شبها ، ودر البحور ، وشاكهت فيها الظباء

فأما ما فويق العقد منها فمن أدماء مرتعها الخلاء

وأما المقلتان فمن مهاة وللدر الملاحة والصفاء

---

(١) ٥٢ الشعر والشعراء (٢) هى أصلب الحديد وأشده يبسا

وقول امرىء القيس :

كأن المدام وصوب الغمام وريح الخزامى ونشر القطر
يعل به برد أنيابها إذا طرب الطائر المستحر

٣ - المعانى فى الشعر الجاهلى مستمدة من أوصاف حسية ولا أثر للمعانى العقلية فيها ، فتجد امرأ القيس حين يصف الليل يقول :

وليل كموج البحر أرخى سدوله على بأنواع الهموم ليبتلى
فقلت له لما تمطى بصلبه وأردف أعجازا وناء بكلكل
ألا أيها الليل الطويل ألا انجلى بصبح وما الأصباح منك بأمثل

ويقول النابغة :

فإنك كالليل الذى هو مدركى وإن خلت أن المنتأى عنك واسع

إلى غير ذلك من المناظر الحسية المشاهدة .

٤ - ومعانى الشعر الجاهلى مستمدة من البيئة العربية فى العصر الجاهلى ، وهى تصورها تمام التصوير لأنها تعبير دقيق عن الحياة الجاهلية : سلاما وحربا ، وجدا ولهوا ، وفرحا وحزنا ، وألما وأملا . كما تكثر فى الشعر الجاهلى أوصاف جبال الجزيرة وصحراواتها وقفارها ووديانها ومياهها وأوصاف أعشابها وحيواناتها وخيامها ومنازلها إلى غير ذلك مما يتصل بالبيئة الجاهلية ويصورها تمام التصوير ، ألا ترى إلى قول امرىء القيس :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل

كيف ذكر الأماكن وحددها هذا التحديد الجميل الدقيق ؟

٥ - قلة ترتيبهم للمعانى أو تأنقهم فى نظمها ، إنما كانوا يرسلون الكلام على ما خيلت نفوسهم واستدعته فطرتهم وسجيتهم وبديهتهم ، فيدخلون معنى فى معنى وينتقلون من غرض إلى غرض فى اقتضاب واضح دون عناية بالتلطف وحسن التخيل فى الانتقال ، وأحيانا يقولون : دع ذا وعد عن ذا

ويكتفون بها فى الانتقال من معنى إلى معنى ومن غرض إلى غرض ، كما قال زهير فى هرم بن سنان يمدحه :

دع ذا وعد القول فى هرم   خير البداة وسيد الحضر

وسبب ذلك أمية العرب وبداوتهم وقلة حظهم من الثقافة والتفكير الحضرى العميق .

جـ — ويمتاز امرؤ القيس كما سبق بابتكاره المعانى الجديدة الكثيرة مما اتبعته الشعراء فيها . وكان أوس بن حجر عاقلا فى شعره كثير الوصف لمكارم الأخلاق ، وهو من أوصفهم للخمر والسلاح ولا سيما القوس ، وسبق إلى دقيق المعانى وإلى أمثال كثيرة(١) ، وكان أبو دؤاد الإيادى أحد نعات الخيل المجيدين(٢) ، وكان الأعشى أوصفهم للخمر والحمر وأمدح وأهجى(٣) ، إلى آخر هذه النواحى التى امتاز بها الشعراء الجاهليون فى المعانى وفنون الشعر .

أخيلة الشعر الجاهلى

الخيال فى الشعر العربى :

الخيال ملكة خصبة تقدر على تخيل الأشياء وتصوير العواطف والآراء تخيلا وتصويرا يوضح لنا نواحيها الغامضة ويعرض علينا ما فيها من أسباب الروعة والجمال عرضا مؤثرا نحسبه حقيقة أو كالحقيقة الملموسة ، يأخذ الشاعر الأشياء المألوفة التى يراها الناس جميعاً ، ثم يعمل فيها خياله فيخرجها فى صورة جديدة لم نكن نتوهمها ، فليس الخيال دائما مجافاة للحقائق وبعداً عن المألوف وقدرة على الاغراب والاتيان بما لا يكون ، بل المهم أنه مرآة

(١) ٤٧ الشعر والشعراء   (٢) ٦٩ المرجع   (٣) ٨٢ المرجع

تنطبع فيها الصور فيعكسها وقد صفاها من كل شائبة وأخرجها إخراجا جديداً والخيال خادم للحقيقة وغايته تصوير ماحجب عنا من حقائق الوجود، وهو فى حسن اختيار التفاصيل المميزة وحركة الذهن فى انتقاء هذه التفاصيل وضم بعضها إلى بعض وترتيبها، فالشاعر يشعر بما حوله ويعتاد الملاحظة الدقيقة فى الحياة المحيطة به بما يتصل بالإحساس والشعور والعاطفة والتفكير ويلاحظ ذلك جملة وتفصيلا فتسجله ذاكرته بدقة ثم يركز ذلك فى ذهنه وأعماق شعوره تركيزاً تاما، ويأخذ فى الغوص فى أغوار الذهن على التفاصيل ودلالتها، مستغرقا فى نشوته الروحية وفى تأملاته، وتصوره وتخيله استغراقا تاما يساعده على نشر المطوى من الملاحظات وإظهارها فى فن جميل وآية من سحر القريض وهذا الاستغراق وتلك النشوة والغبطة بالتعبير عن النفس يفجران ينبوعا من القوة الباطنة يلهم الشاعر روائع الشاعرية وآثاراً من الفن والجمال، فمادة الشعر الأولى فى العواطف الإنسانية من حب وحزن وأمل ويأس وغير ذلك مما يشعر به الشاعر ويحس به الإنسان، وهذه العواطف هى الينابيع الصادقة للشعر(١)، وهى التى يعمل الخيال عمله لتصويرها ويسعى ليركب الصور المودعة فى العقل الباطن ومشاهده ليصوغها فنا شعريا يعبر عنها ويوضح ماخفى منها، فليس الشعر صورا وألفاظا وعبارات إنما هو عواطف الشاعر وشعوره يركبها خيال صناع وملكات قادرة ومقدرة فنية موهوبة فى صور من الألفاظ والأساليب، وجمال الشعر وروعته موقوفان على مدى إحساس العاطفة وقدرة الخيال على تصويرها، فاذا كانت صور الخيال

(١) القدماء من النقاد يختلفون فى مادة الشعر اختلافا كبيرا، فالجاحظ يراها فى الاسلوب والنظم كما يدلنا على ذلك قوله: والمعانى مطروحة فى الطريق وانما الشأن فى إقامة الوزن وتخير اللفظ وجودة السبك فانما الشعر صياغة وضرب من التصوير (٤٠ : ٣ الحيوان)، وعلى رأى الجاحظ يسير عبد القاهر فى الدلائل، أما قدامة فيرى أن مادة الشعر هى المعانى (١٤ نقد الشعر) والآمدى وابن خلدون يريانها فى الألفاظ (١٨٣ الموازنة، ٥٧٧ مقدمة ابن خلدون)

ناشئة عن عاطفة سقيمة أو سطحية ، كان الأثر الأدبي متكلفا مصنوعا لاحظ له من التقدير ، وإذا كان عمل الخيال محكما وإحساس العاطفة قويا نال الشعر حظه من الجودة والإعجاب ، والخيال إذا كان عمله وتأليفه لصور جديدة اختيرت عناصرها من بين الحقائق والمشاهدات المبعثرة المخزونة في الذاكرة وألفت تأليفا جديدا سمى خيالا مبتدعا ، ونهاية هذا الحديث أن هناك صلات وثيقة بين الخيال والعاطفة فهو الذي يصورها ويبثها قوية مؤثرة ، وقوة الخيال مرتبطة بقوة العاطفة ، فإذا كانت صادقة قوية خلقت خيالا رائعا ، وإذا أردنا للأدب قوة وخلودا فعلينا أن نعنى بتهذيب الشعور ليكون إدراك الشاعر للحياة صادقا عميقا وآثاره الأدبية جميلة رائعة ، وخياله الأدبي موهوبا ملهما ، فالخيال أنفع المواهب والملكات في فن الشعر لأنه المعبر عن العاطفة واللغة الطبيعية لأداء الانفعالات والعواطف الإنسانية .

الشعر الجاهلي وحظه من الخيال :

١ — في الشعر الجاهلي الكثير من التشبيهات والاستعارات والأمثال والكنايات ، وهذه هي أجنحة الخيال في التعبير والتصوير ، فتجد امرأ القيس كثير التشبيهات في معلقته ، وكنايته البليغة :

وتضحى فتات المسك فوق فراشها   نؤوم الضحى لم تنتطق عن تفضل

لا يمادلها جمال ، وقوله :

وما ذرفت عيناك إلا لتضربى   بسهميك في أعشار قلب مقتل

من أسلوب التمثيل البارع .

وكذلك قول النابغة :

نبئت أن أبا قابوس أوعدنى   ولا قرار على زأر من الأسد

وقول النمر بن تولب :

فصدت كأن الشمس تحت قناعها بدا حاجب منها وضنت بحاجب

تشبيه جميل جيد .

ويقول زهير : «لدى أسد شاكى السلاح مقذف» ، وهى استعارة واضحة :

ويقول تأبط شرا :

إذا خاص عينيه كرى النوم لم يزل

له كالىء من قلب شيحان فاتك

وهى كذلك استعارة قريبة: ويقول النابغة :

رقاق النعال طيب حجزاتهم يحيون بالريحان يوم السباسب

فتجد كناية جميلة عن العفة والطهر

ويقول الأعشى :

تشب لمقرورين يصطليانها وبات على النار الندى والمحلق

وهى كناية عن الكرم والجود فى غنى عن الإشادة وأوصاف البلاغة إلى غير ذلك من مثل هذه الأخيلة القريبة الواضحة الجيلة .

٢ — والخيال فى الشعر الجاهلى خيال واضح مألوف يحلق قريباً من هذه البيئة الطبيعية الجاهلية ومناظرها وألوانها وما تحفل به من شتى المشاهدات والأوصاف(١) ، وإن كان بعض الشعراء قد طاف فى البلاد القريبة من الجزيرة العربية فاستمد بعض صور خياله وتصويره منها . كما يقول النابغة يزرى بالفرات لأن ممدوحه النعمان أكثر منه جودا وسخاء :

فما الفرات إذا هب الرياح له ترمى أواذيه العبرين بالزبد

يظل من خوفه الملاح معتصما بالخيزرانة بعد الأين والنجد

يوما بأجود منه سيب نافلة ولا يحول عطاء اليوم دون غد

---

(١) انظر قول الأعشى :

كناطح صخرة يوما ليوهنها فلم يضرها وأوهى قرنه الوعل

وكالأعشى وعدى بن زيد الذين طافا بكثير من البلاد .

٣ – الأخيلة البعيدة البديعة قليلة جدا فى الشعر الجاهلى لبدوية الأمة العربية وحياتها وبعدها عن آثار الثقافة والحضارة والرفاهية وبعد فما أكثر الخيالات الساذجة فى شعر الجاهليين، فتجدون الاعشى يسمو فى قوله :

وقد أراها وسط أترابها   فى الحى ذى البهجة والسامر
كدمية صُوِّر محرابها   بمُـذْهبٍ فى مرمرٍ مائر
يشفى غليل النفس لاه بها   حوراء تسبى مقلة الناظر

ثم يقول فى سذاجة الشاعر وخيال البدوى

عهدى بها فى الحى قد سُرْبلت   هيفاءُ مثلُ المهرةِ الضامر

ألفاظ الشعر الجاهلى وأسلوبه

ألفاظ الشعر الجاهلى تمتاز بما يأتى :

١ – كراهة استعمال الألفاظ الأعجمية إلا ما جاء قليلا فيه على سبيل الفكاهة والظرف والتمليح كما فى شعر الأعشى وعدى بن زيد وأبى دؤاد الأيادى . وكان عدى يسكن بالحيرة ويدخل الأرياف فثقل لسانه واحتمل عنه شىء كثير جدا وعلماؤنا لا يرون شعره حجة(١) والعرب لا تروى شعر أبى داؤد وعدى بن زيد وذلك أن ألفاظهما ليست بنجدية(٢) .

(١) ٦٣ الشعر والشعراء .

(٢) ٦٩ المرجع . ويقول أبو الفرج : كان عدى بن زيد شاعرا فصيحا من شعراء الجاهلية وهو نصرانى وليس ممن يعد من فى الفحول . وكان الأصمعى وأبو عبيدة يقولان « عدى فى الشعر بمنزلة سهيل فى النجوم يعارضها ولا يجرى معها » ، وكذلك كان عندهم أمية بن أبى الصلت (ص ١٧ : ٢ الأغانى) وكان امرؤ القيس يتوكأ على أبى دؤاد ويروى شعره (٢٩٨ : ٢ المزهر)

ويقول الأعشى :

وشاهدنا الجل والياسمين والمسمعات بأقصابها
وبربطها دائم معمل فأى الثلاثة أزرى بها

فتجد أسماء فارسية بعيدة عن إلف العربى وسمعه ، وذلك أن الأعشى دخل بلاد الفرس وجالسهم وصدر عن ملوكهم وعلق بسمعه بعض ألفاظهم.
ويقول الأعشى أيضاً :

لها جُلسانٌ عندها وبنفسج وسِيسنبر والمرزجوش منمنما

٢ - كثرة استعمال الألفاظ فى معانيها الحقيقية الموضوعة لها فهى بعيدة غالبا عن أسلوب المجاز والكناية والتشبيهات وما شابهها .

٣ - كثرة الغريب والحوشى ولا سيما عند وصف منظر أو حيوان أو غيرهما من مشاهد البيئة العربية فى جاهليتها .

٤ - استعمال الألفاظ الجزلة غالبا . والجزل من الكلام هو الذى تعرفه العامة إذا سمعته ولا تستعمله فى محاوراتها(١) ، وأجود الكلام ما يكون جزلا سهلا لا ينغلق معناه(٢) . ويقول ابن الأثير : الألفاظ تنقسم فى الاستعمال إلى جزلة ورقيقة ، ولكل منهما موضع يحسن استعماله فيه ، فالجزل منها يستعمل فى وصف مواقف الحروب وفى قوارع التهديد والتخويف وأشباه ذلك . وأما الرقيق منها فانه يستعمل فى وصف الأشواق وذكر أيام البعاد وفى استجلاب المودات وملاينات الاستعطاف وأشباه ذلك . ولست أعنى بالجزل من الألفاظ أن يكون وحشيا متوعراً عليه عنجهية البداوة ، بل أعنى به أن يكون متيناً على عذوبته فى الفم ولذاذته فى السمع. وكذلك لست أعنى بالرقيق أن يكون ركيكا سفسفاً وإنما هو اللطيف الرقيق الحاشية الناعم الملمس كقول أبى تمام :

---

(١) ٦٤ الصناعتين (٢) ٦٦ المرجع

ناعمات الأطراف لو أنها تلبس أغنت عن الملاء الرقاق(١)،

ويقول : وأما البداوة فى الألفاظ فتلك أمة قد خلت وقد عيبت على مستعملها فى ذلك الوقت فكيف الآن(٢) وقد عرف النقاد أمر الجزالة والرقة وشأنهما فى الكلام ، وبحثها منهم كثيرون فى نقدهم ودراساتهم ، فالفرزدق يقول فى جرير : ما أحوجنى مع فسوقى إلى رقة شعره ، وأحوجه مع عفافه إلى خشونة شعرى(٣) ، فهو يرى أن الجزالة والرقة بحسب الشاعر والموضوع الذى ينظم فيه . ويقول عبد الملك فى الأعشى : قاتله الله ما كان أعذب بحره وأصلب صخره(٤) ، ويقول الأصمعى فى شعر النابغة : إن قلت ألين من الحرير صدقت ، وإن قلت أشد من الحديد صدقت(٥) ، وقال أبو عبيدة فى شعره : له ديباجة إن شئت قلت شهداً إن مسسته ذاب ، وإن شئت قلت صخر لو رديت به الجبال لأزالها(٦) .

وبحث الجرجانى فى وساطته الجزالة والرقة بتفصيل(٧) وذكر أثر نفس الشاعر وحياته وبيئته وعصره ولون معيشته فيهما ورأى أن الرقة إنما تأتيك من قبل العاشق المتيم والغزل المتهالك ودعا إلى تنزيل الجزالة والرقة منازلها بحسب المعانى والأغراض والموضوعات(٨) . وقد ذكر الجاحظ فى البيان الجزالة والرقة غرضاً فتراه يقول : ومن الكلام الجزل والسخيف والخفيف والثقيل وكل عربى وبكل قد تكلموا(٩) وذكر أن سخيف الألفاظ مشاكل لسخيف المعانى وأنه قد يحتاج إليه فى بعض المواضع وربما أمتع كثيرا .

ويقول : وحاجة الكلام إلى الحلاوة كحاجته إلى الجزالة(١٠) ويدعو إلى ترك الوحشى والسوقى فى مواضع كثيرة من بيانه(١١) وعرض لهما ابن المدبر

(١) ٦٠ المثل السائر (٢) ٦٨ المثل السائر
(٣) ١٢٧ الشعر والشعراء (٤) ٣٨ الجمهرة (٥) ٣٨٠ : ٣ العقد
(٦) ٢٢ جمهرة أشعار العرب (٧) ٢٢ وما بعدها من الوساطة
(٨) ٢٩ المرجع (٩) ١١٠ ج ١ البيان والتبيين (١٠) ٣٠ج١ البيان
(١١) ١٠٥ و ١١٠ و ١٧٦ ج ١ المرجع

عرضا فقال: لا يعتد بالمعنى الجزل مالم تلبسه لفظا جزلا(١) وعرض لهما أرسطو فى كتابه الخطابة فذكر أنه « لا ينبغى أن تكون الألفاظ سفساقة ولا مجاوزة فى المثانة مبلغ الأمر الذى يدل عليه فلا تبلغ درجة العامية ولا تحوج إلى الكلفة المشنوءة »، وذكر أنه « ينبغى أن يلائم بين اللفظ والمعنى فالمعنى الجزل يعبر عنه بألفاظ جزلة والمعنى الرقيق يعبر عنه بلفظ رقيق(٨) .

وبعد فالشعر الجاهلى فريد فى جزالته وفخامته وجلالته وشدة تركيبه وقوة أسره . وإن شئت فاقرأ قول زهير :

قد جعل المبتغون الخير فى هرم   والسائلون إلى أبوابه طرقا
إن تلق يوما على علاته هرما   تلق السماحة منه والندى خلقا
لو نال حى من الدنيا بمكرمة   أفق السماء لنالت كفه الأفقا

أو قول أمية بن أبى الصلت :

أأذكر حاجتى أم قد كفانى   حياؤك؟ ، إن شيمتك الحياء
وعلمك بالحقوق وأنت فرع   لك الحسب المهذب والسناء
خليل لا يغيره صباح   عن الخلق الجميل ولا مساء
وأرضك كل مكرمة بنتها   بنو تيم وأنت لها سماء
إذا أثنى عليك المرء يوما   كفاه من تعرضه الثناء
تبارى الريح مكرمة ومجدا   إذا ما الكلب أجحره الشتاء

وقول امرىء القيس فى عذوبة وخفة :

وما ذرفت عيناك إلا لتضربى   بسهميك فى أعشار قلب مقتل
أغرك منى أن حبك قاتلى   وأنك مهما تأمرى القلب يفعل

إلى غير ذلك من الشواهد والمثل

أما أسلوب الشعر الجاهلى فنتحدث عنه بإفاضة فنقول :

---

(١) ١١ الرسالة العذراء

(٢) راجع الفن الثامن من الخطابة فى الشفاء لابن سينا مخطوط

ماهو الأسلوب :

الأسلوب فى اللغة الطريق وعنق الأسد والوجه والمذهب

والأسلوب الأدبى يعرفه ابن خلدون فى حديث طويل بأنه « المنوال الذى ينسج فيه التراكيب أو القالب الذى يفرغ فيه (١) » . فهو يراه فى الصورة الأدبية الممتازة التى يتميز بها الأدباء والشعراء وينسجون فى أدبهم وشعرهم على منوالها . ويعرفه بعض المحدثين بأنه طريقة اختيار الألفاظ وتأليفها للتعبير بها عن المعانى قصد الاقناع والتأثير ، أو هو طريقة التفكير والتصوير والتعبير (٢) .

ويعرفه آخر بأنه المعنى المصوغ من ألفاظ مؤلفة على صورة تكون أقرب لنيل الغرض المقصود من الكلام وأفعل فى نفوس سامعيه ، ويعرفه آخرون بأنه طريقة اختيار الكلمات ونظمها لتؤثر فى نفس القارىء أو السامع . ويذكرون أنله غرضين : نقل الحقائق أوالمعانى إلى ذهن السامع أو القارىء ونقل شعور الكاتب أو المتكلم إلى نفسيهما للتأثير

ونعرفه نحن بأنه نهج الكاتب والشاعر فى صوغ أدبه وشعره وأداء أفكاره ومعانيه والطريقة التى يسير عليها فى اختيار كلماته وتراكيبه ومايؤثر فى لغة تعبيره وتصويره من سهولة أو غرابة ومن عذوبة أو جزالة ومن وضوح أو خفاء وطبع أو صنعة ، وألوان الصنعة فى شعره وأدبه من تشبيه واستعارة وكناية وطباق ومقابلة وتعليل ومبالغة وتورية وتدبيج وعكس ومشاكلة ، وطرق الأداء التى يسير عليها فى صياغته من تقديم وتأخير وذكر أو حذف وفصل أووصل وإيجاز أو إطناب إلى غير ذلك من شتى أوصاف الأسلوب ، ومايراعيه الكاتب والشاعر من أوصاف فى بدء كلامه وفى فصوله وخاتمته : والأسلوب هو الوسيلة التى ينقل بها الأديب فكرته

---

(١) ٥٧٠ مقدمة ابن خلدون (٢) راجع ٢٣ - ٣٩ الأسلوب للشباب

وعاطفته وآراءه ومعانيه إلى الناس . ومقياس جودة الأسلوب هو القدرة على نقل ذلك والتعبير عنه بدقة وقوة تأثير

ويمتاز أسلوب الشعر بما فيه من عاطفة ، وما يشيع فى نظمه من خيال وسحر صنعة وعذوبة موسيقى وحرية فى الأداء والتصوير ، وبشدة تأثيره فى النفوس وأثره فى العاطفة والشعور والوجدان . أنشد أبو العتاهية قصيدته :

أتته الخلافة منقادة إليه تجرر أذيالها
فلم تك تصلح إلا له ولم يك يصلح إلا لها
ولو رامها أحد غيره لزلزلت الأرض زلزالها

وكان بشار حاضرا ، فلما سمع الأبيات اضطرب وسحر وقال : انظروا إلى أمير المؤمنين هل طار عن أعواده (١) وسمع الجاحظ رجلا ينشد أرجوزة أبى العتاهية التى سماها ذوات الأمثال ، فبلغ قوله :

ياللشباب المرح التصابى روائح الجنة فى الشباب

فقال للمنشد : قف ثم قال : أنظروا إلى قوله : «روائح الجنة فى الشباب» فان له معنى كمعنى الطرب لا يقدر على معرفته إلا القلوب وتعجز عن ترجمته الألسنة إلا بعد التطويل وإدامة التفكير .

نعم إن الشعر ينبعث غالبا عن إحساس قوى ، ويلبس حلة جميلة من النظم تصور المعانى تصويراً قويا رائعاً فكل ذلك يجعله ذا أثر شديد فى نفوس سامعيه وقارئيه على السواء .

وأهم خصائص أسلوب الشعر الجاهلى هى :

١ — القصد إلى المعنى فى إيجاز وعدم إطناب أو تطويل ، وتلك ميزة شعراء الجاهلية عامة ، وإن كان زهير كما يقول ابن سلام « أجمعهم لكثير

---

(١) ١٣٧ : ٣ الأغانى ، ٦٨ المثل السائر

من المعنى فى قليل من المنطق كما كان أشدهم مبالغة فى المدح (١) ».

٢ ـ الزهد فى المحسنات البديعية وعدم الإلمام بها إلا لماما وعن غير قصد وكان العرب لا يعرفون ألوان البديع والبيان علما وإنما يعرفونها فنا وذوقا وملكة . وما جاء من المحسنات البديعية ـ من سجع وجناس وطباق ومقابلة وغيرها ـ فى شعرهم قليل نادر وعن غير قصد ولا التفات .

٣ ـ الابتداء فى قصائدهم بذكر الأطلال والديار ، والترويح عن النفس بالإلمام بالتشبيهات القوية البديعة .

٤ ـ متانة الأسلوب وقوته ودويه فى الأذن والذوق ، كما يقول النابغة :

عوجوا فحيوا لنعم دمنة الدار ماذا تحيون من نؤى وأحجار ؟

وقول امرىء القيس :

بكى صاحبى لما رأى الدرب دونه وأيقن أنا لاحقان بقيصرا
فقلت له لا تبك عينك إنما نحاول ملكا أو نموت فنعذرا

وقول الأعشى فى ناقته :

فآليت لا أرثى لها من كلالة ولا من حفى حتى تلاقى محمدا

٥ ـ هذا الطابع البدوى الذى يمتاز به أسلوب الشعر الجاهلى الذى نما وعاش فى هذه البيئة البدوية الغريبة وكثرة ما فيه من مخاطبة الأطلال وذكر الناقة والفرس وسواهما .

٦ ـ كما يمتاز بحذف الفضول والسلامة من اللحن والقصد إلى المعنى ، فى بلاغة وسحر ودقة تصوير

---

(١) ٢٩ طبقات الشعراء لابن سلام

الرجز فى العصر الجاهلى

كان الشعر الجاهلى قبل أن ينتقل إلى النهضة الفنية الواسعة على يد مهلهل وامرىء القيس، كان كله رجزا، ينطق الشاعر بالبيت أو البيتين فيما يعرض له من شئون الحياة، كالأبيات التى تؤثر عن دريد بن زيد والعنبر ابن عمرو بن تميم وأعصر بن سعد والمنوغر بن ربيعة وسواهم (١).

ولكن هذا الرجز كان خاليا من آثار التهذيب، وخمل شأنه ببدء النهضة الفنية فى الشعر على يد امرىء القيس وسواه.

ثم جاء الأغلب العجلى، فاتخذ الرجز صناعة فنية ونظمه وأجاد فيه فكان الأغلب أول من طول شعر الرجز، ويرى بعض النقاد كالجمحى وغيره أنه أول من رجز، وينفى ذلك ابن رشيق لأن الأغلب أدرك عصر الرسول وليس بقديم جدا مع أن الرجز كان قبله. ويذكر أبو عبيدة أن العجاج هو أول من أطال الرجز وقصده وشبب فيه وذكر الديار واستوقف الصحاب عليها واستوصف ما فيها وبكى على الشباب ووصف الراحلة، كما فعلت الشعراء بالقصيدة فكان فى الرجاز كامرىء القيس فى الشعراء وأرجوزته «قد جبر الدين الاله فجبر» نحو من مائة بيت وهى موقوفة مقيدة (٢)، ويؤيد ابن قتيبة أن الأغلب هو أول من أطال الرجز (٣) وهو الصحيح؛ وأما العجاج فقد انتقل بالرجز خطوة جديدة فسار فيه على نهج الشعراء فى القصيدة.

واشتهر بعد ذلك من الرجاز: العجاج وابنه رؤبة، وأبو نخلة، وأبو النجم، ودكين، والأغلب.

---

(١) ٢٩٤ و ٢٩٥ : ٢ المزهر، ١٨ - ٢١ طبقات الشعراء.
(٢) راجع فى ذلك كله ص ٣٠١ : ٢ المزهر، ٢٤١ وما بعدها طبقات الشعراء.
(٣) ٢٣٥ الشعر والشعراء

الشعر الجاهلى بين الرجز والقصد

١ - علمت أن الجاهليين سبقوا فقالوا النثر فى جمل صغيرة، كما ترى فى الأمثال العربية. ثم صاروا يوازنون كل جملة من النثر بالأخرى حتى توصلوا رويدا رويدا إلى نظم البيت أو البيتين. وكان الشاعر فى تلك الأبيات يعبر عن الاحساسات التى كان يشعر بها كالحب والغضب والحماسة وغير ذلك وكانوا يستعملون فى ذلك الشعر بحر الرجز لسهولته وخفته، ويسمون القطعة منها أرجوزة والجمع أراجيز؛ وبعد ذلك صاروا يرتجلون منه أكثر من بيتين، ويعبرون بها عن إحساساتهم النفسية ويصفون الوقائع الحربية والخيل والإبل والصحراء وغير ذلك مما يقع تحت نظرهم، وصاروا يستعملون عدا الرجز أوزاناً أخرى منها الطويل والكامل والوافر وغيرها من البحور ويصف الأغلب العجلى (١) الذى عاش قبل الرسول فى أراجيزه محبوبته ويذكر آثار حبها ويتأسف على مامضى من شبابه. ونرى فى آخر الجليل الخامس أشعارا فى أرق نظم وأدق لفظ وأوسع معنى وأبدع صورة تدعى قصائد والواحدة قصيدة، ويقال كما علمت إن أول من قال قصيدة هو المهلهل ابن ربيعة من بنى تغلب قالها فى قتل أخيه، وذهبوا إلى أن الفرق بين الأشعار المرتجلة والقصائد هو أن الشعر المرتجل يعبر الشاعر فيه عن إحساساته النفسانية حالما ينفعل من شىء ويقول الشعر بدون تحضير وأكثر مايكون الشعر المرتجل من بحر الرجز ولا تتجاوز القطعة منه العشرة الابيات وقيل

---

(١) يعد العجاج أول من أطال الرجز وكان الشاعر قبل ذلك يقول البيتين والثلاثة، فهو فى الرجاز كامرىء القيس فى الشعراء، وهذا قول أبى عبيدة، وقال غيره: أول من طول شعر الرجز الأغلب وهو قديم وزعم آخرون أنه أول من رجز وكان على عهد رسول الله (ص ٣٠١ المزهر ج ٢)، وراجع ٢٣٥ الشعر والشعراء.

بل السبعة، والقصائد ترد من جميع الابحر ولا تسمى قصيدة إلا إذا زادت عن السبعة الأبيات وكان نظمها مقصودا وقلما تقال مرتجلة بل إن أكثر الشعراء كانوا ينقحونها قبل إنشادها .

٢ - وكانت القصائد تبتدىء بالغزل ويلم الشاعر فيها بأغراض كثيرة، قال ابن قتيبة : وسمعت بعض أهل العلم يقول إن مقصد القصائد إنما ابتدأ فيها بذكر الديار والدمن والآثار، فشكا وبكى، وخاطب الربع واستوقف الرفيق، ليجعل ذلك سببا لذكر أهلها الظاعنين عنها . إذ كان نازلة العمد فى الحلول والظعن على خلاف ماعليه نازلة المدر، لانتجاعهم الكلأ ، وانتقالهم من ماء إلى ماء، وتتبعهم مساقط الغيث حيث كان، ثم وصل ذلك بالنسيب فشكا شدة الشوق وألم الوجد والفراق وفرط الصبابة ليميل نحوه القلوب ويصرف إليه الوجوه، ويستدعى به إصغاء الأسماع إليه، لأن النسيب قريب من النفوس، لائط بالقلوب و لما قد جعل الله فى تركيب العباد من محبة الغزل وإلف النساء . فليس يكاد يخلو أحد من أن يكون متعلقا منه بسبب، وضاربا فيه بسهم ؛ فإذا علم أنه قد استوثق من الاصغاء إليه . والاستماع له، عقب بإيجاب الحقوق، فرحل فى شعره، وشكا التعب والسهر وسرى الليل وإنضاء الراحلة والبعير ، فإذا علم أنه قد أوجب على صاحبه حق الرجاء وزمام التأميل، وقرر عنده ماناله من المكاره فى المسير، بدأ فى المديح ، فبعثه على المكافآت، وهزه على السماح .. فالشاعر المجيد من سلك هذه الأساليب وعدل بين هذه الأقسام (١) . وهكذا يفهم النقاد القدامى النهج الفنى للقصيدة أو وحدة القصيدة عند الشعراء الجاهلين .

ومن غير شك أن النهج الذى ذكره ابن قتيبة هو نهج أغلب القصائد الجاهلية، وقلما تجد قصيدة فى موضوع واحد، ومما شذ عن ذلك قصيدة تأبط شرا :

---

(١) ١٤ و١٥ الشعر والشعراء لابن قتيبة ط ١٩٣٢

إن بالشعب الذى دون سلع   لقتيلا دمه مايطل (١)

وبعض قصائد أخرى نادرة

هذا والقصائد الجاهلية كثيرة بكثرة الشعراء أنفسهم ، ويعد الباحثون أكثر من مائتى شاعر عاشوا فى الجاهلية عدا من ضاع ذكرهم ونسيت أشعارهم ، ولكن لم يصل إلينا من أشعار هؤلاء إلا القليل ، لأن جمع الشعر الجاهلى وتدوينه لم يبدأ إلا بعد سنة ١٥٠هـ وأول مجموعة من مجموعات الشعر الجاهلى وصلت إلينا هى المفضليات .

٣ — ومن الشعراء الذين جمعوا بين الرجز والقصيد : امرؤ القيس ، وطرفة ، ولبيد ، أما زهير والنابغة والأعشى فليس لهم من الرجز شىء (٢)

ويقول الأغلب الراجز :

أرجزا سألت أم قصدا   لقد سألت هينا موجودا

العربيات الشاعرات فى العصر الجاهلى

نسمع من أسماء الشاعرات فى العصر الجاهلى ، العدد العديد ، ولا ترى لواحدة منهن ديوانا مجموعا . أو شعرا مشروحا . كما نرى لأكثر شعراء الجاهلية .

فمن شاعرات العرب : جمل الضبابية من بنى كلاب ، وأم موسى الكلابية وزهراء الكلابية ، وريطة بنت العباس السلمى ولها أبيات ترثى أخاها وقد قتله بنو خثعم ، وأم الفضل بنت الحارث الهلالية ، وضباعة بنت عامر من بنى عامر بن صعصعة وكانت زوجا لعبد الله بن جدعان التيمى ؛ وأم

---

(١) ويسميها بعضهم « نشيد الانتقام » ونقلها إلى الألمانية جوته الشاعر ونقلت إلى الفرنسية والانجليزية والإيطالية مرارا

(٢) ٢٥٩ ج ٣ البيان والتبيين

الأسود الكلابية ، وجمل السلمية ، وضاحية الهلالية ـ ، والخنساء بنت التيحان وليلى العفيفة زوج البراق ، وكانت من أجمل نساء زمانها ؛ ومن شعرها وهى فى بلاد فارس :

ليت للبراق عينا فترى　　ماألاقى من بلاء وعنا
عذبت أختكم يا ويلكم　　لعذاب النكر صبحا ومسا
يكذب الأعجم مايقربنى　　ومعى بعض حشاشات الحيا
فاصطبار أو عزاء حسن　　كل نصر بعد حين يرتجى

وكثيرات سوى هؤلاء وقد ذكرت غيرهن فى كتاب « شاعرات العرب » .

ولقد عنى الرواة بدواوين الشعراء من الرجال عناية شديدة ، وبذلوا وسعهم فى الحديث عنهم وعن شعرهم .

ولم يكن لعلماء اللغة ورواتها مثل هذه العناية بشاعرة من شعراء الجاهلية فيما أعلم حتى إن الذين تخيروا الشعر الجيد منهم وجمعوه فى ديوان يحفظ كأنهم لم يريدوا أن يختاروا قصيدة لامرأة لتكون بجانب قصائد الرجال .

فهذا أبو زيد القرشى قد اختار تسعاً وأربعين قصيدة من القصائد الطوال ولم يجىء فيها بواحدة لامرأة لا من الجاهلية ولا من الإسلام ، مع أن فى كلام ليلى العفيفة ، وجليلة بنت مرة . والخرنق والخنساء ، وليلى الأخيلية ، مالا يذكر بجانبه شعر كثير للشعراء من أصحاب المذهبات والمشوبات والملحمات والمنتقيات . فإن كنت فى ريب من ذلك ، فإنى ذاكر لك منتقاة انتقيتها للخنساء ، ومنتقاة انتقاها أبو زيد للمتلمس ، ثم وازن أنت بينهما ، واحكم بما تشاء . فأما التى للخنساء فهى قولها فى رثاء أبيها وأخويها :

كأن لم يكونوا حمى يتقى　　إذ الناس إذ ذاك من عز بزا(١)

(١) أى من سلب غلب

هم منعوا جارهم والنسا ء يحفز أحشاءها الموت حفزا
ببيض الصفاح وسمر الرماح فبا لبيض ضرباو بالسمر وخزا
وخيل تكدس بالدارعين وتحت اللجاجة يجمزن جمزا(١)
جززنا نواصى فرسانها وكانوا يظنون أن لن نجزا

وكانت العرب إذا أسرت أسيرا جزت ناصيته ، وألقتها فى الكنانة وأطلقته تفتخر بذلك .

فمن ظن ممن يلاقى الحروب بأن لن يصاب فقد ظن عجزا
نعف ونعرف حق القرى ونتخذ الحمد مجدا وكنزا
ونلبس فى الحرب نسج الحديد وفى السلم نلبس خزا وقزا

وهذه منتقاة المتلمس التى قالها حين هرب من عمرو بن هند هو وطرفة وألقى الصحيفة فنجا ولم ينج طرفة :

كم دون مية من مستعمل قذف ومن فلاة بها تستودع الليس
ومن ذرى علم طام مناهله كأنه فى حباب الماء مغموس

القذف والقذف : البعيدة أى كان الجبل مغمورا فى الماء من الآل . .

جاوزته بأمون ذات معجمة(٢) تهوى بكلكلها(٣) والرأس معكوس
يا آل بكر ألا لله دركم طال الثواء وثوب العجز ملبوس
أغنيت فاغنوا اليوم شانكم وشمروا فى مراس الحرب أو كيسوا(٤)
حنت قلوصى بها والليل مطرق بعد الهدوء وشاقتها النواقيس
معقولة ينظر الاشراق(٥) راكبها كأنه من هوى الرمل ملموس

(١) التكدس : اجتماع الخيل ووثبها معا ، والدارع لابس الدرع .
(٢) ذات معجمة أى قوة وبقية على السير وأصلها التى ربعت وثنت فى سنة واحدة (٣) الكلكل الصدر والمعكوس المطوى
(٤) أى كونوا ناطقين إما برأيكم وأما بسيوفكم
(٥) الاشراق سوق بالطائف وجبل لهذيل أو إشراق الشمس ، والاشراق الذهاب إلى الشرق

وقد أضاء سهيل بعد ما هجعوا كأنه ضرم فى الكف مقبوس
حنت إلى النخلة القصوى فقلت لها حجر حرام ألا تلك الدهاريس
آليت حب العراق الدهر أطعمه والحب يأكله فى القرية السوس

فليس فى منتقاته أكثر من استبعاده ديار صاحبته ثم ركوب ناقته فراراً من الظلم قاصداً الشام بدل العراق وتحريمه العراق على نفسه وليس فيها كلها شىء يروع أو يزن قول الخنساء :

كأن لم يكونوا حمى يتقى إذا الناس إذ ذاك من عز بزا

أو مثل قولها :

ومن ظن ممن يلاقى الحروب بأن لا يصاب فقد ظن عجزا

فكم ترى فى الأول من تفخيم شأن قومها ، وفى الثانى من تهوين المصيبة على الشجاع ، وما أحسن ما وصفت الخيل فى نشاطها ، وهى تمشى مؤتلفات ، وتثب مجتمعات تحت العجاج بفرسانها الدارعين الواثقين بالظفر بقولها :

وخيل تكدس بالدارعين وتحت العجاجة يجمزن جمزا

وما أبدع كنايتها عن غلبة قومها لهؤلاء الشجعان فى قولها :

جززنا نواصى فرسانها وكانوا يظنون أن لن تجزا

وناهيك باعتذارها عنهم وتسليتهم عن مصابهم والإشارة من طرف خفى إلى لومهم لظنهم فى أنفسهم أكثر مما تستحق وذلك قولها :

فمن ظن ممن يلاقى الحروب بأن لا يصاب فقد ظن عجزا

أفيترك مثل هذا الكلام النقى الهزاز الآخذ ويحمل كالشىء الملقى ، ولا عيب فيه فيما أظن إلا أنه كلام امرأة ، ولا حسن فى كلام المتلمس إلا أنه كلام رجل .

فإن لم يكن هذا كما أظن فلم لم يجمع الرواة دواوين فضليات النساء؟ وأين ديوان جليلة وأمينة بنت عيينة . وأمامة بنت ذى الأصبع العدوانى . وأم بسطام ، وأم السليك ، وأم الصريح الكندية ، وأم كلثوم بنت عبدود ،

وجنوب أخت عمرو ذى الكلب ، وبنات عبد المطلب : صفية ، وبرة ، وعاتكة ، وأم حكيم ، وأميمة ، وأروى ، وريطة بنت العجلان بن عامر الهذلى ، وسارة القرظية ، وعميرة الخثعمية ، والفارعة بنت شداد ، وخاصمة الخزاعية ، وأضراب هؤلاء من شواعر الجاهلية . ولا يزال ديوان الخرنق مخطوطا ، وقد رأيته فوجدت جميع مافى الديوان من شعرها خمسة وخمسين بيتاً جمعه أبو عمرو بن العلاء مما وصل إليه متفرقا ، وكتبه المرحوم الشيخ الشنقيطى بخطه ، وهو فى دار الكتب المصرية ، ولم يسنده إلى راو ؛ ولو لم يكن للخنساء الثابتة فى الجاهلية والإسلام ، المكانة العالية فى سوق عكاظ ، والبلاء فى الجهاد ، هى وأولادها فى حرب القادسية ، لما كان حظنا من كلامها اليوم إلا كحظنا من كلام ليلى العفيفة .

وهذه المفضليات مائة وعشرون قصيدة وقطعة ليس فيها إلا خمسة أبيات لامرأة مجهولة من بنى حنيفة ، والمفضليات هى أجود كلام العرب الذى اختاره المفضل الضبى بأمر أبى جعفر المنصور للمهـــدى العباسى ليتأدب بها .

فهذه مكانة شعر النساء فى نظر المؤدبين والرواة والعلماء فى ذلك الزمن ، وكأن الذين جاؤا بعدهم احتذوهم حذو النعل بالنعل فما رأيتهم دونوا شعر ليلى الأخيلية فى ديوان كما دونوا شعر المجنون .

وقس على هذا سائر الفضليات من الشاعرات ، خصوصاً بعد سقوط بغداد ، ثم أفول قرطبة ، فإن شعر المرأة فى هـــذا الزمان قد اختبأ تحت جهالات الرجال ولم يظهر منه إلا القليل .

ولعل ظهور عائشة التيمورية وطبع شعرها كان فلتة نادرة .

والمرزبانى جمع أشعار النساء فى كتاب يوجد بدار الكتب المصرية بخط أندلسى قديم مضى عليه نحو ثمانمائة سنة ، والظاهر أنه أحفل كتاب يروى الشعر الصحيح ، ولولا مثله لبقى تاريخ أدب المرأة مطموسا .

ومن شعر النساء قالت أم ندبة تحرض زوجها حذيفة بن بدر على أخذ ثأر ابنها ندبة ، وكان قيس بن زهير العبسى قتله فى حرب داحس والغبراء فرضى زوجها حذيفة بأخذ ديته فغاظها ذلك :

أيقتل ندبة قيس وترضى ... بأنعام ونوق سارحات
أما تخشى إذا قال الأعادى ... حذيفة قلبه قلب البنات
فخذ ثأراً بأطراف العوالى ... وبالبيض الحداد المرهفات
وإلا خلنى أبكى نهارى ... وليلى بالدموع الجاريات
لعل منيتى تأتى سريعاً ... وترمينى سهام الحادثات
أحب إلى من بعل جبان ... تكون حياته أردا الحياة
فيا أسفى على المقتول ظلماً ... وقد أمسى قتيلا فى الفلاة
ترى طير الحمام ينوح مثلى ... على أعلى الغصون المائلات
وهل تجد الحمائم مثل وجدى ... إذا رميت بسهم من شتات
فيايوم الرهان فجعت فيه ... بشخص جازعن حد الصفات
ولا زال الصباح عليك ليلا ... ووجه البدر مسود الجهات
ويا خيل السباق سقيت سما ... مذاباً فى المياه الجاريات
ولا زالت ظهورك مثقلات ... باحمال الجبال الراسيات
لأن سباقكم ألقى علينا ... هموما لاتزال إلى المهات

ولهذا الشعر نظائر من شعر النساء يؤخذ منها أن المرأة لضعفها لا تضبط نفسها عند شدتها حتى إنها لتدعو على أقرب المقربين إليها وقد تدعو على نفسها وعلى من لا يتصور منه الجناية عليها لذهاب رشدها عند النوائب ولا كذلك الرجل فإنه أقدر على ربط جأشه وحفظ بوادره وكظم غيظه ومن هذا نعلم أن شعر المرأة يظهر من أخلاقها أكثر مما يظهر شعر الرجل من أخلاقه فإن شعر المرأة مرآة مصقولة تشف عما فى نفسها .

وقالت جليلة زوج كليب ، وأخت جساس بن مرة حينما منعتها أخت كليب من الدخول فى مأتم أخيها ، وقد كان قتله جساس فى حـــديث

مشهور ، وقد نقلت هذه القصيدة على أصح رواية من كتابه أشعار النساء للمرزباني :

يا ابنة الأقوام إن لمت فلا　　تعجلي باللوم حتى تسألي
فإذا أنت تبينت التي　　عندها اللوم فلومي واعذلي
إن تكن أخت امرىء ليمت على　　جزع منها عليه فافعلي
فعل جساس على وجدي به　　قاطع ظهري ومفن أجلي
لو بعين غير عيني انفقأت　　عيني اليمنى إذا لم أحفل
أيتم المجد كليب وحده　　واستوى العالي معا بالأسفل
من لحكم الناس في حيرتهم　　وقرى الأضياف كوم البزل
ولإصلاح وإفساد معاً　　في صدى الرمح ودك المنصل
جل عندي فعل جساس فيا　　حسرتي عما انجلت أو تنجلي
يا قتيلا خرب الدهر به　　سقف بيتي جميعا من عل
هدم البيت الذي استحدثته　　وبدا في هدم بيتي الأول
ورماني قتله عن كثب　　رمية المصمى به المستأصل
يا نسائي دونكن اليوم قد　　خصني الدهر بأمر معضل
خصني قتل كليب بلظى　　من ورائي ولظى مستقبلي
ليته كان دمي فاحتلبوا　　بدلا منه دما من أكحلي
إنني قاتلة مقتولة　　ولعل الله أن يرتاح لي

ومن كلام أم السليك بن السلكة ، وقد انقطعت عنها أخباره ، وغلب على ظنها أنه قتل ، وكان عداءاً مشهوراً :

طاف يبغي نجوة　　من هلاك فهلك
ليت شعري ضلة　　أي شيء قتلك
أمريض لم تعد　　أم عدو ختلك ؟
أم تولى بك ما　　غال في الدهر السلك ؟
والمنايا رصد　　للفتى حيث سلك

أى شىء حسن لفتى لم يك لك
كل شىء قاتل حين تلقى أجلك
طالما قد نلت فى غير كد أملك
إن أمرأ فادحا عن جوابى شغلك
سأعزى النفس إذ لم تجب من سألك

وفيه من السهولة والنقاء والتأثير والوقوف به عند حد الشعور مافيه ، ونجده بمكانة لاتحتلها إلاعواطف النساء .

ومن ذلك قول الخرنق بنت بدر أخت طرفة بن العبد لأمه ، وزوج بشر بن عمرو بن همرثد ، ولها فى رثاء أخيها وزوجها ، ومدح قومها أشعار جيدة :

ألا أقسمت آسى بعد بشر على حى يموت ولا صديق
وبعد الخير علقمة بن بشر إذا نزت النفوس إلى الحلوق(١)
ومال بنو ضبيعة حول بشر كما مال الجذوع من الحريق

وقالت فى قومها :

لا يبعدن قومى الذين هم سم العداة وآفة الجزر
النازلون بكل معترك والطيبون معاقد الأزر
الضاربون بحومة نزلت والطاعنون بأذرع شعر(٢)
والخالطون نحيتهم بنضارهم وذوى الغنى منهم بذى الفقر

وقالت لعبد عمرو ، حين وشى بأخيها طرفة إلى عمرو بن هند وقتله عامله :

أرى عبد عمرو قد أساط ابن عمه وأنضجه فى غلى قدر وما يدرى
فهلا ابن جساس قتلت ومعبدا هما تركاك لا تريش ولا تبرى

وقالت فى رثاء طرفة :

(١) أي علت (٢) الاشعر الذى فيه شعر وهو أقوى

عددنا له خمساً وعشرين حجة فلما توفاها استوى سيدا ضخما
فجعنا به . لما انتظرنا إيابه على خير حين لا وليدا ولا قحما

قالت ذلك حينما بلغها قتل طرفة ، وكان قد ذهب هو وعبد عمرو بن الشريد وعم طرفة ، وعمرو بن مرثد بن عمه، إلى عمرو بن هند ، ونادموه مدة فوشى بطرفة عبد عمرو ، وكان طرفة قد هجاه ، فكتب إليه عمرو بن هند كتاباً وأرسله إلى عامله بالبحرين ، وأوهمه أن فيه إنفاذ جائزته ، وكذلك أعطى المتلمس ولكنه ألقى كتابه فى النهر ونجا إلى الشام ، وأما طرفة فذهب بكتابه إلى المكعبر عامل عمرو على البحرين ففض الكتاب ، وقتله بعد أن قطع يديه ورجليه ، ودفنه حيا .

والذى يهمنا من سرد شعرها هو الاستعانة على إثبات ما لشعر النساء من الخصائص ، وقد أوردنا فيما سبق أبيات ليلى العفيفة وذكرنا قصتها وهى فى طبقة جليلة ، وإن كانت أقدم منها ، وخصائص أشعارهما واحدة ، بيد أن فى شعر الخرنق شيئا كثيرا من متانة شعر طرفة أخيها .

هذا ولم يمر بنا فى كل ما روينا شىء من الغزل والتشبيب والوقوف على الديار وترسم الآثار مع أننا لا نكاد نجد قصيدة جاهلية الرجال خالية من مثل هذا .

وسبب ذلك أن النساء لغلبة الحياء عليهن تركن باب الغزل ، وأبقينه مفتوحا للرجال ، وقد تصفحت أشعار أكثر من ستين من شاعرات الجاهلية فلم أر لواحدة منهن غزلا فعرفت صحة السبب الذى أوردته ، وعددت هذا فارقا بين شعرهن وشعرهم .

ثم نظرت كذلك فلم أجد لهن فى الخمريات شيئا ، وما سمعت واحدة تمدحت بشربها ، ولا نعتت غيرها من النساء بهذا النعت . فدل ذلك على أن الشرب لم يكن من خلق النساء ولا كان محمودا عند الرجال ، ولذلك لم يقلن فيه وتركنه كما تركن فن الغزل .

آراء علماء الأدب فى الشعر الجاهلى

\- ١ -

الشعر الجاهلى ، الذى اتخذه الشعراء فى مختلف العصور ، أصلا يحتذون حذوه ، وينهجون منهجه ، ويبنون عليه ، ويقلدونه فى مناحيه الفنيه والأدبية تقليداً كبيراً ؛ هذا الشعر هو الذى نريد أن نتحدث عن موقف النقاد منه ، وآرائهم فيه ، ومذاهبهم حياله ، حديثاً يجمع مع الإيجاز أطراف هذا الموضوع المتشعب الدقيق .

\- ٢ -

وأول ما نذكره فى هـذا البحث . آراء أنفسهم فى الشعر الجاهلى ونقده ؛ وهـذه الآراء كثيرة متعددة ؛ طائفة منها تتحدث عن منزلة بعض الشعراء الأدبية فى الشعر ، وطائفة أخرى فيها نقد لبعض الشعراء .

فأنت تعـلم أن كل قبيلة فى الجاهلية ، كانت ترفع منزلة شـاعرها على الشعراء ، وتذهب إلى أنه إمامهم وأولهم فى دولة الشعر . فكان اليمنيون يذهبون إلى أن امرأ القيس هو إمام الشعراء ، وكان بنو أسد يذهبون إلى تقديم عبيد ، وتغلب تقدم مهلهلا ، وبكر تقدم المرقش الأكبر ، وإياد ترفع من شأن أبى دؤاد ، وهكذا . وكان أهل الحجاز والبادية يقدمون زهيراً والنابغة ، وأهل العالية لا يعدلون بالنابغة أحـدا ، وأهل الحجـاز لا يعدلون بزهير أحدا . وكان العباس بن عبد المطلب يقول عن امرىء القيس : هو سابق الشعراء ؛ ورأى لبيد أن أشعر الناس امرؤ القيس ثم طرفة ثم نفسـه .

كما تعلم أن الجاهليين أنفسهم كانت لهم آراء كثيرة فى نقد الشعراء : فكان النابغة تضرب له قبة حمراء فى سوق عكاظ ، فتأتيه الشعراء وتنشده أشعارها ؛ أتاه الأعشى يوماً فأنشده ، ثم أتاه حسان فأنشده ، فقال : لولا

أن أبا بصير — الأعشى — أنشدنى آنفاً لقلت إنك أشعر الجن والإنس ؛ فقال حسان : والله لأنا أشعر منك ومن أبيك وجدك ، فقبض النابغة على يده وقال : يا ابن أخى أنت لاتحسن أن تقول :

فإنك كالليل الذى هو مدركى وإن خلت أن المنتأى عنك واسع

ثم أنشدت الخنساء :

قذى بعينك أم بالعين عوار أم أقفرت إذ خلت من أهلها الدار

فلما بلغت قولها :

وإن صخراً لتأتم الهداة به كأنه علم فى رأسه نار

قال : مارأيت امرأة أشعر منك ؛ قالت : ولا رجلا .

وحكومة أم جندب الطائية بين امرىء القيس وعلقمة بن عبدة الشاعرين ، وتفضيلها علقمة على زوجها امرىء القيس مشهورة ؛ ولاداعى لذكرها ، فلها حديث آخر إن شاء الله .

ومر امرؤ القيس بكعب وأخويه : الغضبان والقعقاع ، فأنشدوه ؛ فقال : إنى لأعجب كيف لاتمتلىء عليكم ناراً جودة شعركم ، فسموا بنى النار .

وروى المرزبانى فى كتابه « الموشح » أن الزبرقان وعمرو بن الأهتم وعبدة بن الطبيب والمخبل السعدى ، تحاكموا إلى ربيعة بن حذار الأسدى الشاعر ، فى الشعر وأيهم أشعر ؛ فقال الزبرقان : أما أنت فشعرك كلحم أسخن ، لاهو أنضج فأكل ، ولا ترك نيئاً فينتفع به ؛ وأما أنت ياعمرو فإن شعرك كبرود حبر ، يتلألأ فيها البصر ، فكلما أعيد فيها النظر نقص البصر ؛ وأما أنت يا مخبل فإن شعرك قصر عن شعرهم ، وارتفع عن شعر غيرهم ؛ وأما أنت ياعبدة فإن شعرك كمزادة أحكم خرزها فليس تقطر ولا تمطر .

كما روى أيضاً أن هؤلاء الشعراء اجتمعوا فى موضع فتناشدوا أشعارهم فقال لهم عبدة : والله لو أن قوما طاروا من جودة الشعر لطرتم ، فإما أن تخبرونى عن أشعاركم وإما أن أخبركم ، قالوا : أخبرنا ، قال : فإنى أبدأ بنفسى ،

أما شعرى فمثل سقاء شديد ، وغير من الأسقية أوسع منه ؛ وأما أنت يا زبرقان فإنك مررت بجزور منحورة ، فأخذت من أطايبها وأخابثها . إلى غير ذلك من مواقف النقد والنقاد للشعر فى العصر الجاهلى ، والتى لا تخرج عن الاستحسان أو الاستهجان للشعر والشعراء .

— ٣ —

وجاء الإسلام ، فكان له ولرسوله الكريم ، موقف جليل من الشعر الجاهلى . أنكر بعضاً وعرف بعضاً . أنكر هذا الشعر الذى ينافى الأخلاق الكريمة ، والمثل العليا : من الغزل الفاحش ، والمجون الخليع ، والهجاء الكاذب ، والمدح المغرق ، والمبالغة ؛ وعرف هذا الشعر الذى يدعو إلى الفضائل والأخلاق والدين ، ويحث على الأدب والطموح وأداء الواجب وحب الجماعة والتضحية فى سبيل الأمة والإنسانية . فكان هذا الموقف الخالد للاسلام ونبيه العظيم ، توجيهاً جليلا لرسالة الشعر ، وتهذيباً نبيلا للشعراء ليسموا بفنهم الرفيع إلى مجال الطهر والخير ، وآفاق الحق والعدل والحرية والنور ؛ بل كان نقداً عميقا للشعر ومنهج الشعراء فى الجاهلية ، وإنكاراً لاتخاذ الشعر وسيلة للتكسب والثراء .

وظهر أثر الإسلام والقرآن فى تهذيب أسلوب الشعر وألفاظه وفى البعد به عن الحوشية والغرابة ، وطبعه بطابع القوة والجلالة والروعة مع الحلاوة والبلاغة والسلاسة . كما ظهر أثر القرآن والحياة الجديدة فى عقلية الشعراء وتفكيرهم ومعانيهم وأخيلتهم .

— ٤ —

وفى عصر دولة بنى أمية ، انتشرت العصبيات ، وكثرت الخلافات السياسية والدينية وتغير نهج حياة العرب وتفكيرهم ؛ فعادوا إلى مذاهب الجاهليين فى الشعر ، واتخذوه أداة للدفاع عن الرأى والعقيدة ، ولساناً لإذاعة محامدهم ومفاخرهم ، وشجعوا الرواة على رواية الشعر الجاهلى ،

والشباب على درسه وتعلمه والتأدب بأدبه ، ووضعت فى هذا العصر أصول النحو العربى ، فأخذ العلماء ينقدون الشعر الجاهلى والشعراء نقداً يتصل بالإعراب ، وكان ابن أبى إسحاق وعيسى بن عمر يطعنان عليهم . وكان عيسى يقول : أساء النابغة فى قوله :

فبت كأنى ساورتنى ضئيلة   من الرقش فى أنيابها السم ناقع

ويقول موضعه : ناقعاً(١) .

— ٥ —

ومن أشهر رواة الشعر الجاهلى ونقاده فى القرن الثانى الهجرى :

أبو عمرو بن العـــلاء البصرى المتوفى عام أربعة وخمسين ومائة بعد الهجرة ، وحماد الراوية الكوفى (٧٥ - ١٥٦ هـ) ، وخلف البصرى م ١٨٠ هـ ، والمفضل الضبى م ١٨٩ هـ ، وهو أقدم من جمع المختار من شعر العرب فى كتاب ، وأول من فسر الشعر بيتاً بيتاً ، ويقال إنه أول من جمع أشعار الجاهليين .

ومنهم ابن الكلبى م ٢٠٤ هـ ، وأبو زيد الأنصارى صاحب كتاب الجمهرة المتوفى فى عام خمسة عشر ومائتين ، وأبو عبيدة البصرى م ٢٠٩ هـ صاحب « النقائض » و « مجاز القرآن » ، والأصمعى البصرى م ٢١٦ هـ ؛ وقد أدرك بعض هؤلاء جزءاً من أوائل القرن الثالث . وكان لهؤلاء الرواة أثر كبير على الشعر الجاهلى ، فقد اهتموا بجمعه وروايته وتدوينه ، ووضعوا الجاهليين فى طبقات ، ولم يتركوا شاعراً مشهوراً من الجاهليين إلا رأوا فيه رأياً .

وكان أبو عمرو بن العلاء أشد الناس إكباراً للجاهليين ، وتعظيماً لشأنهم ، جلس إليه الأصمعى عشر سنين فما سمعه يحتج ببيت إسلامى ؛ ويروى عنه : « لو أدرك الأخطل يوما واحداً من الجاهلية ما قدمت عليه

(١) ٤١ الموشح ، ١١ و ١٢ طبقات الشعراء لابن سلام .

أحدا ، وكان لا يعد الشعر إلا للجاهليين ، وكان كما يقول ابن سلام في « طبقات الشعراء » : أشد الناس تسليما لهم . وكان المأمون رغم ثقافته الواسعة يتعصب للأوائل من الشعراء ، ويقول : انقضى الشعر مع ملك بنى أمية.

وكان الأصمعى — مع تحامله على المحدثين وشعرهم — معتدلا في عصبيته للشعر الجاهلى ، كان يحب الجيد منه ، وينقد الردىء ، عاب امرأ القيس فى قوله فى وصف الفرس .

وأركب فى الروع خيفانة كسا وجهها سعف منتشر

والخيفانة فى الأصل هى الجرادة ، وتشبه بها الفرس فى الخفة ؛ قال الأصمعى : شبه شعر الناصية بسعف النخلة ، والشعر إذا غطى العين لم يكن الفرس كريما ! كما عاب غير امرىء القيس من الشعراء ؛ وكان يقول : ختم الشعر بالرّماح ، وهو شاعر أموى مشهور .

— ٦ —

وفى القرن الثالث الهجرى نجد النقاد فى موقفهم من الشعر الجاهلى طائفتين :

فطائفة تعجب بالجاهليين وشعرهم إعجابا شديداً ، ولا ترى الشعر إلا لهم . ومن هؤلاء ابن الأعرابى م ٢٣١ هـ ، وكان يزرى بأشعار المحدثين ، ويشيد بشعر القدماء ؛ وكان يعيب شعر أبى نواس وأبى تمام ، ويقول : ختم الشعر بابن هرمة ؛ وقال فى بشار : والله لولا أن أيامه تأخرت لفضلته على كثير من الشعراء .

ومنهم أيضا : إسحاق الموصلى م ٢٤٠ هـ ، وكان فى كل أحواله ينصر الأوائل ، وكان شديد العصبية لهم ، وكان لا يعتد ببشار ، ولم يكن موقفه قاصراً على الشعر وحده ، بل كان كذلك فى الغناء ؛ كان يتعصب للغناء القديم ، وينكر تغييره ويعظم الإقدام عليه . ومثل ذلك التعصب للقديم موجود فى

الآداب الأوربية ، فقد كان « هوراس » الشاعر الرومانى يرى أن شعراء اليونان هم النماذج التى يجب أن تدرس ليلا ونهاراً ، وأن الشعر ينبغى أن ينظم كما كانوا ينظمونه ، وكان فى فرنسا خلال القرن السابع عشر مذهب أدبى يرمى إلى إكبار البلاغة القديمة وتقليدها ، لأنها تمثل صور البيان خير تمثيل ، وكان يتزعمه جماعة من النقاد أشهرهم « باولو » ، حتى ألف شارل بيرو كتابه الموازنة بين القدماء والمحدثين ، يدعو فيه إلى التحرر من التقليد ، ويشيد بالمحدثين ، ويقول : إنهم فاقوا القدماء فى البلاغة

وقد اعتذر الباقلانى عن هؤلاء النقاد العرب المحافظين ، بأنهم إنما كانوا يميلون إلى الذى يجمع الغريب والمعانى ؛ واعتذر ابن رشيق عنهم بحاجتهم إلى المثل والشاهد وقلة ثقتهم بما يأتى به المولدون ؛ ولكن الجرجانى فى الوساطة يذكر أن ذلك أثر لتعصب علماء اللغة وورائها للشعر القديم ، وإنكارهم لفضل المحدثين وشعرهم(١) .

وطائفة أخرى من النقاد فى القرن الثالث ، حكَّموا الذوق الأدبى والطبع وحدهما فى الشعر ، وحكموا بالفضل لمن يستحقه ، جاهليا كان أو إسلاميا أومحدثا ، فلم يفضلوا الجاهليين لسبقهم فى الزمن ، ولم يغضوا من شأن المحدثين لتأخر عصرهم ، ومن هؤلاء : الجاحظ م ٢٥٥ ﻫ ، وابن قتيبة م ٢٧٦ ﻫ ، والمبرد م ٢٨٥ ﻫ ، وابن المعتز م ٢٩٦ ﻫ .

يقول ابن قتيبة فى أول كتابه « الشعر والشعراء (٢) » : ولا نظرت إلى المتقدم بعين الجلالة لتقدمه ، ولا المتأخر بعين الاحتقار لتأخره ، بل نظرت بعين العدل إلى الفريقين ، وأعطيت كلا حقه ، ووفرت عليه حظه ؛ فإنى رأيت من علمائنا من يستجيد الشعر السخيف لتقدم قائله ، ويضعه موضع متخيره ، ويرذل الشعر الرصين ، ولا عيب عنده إلا أنه قيل فى زمانه ،

---

(١) ٤٩ و ٥٠ الوساطة ط بيروت .

(٢) ٧ و ٨ الشعر والشعراء

ورأى قائله ، ولم يقصر الله الشعر والعلم والبلاغة على زمن دون زمن ، ولا خص به قوماً دون قوم ، بل جعل ذلك مشتركا مقسوما بين عباده ، وجعل كل قديم منهم حديثا فى عصره ، فقد كان جرير والفرزدق والأخطل يعدون محدثين ، وكان أبو عمرو يقول : لقد نبغ هذا المحدث حتى هممت بروايته .

وقال المبرد : ليس لقدم العهد يفضل القائل ، ولا لحدثان عهد يهتضم المصيب ، ولكن يعطى كل مايستحقه(١) . وأنكر ابن المعتز عصبية هؤلاء النقاد للشعر القديم ، وذمهم لشعر المحدثين ، وقال : إنها عيب قبيح ، ومن فعل ذلك فإنما غض من نفسه ، وجعل هذا ناشئا عن جهل بنقد الشعر وتمييزه(٢) . وكان الجاحظ هو السابق إلى إقامة نقد الشعر على أسس فنية خالصة ، وحارب هذا التعصب الممقوت للقديم لقدمه ، وآراؤه فى ذلك فى كتابيه : الحيوان والبيان والتبيين كثيرة ، ففى الحيوان ينكر الجاحظ على المتعصبين للقديم فعلهم ، ويقول : ولو كان لهم بصر . لعرفوا موضع الجيد ممن كان وفى أى زمان كان »(٣) .

وفى القرن الثالث أيضا كثرت مؤلفات النقاد فى الشعر والشعراء الجاهليين ، وكتاب ابن سلام « طبقات الشعراء » مشهور ، وهو أبرز عمل أدبى منظم فى النقد ، وقد قسم الجاهليين عشر طبقات ، وأضاف إليهم شعراء المراثى وشعراء المدن العربية ، ووضع فى الطبقة الأولى امرأ القيس وزهيراً والأعشى والنابغة ، ولم يسبقه إلى هذا التقسيم الفنى للشعراء الجاهليين وطبقاتهم الأدبية إلا أبو عبيدة الذى قسم الجاهليين ثلاث طبقات ، ووضع فى الأولى امرأ القيس والنابغة وزهيرا ، وفى الثانية الأعشى وطرفة ولبيدا ؛ ويذكر ابن سلام فى « طبقات الشعراء » الإسلاميين أيضا ويقسمهم طبقات عشرة ، ولا يذكر أحدا من المحدثين . بعكس ابن قتيبة ، الذى ألف

---

(١) ١٨ : ١ الكامل للمبرد .

(٢) ١٣ و ١٤ ، رسائل ابن المعتز ، لمحمد عبد المنعم خفاجى .

(٣) ٤٠ : ٣ الحيوان .

كتابه: الشعر والشعراء، وذكر فيه الكثير من المحدثين الذين عاشوا قبيل منتصف القرن الثالث الهجرى؛ وهذا يدلنا على أن ابن قتيبة كان أكثر تقديراً للشعر الجيد وحده، بصرف النظر عن قائله وعصره. وذلك يذكرنا بجمع المفضل وأبى زيد الأنصارى للشعر العربى، فقد جمع المفضل فى مفضلياته مختارات للشعراء الجاهليين، وللقليل جداً من المخضرمين؛ أما أبو زيد الأنصارى فى كتابه «الجمهرة» مختارات للجاهليين والمخضرمين والإسلاميين، فكأنه لا يقف إعجابه على الشعر الجاهلى وحده، بخلاف المفضل.

وألف ابن المعتز أيضاً كتاباً فى طبقات الشعراء المحدثين، طبع فى أوربا ومصر، ويسير فيه على نهج ابن قتيبة من حيث ذكر الشاعر وحياته ومذهبه الفنى فى شعره، ونماذج من مختارات شعره، ولكن الكتاب وقف على المحدثين وحدهم من بشار إلى عصر ابن المعتز، وهو أوفى كتاب فى دراسة طبقة بشار، وطبقة أبى نواس، وطبقة أبى تمام، والبحترى. وهذا يدلنا على إعجاب ابن المعتز بالمحدثين، وتقديره لبلاغتهم وشغفه بهم عن الجاهليين والإسلاميين إلى حد ما.

— ٧ —

أما القرن الرابع فقد كان أحفل قرن بالنقد والنقاد؛ وظهرت فيه أصول كتب النقد الأدبى مثل: نقد الشعر لقدامة م ٣٣٧ هـ؛ ونقد النثر المنسوب إليه أيضاً؛ ومثل أخبار أبى تمام للصولى م ٣٣٦ هـ، والموازنة للآمدى م ٣٧١ هـ، والوساطة للجرجانى م ٣٩٢ هـ، وإعجاز القرآن للباقلانى م ٤٠٣ هـ.

كما ظهر فى القرن الخامس: ابن رشيق م ٤٦٣ هـ، صاحب «العمدة» وابن سنان الخفاجى م ٤٦٦ هـ صاحب سر الفصاحة، وعبد القاهر الجرجانى صاحب الأسرار والدلائل م ٤٧١ هـ.

وكان النقاد فى هذين القرنين يسيرون على نهج الجاحظ، فلم يتعصبوا

للشعر الجاهلي لتقدم زمنه ، أو يميلوا على المحدثين لتأخر عصرهم ؛ بل حكموا الذوق وحـــده في كل شيء ، حتى لقد وقفوا معددين لأخطاء الجاهليين ، كافعل الآمدي في الموازنة ، والجرجاني في الوساطة ، وابن رشيق في العمدة ، وسواهم ؛ قال الآمدي في كتابه « الموازنة » : وما رأينا أحـداً من شعراء الجاهلية سلم من الطعن ، ولا من أخذ الرواة عليه الغلط والعيب ، وقال صاحب « الوساطة » في أول كتابه : « ودونك هذه الدواوين الجاهلية والإسلامية ، فانظره هل تجد فيها قصيدة تسلم من بيت أو أبيات ، لا يمكن لعائب القدح فيه ، إما في لفظه ونظمه ، أو ترتيبه وتقسيمه ، أو معناه ، أو إعرابه ؛ ولولا أن أهل الجاهلية جدوا بالتقدم ، واعتقد الناس فيهم أنهم القدوة والأعلام والحجة ، لوجدت كثيراً من أشعارهم معيبة مسترذلة ، ومردودة منفية ، لـكن هذا الظن الجميل ، والاعتقاد الحسن ، ستر عليهم ، ونفى الظنة عنهم ، فذهبت الخواطر في الذب عنهم كل مذهب . وقامت في الاحتجاج لهم كل مقام(١) ؛ ولو تصفحت ما تـكلفه النحويون لهم من الاحتجاج ، وتبينت ما راموه في ذلك من المرامي البعيدة ، وارتـكبوا لأجله من المراكب الصعبة ، التي يشهد القلب أن المحرك لها ، والباعث عليها ، شدة إعظام المتقدم ، والكلف بنصرة ما سبق إليه الاعتقاد ، وألفته النفس لأيقنت بما ذكرت .

كما أزرى الآمـــدي والجرجاني بموقف بعض النقاد المتعصبين على المحدثين(٢) ؛ كالأصمعي الذي أنشده إسحاق الموصلي :

هل إلى نظرة إليك سبيل فيروى الصد ويشفى الغليل
إن ما قل منك يكثر عندي وكثير ممن تحب القليل

فقال : لمن تنشدني ؟ قال : لبعض الأعراب ، قال : هذا والله هو

---

(١) ص ٣ و ٤ الوساطة .
(٢) ١٠ الموازنة طبع صبيح ، و ٥٠ الوساطة طبع بيروت .

الديباج الخسرواني ، قال إسحاق : إنهما لليلتهما ، فقال الأصمعي : لاجرم والله ، إن أثر الصنعة والتكلف بين عليهما ؛ وكان الأعرابي الذي أنشده بعض الناس شعراً وهو لا يعرف قائله فأعجب به إعجابا شديداً وكتبه ، فلما علم أنه لأبي نواس أنكره . . ونقد الباقلاني في إعجاز القرآن معلقة امرىء القيس :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل
بسقط اللوى بين الدخول فحومل

نقداً طويلا ، وهو أول نقد أدبي مفصل لقصيدة كاملة من الشعر العربي .

— ٨ —

وفي العصور الوسطى ضعفت الملكات ، وعقمت الأوزان ، وتضاءلت الفطر الأدبية السليمة وتعصب العلماء والأدباء للشعر القديم لقدمه ، فأحاطوا الشعر الجاهلي بهالة من التقديس والجلالة ، لايرون أحداً أحسن مثل إحسان الجاهليين أو أجاد إجادتهم ، بل رأوهم معصومين من الخطأ والعيب والنقد ، واستمر هذا المذهب سائداً حتى العصر الحديث .

— ٩ —

وفي العصر الحديث تفاوتت ثقافات الأدباء والنقاد ، فوقف أولو الثقافات العربية الخالصة موقف الإعجاب والتقدير للشعر الجاهلي . وهب جماعة من أولي الثقافات الحديثة يطعنون على الشعر الجاهلي ، ويرمونه حيناً بالضعف والتفكك ، وحيناً بأنه كله أو جله منتحل مختلق .

عاب العقاد الشعر الجاهلي بأنه لا يصلح أن يكون نموذجا يقتدى به في النظم ، لأنه في الغالب أبيات مبعثرة ، تجمعها قافية واحدة ، يخرج فيها الشاعر من المعنى ثم يعود إليه ، ثم يخرج منه على غير وتيرة معروفة ، ولا ترتيب مقبول ، وأن فيه غير التفكك ، وضعف الصياغة ، كثيرا من العيوب

العروضية ، والتكرير الساذج ، والاقتسار المكروه ، والتجوز المعيب ، الذى يؤخذ من روايته أن الشعر لم يكن فنا يستقل به صناعه الخبيرون به ، وإنما كان ضربا من الكلام يقوله كل قائل ، ويروى المحكم منه وغير المحكم على السواء(١) . . فنرى العقاد يأخذ على الشعر الجاهلى مآخذ أهمها :

أولا — ضعف وحدة القصيدة . وفى مناقشة هذه الفكرة نكتفى بهاتين الكلمتين :

قال نولدكة المستشرق الهولندى المشهور : « فى أحوال كثيرة يحتفظ الشاعر الجاهلى بوحدة الفكرة فى قصيدته ، بأن يجعل كل قسم من أقسامها خاصا بوصف مناظر وحوادث من حياة الشاعر نفسه ، أو الحياة العامة التى يحياها البدو فى الصحراء . . وقال جميل صدقى الزهاوى الشاعر المجدد المشهور(٢) : « وهناك شىء يستحبه الذين تشبعت أدمغتهم بالأدب الغربى ، هو أن تكون القصيدة الواحدة خاصة بفكرة واحدة ، أو وصفا لشىء واحد ، من غير خروج إلى غير الموضوع ، ولو كان فى فصل منعزل عن الأول ؛ وهذا ليس من الشعر فى أصله ، بل هو تابع للأذواق ، ولطريقة الشاعر فى شعره ؛ ولا ينوع الشاعر المبرز فى العربية الموضوع فى كل قصيدة ، فكثيرا ما يحصر شعره فى القصيدة الواحدة فى موضوع واحد ؛ وإذا نوع الموضوع فهو يخرج إلى الثانى بمناسبة وبعد فصله عن الأول ، مريدا بذلك أن تكون قصيدته كالروضة الغناء . محتوية على مختلف الأزهار ، وهذا أقرب إلى الطبيعة وليس فيه ما يؤخذ عليه غير كونه ينافى ما يفعله شعراء الغرب ، ولكل أمة سياق ونزعة ليست لأختها ؛ وأعتقد أن الكتاب الذين يزرون بشعر شعرائنا على الإطلاق ، لو أتيح لهم أن يكونوا شعراء ، لما خرجوا كثيرا عن النهج الذى يمشى عليه المبرزون من هؤلاء ؛ والسبب هو ما قدمته من اختلاف ألوان الشعور عندنا عن ألوانه عند الغربيين من جهة . وقيد القافية وإعرابها

(١) ١٠٣ مراجعات للعقاد (٢) السياسة الأسبوعية عام ١٩٢٧

عندنا وفقدانه عندهم من جهة أخرى ، وقد هم كثير من الشعراء المتضلعين من العلوم العصرية ، بتقليد الغرب فى شعره ، فلم يكن ما أتوا به غربيا ولا شرقيا ، ولم يوفقوا إلا فى ألوان من من الشعور ، هى مشتركة بين الأمم جميعها ؛ ومهما تمرد الشاعر الكبير على الأساليب والتصورات فى أمته ، فهو لا يستطيع أن يطفر مرة واحدة إلى تصورات وأساليب تخالف ما ألفه شعبه . فيقطع الوشائج القوية التى تربط الحاضر بالماضى ... ويعيب العقاد الشعر الجاهلى ثانيا بأنه لم يكن فنا يستقل به صناعه الخبيرون به ؛ وذلك لا يسير مع الحقيقة الأدبية أو الواقع المأثور ، فشعراء المعلقات ومذاهبهم الفنية فى الشعر معروفة ؛ يقول الدكتور طه حسين فى كتابه « الأدب الجاهلى » : « أما مضر فكان لها فى الجاهلية شعراء ، يتخذون الشعر فنا ، يمثلون به نهضة فنية عقلية ، فى هذا الإقليم من جزيرة العرب» . ويعيبه ثالثا بجهالة صياغته ، وما فيه من عيوب عروضية ، وتكرار ساذج ، وتجوز معيب ، وفى هذا ولا ريب مغالاة لا يكاد يسلم بها دارس للأدب الجاهلى شعره ونثره .

أما أن الشعر الجاهلى كثير العيوب العروضية ، فلا أدرى ما هو دليل الناقد عليه ؟ أهو قصيدة عبيد أم بعض هذا الشواهد المروية لعيوب الشعر من الاكفاء والايطاء والتضمين والسناد الخ ؟ وأين تكون هذه كلها فى الشعر الجاهلى ؟ ثم ما هذا التكرار الساذج ؟ أهو مثل قول مالك بن الريب :

لقد كان فى أهل الغضا لودنا الغضا مزار ، ولكن الغضا ليس دانيا

أو فى مثل قول الحطيئة :

ألا حبذا هند وأرض بها هند وهند أتى من دونها النأى والبعد

أو فى قول النابغة :

عوجوا لحيوا لنعم دمنة الدار ماذا تحيون من نؤى وأحجار
اقوى وأقفر من نعم وغيَّره هوج الرياح بها فى الترب موار
وقفت فيها سراة اليوم أسألها عن آل نعم أمونا عبر أسفار

وقد أراني ونعما لاهيين بها   والدار لو كلمتنا ذات أخبار
أيام تخبرني نعم وأخبرها   ما أكتم الناس من حاجي وأسراري

وأين هو هذا الاقتسار المزعوم . ثم هل ما في الشعر الجاهلي من مجازات وكنايات وتشبيهات وأخيلة — رغم قلتها وقربها من حقائقها — يدعو إلى أن نهجر الشعر الجاهلي ونطرحه ظهريا ؟ .

وأما أن الشعر الجاهلي لم يكن فنا(١) يستقل به الخبيرون به ، فهذا خطأ بعيد . وهل ننسى رجال المعلقات ، والنابغة وحكومته بين الشعراء في سوق سوق عكاظ ، وهؤلاء الشعراء الذين خلد ذكرهم على مر العصور ؟ ولقد كان الناشيء في الجاهلية يتتلمذ على شاعر مشهور يروي شعره ويأخذ عنه فنه الأدبي ، وكان الشعراء يعرضون قصائدهم على غيرهم من الخبيرين بفن الشعر وصناعته ، واستمر هذا إلى ما بعد الإسلام . ثم إن هذه المجازات والأخيلة هي من خصائص البيان العربي ومميزاته التي تكسبه روعة وجمالا .

إن من العقوق للعربيـــة أن نذهب مذهب العقاد في الغلو فيما رمى به الشعر الجاهلي من التفكك وعدم اتساق الفكرة وارتباطها واتصال معانيها ، وما أظن أن ذلك وإن كان موجودا فيه مما يؤاخذ عليه الشعر الجاهلي إلى هذا الحد البعيد ، وفيم الفرق إذاً بين الأسلوب الفني الجميل وبين الأسلوب العلمي وحقائقه المنطقية المرتبة ، إن الشعر فن قبل أن يكون فلسفة .

وأخيراً فللعقاد رأيه في عدم اتخاذ الشعر الجاهلي مثالا يحتذيه ، ولقد أخذهو نفسه بذلك ، فلم يكن له حظ من الخلود في الشعراء . أما نحن فنقول :

---

(١) إذا أردنا أن نسكت مزاعم العقاد المجدد برأي مجدد مثله هو « طه حسين » فلا أكثر من أن نسوق اليه قول طه حسين في الأدب الجاهلي : وأما مضر فكان لها في الجاهلية شعراء يتخذون الشعر فنا يمثلون به نهضة فنية عقلية في هذا الاقليم من جزيرة العرب (راجع ١٩٧ وما بعدها من الأدب الجاهلي .

إنه لاداعى لأن يملأ شعراؤنا المعاصرون شعرهم بألفاظ العقنقل والسجنجل والجندل والحنظل كما فعل امرؤ القيس مثلا ، ولا بالإثمد والبرجد والمسرهد كما فعل طرفة، وليس من المناسب أن نترمم خطاهم فى بكاء الأطلال ووصف الدمن وذكر محاسن الخيل وكلاب الصيد، فلنا بدلا من ذلك كله مجال فسيح لقول الشعر فى عصر الكهرباء والذرة والأثير والطائرات . أما فيما عدا ذلك من الألفاظ والأغراض فالشعر الجاهلى أروع مايحتذى فى مذاهب النظم وجمال الصياغة وحسن الأداء .

ونشر أحمد أمين عدة مقالات فى الثقافة بعنوان « جناية الشعر الجاهلى على الأدب العربى » تحامل فيها عليه ما شاء له الهوى . وقد رد عليه النجدى ناصف فى مقال عنوانه « هل جنى الشعر الجاهلى على الأدب العربى[١] » .

— ١٠ —

ويشك أنصار الجديد فى الأدب الجاهلى[٢] بدعوى أن الكثرة المطلقة مما يسمى أدبا جاهليا ليست من الجاهلية فى شىء إنما هى منتحلة بعد ظهور الإسلام ، فهى تمثل حياة المسلمين أكثر مما تمثل حياة الجاهلية ، وما بقى من الأدب الجاهلى الصحيح قليل جدا لا يمثل شيئا ولا يدل على شىء ، والعصر الجاهلى القريب من الإسلام يمثله القرآن والأساطير[٣] . وعلى هذا لا يصح الاستشهاد بهذا الشعر المنحول فى تفسير القرآن بل يجب العكس[٤] والشعر الذى يضاف إلى الجاهليين يمثل حياة غامضة جافة بعيدة عن الدين ، ، القرآن يمثل لنا حياة دينية وعقلية قوية مما كان عليه المستنيرون عليه من العرب ويمثل

(١) مجلة دار العلوم (ص ٢١ - ٤٠ - عدد اكتوبر ١٩٣٩) .
(٢) ٥٩ - ٦٤ الادب الجاهلى لطه حسين
(٣) ٦٤ و ٦٥ المرجع و ٧٠ وما بعدها .
(٤) ٦٦ المرجع

لنا القرآن الكريم أيضا اتصال العرب بغيرهم من الأمم المجاورة كما يصور حياة العرب الاقتصادية (١) ، والأدب الجاهلي أيضا عندهم لا يمثل اللغة الجاهلية لاختلاف اللغة الحميرية عن اللغة العدنانية جد الاختلاف ، والمأثور من شعر الشعراء القحطانية مروى باللغـــة العدنانية الفصحى مع أنهم لم يكونوا يتكلمون بها ولم يتخذوها لغة أدبية لهم قبل الإسلام كما حدث بعد الإسلام ، مما يدل على انتحال هذا الشعر وسواه من فنون الأدب على هؤلاء القحطانيين ؛ فهؤلاء المجددون ينكرون ما يضاف إلى أهل الجنوب من شعر ونثر قيل بلغة أهل الشمال قبل الإسلام (٢) كما أن اختلاف اللهجات العدنانية أمر ثابت لاشك فيه ولا نجد أثراً لهذا الاختلاف فى الشعر الجاهلي المأثور مما يدل على انتحال هذا الشعر وأنه قد حمل حملا على هذه القبائل بعـــد الإسلام (٣) . ثم يجمل الدكتور طه فى الأدب الجاهلي أسباب انتحال الشعر كما يزعم ويروى ، فيذكر البواعث السياسية والدينية وأثر القصاص فى الانتحال وأثر الشعوبية والرواة فيه (٤) . ثم يذكر الشعر والشعراء ، ذاهبا إلى أن كثرة ما يضاف إلى الشعراء الجاهليين منحول ، وإلى رفض الشعر المنسوب إلى شعراء من اليمن ، لأن لليمن لغة تخالف لغة قريش ، وهجرة اليمنيين إلى الشمال مشكوك فيها أولا وليس كل الشعراء هاجروا من اليمن ثانيا فالشعر الذى أضيف إلى جرهم وسواهم من الذين عاصروا اسماعيل منحول ، وليس لليمن فى الجاهلية شعراء ، أما ربيعة - من عدنان وكانت تسكن فى الشمال فشعرها دون شعر المضريين أما مضر فكان لها شعراء يتخذون الشعر فنا ، فالشعر أصل فى مضر دون اليمن أو ربيعة ؛ فنظرية تنقل الشعر فى القبائل غير صحيحة ، فالشعر إنما كان فى مضر ، ثم انتقل إلى أقرب القبائل العربية إليها وهم ربيعة ثم إلى القبائل البعيدة كاليمن ثم إلى الموالى وليس كما يقولون من أنه كان فى اليمن ثم انتقل إلى ربيعة ثم إلى قيس من مضر ثم إلى تميم ، وشعراء المدينة ليسوا

(١) ٧٠ - ٨١ المرجع
(٢) راجع ٨١ - ٩٥ من المرجع
(٣) ٩٦ وما بعدها من المرجع
(٤) ١٢٢ - ١٨٦ المرجع

يمنيين بل هم مضريون (١) ، ثم درس الدكتور من الشعراء : امرأ القيس فعبيد فعلقمة . ثم عمرو بن قميئة فمهلهل فجليلة . ثم عمرو بن كلثوم فالحارث ابن حلزة . ثم طرفة فالمتلمس . ثم الأعشى . . . وذلك على ضوء نظريته في انتحال الشعر (٢) . ثم علق على الشعر المضرى على ضوء هذه النظريات (٣) ووضع مقاييس لتمييز المنحول من الشعر الجاهلي (٤) ثم درس أوساوزهيرا والحطيئة وكعب بن زهير والنابغة (٥) وبذلك ينتهي نقده للشعر الجاهلي .
وترتكز آراء الدكتور في الشعر الجاهلي على أساس واحد هو انتحال الشعر الجاهلي مؤكدا هذا الانتحال بأدلة كثيرة : منها أن المأثور منه لا يمثل حياة الجاهليين الدينية أو العقلية ، ولا يصور اتصال العرب السياسي بغيرهم من الأمم المجاورة لهم ؛ فوق أنه لا يمثل اللغة الجاهلية نفسها لاختلاف اللغة الحميرية عن اللغة العدنانية جد الاختلاف ، فالمأثور من شعر الشعراء القحطانيين مروى باللغة العدنانية الفصحى ، مع أنهم لم يكونوا يتكلمون بها ولم يتخذوها لغة أدبية لهم قبل الإسلام ، مما يدل على انتحال هذا الشعر على القحطانيين ، فوق أن الشعر الجاهلي لا يصور اختلاف اللهجات العدنانية المتعددة ، التي لا شك في اختلافها ، ويشرح الدكتور أثر البواعث السياسية والدينية في الانتحال ، وعمل القصاص والرواة ، ويبنى على ذلك كله رفضه الشعر المنسوب إلى شعراء اليمن ، لأن لليمنيين لغة تخالف قريش ، ولأن هجرة اليمنيين إلى الشمال مشكوك فيها أولا ، وليس كل الشعراء هاجروا من اليمن ثانيا ، وشعراء المدينة ليسوا عنده يمنيين بل مضريين . ويرى أنه ليس لليمن في الجاهلية شعراء . أما ربيعة من عدنان ، وكانت تسكن في الشمال ، فيرى الدكتور أن شعرها دون شعر المضريين ، لأنها لم تكن تتكلم لغة قريش ، ويتردد في قبول الكثير منه ، وأما مضر فكان لها شعراء ، يتخذون

---

(١) راجع من ١٩٣ - ٢٠٨ من المرجع
(٢) « « ٢٠٩ - ٢٩٦ « « (٣) راجع من ٢٦٧ - ٢٨١
(٤) « « ٢٨٢ - ٢٩٥ (٥) « « ٢١٦ - ٣٤٢

الشعر فنا، وقد درس شعراء مضر دراسة نقد وتحليل، كما درس غيرهم، على ضوء نظريته فى انتحال الشعر الجاهلى، ووضع مقاييس لتمييز المنحول منه، وجعل الشعر أصلا فى مضر، ثم انتقل منها إلى ربيعة فاليمن فالموالى. وبذلك يعكس نظرية القدماء فى انتقال الشعر الجاهلى بين القبائل..

ولمناقشة هذه الآراء، نعود إلى تلخيصها والرد على كل رأى منها، إن الدكتور يذهب فى الشعر الجاهلى إلى:

١ - أن هذا الشعر الجاهلى أو أكثره منحول بدليل.

(ا) أنه لا يمثل الحياة الجاهلية.

(ب) و « « « اللغة «

(ج) « « « اللهجات العربية

٢ - وانه لم يكن لليمن شعراء وما يروى من شعر للقحطانيين فانما هو منحول عليهم

٣ - وأن أكثر شعر الشعراء الذين ينتسبون إلى ربيعة منحول لأنه لا يمثل لهجاتهم التى كانوا يتكلمون بها،

٤ - وأنه ليس صحيحاً أن الشعر كان فى اليمن ثم انتقل الى ربيعة ثم إلى قيس من مضر ثم إلى تميم بل إنما كان فى مضر ثم امتد إلى ربيعة فاليمن ثم إلى الموالى (١).

٥ - وانه كان للرواة (٢) والقصاص وللعوامل السياسية والدينية للعصبيات أثر فى الانتحال.

ولما صودر كتاب « الشعر الجاهلى » أعاد الدكتور نشره باسم الأدب الجاهلى بعد أن حذف منه بعض فقرات كانت موضع النقد، وقد ألف فى نقد هذا الكتاب عدة مؤلفات أهمها:

---

(١) راجع ٢٠٦ المرجع (٢) وراجع أصول نظرية طه حسين عن الشعر الجاهلى وروايته فى كتاب مقدمة لدراسة بلاغة العرب لضيف (ص٥٠ -٦٢)

(ا) الشهاب الراصد للأستاذ محمد لطفي جمعة المحامى وقد طبعه عام ١٩٢٦
(ب) النقد التحليلى لكتاب الأدب الجاهلى للأستاذ محمد أحمد الغمراوى
(ج) نقض كتاب الأدب الجاهلى للشيخ الخضر حسين
(د) نقد الأدب الجاهلى للخضرى
(ه) نقض مطاعن فى القرآن الكريم للشيخ محمد عرفة

ولا نجد بدا من التنويه بعناصر الرد على آراء الدكتور فى كتابه فى إيجاز بالغ فنقول :

أولا : أما قصة انتحال الشعر الجاهلى ونفى وجود شعراء يمنيين والذهاب إلى عكس مايراه الباحثون حول نظرية تنقل الشعر فى القبائل فذلك لا يعتمد على أكثر من الحدس ، ولا داعى للافاضة فى نقده وتحليله (١) فقد سبق الكلام فيه .

ثانيا : الشعر الجاهلى يمثل حياة الجاهليين ، ويرسم ألوان معيشتهم ، ويروى عاداتهم ويتحدث عن أديانهم ويصف بيئتهم ولون ثقافتهم . وهل هناك ريب فى أن الشعر الجاهلى يصف البيئة الجاهلية وصفا دقيقا : من حيوان ونبات وأرض وجبال ووديان وقرى ومن جو ورياح وأمطار الخ ؟ . وهل هناك شك فى أنه سجل لتاريخهم وأخبارهم وأيامهم ، يقول : نيكلسون فى كتابه « تاريخ آداب اللغة العربية : « إن الأدب الجاهلى المنظوم منه والمنثور يمكننا من تصوير حياة تلك الأيام الجاهلية تصويرا أقرب ما يكون من الدقة فى مظاهره الكبرى ، ويقول نوربيكه الألمانى فى كتابه عنترة أحـــد شعراء الجاهلية » : لا نملك مصادر موثوقا منها لتدوين تاريخ تلك الغارات البدوية سوى القصائد والمقطوعات المحفوظة عن شعراء الجاهلية ، وقال أيضا : يمكن تعريف الشعر الجاهلى بأنه وصف مزين بالشواهد لحياة الجاهلية وأفكارها فقد صور العرب أنفسهم فى الشعر صورة منطقية على الحقيقة بدون تزويق

---

(١) راجع فى ذلك ١٥٨ - ٢٧٣ من الشهاب الراصد ، وراجع آراء المستشرقين الذين يؤيدون صحة الشعر الجاهلى فى الشهاب الراصد (٢٩٩ - ٣٠٤)

ولا تشويه، وقال نولديكه المستشرق الهولندى فى كتابه عن الشعر العربى القديم : إن عادات عرب الجاهلية وأحوالهم معلومة لنا بالدقة نقلا عن أشعارهم وفى الشعر الجاهلى ما يفتن القارىء من أوصاف الحيـــاة والعادات فى البادية ،

ويقول لطفى جمعه فى كتابه الشهاب الراصد : « يدل الشعر الجاهلى فى جملته على نفوس ناظميه وحياتهم ، ثم قال : والشعر الجاهلى أشد مايكون اتصالا بحياة القوم وتاريخهم وأكثر مايكون تمثيلا ووصفاً لبيئتهم بل أنه أصدق مثال لحياة العرب أنفسهم ، فأثر تلك البيئة الطبيعية والمحيط الاجتماعى ظاهر فى شعورهم بجانب بلاغتهم النادرة ، وهل هناك أكثر من الدلالة على الحيـــاة الجاهلية أكثر من الشعر الجاهلى نفسه الذى هو ديوان العرب ومستودع تاريخهم ومرآة حياتهم وصناعاتهم وعاداتهم

والشعر الدينى الذى يمثل الحياة الدينية عند الجاهليين كثير مبثوث فى شتى الكتب ، وقد جمع منه الاستاذ لطفى جمعه الكثير (١) ، والذين يذهبون إلى مايذهب اليه الدكتور طه حسين من أن الشعر الجاهلى خال من تصوير حياة الجاهليين الدينية كثيرون منهم مرجليوث (٢) . ويرى جورجى زيدان أن منظومات العرب الجاهليين فى الناحية الدينية قد ضاعت فى أثناء الأجيال لعدم تدوينها لاشتغالهم عنها بالحماسة والفخر بسبب الحروب التى كانت بينهم قبل الإسلام، فلما جاء الإسلام أغضى الرواة عنها لأنها وثنية والإسلام يمحو ما قبله ، ويقول الأستاذ ادوار براونلش فى رده على مرجليوث فى مجلة الأدبيات الشرقية عام ١٩٢٦ : « لاحظ العلماء أن الشعر الجاهلى قلما دل على شىء من دين العرب قبل الإسلام وقد ذكر بعضهم فى سبب ذلك أن

---

(١) راجع ص ٨٥ - ٩٢ من كتاب الشهاب الراصد .

(٢) يقول مرجليوث: قلما نعثر فى الاشعار الجاهلية على شىء يتعلق بالدين إلا نادرا

علماء المسلمين يرفضون من الشعر ما خالف دين الإسلام ، وهذا مما يثق الإنسان بوقوعه .

وأما أن الشعر الجاهلى لا يدل على اتصال العرب بغيرهم من الأمم كما يزعم الدكتور طه حسين فهذا خطأ فى الرأى . ألا تسمع لعمرو بن كلثوم يقول : « وكأس قد شربت ببعلبك » : أو لامرىء القيس وهو يصف رحلته إلى القسطنطينية حيث يقول :

بكى صاحبى لما رأى الدرب دونه   وأيقن أنا لا حقان بقيصرا

وهل شعر النابغة لا يمثل اتصاله بملوك الحيرة وغسان أتم تمثيل ؟ وعدى ابن زيد واتصاله بديوان كسرى معروف ورحلات بنى عبد مناف فى البلاد لتأمين طرق التجارة مشهورة ويقول الشاعر الجاهلى :

يأيها الرجل المحول رحله   هلا نزلت بأرض عبد مناف ؟
الآخذون العهد من آفاقها   والراحلون لرحلة الإيلاف

ويقول الأعشى :

قد جبت ما بين بانقيا إلى عدن   وطال فى العجم ترادادى وتسيارى

ويقول :

وطوفت للمال آفاقه   عمان فحمص فأوريشلم
أتيت النجاشى فى داره   وأرض النبيط وأرض العجم

ثالثا : الشعر الجاهلى ولهجات العرب (١) :

(ا) يستدل الدكتور طه على انتحال الشعر الجاهلى بأنه لا يمثل اللغة العربية ولهجاتها (٢) .

---

(١) راجع ص ١٠٠ - ١٥٩ من الشهاب الراصد

(٢) راجع رد الاستاذ لطفى جمعه على رأى الدكتور طه وهو أن الشعر الجاهلى لا يمثل لهجات القبائل حيث أثبت الاستاذ لطفى عكس هذه النظرية بأدلة من الشعر الجاهلى الذى يمثل لهجات القبائل المختلفة (١٥٤ - ١٥٧ الشهاب الراصد)

ويبدو من افراد الدكتور كلمة اللهجات مرة وعطفها على اللغة أخرى أنه لا يفرق بين اللغة واللهجة والفرق بينهما عظيم، فاللهجة طريق أداء الكلام إلى السامع ويتمثل ذلك فى التفخيم والترقيق والامالة وعدمها مما لا يؤثر فى ذات الحرف ولا يقتضى العدول عنه أو عن الكلمة إلى غيرها فالجملة الواحدة نستطيع النطق بها مختلفة الهيئة مع بقاء حروفها وكلماتها فى كل صورة من صور النطق كما فى تلاوة القرآن بالقراءات المتنوعة التى لم تختلف فيها الكلمات إلا بما قدمنا . وبعد ذكرنا لهذا الفرق نقول : إن اختلاف اللهجة لا يؤثر فى وزن الشعر ولا فى قوافيه ، فمثلا «قفا نبك الخ» لا يحدث تفخيم الألف فى قفا ولا إمالتها فى ذكرى شيئا فى وزنه ، ونحن لا نخالف الدكتور فى أن العرب كانوا فى الجاهلية مختلفى اللغات واللهجات ، ولكننا لا نسلم بما استنبطه الدكتور من ذلك وهو أنه كان يجب أن نرى فى الشعر اختلافا بين المروى عن القحطانيين والعدنانيين ، ذلك لأنا نؤمن مع إيماننا بهذا الاختلاف أنه كان بتقادم العهد واتصال العرب ورحلة أهل الجنوب إلى الشمال وقيام قريش بالسيادة على العرب ، قبل ظهور الإسلام ، والاشتغال بالتجارة بين الجنوب والشمال وقيام عكاظ ، كل ذلك قرب من هذه اللغات واستطاعت قريش أن توجد لها لغة مختارة من شتى لغات العرب وقد ارتضاها الخطباء والشعراء لغة لهم فى المحافل العامة ، لأنها مختارة من شتى لغات القبائل فهى حبيبة لهم مفهومة عندهم وهى لغة قريش ذات السيادة ، أما اتصال القبائل الذى حاول الدكتور أن ينفيه بقوله « وثبت أن العرب كانوا متنابذين ليس بينهم من أسباب المواصلات المادية والمعنوية ما يمكن من توحيد اللغات » ، هذا الاتصال ثابت بالتاريخ ، فصلة المصاهرة كانت شائعة بين شتى القبائل يصهر القيسى إلى القرشى، والربعى والتميمى والعدنانى إلى القحطانى ، فزهير بن خزيمة العبسى سيد بنى عبس أصهر إلى النعمان بن المنذر ملك الحيرة ، فقد زوجه ابنته المتجردة ، وكانت صلات الحلف تجمع بين القبائل العربية ، كما كان بين أسد وغطفان وبين قريش وثقيف .

(ب) وما يذهب إليه الدكتور من اختلاف لغة حمير عن اللغة العدنانية جد الاختلاف مبالغ فيه وردنا عليه هو أن :

١ - ماذكره الدكتور من الأمثلة للغة الحميرية يدل على علاقة العدنانية بالقحطانية وأن الأولى وليدة الثانية ، وأوجه الخلاف التى يمكن استنباطها من هذه الآثار هجائية ، ونحوية ولغوية ، وهذه الأنواع من الخلاف لاتجعل اللغتين متمايزتين كما استنبط الدكتور فانه حاصل فى اللغة الواحدة ، كما أنه يسلم معنا بأن فى اللغتين ألفاظا متحدة فى الصيغة والمعنى مثل أخ وأخت ونعمة وحلف ووثن وغير ذلك ، ثم إن هذه الآثار لايعلم تاريخ كتابتها ، وبعض المؤرخين على أنها كتبت قبل الميلاد بخمسة عشر قرنا .

٢ - لو سلمنا بوجود الخلاف الكبير بين اللغتين العدنانية والقحطانية فلا يترتب على ذلك وجوب تمثيل القحطانية فى شعر الشعراء القحطانيين المروى شعرهم ، لأن القحطانيين قسمان : سبئيون وحميريون ، فالسبئيون نزحوا من الجنوب إلى الشمال قبل الإسلام بعد سيل العرم ومنهم اللخميون ملوك الحيرة والغساسنة ملوك الشام والأوس والخزرج سكان المدينة وسواهم أما حمير فهى التى كانت بأرضها فى ظفار وصنعاء وما جاورها ، وهى التى قال فيها أبو عمرو بن العلاء : « ما لسان حمير وأقاصى اليمن لساننا ولا عربيتهم عربيتنا » .

٣ - لا ننكر أن هناك اختلافا بين لغات العرب إلى جانب اختلاف لهجاتها ، ولكنه اختلاف لايستوجب التباين الذى تصوره الدكتور ، وقد عرف العلماء هذا الاختلاف ودونوه ، فمن ذلك الترادف مثلا . وقد ذكرنا سابقا بعض وجوه الاختلاف بين اللهجات واللغات العربية فلاداعى لذكرها هنا الآن .

ويقول المرحوم الأستاذ محمد عبد المطلب فى مقالة له نشرها فى البلاغ يرد فيها على الدكتور زكى مبارك فى ذهابه إلى هذه النظرية الجديدة ، نظرية

اختلاف لغة أهل الجنوب عن لغة أهل الشمال : « يعتمد الدكتور فى تأييد رأيه على الأدلة الآتية :

أولا — كان القدماء من مؤرخى اللغة العربية يفهمون حق الفهم أن اللغة العدنانية تختلف عن اللغة القحطانية فى كثير من الألفاظ والتعابير وشواهد ذلك كثيرة . . ومن القدماء من صرح بأن لغة أهل اليمن غير لغة أهل الحجاز ومن هؤلاء أبو عمرو بن العلاء . وليت شعرى أتراجع الدكتور عن شىء من دعواه ؟ فشتان ما بين « اختلاف اللغتين اختلافا جوهريا » وبين أن « اللغة العدنانية تختلف عن اللغة القحطانية فى كثير من الألفاظ والتعابير » . ساق الدكتور هذه العبارة دليلا أولا على مدعاه فهى فاتحة الكتاب فى الاستدلال وأنا أقول معه ومع المتقدمين نعم إن اللغة العدنانية تختلف عن اللغة القحطانية مع بقاء الوحدة بينهما لأن هذا هو اختلاف الحروف واللهجات الذى أثبته فى أصل دعواه وهل هذا يسمى بالاختلاف الجوهرى ؟. وإذاً يخرج البرهان العقلى الذى استأثرت به المدرسة الجديدة فى صورة القياس الآتى : بين لغة اليمن ولغة العدنانيين خلاف جوهرى — «أى فى جوهر اللغة لا فى اغراضها » — وأول دليل لذلك أن المتقدمين كانوا يفهمون حق الفهم أن اللغتين تختلفان فى كثير من الألفاظ والتعابير . فأى اللغتين يقصد المؤرخون بما قالوا ؟ أهى اللغة التى أثر عنها الأدب العربى قبل الإسلام ؟ أم هى اللغة التى كانت قبل هذا ولم يصلنا من أدبها شىء ؟ فان كان الثانى فهو ممنوع . لأن لغتين لم يصلنا شىء منهما لا يمكن لباحث ولا مؤرخ أن يدعى الخلاف بينهما ، لأن وجود هذا الخلاف فرع عن وجود اللغتين . والعقل يقول باتحاد اللغتين فى هذه الأزمان لا باختلافهما . وإذا كان الأول فإنه لا يجوز لعقل أن يحمل ماقالوه على ظاهره كما حملته المدرسة الجديدة أيحكم أبو عمرو وأمثاله بالتغاير بين اللغتين على المعنى الذى فهمه الدكتور واضرابه ، وهو يسمع شعراء مذحج وكندة وطىء والأزد حوله يقولون ما يقولون . فهذا عبد يغوث المذحجى يقول :

الا لا تلومانى كفى اللوم ما بيا فما لكما فى اللوم خير ولا ليا

وهذا الأفوه الأودى المذحجى يقول أيضاً :

لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم ولا سراة إذا جهالهم سادوا

ويقول الكندى :

وقد أغتدى والطير فى وكناتها بمنجرد قيد الأوابد هيكل

ويقول عمه شرحبيل :

تعلم أن خير الناس طرا قتيل بين أحجار الكلاب

ويقول حاتم الطائى :

وأغفر عوراء الكريم ادخاره وأعرض عن شتم اللئيم تكرما

وكذلك يسمع حسانا وابن الخطيم وابن رفاعة يقولون مايقولون مما هو معروف من شعرهم وهم أزديون . وإذاً فكلام أبى عمرو ومن قال به لا ينصرف إلا إلى اختلاف اللهجتين لا إلى اختلاف اللغتين . وكأنى بالدكتور ينكر أن ماقدمت من الشعر لهؤلاء اليمانيين عدنانى الديباجة .. إن اختلاف اللهجات أمر طبيعى لا فى لغة العرب وحدها بل فى جميع اللغات حتى لقد يصل الخلاف فيها إلى حد أن أحدهما لا يفهم الآخر .

ثانياً — يقول الدكتور زكى فى دليله الثانى ما نصه : إن النقوش التى اكتشفت فى اليمن ودرسها المستشرقون تبين فى وضوح تام أن اللغة الحميرية لغة مستقلة لا تتشابه مع اللغة العدنانية إلا فى طائفة من الألفاظ ، أما أصولها من حيث النحو والتصريف وطرائق التعبير فتختلف عن اللغة العدنانية أشد الاختلاف . إلى أن قال : « وتلك النقوش أوثق من الروايات الشفوية التى يعتمد عليها بعض الناس . والاستهانة بهذه النقوش تعد جرأة عجيبة لأن الأثر المنقوش أوثق من الأثر المكتوب فى عرف أهل التاريخ وما يلجأون إليه من التشكيك فى قيمة النقوش لا يغنيهم فتيلا لأن تلك النقوش إليها المرجع حتما فى درس أصول اللغات » . إن النقش أثر على الأحجار إن صح

كان أوثق الأدلة كما يقول، وإنما يجب علينا الإيمان بالنقوش الحميرية إذا اجتمعت فيها الشروط الآتية :

(١) أن يثبت باليقين أنها نقشت فى الزمن الذى نتكلم بلغته ولم تصطنع اصطناعا لأغراض سياسية أو اجتماعية أو نحو ذلك من الأغراض .

(٢) أن تكون بأيدى أهل تلك اللغة صنعت وبلغتهم نقشت .

(٣) أن تكون من الكثرة بحيث لا يحتمل الشك فيها .

(٤) أى يعرض لها من الشبه مايوجب الشك فيها على فرض توفر الشروط السابقة .

إذا ثبت هذه الاعتبارات للآثار النقشية ثبوت اليقين وجب المصير إلى ماتحكم به إذاً ، لأنه يقين ، وإذا لم تثبت هذا الثبوت كان الحكم المبنى عليها ظنيا أو مشكوكا فيه فليست أولى من الرواية بشيء فى إفادة العلم وكان بناء اليقين عليها بناء متصدعا أخشى أن ينهار على المدرســـة الجديدة فيتصدع به بنيانهـا .

فأما الشرط الأول فإن أحداً من الناس لا يستطيع الجزم به فى تلك الآثار وفوق هذا فإن بين أيدينا ونحن بلاد الآثار مايؤيد بقوة ، احتمال الصنعة فى تلك النقوش .

ونحن نرى بأعيننا إلى أى حـد وصلت صناعة التقليد فى آثار المصريين من الاحجار ، الجمارين ، والدمى وغيرهما ثم لينظر كيف أحكم عليها نقش الهيروغليفية . فهل لدى الدكتور دليل واحد يمنعنى أن أجوز هذا التقليد فيما ذكر هو من الآثار . ولعل الدكتور يعلم ولا ينكر هذا العلم إن بعض أهل العلم بالآثار يصطنعون بعض هذه الأحجار لبعض الأسباب ، كما افترض حضرته أن بعض الرواة قد اصطنعوا بعض الأخبار لبعض الأسباب ، أتحداك يادكتور .

وأما عن الشرط الثانى فهـل يستطيع الدكتور أن يدلنا على من كتب

النقوش التى يستند اليها ويعتمد حتما عليها؟ أكان من الحميريين أهل اللغة الحميرية أم هو من غيرهم من الأمم المجاورة لهم من أمم الآثار كالمصريين مثلا أو الكلدانيين . وهل يمكنه أن يثبت لى من طريق آخر ليزيل هذا الشك من نفسى أن لغة هذا النقش حميرية ، أو لابد لى أن أؤمن بأنها حميرية ولو لم يدل عليها دليل . إن أمرنى الدكتور بهذا الإيمان فعلت حتى أخرج فى نظره من هذه الجرأة العجيبة ، ولكن هل يقبل العقل « وهو الذى يحكمه » هذا الإيمان ؟

وأما عن الشرط الثالث فهل يدلنى أخى الدكتور على عدد من أحجار هذه النقوش يغنى بكثرته واختلاف صانعيه وأمكنته عن الشك فيه ؟ فيكون ذلك عند المدرسة القديمة بمثابة الخبر الذى تتعدد فيه الروايات ؟ إقال لى إن بضعة الأحجار التى فى طلل من الأطلال بعد ما قدمت له تفيد القطع باليقين ، فأنا السميع بذاتى دون عقلى لأن حكمه يقضى على بألا أوقن وقد أمرنى أخى باليقين وهو الذى يعرف وحده كيف يحكم المعقول .

وأما عن الشرط الرابع فإنى أسائله — وعهدى به ألا يغالط أو ينكر العلم — ألم يسمع بأن بعض المشتغلين بالآثار من المستشرقين اصطنع بعض هذه الأحجار لبعض الأسباب كما سمع أن بعض الشعراء من الرواة كان يصنع بعض الشعر ويدسه على المتقدمين لسبب من الأسباب أيضا ؟ وهل هو لم يسمع أن بعض الملوك فى أكبر أمة أثرية « مصر القديمة » محا وأثبت فى الآثار ؟ وهل يجهل الدكتور أن من هؤلاء الملوك رمسيس ؟

أما ما أورده الدكتور من الدليل الثالث الذى يقول فيه : « طبيعة الحياة تأبى أن يكون للعرب لغة واحدة فى جميع أرجاء الجزيرة قبل الإسلام » . فإنى أناقض دليله هذا على الخط المستقيم فأقول إن طبيعة الحياة تأبى أن يكون للعرب لغات مختلفة ذلك الاختلاف الجوهرى الذى يشير إليه .

طبيعة الأرض واحدة وبيئاتها متشابهة تشابها كليا ومؤثرات الاجتماع والطبيعة واحدة والحكومة فى أكثر الأحيان واحدة واللغة الأصلية واحدة والأمة فى عزلة تامة عمن سواها، فمن أين يجىء الاختلاف فى غير اللهجات ؟

– ١١

ويقول الدكتور طه حسين فى كتابه « الشعر الجاهلى » : « يقول القدماء : إن أبناء إسماعيل تعلموا العربية من القحطانيين فسموا المستعربة كما سمى الأولون العاربة . ثم تساءل كيف يحصل هذا التمايز العظيم بين اللغتين الذى أثبتته الآثار المكشوفة بأيدى المستشرقين ؟ ثم قال : فواضح جدا لمن له إلمام بالبحث التاريخى عامة وبدرس الأساطير والأقاصيص خاصة أن هذه النظرية متكلفة ومصطنعة فى عصور متأخرة دعت إليها حاجة دينية أو اقتصادية أوسياسية .. ثم رأى أن قصة إسماعيل وورودها فى الكتب الدينية لا يكفى لإثبات صحتها التاريخية ، قال : نحن مضطرون إلى أن نرى فى هذه القصة نوعا من الحيلة فى إثبات الصلة بين اليهود والعرب من جهة وبين الإسلام واليهودية من جهة والقرآن والتوراة من جهة أخرى وأقدم عصر يمكن أن تكون قد نشأت فيه هذه الفكرة إنما هو هذا العصر الذى أخذ اليهود يستوطنون فيه شمال البلاد العربية ويبنون فيه المستعمرات فنحن نعلم أن حروبا عنيفة نشبت بين هؤلاء اليهود المستعمرين وبين العرب الذين كانوا يقيمون فى هذه البلاد ، فليس يبعد أن يكون هذا الصلح الذى تم بين المستعمرين وبين العرب أصحاب البلاد منشأ هذه القصة التى تجعل العرب واليهود أبناء عم لاسيما وقد رأوا أولئك وهؤلاء أن بين الفريقين شيئاً من التشابه غير قليل فأولئك وهؤلاء ساميون ، ولكن الشىء الذى لا شك فيه هو أن ظهور الإسلام وما كان من الخصومة بينه وبين وثنية العرب من غير أهل الكتاب قد اقتضى أن تثبت الصلة بين الدين الجديد والديانتين القديمتين ديانة النصارى واليهود » .

« أما الصلة الدينية فثابتة واضحة بين القرآن والتوراة والإنجيل ، إشتراك في الموضوع والصورة والغرض ، كلها ترمي إلى التوحيد ، ولكن هذه الصلة الدينية معنوية عقلية يحسن أن تؤيدها صلة أخرى مادية ملموسة، فما الذي يمنع أن تستغل هذه القصة قصة القرابة المادية بين العرب العدنانية واليهود؟ وقد كانت قريش مستعدة كل الاستعداد لقبول مثل هذه الأسطورة في القرن السابع فقد كانت في أول هذا القرن قد انتهت إلى حظ من النهضة السياسية والاقتصادية ضمن لها السيادة في مكة وما حولها وبسط سلطانها المعنوي على جزء غير قليل من البلاد العربية الوثنية وكان مصدر هذه النهضة أسواق التجارة والدين: فأما التجارة فنحن نعلم أن قريشا كانت تسافر إلى الشام ومصر وبلاد الفرس واليمن والحبشة، وأما الدين فهذه الكعبة التي كانت تجتمع قريش حولها ويحج العرب إليها كل عام والتي أخذت تبسط سلطانها على نفوس هؤلاء العرب نوعا من السلطان قويا والتي أخذ هؤلاء العرب المشتركون يحملونها رمزًا لدين قوي كأنه كان يريد أن يقف في سبيل انتشار اليهودية والمسيحية من ناحية أخرى » .

وهذا الرأي لا يدعمه الدليل اللهم إلا « ليس ما يمنع » و « ليس ببعيد » و « أمر هذه القصة واضح » . على أن هذه الآراء هي من صنع المستشرقين ووليدة شكوكهم ، وهي تهدم من حيث لا مبرر للهدم ولا نجد ما نقوله له إلا أن نقول إن الدين في هذا الموضوع لم يصدم بالعلم وإنما اصطدم بالهوى والهوى لا يثبت أن ينكسر عند أول صدمة على أن السبب الذي ذكره الدكتور لوضع اليهود الحديث واه لا يصلح أساساً لأنه إذا صح إنما يثبت القرابة بين الاسماعيلية وبينهم من العدنانيين وبين اليهود ، وأما العرب الذين أغار عليهم اليهود ثم صالحوهم فهم عرب يثرب وهم من القحطانيين لأنهم من غسان إحدى قبائل الأزد فالحديث لا يؤدي إلى المطلوب الذي يريده الدكتور والدكتور يتبع في ذلك رأي الدكتور مرجليوث فقد قال في مقاله « ذيل مقالة الإسلام »: وحقيقة الأمر في قصة إسماعيل أنها

دسيسة لفقها قدماء اليهود تزلفا إلى العرب وتذرعا منهم إلى دفع الروم عن بيت المقدس أو إلى تأسيس مملكة جديدة فى بلاد العرب » . ونقول كان يكفى وجود القصة فى القرآن ليؤمن بها الباحث والناقد جميعاً .

الحكومة الأدبية

بين قصيدتى علقمة وامرىء القيس

— ١ —

علقمة بن عبدة التميمى شاعر جاهلى مشهور ، عاصر امرأ القيس زعيم الشعراء الجاهليين ، وتوفى عام ٥٦١ م ، بعد وفاة امرىء القيس بسنة واحدة ، ومطلع قصيدة علقمة :

ذهبت من الهجران فى غير مذهب ولم يك حقًّا كل هذا التجنب

ومطلع قصيدة امرىء القيس :

خليلى مرا بى على أم جندب لنقضى حاجات الفؤاد المعذب

والموازنات الأدبية بين القصيدتين بمعناها الصحيح مدونة فى القديم والحديث . قالوا : إن علقمة ضاف امرأ القيس وكان صديقا له . فتذاكرا القريض ، وادعاه كل منهما على صاحبه ، ولجا فى ذلك ؛ فقالت لهما « أم جندب » زوج امرىء القيس : قولا شعراً تصفان فيه الخيل ، وتذكران الصيد ، « على قافية واحدة ورويٍ واحد(١) » ، لأنظر أيكما أشعر ، فرضيا بحكمها ، وأنشداها على البديهة قصيدتين كبيرتين بائيتين ، سبق ذكر مطلعهما ولما فرغا من إنشادهما قالت أم جندب لبعلها : علقمة

---

(١) هذا كلام صاحب الشعر والشعراء (ص ٥٨) ، وقد يكون ذلك من زيادة الرواة .

أشعر منك ، فقال وهو يكاد يتميز من الغيظ : وكيف ذاك ؟ قالت : لأنك قلت :

فللسوط ألهوب وللساق درة ... وللزجر منه وقع أهوج منعب

فزجرت فرسك ، وجهدته بسوطك ، ومريته بساقك . وقال علقمة :

فأدركهن ثانيا من عنانه ... يمر كمر الرائح المتحلب

فأدرك الطريدة وهو ثان من عنان فرسه ، لم يضربه بسوط ، ولا مراه بساق ، ولا زجره . فتربد وجهه ، وقال لها : ما هو بأشعر مني ولكنك له وامق ، وطلقها فخلفه عليها علقمة .

وقد ذكر هذه الرواية ابن قتيبة(١) ، وأبو الفرج(٢) ، وصاحب الموشح(٣) ، مع بعض تغيير فيها ؛ ويزيد المرزباني على هذه القصة رواية أخرى عن أبي عمرو الشيباني يقول فيها(٤) . تزوج امرؤ القيس امرأة من طيء ، وكان مفركا ، فلما كان ليلة ابتنى بها أبغضته ، فجعلت تقول : « أصبح ليل ، ياخير الفتيان أصبحت أصبحت » ، فينظر فيرى الليل كهيئته ، فلم يزل كذلك حتى أصبح ، فنزل به علقمة ، وكان من فحول شعراء الجاهلية وكان صديقا له ، فقال أحدهما لصاحبه أينا أشعر ؟ فقال هذا : أنا ، وقال هذا : أنا ، فتلاحيا ، حتى قال امرؤ القيس : انعت ناقتك وفرسك وأنعت ناقتي وفرسي ، قال : فافعل ، والحكم بيني وبينك هذه المرأة من ورائك ، فقال امرؤ القيس : « خليلي مرابي على أم جندب » ، وقال علقمة : « ذهبت من الهجران في غير مذهب » ؛ فلما فرغا من قصيدتيهما عرضاها على الطائية امرأة امرىء القيس ، فقالت . فرس ابن عبدة أجود من فرسك ؛ قال لها : وكيف ؟ ، قالت : إنك زجرت فرسك وحركت ساقيك وضربت بسوطك . تعني قوله :

---

(١) ٥٨ الشعر والشعراء . (٢) الأغاني جـ ٨ ص ١٢٨ .

(٣) ٢٨ الموشح للمرزباني (٤) ٢٩ المرجع .

فللزجر ألهوب وللساق درة   وللسوط منه وقع أخرج مهذب(١)

وإن علقمة جاهر الصيد فقال :

إذا ما اقتصنا لم نقده بجنة   ولكن ننادى من بعيد ألا اركبى

هذه هى حكومة أم جندب الأدبية بين الشاعرين ، فى كثير من رواياتها التى تختلف قليلا وتتفق كثيراً ، والتى لا تخرج عن أن أم جندب فضلت قصيدة علقمة على قصيدة امرىء القيس .

ويرتاب بعض الباحثين فى صحة هذه الحكومة ويرى جورها ويقول : ولعل ذلك مما حمل ابن المعتز على أن ينكر هذه القصيدة فيما أنكر من شعر امرىء القيس(٢) .

وذلك هو رأى الدكتور طه حسين فى الأدب الجاهلى الذى رأى أن هذه القصة منتحلة(٣) . وقد وقف الباحثون حيال هذه الحكومة الأدبية

---

(١) الهوب : ألهب جريه حين زجره . درة . أى إذا غمز در بالجرى . الأخرج : الظليم وهو ذكر النعام والأنثى خرجاء فى حال لونه وهو سواد وبياض لون الرماد والأخرج الرماد . مهذب : مسرع فى عدوه .

(٢) ٢١ و ٢٢ تاريخ النقد الأدبى عند العرب للمرحوم الأستاذ طه إبراهيم وقد أخطأ هذا الباحث فيما زعمه من أن إبن المعتز أنكر قصيدة أمرىء القيس ، ذلك أنه يعتمد فى ذلك على المرزبانى فى الموشح : ونص كلام المرزبانى هو : قال المرزبانى بعد ذكره لحكومة أم جندب : « وقد روى هذا الحديث أيضا هشام بن الكلبى ورواه أيضا إبن المعتز وذكره فيما أنكره من شعر أمرىء القيس » (ص ٣٠ الموشح) وكلمة أنكره هنا بمعنى نقده وعابه لا بمعنى إنكار القصيدة ودعوى أنها منتحلة ذلك اصطلاح عند صاحب الموشح يفهم من قراءة الكتاب ، وهب أن الأمر كما يقول هذا الباحث فكلام المرزبانى يجوز أن يحمل على إنكار أبيات من القصيدة لا على إنكارها كلها .

(٣) راجع الأدب الجاهلى ٢٢٠ - ٢٢٥ .

موقفين متعارضين : ففريق يؤيد أم جندب في رأيها ، وفريق آخر يرى جور حكومتها الأدبية ؛ ومن الفريق الأخير الرافعي الذي عرض لحكومة أم جندب وبين حيفها ، وفضل قصيدة امرىء القيس على قصيدة علقمة ، وأيد ذلك ببعض الآراء والحجج الأدبية(١) .

يقول الرافعي : وقصيدة علقمة بجملتها ليست بشيء ؛ لأن كل ما فيها من الألفاظ البارعة ، والمعاني الحسنة ، مأخوذ من قصيدة امرىء القيس ، حتى ليأخذ البيت برمته ، والشطر بحاله ، ومع ذلك فقد أبر عليه امرؤ القيس في الصنعة وما أدري كيف هذا ، فلولا أن الرواة مجمعون على أن قصيدة علقمة بما صح لقلت إنها مصنوعة ، وإن صح خبر هذه المنازعة فيكون ذلك هو السبب في تعنف امرىء القيس على الشعراء وإدلاله بشعره(٢) . وقال : وما أرى أم جندب إلا أرادت ما تريد الفارك من بعلها ، فقرعت أنفه على حمية ونخوة ، وهي تعلم أنها لا بد مسرحة في زمام هذه الكلمة ؛ وإلا فالبيت الذي توافيا على معناه ليس بموضع تفضيل ، لأن في قصيدة امرىء القيس ما هو أبلغ في هذه الصنعة من بيت علقمة ، وهو قوله :

إذا ما جرى شأوين وابتل عطفه   تقول هزيز الريح مرت بأثأب(٣)

ومن تدبر صنعة امرىء القيس للخيل في شعره وجد السوط لا يفارقه فلعلها كانت عادته(٤) ويقول : وما رأيت أحداً من أهل النقد وازن

---

(١) ٢٢٥ - ٢٣٤ : ٣ آداب العرب للرافعي طبعة ١٩٤٠ .

(٢) ص ٢٢٧ : ٣ تاريخ آداب العرب لمصطفى صادق الرافعي طبعة ١٩٤٠

(٣) يقول الرافعي : ليس بين الناس اختلاف في أن امرأ القيس أول من ابتكر هذا المعنى : فبالغ في صفة الفرس وجعله على هذه الصفة ، بعد أن يجري شأوين ، ويبتل عطفه بالعرق ، ثم زاد إيغالا في صفته بذكر الأثأب وهو شجر الريح في أضعاف أغصانه حفيف عظيم وشدة صوت (٢٢١ : ٣ المرجع) .

(٤) ص ٢٢٧ : ٢ المرجع

بين القصيدتين ، بل كلهم متبعون كلمة هذه المرأة ؛ وبعضهم لا يعرف ما كان بينها وبين امرىء القيس ، وامرىء القيس يقول فى قصيدته :

وإنك لم يفخر عليك كفاخر ضعيف ولم يغلبك مثل مغلب(١)

والطريف أن الرافعى لم يوازن بين القصيدتين موازنة أدبية ، وإنما اكتفى بعد ذلك بأن ذكر القصيدتين كاملتين دون تعليق . وعلى رأى الرافعى سار الأستاذ هاشم عطية فى كتاب « الأدب العربى وتاريخه فى العصر الجاهلى (٢) » ، قال بعد أن عرض أبياتاً كثيرة من القصيدتين : « والذين يعرفون أن امرأ القيس كان مفركا تكرهه النساء ، وأن هذه المرأة كانت تكرهه ، وكانت ضلعها مع علقمة(٣) ؛ يدركون فى سهولة أنها جارت فى حكمها على امرىء القيس ، لأن الذى قصد من ذكر السوط والساق والزجر — وإن كان فيه شىء من الهجنة — إنما هو التنبيه على مبلغ عنايته برياضة فرسه وتأديبه ، وأن عنده أفانين من الجرى ، فيعطى راكبه من كل حالة ما يشبهها من العدو(٤) ، على أنه مع ذلك قال : « فأدرك لم يجهد » وهو يدل على ما يدل عليه بيت علقمة من أنه أدرك طريدته ، وهو لا يزال كما هو لم يتعب ولم ينن شأوه ، أى لم يعد الشوط بل أدرك من أول حضر(٥) » .

— ٢ —

ونحن هنا فى أول موازنتنا الأدبية بين القصيدتين لا يصح أن نحكم فى هذه الموازنة أى باعث غير البواعث الأدبية فى الحكومة بين

---

(١) ٢٢٦ : ٣ المرجع (٢) ص ١٨٤ .

(٣) هذه الاسباب الاولى فى تعليل جور حكومة أم جندب الادبية مضحكة لغاية (٤) وهذه أيضا حجة أدبية رائعة مثل ما سبقها .

(٥) ص ١٨٤ الادب العربى وتاريخه فى العصر الجاهلى .

القصيدتين نفسيهما ، فلا يصح أن نفضل امرأ القيس لأنه زعيم الشعراء الجاهليين ، فنحن نعلم أن علقمة أيضاً شاعر فحل وإن كان لا يصل إلى منزلة امرىء القيس فى زعامة الشعر الجاهلى ؛ قال له ربيعة بن حذار الأسدى الشاعر الجاهلى : « شعرك كزادة قد أحكم خرزها فليس يقطر منها شىء » ، يريد أن شعره يثبت على النقد ولا يطرح منه شىء ، وقال ابن سلام : لعلقمة ثلاث روائع جياد لا يفوقهن شعر :

ذهبت من الهجران فى كل مذهب ... ولم يك حقاً كل هذا التجنب

والثانية : طحا بك قلب فى الحسان طروب .

والثالثة : هل ماعلمت وما استودعت مكتوم[1] .

ولعلقمة معان جيدة ، واشتهر بوصف النعامة مما أشاد به ابن الأعرابى ، ولكنه على أى حال لا يصل إلى منزلة امرىء القيس ، فقد وضعه ابن سلام الناقد الكبير فى الطبقة الرابعة مع عدى وعبيد وطرفة[2] ، ووضع امرأ القيس فى الطبقة الأولى . فاختلاف منزلة الشاعرين الأدبية وما تلقيه فى روعنا زعامة امرىء القيس للشعر الجاهلى من أثر عميق باطنى ، كل ذلك لا يصح تحكيمه فى الموازنة بأى حال ، إنما يجب أن ننهج منهجاً عادلا فيما نتناول به القصيدتين من أحكام .

أما قصيدة امرىء القيس فقد بدأها بالغزل العذب الجميل ، وفن امرىء القيس فى الغزل محبب إلى النفوس مستوفى البلاغة ، قريب من القلب والروح ، يقول فيما يقول :

خليلى مرا بى على أم جندب ... لنقضى لبانات الفؤاد المعذب
ألم تريانى كلما جئت طارقا ... وجدت بها طيبا وإن لم تطيب
فإن تنأ عنها حقبة لا تلاقها ... فإنك مما أحدثت بالمجرب

---

(١) ص ٥٠ طبقات الشعراء لابن سلام .

(٢) ص ٤٩ المرجع .

فلله عيناً من رأى من تفرق أشت وأنأى من فراق المحصب(١)
فريقان : منهم جازع بطن نخلة وآخر منهم قاطع نجد كبكب(٢)
فعيناك غربا جدول فى مفاضة كمر الخليج فى صفيح المصوب(٣)

فتجد عذوبة فى جزالة ، وقوة عاطفة فى أسلوب عال من الشعر .

ثم انتقل إلى وصف الدوية التى جابها على ناقته فى أسلوب رائع ممتع بليغ فقال :

ودوية لا يهتدى لفلاتها بعرفان أعلام ولا ضوء كوكب(٤)
تلافيتها والبوم يدعو بها الصدى وقد ألبست أطرافها ثنى غيهب(٥)

ثم ألم بناقته وشبهها بالحمار الوحشى ووصفه فقال فيما قال من وصفه :

يغرد بالأسحار فى كل سدفة تغرد مياح الندامى المطرب(٦)

ثم انتقل إلى وصف فرسه ، فأجاد الوصف ، وأمتع فى الأسلوب ، وامرؤ القيس أوصف الناس للخيل ، فلا غرو أن يجىء هذا الوصف جميلا ممتعاً قويا على غرابة فيه ، ومن قوله فيه :

له أيطلا ظبى وساقا نعامة وصهوة عير قائم فوق مرقب(٧)

---

(١) أشت : أكثر تفرقا . أنأى : أبعد . المحصب : المكان الذى ترمى فيه الجمار بمنى

(٢) جازع : قاطع . بطن نخلة : موضع . نجد كبكب : جبل يستدبره الواقفون بعرفات (٣) الغرب : الدلو العظيم . الجدول : النهر . المفاضة : الارض الواسعة الخليج : الماء المتخلج وهو الذى تعترضه العقبات فى سيره فيتياسر مرة ويتيامن أخرى الصفيح : العريض من الحجارة . المصوب : المنحدر .

(٤) الدوية : الفلاة التى لا يهتدى فيها بعلامة أو ضوء كوكب .

(٥) تلافيتها : قطعتها . الغيهب : الليل الحالك .

(٦) يغرد : يطرب بصوته . السدفة : القطعة من الليل . المياح : المياس .

(٧) الايطل : الخاصرة . الصهوة : الظهر . العير : حمار الوحش قائم : منتصب المرقب : المكان المرتفع .

كثير سواد اللحم مادام بادنا   وفى الضمر ممشوق القوام شوذب(١)

وصف امرؤ القيس خلقه وصفاً دقيقاً ، ثم وصف قوته وسرعة عدوه ، فقال فيما قال :

إذا ماجرى شأوين وابتل عطفه   تقول : هزيز الريح مرت بأثأب(٢)

إذا ماركبنا قال ولدان أهلنا   تعالوا إلى أن يأتى الصيد نحطب(٣)

ثم انتقل إلى وصف الصيد ، وهو فن من فنون شعر امرىء القيس الجيدة العالية ، فذكر خروجه للصيد حول ثعالة ، ورؤيته لقطيع كبير من الصيد ، وامتطاءه متن فرسه ، وحمله غلامه خلفه ، وعدوه الشديد بهما على آثاره ، وذكر أنه لم يمهل مع ذلك هذا الفرس ، بل ألح عليه يجهده ، ويستحثه بساقه وسوطه ويزجره له ، حتى أدرك القطيع ، قال فيما قال :

فللساق ألهوب وللسوط درة   وللزجر منه وقع أهوج منعب(٤)

فأدرك لم يجهد ولم يثن شأوه   يمر كخذروف الوليد المثقب(٥)

وذكر معركة الصيد وفيئه إلى بيت مشيد ، وجلوسه فيه هو وأصحابه فى يوم جميل ممتع :

فظل لنا يوم لذيذ بنعمة   فقل فى مقيل نحسه متغيب(٦)

---

(١) البادن : السمين . الممشوق : حسن القوام . الشوذب : الطويل الجسم الخلق المنسجم   (٢) شأوين : شوطين . ابتل عطفه : سال عرقه على جانبيه . هزيز الريح : صوتها . أثأب : اسم شجر .

(٣) نحطب : نجمع الحطب للطبخ والشواء .

(٤) الالهوب : الجرى الشديد ، الدرة الدفعة . الزجر : النهر . الاهوج : الاحمق المنعب : الذى يصاح عليه . . . . وبهذا البيت حكمت أم جندب على امرىء القيس بالتقصير وفضلت علقمة عليه .

(٥) الخذروف : لعبة للأطفال .

(٦) يريد أنه كان ذلك اليوم من أيام السعادة التى غاب عنها النحس

يتمتعون فيه بأكل الشواء المضهب(١) .

ثم ذكر رجوعه على فرسه إلى منزله ، وفرسه محبب إلى الأصحاب غير ملعن :

حبيب إلى الأصحاب غير ملعن   يفدونه بالأمهات وبالأب
كأن دماء الهاديات بنحره   عصارة حناء بشيب مخضب(٢)

وتنتهي هذه القصيدة الرائعة القوية الخصبة الخيال ، البليغة الأسلوب ، الكثيرة المعاني ، المشبوبة العاطفة والشعور ، الطويلة حتى لتبلغ أبياتها خمسة وستين بيتا .

أما قصيدة علقمة فعدد أبياتها خمسة وأربعون بيتاً بدأها بالغزل كما بدأ امرؤ القيس قصيدته ، فقال :

ذهبت من الهجران في غير مذهب   ولم يك حقا كل هذا التجنب
ليالي لا تبلى نصيحة بيننا   ليالي حلوا بالستار فغرب(٣)
مبتلة كأن أنضاء حليها   على شادن من صاحة متربب(٤)

وبعد أن تحدث عن ماضي حبه لها ، ذكر الحاضر المؤلم الذي تقطعت فيه أسباب المودة والحب ، فقال فيما قال :

إذا ألحم الواشون للشر بيننا   تبلغ رس الحب غير المكذب(٥)

---

(١) أي الذي لم ينضج تماما (٢) الهاديات : أوائل الوحش

(٣) الستار جبل بعالية الحجاز . غرب : موضع تلقاءه .

(٤) مبتلة : الحسنة الخلقة وتقسيم الاعضاء ، أو الضامرة الكشح الانضاء جمع نضو : الهزيل : الحلي ، والحلي : ما تتزين به المرأة ، الشادن : ولد الغزال . اصاحة : موضع . متربب : مربى في البيوت . شبه جيدها وما عليه من الحلي بجيد هذا الشادن الذي تربيه الجواري وتزينه بالحلي .

(٥) ألحم : أدخل للشر اللام زائدة. الرس : الثابت الراسخ. المكذب: الزائل المتقطع

أطعت الوشاة والمشاة بصرمها فقد أنهجت حبالها للتقضب(١)

ويذكر وعدها له، ودلالها الشديد، ورجوع المودة والصلة من جديد، ثم يقول:

فعشنا بها من الشباب ملاوة فأنجح آيات الرسول المخبب(٢)

ثم يذكر تسليه بالأسمار على ظهر ناقته:

فإنك لم تقطع لبانة عاشق بمثل بكور أو رواح مؤوب

ثم ينتقل إلى وصف الناقة، فيجيد وصفها فى خمسة أبيات جميلة قوية بليغة الأسلوب، فيقول فيما يقول فى وصف عينها:

بعين كمرآة الصناع تديرها لمحجرها من النصيف المثقب(٣)

وفى وصف ذيلها:

تذب به طوراً وطوراً تمره كذب البشير بالرداء المهدب(٤)

ثم ينتقل إلى وصف الفرس فيجيد إجادة عالية، قال فيما قال:

وقد أغتدى والطير فى وكناتها وماء الندى يجرى على كل مذنب(٥)

بمنجرد قيد الأوابد لاحه طراد الهوى كل شأو مغرب(٦)

---

(١) الصرم: الهجر. أنهجت حبالها للتقضب: ضعفت العلاقة بينى وبينها وكادت أن تنقطع، والتقضب: التقطع.

(٢) ملاوة: دهرا طويلا. عشنا بها: أى نعمنا بوصلها. آيات: علامات مخبب معلم الخب وهو الخداع أو من الخبب يريد المشى بين الحبيبين والخبب نوع من السير، يريد الرسول المفسد.

(٣) أى بعين صافية صفاء مرآة الصناع وهى المرأة الحاذقة العمل. المحجر: ماحول العين. النصيف: الخمار. المثقب: ذو الثقوب

(٤) تذب: تدفع الذباب: المهدب: دو الأهداب.

(٥) أغتدى: أخرج فى الغدو. وكناتها: أعشاشها. المذنب: مسيل الماء إلى الرياض. (٦) منجرد: قصير الشعر. الأوابد: بقر الوحش. لاحه: أهزله

ويصف أذنيه فيقول .

له حرتان تعرف العتق فيهما   كسامعتى مذعورة وسط ربرب(١)

وهكذا يصفه علقمة وصفا دقيقا ؛ ثم انتقل إلى الصيد فقال فى أسلوب ممتع وتصوير خصب وخيال جميل :

رأينا شياها يرتعين خميلة   كمشى العذارى فى الملاء المهدب(٢)
فبينا تماريها وعقد عذاره   خرجن علينا كالجمان المثقب(٣)
وأدركهن ثانيا من عنانه   يمر كمر الرائح المتحلب(٤)

وهذا البيت الأخير من أسباب حكومة أم جندب الأدبية التى فضلت فيها علقمة على امرىء القيس ؛ إلى أن قال :

فعادى عداء بين ثور ونعجة   وتيس شبوب كالهشيمة قرهب(٥)

ثم يذكر عودته إلى خبائه المطنب المضروب :

فقلنا : ألا قد كان صيد لقانص   فخبوا علينا فضل برد مطنب(٦)

الطراد : المطاردة . الهوادى : أوائل الوحش . الشاو : الشوط . المغرب : البعيد

(١) الحرتان : الأذنان جعلهما حرتين للطافتهما وانتصابهما . السامعتان : الاذنان . المذعورة : المفزعة يريد بقرة الوحش ذعرت فنصبت أذنيها وحددتهما الربرب جماعة بقر الوحش .

(٢) الشياه : النعاج الوحشية . الخميلة : الارض الكثيرة النبات والشجر : المهدب ذو الهدب . (٣) التمارى : التجادل والتشكك . عقد عذاره : أى إلجام الخيل . الجمان حب يصنع من فضة على هيئة العقد أى خرجت متتابعة منتظمة كالجمان المنظوم . (٤) ثنى عنان فرسه : جذبه نحوه الرائح السحاب ، المتحلب : المتساقط المتتابع (٥) فعادى عداء : جرى أشواطا متتالية ، التيس : الذكر من الظباء الشبوب القوى ، الهشيمة : الشجرة البالية وشبهه بها فى حالة صيده وسقوطه صريعا على الارض كالشجرة التى تقع وهى بالية .

(٦) فخبوا : أى فضربوا علينا خياما ، البرد : كل ثوب موشى ، المطنب : المشدود بالاطناب وهى حبال الخيمة

وتمتعهم بالأكل من الصيد ورميهم لعيون الصيد حول الخباء .

كأن عيون الوحش حول خبائنا وأرحلنا الجزع الذى لم يثقب(١)

ثم يذكر عودته من رحلة الصيد على فرسه الذى سار فى نشاط وحدة يسابق النوق وتسابقه ، ويشبهه بالحياة المنسابة :

وراح يبارى فى الجناب قلوصنا عزيزا علينا كالحباب المسيب(٢)

وبذلك تنتهى هذه القصيدة .

- ٣ -

ومن ذلك العرض السريع نرى أن القصيدتين :

ا - تتشابهان فى الوزن والقافية .

ب - وفى الموضوع أيضاً ، فكلتا القصيدتين مبدوءة بالغزل ، ووصف كل من الشاعرين فى كلتيهما الناقة والفرس ورحلة الصيد ونزوله فى الخباء المضروب للراحة وتناول الطعام ، وعودته من هذه الرحلة الجميلة الممتعة ، ويزيد امرؤالقيس بوصف المرقبة(٣) بيتين والدوية(٤) فى بيتين آخرين بعد الغزل مباشرة .

جـ - وتتشابه القصيدتان أيضا فى الخيال والروح ، وفى هذا الارتجال الفنى والبديهة الحاضرة الذين تفيض فى ذكرهما الروايات المختلفة .

د - وتتشابهان فوق ذلك فى كثير من المعانى وأساليب الشعر :

١ - قال امرؤ القيس فى الفرس :

حبيب إلى الأصحاب غير ملعن يفدونه بالأمهات وبالأب

---

(١) الجزع : خرز فيه بياض وسواد

(٢) يبارى : يسابق . الجناب : مصدر جانبه مجانبة إذا صار إلى جنبه ، القلوص الناقة الشابة القوية ، الحباب : الحية . المسيب : المنسابة

(٣) هى المكان المرتفع الذى يقف عليه الديدبان ليرقب العدو

(٤) الدوية : الفلاة الواسعة

وقال علقمة :

أخا ثقة لا يلعن الحى شخصه صبوراً على العلات غير مسبب

فذكر امرؤ القيس أنه غير ملعن ، وفصل علقمة فقال « الحى » وشخصه » ثم عاد فأجمل فقال : « غير مسبب » أى غير ملعن ؛ وزاد امرؤ القيس بقوله : « يفدونه بالأمهات وبالأب » ؛ وزاد علقمة بقوله : « أخا ثقة » أى يوثق به وبنجابته وأصالته وقوته وسرعة عـــدوه عند المطالب ؛ وبقوله « صبورا على العلات » أى على مختلف الحالات أو على مايلم به من تعب وإنضاء .

٢ — وقال امرؤ القيس فى الفرس أيضا :

فكان تنادينا وعقد عذاره وقال صحابى : قد شأ ونك فاطلب

وقال علقمة :

فبينا تمارينا وعقد عذاره خرجن علينا كالجمان المثقب

يقول امرؤ القيس : أبصرنا قطيع الوحش فنادى بعضنا بعضاً وألجمت الفرس ، فسبق الصيد ، وقال أصحابى : قد سبقك القطيع فاطلبه .. ويقول علقمة : أخذنا فى الجدال والكلام والشك وأنا ألجم فرسى وإذا نعاج الوحش تخرج علينا متتابعة منتظمة كالجمان المنظوم ، فلم يذكر علقمة أن الصيد قد هرب منه ، ولا أن أصحابه قالوا له شيئاً ، وزاد بهذا التشبيه الرائع « الجمان المثقب » زيادة رائعة .

٣ — وقال امرؤ القيس فى الفرس :

فأدرك لم يجهد ولم يثن شأوه يمر كخذروف الوليد المثقب

وقال علقمة :

فأدركهن ثانيا من عنانه يمر كمر الرائح المتحلب

فذكر امرؤ القيس أن فرسه أدرك الصيد بشوط واحد وأنه كان شديد

الجرى لا يبصره الناظر وأن مثله مثل هذه اللعبة التى يلعب بها الأطفال بما يسمونه « المقلاع » فإذا ضربت لم تكد تراها العين ؛ وذكر علقمة أن فرسه أدرك الصيد وهو ثان من عنانه أى يجذبه نحوه ، وشبه سرعته النادرة بسرعة السحاب المتساقط المتتابع . . فنجد امرأ القيس ينص على أن فرسه لم يصبه إجهاد وأنه أدرك الصيد من شوط واحد ، ونجد علقمة لا يذكر شيئاً من ذلك ولكنه يذكر أن فرسه كان شديد العدو حتى كان يجذب عنانه نحوه ليهدأ فى سيره ، ويأتى بهذا التشبيه الجيد الذى أفضله على تشبيه امرى القيس .

٤ - وقال امرؤ القيس فى فرسه :

وراح كتيس الربل ، ينفض رأسه   أذاة به من صائك متحلب(١)

وقال علقمة :

وراح كشاة الربل ينفض رأسه   أذاة به من صائك متحلب

فنجد اتفاق البيتين فى أكثر الأسلوب وفى المعنى ، وإن كان علقمة مسبوقا ، والفضل لامرىء القيس .

٥ - ويقول علقمة :

ترى الفأر عن مسترغب القدر لائحا

على جدد الصحراء من شد ملهب(٢)

---

(١) شاة الربل وتيس الربل يعنى الثور الوحشى وقد شبه به الفرس فى نشاطه وحدته ، ينفض : يحرك ، الصائك : العرق ، المتحلب : السائل المتقاطر ، يقول إن هذا الفرس راح يحرك رأسه ليزيل العرق المتقاطر السائل

(٢) عن يمنى من ، مسترغب القدر : واسع الخطو ، لائحا : ظاهرا ، الجدد الطريق . شد ملهب : أى من جرى فرس ملهب وهو الشديد الجرى المثير للغبار

خفى الفأر من أنفاقه فكأنما تجلله شؤبوب غيث منقب(١)
وظل لثيران الصريم غماغم يداعسهن بالنضى المعلب(٢)
فهاو على حر الجبين ومتق بمدراته كأنها ذاق مشعب(٣)

وقال امرؤ القيس من قصيدته فى المعنى نفسه :

ترى الفأر فى مستنقع القاع لاحبا(٤)
على جـــدد الصحراء من شد ملهب
خفاهن من أنفاقهن كأنما خفاهن ودق من عشى مجلب(٥)
وظل لصيران الصريم غماغم يداعسهـــا بالسمهرى المعلب
فكاب على حر الجبـين ومتق بمدرية كأنهـا ذلق مشعب

فتجد تشابه المعنى والأسلوب والألفاظ والخيال فى القطعتين .

٦ — وقال امرؤ القيس :

وقلنا لفتيان كرام : ألا انزلوا فعالوا علينا فضل ثوب مطنب

وقال علقمة :

فقلنا : ألا قد كان صيد لقانص فخبوا علينا فضل برد مطنب

(١) خفى الفأر : أخرجه من أنفاقه ، وهو جمع نفق وهو الجحر . تجلله : غشيه وأحاط به ، الغيث المطر ، المنقب : الذى ينقب فى الارض ويستخرج مافيها لشدته . الشؤبوب : الدفعة من المطر

(٢) ثيران الصريم : بقر الرمل ، الغماغم : حوار الثيران عند الطعن يداعسهن يطاعنهن : النضى : الرمح ، المعلب ، المشدود بالعلباء وهى عصبة كانوا يشدون بها الرماح والسهام لئلا تنكسر

(٣) هاو : ساقط ، حر الجبين : ما أقبل عليك منه ، المدرا القرن ، الذلق الحد والطرف ، المشعب : الخرز الذى تخرز به الجلود

(٤) مستنقع القاع : الارض المنخفضة الذى تنقع فيها المياه . لاحبا : ظاهرا

(٥) الودق : المطر ، مجلب : شديد الجلبة والصوت

فيزيد علقمة بذكره « صيد القانص » ، ويوجز فيحذف ذكر النزول ، ويزيد امرؤ القيس فينص على كرم الفتيان وعلى ذكر النزول .

٧ — ويقول امرؤ القيس :

وقد أغتدى قبل الشروع بسابح   أقب كيعفور الفلاة مجنب(١)

ويقول علقمة :

وقد اغتدى والطير فى وكناتها   وماء الندى يجرى على كل مذنب(٢)
بمنجرد قيد الأوابد لاحه   طراد الهوادى كل شأو مغرب(٣)

فنجد علقمة يزيد هذه الزيادات الجميلة الرائعة حقا : « وماء الندى يجرى على كل مذنب » ، و « منجرد قيد الأوابد — البيت كله » ، ويزيد امرؤ القيس فى وصف فرسه بما وصفه به ، وإن كانت « منجرد ، وقيد الأوابد » مما ابتكره امرؤ القيس وأخذ عنه ، إلا أن علقمة هنا أرفع بلاغة من غير شك .

٨ — ويقول امرؤ القيس فى الناقة :

بمجفرة حرف كأن قتودها   على أبلق الكشحين ليس بمغرب(٤)

ويقول علقمة :

بمجفرة الجنبين حرف شملة   كهمك مرقال على الأين ذعلب(٥)

---

(١) السابح : الفرس السريع الجرى ، الأقب : الضامر البطن ، اليعفور : حمار الوحش ، الفلاة : الصحراء (٢) المذنب : مسيل الماء إلى الرياض

(٣) منجرد . قصير الشعر ، الاوابد ، بقر الوحش ، لاحه ، أهزله ، الطراد المطاردة ، الهوادى ، أوائل الوحش ، الشأو : الشوط ، المغرب : البعيد

(٤) المجفرة : الناقة العظيمة البطن ، الحرف التى تماثل حرف الجبل فى صلابتها القتود : أداة الرجل ، أبلق الكشحين يريد حمارا وحشيا أبيض الخاصرة ، المغرب الذى ابيضت أشفاره وحماليقه ،

(٥) الحرف ، الضامرة أيضا ، الشملة ، السريعة ، كهمك أى كما تشتهى وتريد المرقال

٩ - ويقول امرؤ القيس فى الفرس :

وبهو هواء تحت صلب كأنه   من الهضبة الخلقاء زحلوق ملعب(١)

ويقول علقمة فى المعنى نفسه :

وجوف هواء تحت متن كأنه   من الهضبة الخلقاء زحلوق ملعب

١٠ - ويقول امرؤ القيس فى ذنب الفرس :

وأسحم ريان العسيب كأنه   عثاكيل قنو من سميحة مرطب(٢)

ويقول علقمة فى ذنب الناقة :

كأن بحاذيها إذا ما تشذرت(٣)   عثاكيل قنو من سميحة مرطب

فيزيد علقمة بالشطر الأول أو أغلبه على امرىء القيس .

١١ - ويقول امرؤ القيس فى الفرس :

وعينان كالماويتين(٤) ومحجر   إلى سند مثل الصفيح المنصب

ويقول علقمة فى الناقة :

بعين كمرآة الصناع تديرها   لمحجرها من النصيف المثقب

فيشبه امرؤ القيس عينى الفرس بمرآتين صافيتين ويقول : إن عينه يسندها عظم الوجه القوى الصلب المنتصب ، ويقول علقمة : إن عين

الكثيرة الرقلان وهو المشى السريع ، الاين ، التعب ذعاب ، خفيفة فى سيرها

(١) البهو ، جوف الصدر ، هواء، واسع ، الصلب ، الظهر . الخلقاء ، الملساء . الزحلوق ، مايتزحلق عليه الاطفال أثناء لعبهم

(٢) الاسحم ، الاسود ، والمرادبه الذنب ، ريان ، ممتلىء ، العسيب ، أصل الذنب . العثاكيل : الاغصان الرقيقة وهى الشماريخ ، القنو : العذق وهو العنقود . سميحة بئر على حافته نخل مثمر

(٣) الحاذان ، ماوقع عليه الذنب من الفخذين ، تشذرت الناقة ، ضربت بذنبها

(٤) تثنيه ماوية وهى المرآة الصافية . المحجر : نقرة العين . الصفيح المنصب : ألواح الحجارة الثابتة .

الناقة شبيهة بعين المرآة الصناع التي تديرها وتنظر بها من خلال ثقوب الخمار ، فتجد إحكاما في التشبيه عندهما واختلافا في تفاصيل المعنى ، واتفاقا في عمومه . وهذا الاتفاق كله يبين لنا مدى هذا التشابه الفني الواسع بين تينك القصيدتين الكبيرتين .

- ٤ -

وهناك خلاف كبير أيضا بين القصيدتين يتجلى لك في ما يأتي :

١ - قصيدة امرىء القيس تزيد على قصيدة علقمة عشرين بيتاً فالأولى خمسة وستون والثانية خمسة وأربعون .

٢ - وشتان بين غزل القصيدتين ، فغزل إمرىء القيس ممتع خصب بعكس غزل علقمة ، علقمة لا يحسن أن يتغزل كما يتغزل امرؤ القيس ، فنجده يقول :

فإنك لم تقطع لبانة عاشق   بمثل بكور أو رواح مؤوب

فيرى أن يقطع آماله في حب محبوبته ويقطع صلته بها بالسفر مبكراً أو رائحاً ، ويقول أيضا :

فقلت لها : فيئي فما يستفزني   ذوات العيون والبنان المخضب

وإذا لم تستفزه هؤلاء فمن الذي يستفزه بعدهن ؟

ولكن امرىء القيس لا يدور بخلده شيء من ذلك ولا ينطق به لسانه ، إنما نراه يقول:

فإنك لم يفخر عليك كفاخر   ضعيف ولم يغلبك مثل مغلب

فتجده يذكر ضعف المرأة وأنوثتها وسحرها مع ذلك وامتلاكها بهذا الضعف القلوب والأرواح : وقد ذكر علقمة في غزله الوصل ومظاهر الجمال في خلق حبيبته وفي زينتها ، ثم صور ما وقع بينهما من صرم وعودة الصلات ثم قطعه لها بالأسفار . أما امرؤ القيس فيذكر لبانات الفؤاد

المعذب وحاجة قلبه إلى اللقاء وجمال محبوبته الفاتن، ورائحتها الذكية حتى في غير وقت الزينة والطيب، وإقامتها على المودة وثقته بها، ويذكر ساعات رحيل أحبابه وهو ينظر إليهن نظرة اليائس الحزين، تنهمر دموعه حزناً لفراق أحبابه .

وعلقمة في غزله الذى يبلغ الأربعة عشر بيتا لا يصل على أى حال إلى منزلة امرىء القيس شاعر الغزل والجمال الذى رسم في مطلع قصيدته صوراً حية رائعة لأحبابه وذكراهن في إيجاز وفى ثلاثة عشر بيتا .

٣ - أما الناقة فقد وصفها علقمة فى خمسة أبيات ووصفها امرؤ القيس فى بيت بل فى شطره فقط ، ويزيد امرؤ القيس فيصف حمار الوحش الذى شبه ناقته به وصفا جميلا ، فعلقمة إذاً يتفوق على امرىء القيس فى وصف الناقة ، وإن كان امرؤ القيس يزيد عليه بوصفه للحمار الوحشى فى ثلاثة أبيات :

٤ - ووصف الشاعران الفرس ، ووصفه علقمة فى ثلاثة عشر بيتا ثم ذكره فى بيتين فى آخر القصيدة ، ووصفه امرؤ القيس فى سبعة عشر بيتا ثم عاد إليه فى ذكره لرحلة الصيد ، وفى نهاية القصيدة عاد لذكره فى سبعة أبيات أخرى . ووصف امرىء القيس للفرس وصف دقيق ، لا يترك شيئا منه إلا ويصفه ويصوره ومن أولى من امرىء القيس بذلك وهو الذى قيل فيه : « أشعرهم امرؤ القيس إذا ركب » ، ولكن امرأ القيس مع ذلك يخطىء فى بعض معانيه ، أما علقمة فلا يخطىء فى شىء وذلك مالاحظته أم جندب ونقدت امرأ القيس من أجله وفضل علقمة عليه .

٥ - ووصف الصيد عند الشاعرين وصف جميل ممتع . . وصفه علقمة فى ثمانية أبيات ووصفه امرؤ القيس فى اثنى عشر بيتا . مع اتحاد فى بعض الأساليب والمعانى ، ولكن امرأ القيس يزيد فى وصف الصيد على علقمة من غير شك ، وزاد عليه أيضا بوصف الخباء الذى نزل هو ورفاقه فيه لتناول الغذاء وأكل لحم الشواء المضهب كما يقول :

وبذلك نجد تفوق امرىء القيس فى الغزل ووصف الصيد وتفوق علقمة فى وصف الناقة والفرس .

٦ — على أن فى قصيدة علقمة صوراً شعرية كثيرة أرجح أنه اقتبسها من قصائد امرىء القيس الأخرى ، كقول علقمة : « وقد أغتدى والطير فى وكناتها » ، وقوله « بمنجرد قيد الأوابد » ، وقوله : « فعادى عداء بين ثور ونعجة » ، وقوله :

كأن عيون الوحش حول خبائنا ... وأرحلنا الجزع الذى لم يثقب

— ٥ —

وامرؤ القيس له السبق فى إنشاء قصيدته وابتكار معانيها ، فعلقمة تابع له فى المعانى التى شارك امرأ القيس فيها من غير شك . ولكن بماذا نسمى عمل علقمة ، أنسميه معارضة أم تقليداً فنياً . أم أنه عمل جديد بكر كعمل امرىء القيس الشاعر الأول . إن عمل علقمة الفنى ليس جديداً بكراً ، ولكنه جديد فى بعض نواحيه ، وهو تقليد فى بعض النواحى ، ومعارضة أدبية فى باقيها ، ولسنا نذهب مذهب من يفضل أحد الشاعرين على الإطلاق كما فعل القدماء ، ففضلوا علقمة على امرىء القيس ، فقالت أم جندب ما قالت ، وقال ابن رشيق . ونازع — امرؤ القيس — علقمة بن عبدة ، فكان من غلبة علقمة عليه ما كان (١) » ، وكما فعل بعض المحدثين ففضلوا امرأ القيس على أى حال ، ولكن نهجنا فى الموازنة نهج يسير على العدل والحق والإنصاف فى الحكومة الأدبية دون نظر إلى ما عدا ذلك . إن عمل علقمة الفنى فى قصيدته جديد فى الكثير من معانيها وأساليبها وخيالاتها ، وهو تقليد فيما أسلفناه لك من معان احتذى فيها علقمة امرأ القيس الذى سبقه بارتجال قصيدته ، ولكن العمل الفنى الذى عمله علقمة كله وعلى وجه الإجمال أصبح معارضة ، والمعارضة فى الشعر أن يقول الشاعر القصيدة ،

(١) ١٣٥ : ١ العمدة ط ١٩٢٥ طبعة هندية بمصر

فيتبعه شاعر آخر بقصيدة فى خيالها وروحها وموضوعها مع الاتفاق فى الوزن والقافية فى أحيان كثيرة ، ويقصد الشاعر الثانى أن يسجل بقصيدته على الأول تفوقا أو أن ينقض فكرة الأول فى قصيدته . والمعارضات فى الشعر العربى القديم والحديث كثيرة ؛ ولكن المعارضة فى قصيدتنا - موضوع هذا البحث - أظهر وأبين وأوضح .

— ٦ —

وبعد فقد حاول علقمة بقصيدته أن يتفوق على امرىء القيس فى حكم النقد الأدبى ،

وقد نال ما أراد عند القدماء ، وحرمه منه بعض الباحثين من المحدثين ولكننا نقدر عمل الشاعرين الفنى معا :

١ - فلامرىء القيس ميزة البدء وفضيلة الابتكار ، وله فضل التفوق فى الغزل والصيد :

٢ - ولعلقمة فضل المعارضة وفضل الابتكار الذى يظهر فى قصيدته أحيانا حتى ليكاد يجعلها جديدة من نواحيها ، وله فضل التفوق على امرىء القيس زعيم الشعر الجاهلى فى وصف الناقة وفى وصف الفرس وهو الفن الذى شهر به امرؤ القيس

إن الصور الفنية الممتعة فى القصيدتين كثيرة جدا ، وخيالهما قوى خصب يتكىء على الحس ، ومعانيهما متدفقة ثرة جياشة لا تكاد تنتهى . ووحدة الموضوع والروح والوزن والقافية فى القصيدتين تكاد تمازج بينهما إلى حد بعيد . وهذا هو آخر تلك الموازنة الأدبية الدقيقة التى فصلنا القول فيها لنتخذ منها منهجا أدبيا واضحا فى النقد والموازنة ،

الموازنة بين الشعراء

الموازنة هى المعادلة بين كلام شاعرين فأكثر ومقابلة معنى كل واقطه بالآخر حتى يتبين رجحان أحدهم فيقال « إنه أشعر » وإن كان من شهوات العقول المفاضلة بين الأشياء والظفر بالأفضل ولهذا كان الأدباء من يوم أن كشف لنا التاريخ وجودهم إلى اليوم مولعين بالموازنة بين الشعراء وتفضيل بعضهم على بعض فإذا نظرنا إليهم فى الجاهلية رأيناهم فى سوق عكاظ يتحاكمون إلى النابغة تحت قبته الحمراء ولمحنا هنالك الأعشى وحسان والخنساء يتناشدون ويتنافسون ، ومقاول العرب فى تلك الحلبة يستمعون وهم أشوق ما يكونون إلى التسابق فى البيان واستماع حكم النابغة فى ذلك .

وإذا رجعنا إلى آراء الأدباء فى نوابغ شعراء الجاهلية وجدنا كلمتهم مفترقة فى امرىء القيس والنابغة وزهير والأعشى : لكل منهم شيعة تفضله على غيره وتقيم البراهين على تفوقه وكذلك حالهم مع كل نابه من الشعراء المخضرمين كالحطيئة وكعب بن زهير وحسان والنابغة الجعدى وأبى ذؤيب الهذلى والخنساء وأضراب هؤلاء .

وإذا تخطينا بهم هذه الطبقة إلى طبقة الشعراء الإسلاميين رأيناهم أبعد خلافا وأكثر شقاقا ، ورأينا الملوك والأمراء والعلماء يشاركونهم فى هذا ويناضلون عمن يفضلون نضالا ولا كنضال الحرب تدفع عن العرض والنفس ، وهذا تاريخ جرير والفرزدق والأخطل والراعى والقطامى ونصيب مشحون بأحاديث المفاضلة وأحكام المحكمين من الشعراء والعلماء والأمراء ، وهى أحكام كثيرا ما تكون مطبوعة بطابع الهوى الشخصى يتجلى لنا ذلك فى مجالس عبد الملك ابن مروان وأكثر ملوك بنى أمية فقد كان المفضل عندهم هو الذى ينال فن عدهم أو يمدحهم بما ليس فى سواهم وكذلك القول فى الشعراء الغزلين من هذه الدولة : ككثير ، وجميل ، وليلى

الأخيلية . وقيس بن الملوح ، وعمر بن أبي ربيعة . والعرجي .

وإذا ذهبنا إلى بني العباس وجدنا الأدباء هنالك يتنازعون للتفضيل بين أبي نواس وصريع الغواني مسلم بن الوليد ، وأبي العتاهية . ثم نراهم أشد ما يكونون تخاصما وتقاطعا في أبي تمام والبحتري . ثم بين ابن المعتز وابن الرومي . ثم بين المتنبي ، وابن هانئ ، والشريف الرضي ، ومهيار الديلمي ، ولا يزال الخلاف الذي كان بين المتقدمين قائما بين أدبائنا إلى اليوم .

وما نرى مذاهب أكثر انشعابا ، ولا طبائع أبعد افتراقا ، من مذاهب الناس وطبائعهم في تفضيل الشعراء

فمنهم من يرى الفضل للشاعر في جريه على الفطرة مع السلامة وإصابة الغرض ، ومن هؤلاء هارون الرشيد . فقد كان يقدم أبا العتاهية ، حتى يجوز الحد في تقديمه لميله إلى عفو الخاطر وحاضر البديهة والكلام الذي يجرى في مجرى العادة حتى لقد بلغه أن إسحاق بن ابراهيم الموصلي يفضل العباس ابن الأحنف عليه ، فلما حضر بين يديه ، وأنشده العباس أجود ما يرويه ولأبي العتاهية أردأه . تعصبا للعباس . قال هارون : فأين أنت عند قول أبي العتاهية :

قال لي أحمد ولم يدر ما بي أتحب الغداة عتبة حقا
فتنفست ثم قلت نعم حبـا جرى في العروق عرقا فعرقا

ثم قال : ويحك أتعرف لأحد مثل هذا أو تعرف أحدا سبقه إلى قوله فتنفست ، ثم قلت كذا وكذا اذهب ويحك فاحفظها .

ولما عرف هذا الخلق من هرون ، كان الشعراء يتقربون بهذا النوع من الشعر ، ومن ذلك أن العباس بن الأحنف اشتاق أهله ، وقد كان خرج مع الرشيد إلى خراسان ، وطال مقامه بها ، ثم إلى أرمينية . فعارضه العباس في طريقه وأنشده :

قالوا خراسان أقصى ما يراد بنا ثم القفول فقد جئنا خراسانا

ما قدر الله أن يدنى على شحط ... سكان دجلة من سكان جيحانا
مضى الذى كنت أرجوه وآمله ... أما الذى كنت أخشاه فقد كانا
عين الزمان أصابتنا فلا نظرت ... وعذبت بصنوف الهجر ألوانا

فقال له الرشيد « قد اشتقت ياعباس أذنت لك خاصة » وأمر له بثلاثين ألف درهم ، ولولا أن الشعر جاءه من الوجه الذى يحبه لما كان منه هـذا العطف ولا هذا الإحسان .

ومنهم من يرى فضيلة الشعر فى الصدق والرفق . وجميل الأحدوثة . ومن هؤلاء دوحة المجد والأدب . بضعة سبط رسول الله صلى الله عليه وسلم ، السيدة سكينة بنت الحسين رضى الله عنهما . فقد أسمعت الشعراء على لسان وصيفتها نقدها الصحيح ، وغيرتها على أخلاق الأدباء ، وألقت عليهم درسا ماكان أحوج أمثالهم إليه فقد ذكر صاحب الأغانى أنه اجتمع فى ضيافتها : جرير ، والفرزدق ، وكثير ، وجميل ، ونصيب . فمكثوا أياما ثم أذنت لهم فدخلوا عليها فقعدت حيث تراهم ولا يرونها ، وتسمع كلامهم ، ثم أخرجت وصيفة لها وضيئة قد رويت الأشعار والأحاديث فقالت « أيكم الفرزدق » فقال لها : ها أنذا . فقالت أنت القائل :

هما دلتانى من ثمانين قامة ... كما انحط بازاقتم الريش كاسره
فلما استوت رجلاى فى الأرض قالتا ... أحى يرجى أم قتيل نحاذره
فقلت ارفعوا الأمراس لايشعروا بنا ... وأقبلت فى أعجاز ليل أبادره

قال نعم . قالت « فما دعاك إلى إفشاء سرها وسرك ؟ هلا سترت عليك وعليها خذ هذه الألف والحق بأهلك » ! .

ثم دخلت على مولاتها وخرجت فقالت « أيكم جرير » قال « ها أنذا » فقالت أنت القائل :

طرقتك صائدة القلوب وليس ذا ... وقت الزيارة فارجعى بسلام
تجرى السواك على أغر كأنه ... برد تحدر من متون غمام

فقال نعم . قالت « أولا أخذت بيدها وقلت لها ما يقال لمثلها ، أنت عفيف وفيك ضعف ، خذ هذه الألف والحق بأهلك » .

ثم دخلت على مولاتها وخرجت وقالت « أيكم كثير » فقال « ها منذا » فقالت أنت القائل :

وأعجبني ياعز منك خلائق ... كرام إذا عد الخلائق أربع
دنوك حتى يدفع الجاهل الصبا ... ودفعك أسباب المنى حين يطمع
فوالله ما يدرى كريم مماطل ... أينساك إذ باعدت أو يتصدع

قال نعم . قالت « ملحت (١) وشكلت ، خذ هذه الثلاثة آلاف(٢) والحق بأهلك » .

ثم دخلت على مولاتها وخرجت فقالت « أيكم نصيب » قال « هاءنذا » فقالت أنت القائل :

ولولا أن يقال صبا نصيب ... لقلت بنفسى النشأ الصغار
بنفسى كل مهضوم حشاها ... إذا ظلمت فليس لها انتصار

قال نعم . قالت « ربيتنا صغارا ، ومدحتنا كبارا ، خذ هذه الألف والحق بأهلك » .

ثم دخلت على مولاتها وخرجت فقالت : ياجميل مولاتى تقرئك السلام وتقول لك والله مازالت مشتاقة لرؤيتك منذ سمعت قولك :

ألا ليت شعرى هل أبيتن ليلة ... بوادى القرى إنى إذاً لسعيد
لكل حديث بينهن بشاشة ... وكل قتيل عندهن شهيد

---

(١) الملاحة الحسن والشكل الغزل

(٢) الثلاثة آلاف هذه رواية الأغانى ولعلها تحريف والصواب الآلف

جملت حديثنا بشاشة ، وقتلانا شهداء ، خذ هذه الألف دينـــاراً والحق بأهلك » .

وقد قالت مرة لراوية جميل أليس صاحبك الذى يقول :

فيـاليتنى أعمى أصم تقودنى بثينة لا يخفى على كلامها

قال نعم . قالت « رحم الله صاحبك إن كان صادقا فى شعره » . انتهت رواية الأغانى.

فأنت تراها قد أكثرت جائزة كثير وجميل لعفتهما وصدقهما فى الحب ورفقهما بالقوارير ، وتعطفت عليهما أيما تعطف كما عنفت أجلاف العشاق وكذبة المحبة مثل جرير والفرزدق . وإن كانت مروءتها أبت عليها أن تحرمهما الجائزة وهما فى حرمها خاصة .

ومنهم من يرى الفضل فى المبالغة والقصد إلى الخيال الغريب ولا يبـالى أصدق الشاعر أم كذب بل يجرى على قولهم ، «أعذبه أكذبه» ، ومن هؤلاء عبد الملك بن مروان ، فقد روى أبو على القالى فى ذيل أماليه . أن عمر بن أبى ربيعة ، وكثير عزة ، وجميل بن معمر . اجتمعوا بباب عبد الملك ابن مروان فأذن لهم فدخلوا . فقال أنشدونى أرق ماقلتم فى الغوانى فأنشده جميل بن معمر :

حلفت يمينا يابثينة صــادقا فان كنت فيهـا كاذبا فعميت
لئن كان جلد غير جلدك مسنى وباشرنى دون الشعار (١) شريت (٢)
ولو أن راق (٣) الموت يرقى جنازتى بمنطقها فى النـاطقين حييت

وأنشد كثير عزة :

---

(١) الشعار ويفتح ماتحت الدثار من اللباس يلى شعر الجسد

(٢) شرى أصابه بعلة الشرى وهى بثور صغار حمر حكاكة تحدث دفعة غالبا وتشتد ليلا (٣) رقاه يرقيه نفث فى عوذته

بأبى وأمى أنت من مظلومة طبن(١) العدو لها فغير حالها
ولو أن غرة خاصمت شمس الضحى فى الحسن عند موفق لقضى لها
وسعى إلى بصرم عزة نسوة جعل المليك خدودهن نعالها

وقال ابن أبى ربيعة المخزومى القرشى :

ألا ليت قبرى يوم تقضى منيتى بتلك التى مابين(٢) عينيك والفم
وليت طهورى كان ريقك كله وليت حنوطى من مشاشك والدم(٣)
ألا ليت أم الفضل كانت قرينتى هنا أو هنا فى جنة أو جهنم

فقال عبد الملك لحاجبه اعط كل واحد منهم ألفين وأعط صاحب جهنم عشرة آلاف .

فحكم لأكثرهم أمانى ، وأبعدهم فى الخيال ، ولم يبال بما وراء ذلك من المحاسن التى فى شعر صاحبى عمر ولا سيما قول كثير :

ولو أن غرة خاصمت شمس الضحى فى الحسن عند موفق لقضى لها

وإن قوله عند موفق بما لم يوفق إليه سواه ، ولو ألهم جميل أن ينشد عبد الملك أبياته التى غالى فيها بقناعته فى حب بثينة لرجوت له أن يرضيه كما أرضاه عمر ، وذلك قوله :

وإنى لأرضى من بثينة بالذى لو أبصره الواشى لقرت بلابله
بلا وبألا أستطيع وبالمنى وبالأمل المرجو قد خاب آمله
وبالنظرة العجلى وبالحول تنقضى أواخره لا نلتقى وأوائله

وهو فى العفة والقناعة غاية ليس بعدها غاية .

ومنهم من يفضل الكلام لحسن التشبيه وتجلى الوصف كما روى الأصمعى وقد حضر ندى أدب فى بنى عامر بن صعصعة ، وفيهم شيخ لهم طويل الصمت عالم بالشعر وأيام الناس ، يجتمع إليه فتيانهم ينشدونه أشعارهم فإذا سمع

---

(١) طبن كفطن وزنا ومعنى (٢) ما بين عينيك والفم لعله يريد فتحة أنفها (٣) المشاش جمع مشاشة بالضمة وهى رأس العظم الممكن المضغ

الشعر الجيد قرع الأرض بمحجن فى يده ، فيتنذ حكمه على من حضر ببكر (١) للمنشد وإذا سمع مالا يعجبه قرع رأسه بمحجنه فيتنذ حكمه عليه بشاة إن كان ذا غنم ، وابن مخاض إن كان ذا إبل فإذا أخذ ذلك ذبح لأهل النادى وما زال يسمع ويضرب الأرض بمحجنه لما يستحسن حتى أنشده شاب يصف ليله :

كأن شميط (٢) الصبح فى أخرياتها ملاء ينقى من طيالسة خضر
تخال بقاياها التى أسار (٣) الدجى تمد وشيعاً (٤) فوق أردية الفجر

فقام كالمجنون مصلتاً سيفه حتى خالط البرك ، وهى إبل أهل الحواء بالغة ما بلغت ، وجعل يضرب يميناً وشمالا

فانظر كيف راعه من الشاب المنشد حسن تشبيهه منظر آخر الليل وقت ابتداء أشعة الفجر فى الظلمات وتصويرها بصورة ملاء طويل مختار من الطيالسة الخضر ، وكيف صور الأشعة فى طبقات السحائب ، والأجواء فى أخريات الليل بالأردية يجىء بعضها فوق بعض . وينضام بعضها إلى بعض عليها الأعلام الموشاة حتى كأن الفجر تخيرها يودع بها الليل ويستقبل بها النهار .

ومنهم من يرى المزية للشاعر فى كثرة فنونه ، واتساع بحره ، ومن هؤلاء بشار بن برد . فقد روى ابن سلام قال « سألت بشارا المرعث أى الثلاثة أشعر ، يريد - جريرا ، والفرزدق ، والأخطل - فقال « لم يكن الأخطل مثلهما ، ولكن ربيعة تعصبت له وأفرطت فيه » قلت فهذان . قال « كانت لجرير ضروب من الشعر لا يحسنها الفرزدق . ولقد ماتت النوار فقاموا يبكون عليها بشعر جرير » يشير إلى قوله :

---

(١) البكر الجمل (٢) الشميط المخلوط من بياض وسواد
(٣) أسار : أبقى (٤) الوشيع علم الثوب كما يصنع الآن على ثياب الحضريات من الوشى

لولا الحياء لعادني استعبار(١)   ولزرت قبرك والحبيب يزار

ولقد سبق بشارا إلى هذا الحكم السيدة سكينة رضى الله عنها . وما ذاك إلا لرقته وكثرة فنونه وكذلك رأى خالد بن صفوان ، فإنه قال فى مجلس عبد الملك ، وقد كان يصف الثلاثة : أما أغزرهم بحراً ، وأرقهم شعراً ، وأهتكهم لعدوه ستراً - الأغر الأبلق - الذى إن طلب لم يسبق، وإن طلب لم يلحق ، فجرير . وقد فضله الراعى حتى على نفسه لما سمع قوله :

وعاو عوى من غير شيء رميته   بقارعة انفاذها(٢) تقطر الدما
خروج بأفواه الرواة كأنها   قرا هندوانى إذا هز صمما

وقال لحاضرى مجلسه « أألام على أن يغلبنى مثل هذا » ؟ .

وقد قال الصلتان العبدى لما حكم بين جرير والفرزدق ، وفضل جريرا بشعره ، والفرزدق بنسبه :

أرى الخطفى بز الفرزدق شعره   ولكن خيرا من كليب مجاشع
فياشاعرا لا شاعر اليوم مثله   جرير ولكن فى كليب تواضع
جرير أشد الشاعرين شكيمة   ولكن عليه الباذخات الفوارع(٣)
يناشدنى النصر الفرزدق بعد ما   ألحت عليه من جرير(٤) صواقع
فقلت له إنى ونصرك كالذى   يثبت آنفا كشمته الجوارع

ومنهم من يرى الفضل فى قرب الكلام وصحة سبكه وعذوبة لفظه وكثرة مائه ورونقه ، فيفضل النابغة الذبيانى فى الجاهليين ، والخنساء فى المخضرمين وعمر فى الإسلاميين ، وابن المعتز فى المولدين ، والشاب الظريف فى المتأخرين ومنهم من يراها فى الصنعة ، والغوص على المعانى والاختراع ، فيفضل زهيرا ومسلم بن الوليد ، وأبا تمام ، على غيرهم من معاصريهم ، وطائفة تحكم على الكلام بأثره فى نفس السامع ، وهم أهل الفطرة ، والراسخون فى الأدب

---

(١) استعبار جرت عبرته وحزن   (٢) انفاذها : فتحاتها
(٣) الفارع المرتفع الظاهر الحسن   (٤) كشم أنفه أى قطعه

البعيدون عن الهوى . وهؤلاء قلما يمدحون إلا كلام الوالهين من العشاق والمفجعين بالثكل والمصائب ، والناهضين بالإصلاح فى الأمم من الحكماء، لأن كلام هؤلاء يخرج من قلوبهم ، فيقع فى قلوب الناس ، فإذا سمعوا مالك ابن الريب يرثى نفسه ، ويذكر مرضه ، وغربته بخراسان شاركوه فى مصابه وتوجعوا لبلائه ، وذلك قوله :

تذكرت من يبكى على فلم أجد سوى السيف والرمح الردينى باكيا
وأشقر محبوكا يجر عنانه إلى الماء لم يترك له الموت ساقيا
فياصاحبى رحلى دنا الموت فانزلا برابية إنى مقيم لياليا
ولا تحسدانى بارك الله فيكما
من الأرض ذات العرض أن توسعا ليا
خذانى فجرانى ببردى إليكما فقد كان قبل اليوم صعبا قياديا
وقد كنت عطافا إذا الخيل أدبرت سريعا لدى الهيجا إلى من دعانيا
يقولون لا تبعد وهم يدفنوننى وأين مكان البعد إلا مكانيا
غداة غد يالهف نفسى على غد إذا أدلجوا عنى وأصبحت ثاويا

ويعجبهم شعر ابن الدمينة وخاصة إذا سمعوه يقول:

ولو أننى أستغفر الله كلما ذكرتك لم تكتب على ذنوب
وإنى لأستحييك حتى كأنما على بظهر الغيب منك رقيب

أو سمعوا على بن الجهم ، وهو يقول فى الاغتراب :

وارحمتا للغريب بالبلد النا زح ماذا بنفسه صنعا؟
فارق أحبابه فما انتفعوا بالعيش من بعده وما انتفعا

أو سمعوا عروة بن حزام وهو يقول فى ابنة عمه عفراء :

فقد تركتنى ما أعى لمحدث حديثا وإن ناجيته ونجانى
كأن قطاة علقت بجناحها على كبدى من شدة الخفقان

فياليت كل اثنين بينهما هوى   من الناس والأنعام يلتقيان

أو سمعوا أبا العلاء يقبح جفاء الإنسان للحيوان ، وقلة الشفقة عليه فى قوله :

وبين بنى حواء والخلق كلهم   عداء فما هذا التخاذل والدخل(١)

هذه طائفة من وجوه التفضيل ذكرناها لتكون عنوانا لسواها ، وقلما تنحصر أذواق الناس وأهواؤهم .

وكان السواد الأعظم من المفضلين متسرعين فى الحكم جائرا ، فقد يحكم للشاعر بالسبق ، وهو لم ير من كلامه إلا القصيدة أو القصيدتين مما استجيد من كلامه ، وقد يحكم على غيره بالتأخر عنه لأن الذى رآه من كلامه كان دون الذى رآه من كلام السابق . ولو اطلع على كل ما قال الشاعران وعلى أسباب قولهما ، وقارن بين معانيهما المتحدة الموضوع ، وأساليبهما ، ومقدار تأثرهما بالحوادث التى قالا فيها الشعر . وحاذى البديهة بالبديهة . والروية بالروية ، وعلم أن اللاحق لم يسرق من السابق ، ولم يخترع لنفسه اختراعه ، لعدل عن حكمه ، ولما أطلق القول فى التفضيل بل قال : فلان أشعر فى قصيدة كذا ومعنى كذا ، والآخر أجود فى كيت وكيت من جهة المعنى أو الديباجة أو حسن التصوير ، ولا يسوغ له أن يقول « أشعر على الإطلاق » إلا بعد أن يستقرى المحاسن والمساوى ويقارن بين ما لكل من الشاعرين منهما ، حتى إذا وجد أحدهما أنضر ديباجة وأبلغ معنى وأغزر فنونا وأحضر بديهة وأقل سقطا ، وأكثر غوصا على المعانى ، وأجمل أخذا وأوفر مادة ، حكم له على الآخر حكما يؤيده الدليل الصحيح ، والذوق السليم . لا كحكم كثير من المفضلين الفضوليين . ومنهم جماعة من النحاة . عرضوا قوانينهم على بعض الشعر الرائع كشعر النابغة فلم يتفق مع بعضها ، فغضوا من فضله ، ونسوا أن قواعدهم محكومة بشعره ، لا حاكمة عليه .

---

(١) الدخل : الضغن

ومنهم آخرون حملتهم المعاصرة والمنافسة على الحط من شعر أقرانهم وقد قلدهم فى ذلك بعض المؤلفين، فخاضوا فى أقدارهم وهم لا يشعرون.

وقد ينتقد الحضرى البدوى فيعيبه لاختلاف الذوقين وربما كان البدوى فى باديته أشعر من الحضرى فى حضارته.

وعندى أن الاعرابية التى كانت تندب ولدها بريدا عند قبره فتقول:

هل خبر القبر سائليه   أم قر عينا بزائريه؟
أم هل تراه أحاط علما   بالجسد المستكن فيه؟
لو يعلم القبر ما يوارى   تاه على كل ما يليه
يا جبلا كان ذا امتناع   وطود عز لمن يليه
ونخلة طلعها نضيد   يقرب من كف مجتنيه
ويامريضا على فراش   تؤذيه أيدى ممرضيه
ويا صبورا على بلاء   كان به الله يبتليه
يا دهر ماذا أردت منى   أخلفت ما كنت أرتجيه؟

أشعر من إبراهيم بن المهدى فى رثاء ولده الذى مات بالبصرة وإن كست الحضارة كلامه ثوبا مرقشا وذلك قوله من جيد قصيدته الطويلة:

كأن لم يكن كالغصن فى ميعة الضحى   سقاه الندى فاهتز وهو رطيب
كأن لم يكن زين الفتاء ومعقل النساء   إذا يوم يكون عصيب
وريحان صدرى كان حين أشمه   ومؤنس قصرى كان حين أغيب
وكانت يدى ملأى به ثم أصبحت   بحمد إلهى وهى منه سليب
كظل سحاب لم يقم غير ساعة   إلى أن أطاحته فطاح جنوب
أو الشمس لما من غمام تحسرت   مساء وقد ولت وحان غروب
سأبكيك ما أبكت دموعى والبكا   بعينى ماء يا بنى يجيب

ولا بد أن يكون الموازن من الذوق الصحيح والاطلاع الواسع، محيطا بكل ما قال الشاعران، بعيدا عن الهوى والتقليد، دقيق النظر فى المقابلة

بين المعانى والالفاظ ، فيوازن بين المفردات والأساليب والمعانى المخترعة وحسن الخيال وقبحه والبراعات والمخالص والمقاطع والأخذ والابتداع وأن يذكر تعليل كل تحسين أو تقبيح بما يقنع حتى يريهم للناظر ما يهىء له الحكم فلا يسعه قبل أن يأتى على آخر الموازنة إلا النطق بالحكم قبل سماعه كما فعل أبو القاسم الحسن بن بشر بن يحيى الآمدى فى كتاب الموازنة بين أبى تمام والبحترى ،فإنه قال « لست أفصح بتفضيل أحدهما على الآخر لكنى أقارن بين قصيدتين من شعرهما إذا اتفقتا فى الوزن والقافية وإعراب القافية وبين معنى ومعنى فأقول أيهما أشعر فى تلك القصيدة وذلك المعنى ثم احكم أنت على جملة ما لكل واحد منهما إذا استطعت علما بالجيد والردىء » ثم ذكر مساوى الشاعرين فسرد سرقات أبى تمام وإحالاته وغلطه وساقط شعره وقبح استعاراته وتجنيه واضطراب وزنه ثم ذكر ماوجده من ذلك للبحترى وقارن بين ما افتتحا به القول من الوقوف على الديار ووصفها والسلام عليها والدعاء لها إلى غير ذلك ونبه على الجيد وفضله على الردىء وبين علل ذلك .

ثم قال : وبقى ما لم يمكن إخراجه إلى البيان وهو مالا يعرف إلا بالدربة ثم ضرب المثل بالفارسين والجاريتين تتساويان فى كل شىء من الصفات الحسنة ومع هذا يفضل إحداهما على الأخرى المجربون ولا يستطيعون بيان ذلك ثم ذكر ميزان الموازنة وهو أن يكون الناقد من أصحاب الذوق السليم فيدقق النظر فى الوجوه التى فضل بها الأئمة شعر أوس بن حجر على النابغة الجعدى مثلا فإن عرفها فضل على مقتضاها وحكم حكما مقبولا وإلا فحسبه أن يكون مع الجمهور .

أما فائدة الموازنات فتحصيل ملكة الأدب وصحة النقـــد وكشف القناع عن المحاسن لتحتذى ، والمقابح لتجتنب . وكما أن اللسان لا يمرن على النطق بالصواب إلا بالمحاكاة كذلك الذهن لا يمرن على الفهم الصحيح ولا يجول فى ميدان فسيح من المعانى ولا يقدر الأشياء قدرها إلا بالمقارنات

الكثيرة التى تمثل فى النفس لكل شاعر صورة وتقرر له حكما غير مزعزع ولا مدافع . ولو أن المتقدمين عنوا بهذا الموضوع عنايتهم بسواه ، لما بقى كثير منا مضطربا اضطرابهم إلى اليوم فى منازل الشعراء ولعلنا نوفق إن شاء الله إلى مقدار صالح من المقارنات نبلغ به غايتنا

وسنبدأ ذلك بالموازنة بين زهير والأعشى لا تحادهما فى صفات كثيرة تجعل الموازنة صحيحة .

الموازنة بين شاعرين جاهليين

١ – تحدثنا عن الموازنة والموازنين وتمييز المقبول من آرائهم والمردود فيها وكيف تكون الموازنة صحيحة متقبلة . ومتى يصلح الموازن لتولى هذه الحكومة وأتينا على فائدة المقارنات بين الشعراء وانها تضم إلى علم الأدب ملكة .

والآن نبدأ الموازنة بين زهير والأعشى على منهجنا من استيفاء ما للشاعرين ومقابلة كل بالآخر على وجه يجلى لكل منهما صورة بينة ومنزلة معينة وربما ضن علينا الزمن فتركنا بعض الشىء مما يدركه الطالب وقد نكل إلى الذوق السليم مالا يقام البرهان عليه ولكن لا يفوتنا أن نعرض على القارىء ليحكم ذوقه كما حكمنا ولعله يرشد إلى مالم نرشد إليه من وجوه التفضيل فقد يجىء من عفو الخاطر مالا يجىء من كد القريحة . وقد رأينا أن نمهد للموازنة بين هذين الشاعرين بذكر الصفات المشتركة بينهما والصفات الخاصة ليكون ذلك أعون على الحكم الصحيح وبعد فنقول :

٢ - كلا الرجلين شاعر جاهلى مكثر مجيد متفنن معدود فى الطبقة الأولى متكسب بشعره وإن كان الأعشى أكثر الحافا وتجمة فى طلب رزقه . وهما معدودان من أصحاب المعلقات : لزهير واحدة باتفاق الرواة وللأعشى اثنتان لاميتان احداهما مرفوعة وهى التى قال فى مطلعها :

ودع هريرة إن الركب مرتحل   وهل تطيق وداعا أيها الرجل ؟

والثانية مجرورة وهي التي قال في مطلعها :

ما بكاء الكبير بالأطلال   وسؤالي وما ترد سؤالي

ولكن الرواة لم تتفق عليها فصاحب الجمهرة عد الأخيرة من المعلقات وغيره عد الأولى، ومن اللغويين من أسقطهما كما فعلوا ذلك في قصيدتي النابغة الذبياني إحداهما الرائية وهي التي أولها :

عوجوا فحيوا لنعم دمنة الدار   ماذا تحيون من نؤى وأحجار؟

وأخراهما الدالية التي مطلعها :

يا دارمية بالعلياء فالسند   أقوت وطال عليها سالف الأبد

وكما اختلفوا في معلقتي عنترة والحارث بن حلزة اليشكري

٣ — ويتخالف الشاعران في المنشأ والأخلاق فزهير رباه خاله بشامة ابن الغدير في غطفان . وكان بشامة هذا شاعرا مجيدا غنيا حازما لا تبت غطفان في أمر دونه ، ولا تصدر إلا عن رأيه . وقد روّى زهيرا شعره وحبب إليه القول ومهد له سبيله حتى نطق به صغيرا ، وقد ورثه من ماله وشعره فنشأ شغوفا بالشعر قليل الحاجة إلى التكسب به ،وقد كان مع هذا أبوه شاعرا وكان كثيرا ما يختلف إليه ويعلمه ويستخبره ، وكانت اختاه سلمى والخنساء (١) شاعرتين ، وكان ابناه كعب وبجير شاعرين وكذلك المضرب بن كعب

فبيت زهير بيت عريق في الشعر جاهلية وإسلاما وكان زهير في الجاهلية سيدا كثير المال . حليما ، معروفا بالورع . ولهذا كان يكره الهجاء كراهة الناسك الآثام ، وقد صرح مرة بهجاء قوم حصن في قوله من قصيدة طويلة :

---

(١) الخنساء : هي غير السيدة تماضر أخت صخر

وما أدرى وسوف إخال أدرى ... أقوم آل حصن أم نساء؟

فان قالوا النساء مخبآت ... فحق لكل محصنة هداء.(١)

فأسف لذلك أسفاً شديداً وقال: «ما خرجت فى ليلة ظلماء، إلا خفت أن يصيبنى الله بعقوبته لهجائى قوما ظلمتهم».

ولا كذلك الأعشى فى هذا كله فقد كان خاله عبدا من خماعة وأبوه قيس ابن جندل قتيل الجوع لم يكن له فى قومه ما كان لأبى سلمى وخاله وقد عيره بذلك جهنام أحد معاصريه من شعراء قبيلة قيس بن ثعلبة فقال:

أبوك قتيل الجوع قيس بن جندل ... وخالك عبد من خماعة راضع

فنشأ فى اليمامة نشأة غير المياسير، وأخذ فى الزلفى إلى هوذة بن على صاحب اليمامة ببعض المدائح فيه حتى قربه منه، ثم جعل الشعر متجراً ثم اقترب من بنى عبد المدان بنجران، فأجزل لهم الثناء، وأجزلوا له العطاء، ثم وفد على ملوك الحيرة، ومدح الأسود بن المنذر أخا النعمان، وما زال ينتجع البلاد متكسباً بشعره، حتى وفد على ملوك فارس، ولهذا كثرت الفارسية فى شعره، من أسماء الأشربة وآلة الملاهى، كالناى والبربط(٢) وغيرهما، وكأسماء الأزهار فى قوله:

لها جلسان عندها وبنفسج ... وسيسنبر المرزجوش منمنما(٣)

وآس وخيرى وورد وسوسن ... يصبحن فى كل دجن(٤) تغيما(٥)

---

(١) الهداء زفاف العروس إلى زوجها، ومعنى البيت: إن بنى حصن إن قالوا: «نحن النساء مخبآت» يجب أن يزففن إلى أزواجهن وهو كلام فى غاية التحقير.

(٢) البربط العود، أعجمى ليس من ملاهى العرب، وقد عربته حين سمعت به

(٣) المنمنم المصفر الورق

(٤) الدجن: ظلام الغيم فى اليوم المطير

(٥) تغيم كان ذا غيم. الجلسان والبنفسج والسيسنبر والمرزجوش والآس والخيرى والسوسن: كل هذه ضروب من الرياحين.

وقد سمعه كسرى يوما يتغنى بقوله :

أرقت وما هذا السهاد المؤرق   وما بي من سقم وما بي تعشق؟

فقال : ما يقول هذا العربي ، فقالوا : يتغنى بالعربية فقال : فسروا قوله ، قالوا : زعم أنه سهر من غير مرض ، ولا عشق ، قال : فهذا اللص ، وعندي أن هذا من قصور المترجم وسوء فهم من ترجم له ، فان الشاعر أنكر على نفسه هذا السهاد ثم بين سببه بعد ، على أن أسباب السهاد لم تنحصر في السقم والعشق واللصوصية حتى يتم ما فهمه كسرى .

ومن هنا تعلم مقدار مصيبة الأمم بالتراجمة ، وخاصة مصيبتنا بضعافهم اليوم ، وهم ألسنتنا عند السياحين وغيرهم ، ممن لا يبالون أن يأخذوا علمهم بنا من أفواه هؤلاء الجهلة ، المتصدرين للإرشاد .

ولقد كانت خاتمة مطافه ، أن قصد النبي صلى الله عليه وسلم . ومدحه بالدالية التي مطلعها :

ألم تغتمض عيناك ليلة أرمدا(١)   وبت كما بات السليم مسهدا؟

ولكنه طمع في جائزة قريش(٢) فأخذها ورجع أدراجه فما كاد يبلغ بلده منفوحة باليمامة حتى رمى به بعيره فقتله ، ولقد صدق في صفة نفسه وطلبه للمال كل حياته بقوله في آخر قصيدة رويت عنه :

وما زلت أبغي المال مذ أنا يافع   وليدا وكهلا حين شبت وأمردا

وقوله في أخرى :

وطوفت للمال آفاقــه   عمان فحمص فاوريشلم
أتيت النجاشي في داره   وأرض النبيط وأرض العجم

---

(١) أرمد الرجل : افتقر أو أجدب وهلكت مواشيه

(٢) جائزة قريش مائة من الإبل جعلوها له على أن يعود عن قصده النبي صلى الله عليه وسلم وينتظر سنة . وبعد ذلك يكون مع الغالب

فنجران فالسرو من حمير ... فأى مرام له لم أرم

ولهذا لم يكن يتحرج من الهجاء المقذع(١)، وقد بلغ من أمره أنه كان لا يهجو أحدا إلا وضعه، ولا يمدح أحداً إلا رفعه، وقد سمته العرب صناجتها لجودة شعره أو لغنائهم به، أو لأنهم شبهوه بالصناج، وهو الضارب بالصنج، وهى آلة بأوتار يضرب بها فيجتمع الناس لسماع شعره كما يجتمع العرب على الصناج، ويرجح هذا ما كان له من المشاهد فى عكاظ . وإلى هنا فقد عرفنا حال الرجلين نشأة وأخلاقا . فلنبدأ فى موازنة شعريهما .

٤ - وأجود ما قال زهير فى المدح قوله :

قد جعل المبتغون الخير فى هرم ... والسائلون إلى أبوابه طرقا
إن تلق يوماً على علاته هرما ... تلق السماحة فيه والندى خلقا(٢)
لو نال حى من الدنيا بمنزلة ... وسط السماء لنالت كفه الأفقا

وقوله :

متصرف للمجد معترف(٣) ... للنائبات يراح للذكر
جلد يحث على الجميع إذا ... كره الظنون جوامع الأمر
فلأنت تفرى(٤) ما خلقت وبعـ ... ـض القوم يخلق ثم لا يفرى
والستر دون الفاحشات وما ... يلقاك دون الخير من ستر
لو كنت من شىء سوى بشر ... كنت المنور ليلة البدر

---

(١) المقذع : المملوء شتائم ومكروها

(٢) أى أن تلقه على قلة ذات يده تجده سمحا نديا فكيف به على غير العلات

(٣) المعترف : الصابر

(٤) تفرى : تبدع . وتخلق : توجد ، والمعنى: ولأنت توجد فتبدع ، وبعض القوم لا يبدع فيما يوجد

وقوله :

على مكثريهم رزق من يعتريهم   وعند المقلين السماحة والبذل
وما يك من خير أتوه فإنما   توارثه آباء آبائهم قبل
وهل ينبت الخطى إلا وشيجه(١)   وتغرس إلا فى منابتها النخل

وقوله :

فلو كان حمد يخلد الناس لم تمت   ولكن حمد الناس ليس بمخلد

وقوله :

لو كان يقعد فوق الشمس من كرم   قوم لأولهم أو مجدهم قعدوا
جن إذا فزعوا إنس إذا أمنوا   مرزءون بهاليل إذا قصدوا

وقال الأعشى فى مدح المحلق :

أبا مسمع سار الذى قد فعلتم   فأنجد أقوام به ثم أعرقوا(٢)
لعمرى لقد لاحت عيون كثيرة   إلى ضوء نار باليفاع تحرق
تشب لمقرورين يصطليانها   وبات على النار الندى والمحلق
رضيعى لبان ثدى أم تحالفا   بأسحم داج عوض لا نتفرق

وقال :

ما النيل أصبح زاخرا من مده   جاءت له ريح الصبا فجرى لها
يوما بأجود نائلا منه إذا   نفس البخيل تجهمت لسؤالها

وقال :

ولو أن عز الناس فى رأس صخرة   ململمة(٣) تعيى الأبى المخدما
لأعطاه رب العرش مفتاح بابها   ولو لم يكن باب لأعطاه سلما

---

(١) الخطى الرمح نسبة إلى الخط وهى جزيرة بالبحرين، والوشيج : القنا الملتف
(٢) أنجدوا : ذهبوا إلى نجد ، وأعرقوا : ذهبوا إلى العراق
(٣) الململم : المجتمع المدور المضموم

فما نيل مصر إذ تسامى عبابه ولا بحر بانقيا إذا راح مفعما
بأجود منه نائلا إن بعضهم إذا سئل المعروف صد وجمجما(١)

وقال :

لا يرقع(٢) الناس ما أوهى وإن جهدوا
أن يرقعوه ولا يوهون ما رقعا
غيث الأرامل والأيتام كلهم لم تطلع الشمس إلا ضر أو نفعا

وقال :

المهينين ما لهم فى زمان السـوء حتى إذا أفاق أفاقوا

وقال :

فرع نبع يهتز فى غصن المجـد عظيم الندى كثير الحمال(٣)

وقال :

قبل امرىء طلق اليدين مبارك ألفى أباه بنجوة فسما لهـا

هذا أجود ما رأيته من مدائح الرجلين، وكل منهما انفرد بمعان، لم يشاركه فيها صاحبه.. فأما زهير فقد انفرد بكل معانيه، فى الأبيـات المختارة ما عدا قوله :

من يلق يوماً على علاته هرما يلق السماحة فيه والندى خلقا

وقوله :

وما يك من خير أتوه فإنما توارثه آباء آبائهم قبل

فإنه شارك فيهما الأعشى فى قوله « المهينين مالهم الخ » وقوله « قبل امرىء الخ »، وقد قصر الأعشى عن زهير فى هذا المعنى فإن الأعشى قال

---

(١) جمجما : لم يقدم

(٢) يرقع الثوب ونحوه يلحم خرقه ، وأوهاه خرقه أو هيأه للتخرق

(٣) الحمال الدية ، يحملها قوم عن قوم

« إنهم يهينون مالهم فى زمان السوء حتى إذا ما أفاق الزمان أفاقوا من إهانة المال » ، ولكن زهيراً قال « إن الذى يلق هرما على قلة ذات يده فى أى وقت كان يلقاه سمحاً جواداً يصدر عنه الجود والسماح . صدور الغرائز ، فما بالك به أيام الرخاء وسعة العيش » فزاد فى المعنى زيادة رائعة ، ولم يقيد بقيد الأعشى الذى جعل بيته لا يسير كما سار بيت زهير .

فأما البيت الثانى : فإن معنى الأعشى فيه أجود لأنه بين أن الممدوح سما بنفسه إلى المنزلة العالية التى كان فيها أبوه ، فأثبت أنه عمل للمجد حتى بلغه ، وقد مهد لذلك بقوله « طلق اليدين مبارك » .

وأما زهير فقال إن خير الممدوح موروث فأثبت له الحسب ولم يشر إلى أنه فى جد بلوغ ما هو فيه ، على أن قوله « أبوه » قد يشعر بأنهم جادون ولكن ذلك محتمل لا مقطوع به كما فى بيت الأعشى .

٥ — هذا وبقى أن نقارن بين المعانى الرائعة مما اخترنا من شعر الشاعرين فنقول ليس للأعشى إلا معنيان رائعان أحدهما قوله « لم تطلع الشمس إلا ضر أو نفعا » فإنه معنى ضخم فى لفظ فخم مهد له بالبيت قبله وهو قوله :

لا يرقع الناس ما أوهى وإن جهدوا أن يرقعوه ولا يوهون ما رقعا

فأحكمه أيما إحكام ، ووضعه موضع النتيجة من المقدمات الصحيحة ، والثانى قوله « وبات على النار الندى والمحلق » فإنه من أبدع الكنايات عن وصف المحلق بالكرم وقد مكنها فضل تمكن وزادها حسنا بقوله بعد :

رضيعى لبان ثدى أم تحالفا بأسحم(١) داج عوض لا نتفرق

فإذا كان المحلق قد ارتضع هو والندى من ثدى أم واحدة ، وتحالفا بعد على الاصطحاب بما يحلف به من يبيع نفسه المدافع عن بيضة قومه فيغمس يده فى الدم ليستحق إهراق دمه ، وإن كانت يمينه غموسا . إذا

---

(١) الأسحم الدم تغمس فيه أيدى المتحالفين

كان المحلق هو والندى كذلك كان الندى فطريا فيه ؛ لا يفارقه حتى عمرته ، أو تفارق نفسه جسمه .

أما زهير فله كناية لا تنقص عن هذه معنى وتزيد عنها رشاقة وعبارة وهى قوله :

لو كنت من شىء سوى بشر   كنت المنور ليلة البدر

فإنه صدر الكلام بلو وهى من مقربات المبالغة ومحسناتها ، ثم جاء بما يفيد أنه خير من البدر ليلة تمامه بأبدع كناية وهى قوله « كنت المنور ليلة البدر » لأن نوره غلب على نور البدر فلا يظهر البدر منه إلا كما يظهر من النجم فى رائعة النهار ، وهذا معنى دقيق فى لفظ وجيز رشيق .

وقد جاء زهير بما لم يجىء به سواه من شعراء الجاهلية والإسلام فيما علمت وهو قوله « كأنك تعطيه الذى أنت سائله » وقوله :

جن إذا فزعوا إنس إذا أمنوا   مرزءون بها ليل(١) إذا قصدوا(٢)

فإن الأولين فى المدح بالجود ، غاية لم يبلغها سواه ، وأما الثالث فله روعتان لفظية ومعنوية ، فأما اللفظية فهى المقابلات البديعة ، والتقاسيم المحكمة ، وأما روعة المعنى ، فلما تراه فيه ، من غرر الأخلاق ، التى هى لباب ما ينتهى إليه عقل العاقل ، وحكمة الحكيم ، إذ أرادا أن يختارا لأنفسهما أشرف الفضائل ومن أعلى الكنايات عن الحمد قوله :

فلو كان حمد يخلد الناس لم تمت   ولكن حمد الناس ليس بمخلد

وهذا وما تقدم لا نظير له فى كلام الأعشى ، على أن لزهير فى المديح مختارات كثيرة لا تكاد تبعد عما ذكرنا . وقد استقريت كلام الأعشى فى المديح فما رأيته يعلو إلا على سبيل الندور ، ولهذا : كان زهير أمدح ، وهو فى مدحه أصنع .

---

(١) البهلول السيد الجامع لكل خير

(٢) ويروى : جهدوا ، من جهد عيشه كتعب نكد

٦ — وأجود نسيب زهير مطلع القافية التي مدح بها هرما وأباه وإخوته وقد غني به وهو قصيدته :

إن الخليط (١) أجد البين فانفرقا   وعلق القلب من أسماء ما علقا

وقوله من قصيدة يمدح بها سنان بن أبي حارثة المري :

وقد كنت من سلمى سنين ثمانيا   على صير (٢) أمر ما يمر وما يحلو
وكنت إذا ما جئت يوما لحاجة   مضت وأجمت حاجة الغد ما تخلو (٣)
وكل محب أحدث النأي عنده   سلو فؤاد غير حبك ما يسلو

وقوله :

قف بالديار التي لم يعفها القدم   بلى وغيرها الأرواح والديم
كأن عيني وقد سال السليل (٤) بها   وعـــبرة ما هم لو أنهم أمم
غرب (٥) على بكرة أو لؤلؤ قلق   في السلك خان به رباته النظم (٦)

وقال الأعشى :

ودع هريرة إن الركب مرتحل   وهل تطيق وداعا أيها الرجل؟
غراء فرعاء مصقول عوارضها   تمشي الهوينا كما يمشي الوجي الوحل
علقتها عرضا وعلقت رجلا   غيري وعلق أخرى غيرها الرجل
وعلقتني أخرى ما تلائمني   فاجتمع الحب حب كله تبل (٧)
فكلنا مغرم يهذي بصاحبه   ناء ودان ومحبول ومحتبل (٨)

---

(١) الخليط : المخالط (٢) الصير : الطرف
(٣) أجمت : دنت أي متى انقضت حاجة دنت حاجة
(٤) السليل : واد . وما زائدة ، والمعنى هم عبرة لي لو أنهم قريبون فما حالي على البعد (٥) الغرب : الدلو (٦) النظم : جمع نظام
(٧) تبل : سقم
(٨) المحبول : الذي نصبت له الحبالة وهي ما يصاد بها والمحتبل الذي أخذ فيها

وقال :

وأنكرتني وما كان الذي نكرت   من الحوادث إلا الشيب والصلعا

والناظر إلى غزلهما يرى بينهما فروقا .

الأول : أن غزل الأعشى في سهولة لفظه ، وخفة روحه أحب من غزل زهير .

الثاني : أن المعاني النابهة في كلام الأعشى أكثر منها في كلام زهير على أنه ليس في كلام زهير جميعه ما يعادل قول الأعشى « وأنكرتني - البيت » لأنه معنى نادر يجيء مثله للفطريين ، وقلما يوفق له المتكلفون .

الثالث : أن الأعشى لم يشغل نفسه بوصف الديار ورحلة الراحلين ، ولم يملأ كلامه بالأمكنة ومحاط السفر كما فعل زهير في مطلع معلقته بل شغله وصف صاحبته بالوقار والعفة والأمانة ، وكمال الزينة ، وطيب الرائحة ، ثم وصف حال المحبين من توزيع أهوائهم ، على من لا يحبونهم . ثم ما يصير اليه أمرهم بعد هذا .

الرابع : أن الأعشى أغزر مادة من زهير في هذا الباب ، والظاهر أن زهيراً لورعه كان يتغزل على طريقة الشعراء ، ولم يكن هو عاشقاً . أما الأعشى فقد كان يعاقر الراح ، ويغازل الملاح ، خصوصاً أيام أعياد نجران وفي أيام الآحاد حينما كان يقول :

نازعتهم قضب الريحان متكئا   وقهوة مزة راووقها خضل

أما زهير فليس في المختار من غزله أجود من قوله :

وقد كنت من سلمى سنين ثمانيا   على صير أمر ما يمر وما يحلو

وقوله :

وفارقتك برهن لا فكاك له   يوم الوداع فأمسى الرهن قد غلقا

ومعنى الأول : أنه كان من حبها ثماني حجج على طرف في منزلة بين

المر والحلو إذ لا يأس ولا وصل وهو معنى حسن لكنه يجرى مثله فى متعارف الناس ومتناول المحبين من عامتهم ،

وأما الثانى وهو رهين القلب عندها فإنه ليس شيئاً زائدا على أصل الحب الصحيح وليس أمره فيه ببدع هذا مع غض النظر عن التكرار فى قوله (لا فكاك له) وقوله (فأمسى الرهن قد غلقا) واستعماله عبارات. هى بكلام الفقهاء أشبه منها بكلام الشعراء .

والأمر العجيب أن زهيرا على ورعه يشبه ريق صاحبته بعد النوم بالخمرة المعتقة . ولا أدرى : أهو على تقواه يستطيب رائحتها . والأعشى على تهتكه يشبه أنفاس صاحبته بأنفاس الرياض . وما كان أحرى كلا أن يكون محل الآخر فى ذلك ولكن خطرات الشعر لا تتقيد بحال الشاعر

الخامس أنه ليس فى كلام الأعشى شىء من التعقيد ولا المبالغة المردودة كما فى كلام زهير فى قوله :

كأن عينى وقد سال السليل بها   وعبرة ماهم لو أنهم أمم

غرب على بكرة أو لؤلؤ قلق   فى السلك خان به رباته النظم

فإن عجز البيت الأول . لا يفهم إلا بعد أن تتأمل فى « ما » لتعرف أنها زائدة وفى عبرة لتعرف أنها خبر مقدم وتبصر فى جواب لو . والمعنى وهم حزن لى لو أنهم قريبون فما حالى إذا كانوا بعيدين . وفيه عيب آخر وهو تعليقه على الثانى ، وأما المبالغة المردودة فى الثانى فهى تشبيه عينه بالدلو على البكرة من غير أن يقول هذا التشبيه بما يقرب المبالغة فيه ، ولكن لا يخفى حسن التشبيه الذى هو قوله « أو لؤلؤ قلق فى السلك » فإنه فى غاية الإحكام ، لأن وقوع حبات اللؤلؤ من النحر لا يكاد يفترق عن وقوع ماء الشؤون من العيون .

وإلى هنا عرفنا أن الأعشى أغزل وأطبع .

٧ — وللشاعرين حكم كثيرة :

قال الأعشى فى آخر عمره من القصيدة التى مدح بها النبى صلى الله عليه وسلم :

إذا أنت لم ترحل بزاد من التقى ... ولاقيت بعد الموت من قد تزودا
ندمت على أن لا تكون كمثله ... فترصد للأمر الذى كان أرصدا
فإياك والميتات لا تقربنها ... ولا تأخذن سهما حديدا لتفصدا
وذا النصب المنصوب لا تقربنه ... ولا تعبد الأوثان والله فاعبدا
وذا الرحم القربى فلا تقطعنه ... لعاقبة ولا الأسير المقيدا
ولا تسخرن من بائس ذى ضرورة ... ولا تحسبن المال للمرء مخلدا

وقال :

فإن القريب من يقرب نفسه ... لعمر أبيك الخير لا من تنسبا

وقال زهير :

ومن يجعل المعروف من دون عرضه ... يفره(١) ومن لا يتق الشتم يشتم
ومن يك ذا فضل فيبخل بفضله ... على قومه يستغن عنه ويذمم
ومن هاب أسباب المنايا ينلنه ... وإن يرق أسباب السماء بسلم
ومن يجعل المعروف فى غير أهله ... يكن حمده ذما عليه ويندم
ومن لم يذد(٢) عن حوضه بسلاحه ... يهدم ومن لا يظلم الناس يظلم
ومن يغترب يحسب عدوا صديقه ... ومن لا يكرم نفسه لا يكرم
ومهما تكن عند امرىء من خليقة ... وإن خالها تخفى على الناس تعلم
وكائن ترى من صامت لك معجب ... زيادته أو نقصه فى التكلم
لسان الفتى نصف ونصف فؤاده ... فلم يبق إلا صورة اللحم والدم

---

(١) يفره : يكثره أو يحفظه (٢) أى من لم يحم حريمه ضاع

وزهير هنا أكثر حكمة ، وأغزر مادة ، وأشد غوصا على المعانى الآخذة بالنفس ، والرأى الذى لا أظن أنى أخالف فيه أن زهيرا هنا أشعر من الأعشى ، وإنى تارك تعليل ذلك للذوق السليم لا لصعوبته ولكن لظهوره ظهورا بينا .

٨ - وللأعشى فى الفخر والحماسة الكثير من الجيد الرائع وليس لزهير فيهما نصيب يذكر ، وأما الأعشى فله منهما حظ وافر ، من ذلك قوله :

وإن منيت بنا فى كل معركة لا تلفنا عن دماء القوم ننفتل
قالوا الطراد فقلنا تلك عادتنا أو تنزلون فإنا معشر نزل
قد نخضب العير من مكنون نائله وقد يشيط على أرماحنا البطل

وله من مثل هذا كثير ، وقد تصفحت شعر زهير فما وجدت له إلا بيتا واحدا يشبه هذه الأبيات وهو قوله :

قد أترك القرن مصفرا أنامله يميد فى الرمح ميد المائح(١) الأسن(٢)

٩ - ولم أر الشاعرين اشتركا فى شىء من الأوصاف اشتراكهما فى صفة الصيد . قال زهير فى ذلك قصيدته :

إذا ما غدونا نبتغى الصيد مرة متى نره فإننا لا نخاتله(٣)

وقال الأعشى فى ذلك أيضاً قصيدته :

ولقد أغتدى إذا صقع(٥) الد يك بمهر مشذب(٦) قذال

فإذا قطعنا النظر عن بقية أوصاف الأعشى فى غير هذا الموضع من نعت القصور والقلاع والليل والنهار ومجالس اللهو ، وتفوقه فيها على زهير وجعلنا

---

(١) المائح : الداخل فى البئر ليملأ الدلو لقلة مائها (٢) الأسن : المتغير
(٣) أى لا نسارقه بل نجاهره لوثوقنا بجودة فرسنا
(٤) صقع الديك : صاح
(٥) المشذب : قليل اللحم

وصفه الاصطياد بإزاء وصف زهير له ، لانجد مندوحة من أن نقول إن الأعشى أحكم فى وصفه وأدق ، فإنك تجده قد بدأ الأمر من أوله من حين صياح الديك إلى آخره من الأكل والسماع والشراب ، ولا نجد ذلك فى كلام زهير فإنه وقف بالوصف عند اصطياد الحمار ، ثم إن جواد زهير أباته عاريا هو وغلامه من شماسه وعدم خضوعه ثم لما تم له أن يركبه غلامه هوى به إلى حيث لا يعرف النجاة ، ولا كذلك جواد الأعشى الذى قال فيه فى إجادة وبراعة :

جواد يملأ العين عاديا ومقودا ومعرى وصافنا فى الجلال

ثم إذا نظرنا إلى ما اتحدا فيه من تشبيه الحصان عند كره على الصيد نرى أن تشبيه الأعشى مصور للمشبه حتى كأنه رسمه وذلك قوله :

يجرى بالغلام شبه حريق فى يبيس تذروه ريح الشمال

فقد اطلعنا على لون الحصان وأنه لايرى على الأرض وأنه مسرع إسراع ريح الشمال فى اليبيس . وأما زهير فإنه شبهه بالدفعة من المطر فلم ينظر إلا إلى السرعة ، ومع هذا لم يكن جواده فى الإسراع بالاصطياد كجواد الأعشى . ولا ما قنصه كذلك فان الأعشى يقول :

لم يكن غير لمحة الطرف حتى كب تسعا يعتامها كالمغالى

وأما جواد زهير فلم تعرف مدة اصطياده ولم يصطد إلا حماراً واحداً بعد أن أطال وصية غلامه ، هذا من جهة المعنى وأما من جهة الأسلوب فانه فى كلام الأعشى أسلس وأحكم .

١٠ — ولو لم يكن زهير ورعا لكان أهجى من الأعشى ولكن ورعه أبى عليه أن ينطلق لسانه بالفاحشات ومخازى الناس ، ولهذا لم يهج إلا مرة واحدة كما أسلفنا وقد كاد يذوب أسفاً عليها ، ولكنه دل بهذه المرة على أنه ناضج فى هذا الفن لا ينقص عن درجة الفحول فيه ، ولو لم يكن له منه إلا البيتان المتقدمان لكفى ، فكيف به إذا كان له فى باقى القصيدة شىء كثير مما لا يكاد ينزل

غن درجتهما مثل قوله :

فلم أر معشرا أسروا هديا ولم أر جار بيت يستباء(١)
فهلا آل عبد الله عدوا(٢) مخازى لا يدب لها الضراء(٣)
أرونا سنة لا عيب فيها يسوى بيننا فيها السواء(٤)

وقد كان زهير هجا آل حصن لأن رجلا كان فى جوارهم قامرهم على ماله وأهله فقمر فأخذوا ماله وامرأته . وأما الأعشى فقد هجا كثيرين واستباح أعراض الناس لشهوات نفسه ولأوهى الأسباب ، ومن ذلك أنه كان معه جائزة من الأسود العنسى ، وكانت حللا وعنبرا ودهنا . فلما مر ببنى عامر خافهم عليها ، فأتى علقمة بن علاثة فقال له أجرنى ، قال قد أجرتك . قال من الجن والإنس ؟ قال نعم ، قال ومن الموت ؟ قال لا ، فأتى ابن الطفيل فقال أجرنى ، فأجاره حتى من الموت . فقال له الأعشى : وكيف تجيرنى من الموت ؟ قال إن مت وأنت فى جوارى بعثت إلى أهلك الدية ! قال الآن علمت أنك قد أجرتنى من الموت . فمدح عامراً ، وهجا علقمة . فقال علقمة : لو علمت الذى أراد كنت أعطيته إياه ، فانظر كيف هجا شخصا أراد أن يجيره من الجن والإنس ، ولم يأب عليه إلا الإجارة من الموت الذى لا يجار منه أحد ، ولم يفهمه الأعشى مراده ، وأخذ يقذع فى هجائه بلا سبب صحيح ويقول :

تبيتون فى المشتى ملاء بطونكم وجاراتكم غرثى يبتن خمائصا
كلا أبويكم كان فرع دعامة ولكنهم زادوا وأصبحت ناقصا
فعض حديد الأرض إن كنت ساخطا بفيك وأحجار الكلاب الرواهصا(٥)

---

(١) أى تؤخذ زوجه أو يقتل . والهدى : الرجل ذو الحرمة
(٢) أى اتركوا مخازى لا يخفى أمرها
(٣) الضراء ما تُوارين به من شجر والمعنى مخازى لا يطمع فى سترها
(٤) أى أرونى طريقة لا تعاب عليكم تسوى بيننا فى الحق
(٥) يقال رهص الحائط إذا دعمه

هذا ولا أحب أن أكثر من ذكر الهجاء، وإنما أقول إن الأعشى فيه أكثر قولا، وإنه ينعت الناس بما ليس فيهم، وإن زهيرا أقل قولا، وأشد على المعنى غوصا. ولا ينعت أحدا إلا بما هو فيـــه، ولم أر فى كل ما قرأته للأعشى من الهجو أفظع من قوله:

تبيتون فى المشتى ملاء بطونكم وجاراتكم غرثى يبتن خمائصا

وهو دون قول زهير:

فلم أر معشرا أسروا هديا ولم أر جار بيت يستباء

والهدى: الرجل ذو الحرمة وهو المستجير بالقوم، إلم يجر أو يأخذ عهدا، فإن أخذ العهد وأجير فهو حينئذ جار.

فالأعشى وصف قوم علقمة بأنهم لامروءة لهم لتركهم النساء الجارات جائعات فى وقت لا كسب لهن فيه، وهم ملاء البطون لا تعطفهم رحمة، ولا تأخذهم بهم شفقة.

وزهير يصف آل حصن بأنهم يأسرون المستجير بهم، ويستبيحون حرمته، ولكن لفظ الأعشى فى بيته أرق، وأسلوبه أعذب، وتأثيره فى النفس أشد، ولهذا أرى أنهما يتعادلان فى هذا الفن.

١١ – ولا مجال للمفاضلة فى الخمريات ومجالس الشراب. فإن الأعشى فيها ابن بجدتها، وهو فى الجاهليين كأبى نواس فى الإسلاميين، وقد سد هذا الباب على زهير ودعه.

وأما الأعشى فإن شيطانه لم يكتف بفتح الأبواب له بل كسرها فكان كل حياته يشرب ويطرب بمثل قوله:

من خمر عانة(١) قد أتى لختامها حول تسل غمامة المزكوم

---

(١) عانة: بلدة على الفرات ينسب إليها نوع من الخمور الجيدة.

وقد تفنن فى وصف الخمر والكأس والساقى والنديم والمطرب . فمن ذلك قوله :

وكأس كعين الديك باكرت خدرها
بفتيان صدق والنواقيس تضرب
سلاف كأن الزعفران وعندما
يصفق فى ناجورها ثم يقطب
لها أرج فى البيت عال كأنه
ألم به من بحر دارين أركب(١)

إلى غير ذلك مما قاله فى الخمر ، ولا محل لرواية أجود ما قيل فيها .

١٢ — وللموازنة بين الشاعر فى مطالع القصائد نذكر بعض مطالع قصائد الأعشى ، قال :

١ - ما بكاء الكبير بالأطلال — وسؤالى وما ترد سؤالى ؟
٢ - ودع هريرة إن الركب مرتحل — وهل تطيق وداعا أيها الرجل ؟
٣ - أرقت وماهذا السهاد المؤرق — وما بى من سقم ومابى تعشق ؟
٤ - ألم تغتمض عيناك ليلة أرمدا — وعادك ما عاد السليم مسهدا ؟
٥ - رحلت سمية غدوة أجمالها — غضبى عليك فما تقول بدالها
٦ - شاقتك من قتلة أطلالها — بالسفح فالخبتين من حاجر
٧ - ألا قل لتيا قبل مرتها اسلمى — تحية مشتاق إليها مسلم
٨ - ألم خيال من قتيلة بعد ما — وهى حبلها من حبلنا فتصرما
٩ - أترحل من ليلى ولما تزود — وكنت كمن قضى اللبانة من دد

ومن مطالع قصائد زهير ، قوله :

١ - أمن أم أوفى دمنة لم تكلم — بحومانة الدراج فالمتثلم

وقوله :

٢ - لمن طلل برامة لا يريم — عفا وخلاله حقب قديم

وقوله :

(١) الاركب : واحد مراكب البر والبحر .

٣ ـ عفا من آل فاطمة الجواء   فيمن فالقوادم فالحساء(١)

وقوله:

٤ ـ صحا القلب عن سلمى وقد كاد لا يسلو
وأقفر من سلمى التعانيق فالثقل(٢)

٥ ـ صحا القلب عن سلمى وأقصر باطله   وعرى أفراس الصبا ورواحله(٣)

٦ ـ لمن الديار غشيتها بالفدفد   كالوحى فى حجر المسيل المخلد

٧ ـ غشيت ديارا بالبقيع فثهمد   دوارس قد أقوين من أم معبد

٨ ـ إن الخليط أجد البين فانفرقا   وعلق القلب من أسماء ما علقا

٩ ـ إن الخليط أجد البين فانجردوا   وأخلفوك عدا الأمر الذى وعدوا

فبين مطالع الرجلين فروق ظاهرة: الأول: أن مطالع زهير مكررة المعانى فإن الأول منها والثانى والرابع والخامس والتاسع فى السؤال عن الطلل والسابع والثامن فى سلو قلبه عن صاحبته، والحادى عشر والثانى عشر فى سفر صاحبته، وأنها نوت ألا تصله، والعاشر مطلع تافه، وأما الثالث فغير مكرر، وهو متوسط الجودة.. الثانى: أن مطالع الأعشى أشد تأثيراً فى النفس، وأنها: أغزر معنى، وذلك أنا لو قارنا مطلع الأعشى الأول وهو قوله:

ما بكاء الكبير بالأطلال   وسؤالى وما ترد سؤالى

بأحسن مطلع لزهير وهو أول معلقته لرجح الأعشى رجحانا عظيما فإن الأعشى أنكر على نفسه وقوفه بالأطلال وهو كبير، وكذلك سؤال الخلو الذاتى لا يبين كلاما كما قال لبيد، فأثبت أنه بكى وأنه سأل الطلل لدهشته، فلما لم يجبه، ورأى من نفسه شيخا عاشقاً يسأل سؤال الخرق، أنكر ذلك على نفسه،

---

(١) الجواء: ما انحدر من الأرض ويمن والقوادم والحساء مواضع فى بنى غطفان
(٢) مواضع ان   (٣) أى عريت أفراس الصبا ورواحله التى كنت أركبها للهو

وأما زهير فلم يزد على أن قال: هل هذه الدمنة التي لا تبين من منازل أم أوفى؟ وهذا السؤال من شأنه أن يجيء عند كل من عرف أم أوفى، وكان مارا بأطلالها سواء أكان محبا أم غير محب، فليس في مطلعه شيء يجلى ما عنده من الشوق ويقف في مصاف العشاق، وقد تكرر هذا المعنى منه في المطالع من غير أن يزيد عليه شيئا، وليس له مطلع ما بكى فيه أو أنكر على نفسه البكاء ولا كذلك الأعشى.

وكذلك لا نجد نظيراً من كلام زهير لمطلع الأعشى في الوداع خصوصا قوله «وهل تطيق وداعا أيها الرجل».

وأما زهير فإنه قال في مطلعين: إن الخليط أجد البين، ولم يذكر أنه هم بتوديعه أو خشي وقفة الوداع فوجم منه كما فعل الأعشى.

نعم إن زهيرا له مطلع واحد يتفوق فيه على الأعشى في نظيره، وذلك قوله:

صحا القلب عن سلمى وأقصر باطله وعرى أفراس الصبا ورواحله

وقول الأعشى:

صحا القلب عن ذكرى قتيلة بعدما يكون لها مثل الأسير المكبل

فإن في بيت زهير استعارة حسنة، وزيادة بديعة، لم يقع مثلها للأعشى في بيته، ولعل الأعشى كان على نية أن يعود؟ فلم يؤكد كما أكد زهير في تعرية أفراس الصبا ورواحله، التي كان يركبها للهو، ويؤيد هذا قوله في مطلع آخر:

ألم خيال من قتيلة بعد ما وهى حبلها من حبلنا فتصرما

فالأعشى أفسح في مطالعه ميدانا، وأكثر تفننا، ألا تراه ذكر الخيال وإلمامه بعد الانصرام في هذا المطلع، والشوق والتسليم في مطلع آخر، وهو قوله:

ألا قل لتيا قبل مرتها اسلمى تحية مشتاق اليها مسلم

وإنكاره اتخاذ الزاد قبل الراحلة فى قوله :

أترحل من ليلى ولما تزود وكنت كمن قضى اللبانة من دد

فظهر أن الأعشى فى المطالع يتفوق على زهير فى كثرة تفننه وروعة معانيه وسهولة أسلوبه .

١٣ — أما من حيث المخالص فإن أكثر مخالص زهير مقتضبة كما فى معلقته ، حيث انتقل من الكلام فى الظعائن إلى مدح الحارث بن عوف ، وهرم ابن سنان فجأة . وأما الأعشى فأكثر مخالصه تكاد لا تستشعر النفس بانتقاله اليها مثل قوله :

فآليت لا أرثى لها من كلالة ولا من حفى حتى تزور محمدا
نبى يرى ما لا ترون وذكره أغار لعمرى فى البلاد وأنجدا

ولا أطيل بإيراد أو بسرد الشواهد ، وإنما أقول : إذا كان انتقال الشاعر من معنى لمعنى لمناسبة محكمة تسرق نفس القارىء من الأول إلى الثانى هو الأفضل فالأعشى فى هذا أمثل من زهير .

١٤ - وزهير أيسر أمثالا ، وأغزر حكمة ، ولا نكاد تجد مثلا للأعشى مثل قوله : وإنما العزة للكاثر ، حتى تجد أضعافه لزهير مثل :

ومهما تكن عند امرىء من خليقة وإن خالها تخفى على الناس تعلم

ولو لم يكن لزهير من ذلك إلا آخر معلقته لكفى .

١٥ — أما عن طبع الشاعرين فقد رأيت اتفاق الرواة على هذه المسألة فى محله ، وهو أن زهيرا أصنع ، والأعشى أطبع ، وأذواق الناس فى استحسان أحد الوجهين مختلفة ، وأما أنا فإنى ميال إلى الأطبع لأنه مقتضى الفطرة .

والخلاصة : أن زهيراً أيسر أمثالا ، وأغزر حكمة ، وأمدح وأصدق وأصنع ، وأن الأعشى أغزل وأفخر وأوصف وأجود مطالع ومخالص ، وأما الخمريات ومجالس الشراب والأنس فهو ابن بجدتها الذى لا يضارعه

فى الجاهلية أحد فيما نعلم ، وأما الهجاء فالشاعران فيه سيان . وخلاصة ذلك كله : أن زهيراً تفوق فى ثلاثة فنون ، والأعشى فى ستة ، وأن روح الشعر فى الأعشى أظهر منها فى زهير ، وللقارىء أن يحكم بعد ذلك بما يشاء .

قصيدتان جاهليتان

— ١ —

أما الأولى فهى معلقة : عمرو بن كلثوم التغلبى الشاعر الجاهلى المشهور (٥٠٠ — ٦٠٠) ، ومطلعها :

ألا هبى بصحنك فاصبحينا ولا تبقى خمور الأندرينا

وأما الثانية فهى مجمهرة أمية بن أبى الصلت :

عرفت الدار قد أقوت سنينا لزينب إذ تحل بها قطينا

والقصيدة الأولى ملحمة تاريخية تصور المجد القديم لتغلب قبيلة الشاعر ، وملاحمها الحربية التى انتصرت فيها على أعدائها ، وهى فريدة فى نوعها ، فهى جديرة حقا أن تسمى ملحمة ، لأنها تاريخ منفصل لقبيلة عمرو ومفاخرها وأيامها ، ومنها يوم خزاز الذى انتصر فيه كليب قائد النزاريين على اليمنيين ، وفيها تهديد لأعداء تغلب ، وتنبيه الملك عمرو بن هند ملك الحيرة (٥٦٢ — ٥٧٩ م) كى لا يطيع بهم الوشاة أو يتحيز لبكر شقيقة تغلب ومزاحمتها فى المجد والنفوذ والسلطان . . وقد بدأها الشاعر بوصف الخمر مما يعد ميزة فريدة لها . ثم انتقل إلى موضوع القصيدة وهو الفخر ، وختمها بقوله :

لنا الدنيا ومن أمسى عليها ونبطش حين نبطش قادرينا
ملأنا البر حتى ضاق عنا وماء البحر نملؤه سفينا

إذا بلغ الرضيع لنا فطاما   تخر له الجبابر ساجدينا

وأنت تعلم أن عمرو بن كلثوم ارتجل بعض معلقته أمام الملك عمرو بن هند وهو الجزء الذي هدد فيه أعداء تغلب وحذر الملك من الاستماع للوشاة والميل معهم على قومه ، ومنه :

أبا هند فلا تعجل علينا   وأنظرنا نخبرك اليقينا
بأنا نورد الرايات بيضا   ونصدرهن حمرا قد روينا

ثم أكمل القصيدة كلها ، وأنشدها في سوق عكاظ ، وقد عدتها تغلب سجل مجدها وفخارها فاعتزت بها اعتزازا كثيرا ، ويقال إنها أضافت اليها الكثير ، حتى بلغت أبياتها نحو ألف بيت ، وقال بعض شعراء بكر فيها :

ألهى بني تغلب عن كل مكرمة   قصيدة قالها عمرو بن كلثوم
يفاخرون بها مذ كان أولهم   يا للرجال لفخر غير مسئوم

وأما مجمهرة أمية فقد تحدث فيها الشاعر عن مجد قبيلته « ثقيف » ، وهي من أمهات القبائل العربية وصاحبة النفوذ والسلطان في الطائف من بين قبائلها ، ولم يبدأها بوصف الخمر كما فعل عمرو بن كلثوم بل بدأها كما يبدأ الشعراء قصائدهم ، فذكر أطلال محبوبته « زينب » ، وعفاءها ولعب الرياح المعصرات بها ، ثم انتقل إلى موضوع القصيدة وهو الفخر بمجد القبيلة وشرف الآباء فقال فيما قال :

ورثنا المجد عن كبرى نزار   فأورثنا مآثرنا البنينا
وكنا حيثما علمت معد   أقمنا حيث ساروا هاربينا
وتخبرك القبائل من معد   إذا عدوا سعاية أولينا
بأنا النازلون بكل ثغر   وأنا الضاربون إذا لقينا

إلى آخر ما ذكره من الفخر بأسرته وقومه ومجدهم ومنابتهم وما أرصدوه لريب الدهر من الخيل والرماح والسيوف والشيب المجربين والشبان الأقوياء ،

ووراثتهم للمجد عن كبرى نزار إلى غير ذلك من مظاهر الكبرياء والعزة والسيادة التى أضافها أمية إلى قومه . . ولا ندرى شيئا عن التاريخ الأدبى للقصيدة ، وإن كنا نرجح أن الشاعر نظمها فى مفاخرة من هذه المفاخرات التى تحدث كثيرا بين القبائل العربية وخاصة فى العصر الجاهلى .

— ٢ —

والقصيدتان تتفقان فى الموضوع والوزن والقافية ، وفى خيالها الفنى الغالب على القصيدتين ، وتتفقان كذلك فى هذه المبالغة الواضحة فى الفخر . مما لا يؤثر نظيرها من المبالغات فى معانى الشعر الجاهلى إلا قليلا ، كما تتشابهان فى هذه السهولة الفنية الغالبة على القصيدتين وخاصة عندما ينتقل الشاعران إلى الغرض الأصلى من قصيدتيهما وهو الفخر ، وليست هذه السهولة الفنية بغريبة على الشاعرين ، فارتجال عمرو لقصيدته ومواقف الفخر فيها ، مما يقتضى السهولة ، ونشأة أمية فى الطائف ذات الخصب والزرع والثمار والهواء المعتدل والجو الجميل وتنقله فى رحلاته التجارية بين الشام واليمن وثقافته العامة وقراءاته فى الكتب السماوية ، كل ذلك رقق من طبعه وهذب من أسلوبه وأكسبه مواهب فنية ممتازة ، وصقل من ملكاته الأدبية ، فظهر أثر ذلك فى شعره وضوحا وسهولة وإسجاحاً .

وتتفق القصيدتان فوق ذلك فى كثير من معانى الشعر وأساليب الفخر ، ومن مظاهر ذلك الاتفاق هذه المعانى والأساليب والأبيات :

ا — قال عمرو :

ورثنا المجـــد قد علمت معد نطاعن دونه حتى يبينا

أى حتى يظهر الشرف لنا ، وقال : ورثنا مجد علقمة بن سيف .

وقال وهو يتحدث عن الخيول الكريمة التى يخوض قومه عليها المعارك :

ورثناهن عن آباء صدق ونورثها إذا متنا بنينا

فقال أمية :

ورثنا المجد عن كبرى نزار فأورثنا مآثرنا البنينا

ونستطيع أن نوازن بين البيتين الأخيرين إذا علمنا أن وراثة المجد فى بيت أمية أبلغ فى الفخر من وراثة الخيل فى بيت عمرو ، وإن كانت وراثة الخيول من أسباب المجد لأن الخيل وركوبها واتخاذها عتاداً دليل الشجاعة والبطولة وحب النضال ، وقول أمية « فأورثنا مآثرنا البنينا » أبلغ من قول عمرو : « ونورثها إذا متنا بنينا » لأن أمية ذكر أن أبناءهم ورثوا مجد الآباء فى حياتهم ،وأما عمرو فذكر أن الأبناء سيرثون هذه الخيول بعد وفاة آبائهم ، فلم يسند اليهم الشجاعة والبطولة وحماية الذمار فى حياة الآباء ، وهذا قصور فى الفخر ، وقال أمية « البنينا » وقال عمرو : « بنينا » فشهرهم أمية وأبان عن وضوحهم ، وقال عمرو : « آباء صدق » فدل على شجاعتهم أو وضوح نسبهم وطهارة أعراقهم ، وهى زيادة لا نظير لها فى قول أمية . وقد أخذ أمية لفظ « قد علمت معد » من قول عمرو فقال :

وكنا حيثما علمت معد أقمنا حيث ساروا هاربينا

ب — ويقول عمرو : « وأنا المهلكون إذا ابتلينا » أى نهلك أعداءنا ونبيدهم إذا اختبرنا بقتال الأعداء ، فيقول أمية : « وأنا الضاربون إذا لقينا »، فتجد قول عمرو أبلغ ، حيث نص على إهلاك الأعداء ، ولم يذكر أمية إلا الضرب ، وإن كان يكنى به عن الشجاعة والإقدام والعزيمة والجد فى طلب الأعداء ، ولكنه على أى حال لم يصور نتيجة الحرب كما صورها عمرو بن كلثوم بقوله « المهلكون » .

ج - ويقول عمرو « وأنا المانعون لما أردنا » ، ويروى : الحاكمون بما أردنا ، فيقول أمية « وأنا المانعون إذا أردنا » .

د — ويقول عمرو :

ونشرب إن وردنا الماء صفواً ويشرب غيرنا كدرا وطينا

ويروى من مجمهرة أمية :

وأنا الشاربون الماء صفوا ويشرب غيرنا كدرا وطينا

ه – ويقول عمرو :

بفتيان يرون القتل مجداً وشيب فى الحروب مجربينا

وقد روى من المجمهرة :

وفتياناً يرون القتل مجداً وشيباً فى الحروب مجربينا

— ٣ —

ومعلقة عمرو تمتاز بأنها الأصل الذى نسج على منواله أمية ؛ كما تمتاز بتنوع أغراضها ، وبطولها ، وأنها ملحمة تاريخية نادرة ، وهى إحـــدى المعلقات السبع ، التى هى قصائد تحتل الذروة فى الشعر الجاهلى . وقد انتخبت من بين القصائد الجاهلية لشهرتها وخصائصها الفنية والأدبية الممتازة . وقال ابن قتيبة فى قصيدة عمرو : وهى من جيد شعر العرب .

أما قصيدة أمية فلا تبلغ إلا نحو الثلاثين بيتاً أو تزيد قليلا فهى نحو ثلث قصيدة عمرو ، وقد وضعها النقاد مع المجمهرات .. والمجمهرات سبع قصائد من الشعر الجاهلى رواها أبو زيد الأنصارى فى « الجمهرة » ، وأصحابها هم :

١ – عبيد بن الأبرص ، ومجمهرته مشهورة وهى فى الحكمة ومطلعها :

عيناك دمعهمـا سروب كأن شأنيهمـــا شعيب

والسروب: الكثيرة الجريان . والشعيب : المزادة ... وتشتهر باضطراب وزنها ؛ ومنها :

والمرء ما عاش فى تكذيب طول الحياة له تعـذيب
من يسأل الناس يحرموه وسـائل الله لا يخيب

ب - عدى بن زيد ، ومجمهرته فى الحكمة ومطلعها :

أتعرف رسم الدار من أم معبد؟ نعم ورماك الشوق قبل التجلد

وهى شبيهة بمعلقة طرفة فى وزنها وقافيتها وحكمتها ، وتتفق معها فى بعض الأبيات مثل :

عن المرء لاتسأل وسل عن قرينه فكل قرين بالمقارن يقتدى

ج - النمر بن تولب ، ومجمهرته فى الحكمة أيضا ومطلعها : « تأبد من أطلال عمرة مأسل » .

د - أمية بن أبى الصلت ، ومجمهرته موضع الحديث ، وهى فى الفخر .

ه - بشر بن أبى حازم ، ومجمهرته فى الفخر بقومه وبطولتهم وعزهم ، ومطلعها :

لمن الديار غشيتها بالأنعم ؟ تعدو معالمها كلون الأرقم

و - خداش بن زهير ، ومجمهرته فى الفخر بقومه أيضا ، ومطلعها : « أمن رسم أطلال بتوضح كالسطر ؟ » .

ز - عنترة ، وقصيدته :

هل غادر الشعراء من متردم أم هل عرفت الدار بعد توهم ؟

ويعدها بعض النقاد من المعلقات والآخرون من المجمهرات .

وهذه القصائد السبع لم توضع فى مرتبة واحدة لاتفاق موضوعاتها ؛ إذ أن موضوعاتها مختلفة : فثلاث منها فى الحكمة وأربع فى الفخر . كما أنها لم ترتب بالنظر إلى الناحية التاريخية ، إذ أن أصحابها لم يعيشوا فى عصر واحد : فعـــدى توفى نحو عام ٥٨٠ م ، وعبيد عام ٥٥٥ م ، وأمية عام ٦٢٤ م ، وعنترة عام ٦١٥ م الخ ؛ فهى إذاً إنما وضعت فى منزلة أدبية واحدة تلى منزلة المعلقات الأدبية بالنظر إلى خصائصها الفنية الأدبية وحدها ، ويكاد الناقد الأدبى يقف أمام تشابه شاعرية هؤلاء الشعراء وخصائص الشاعرية

فى هذه القصائد ؛ فهذه القصائد السبع يشبه بعضها بعضاً فى النواحى الفنية والفطرة الأدبية وفى خصائص الشعر والشاعرية ، وتكاد تكون متساوية فى حكم النقد الأدبى ، وهى على أى حال تلى المعلقات فى الجودة والمكانة الأدبية . ونستخلص من ذلك كله أن النقاد لاحظوا الفروق الفنية الكبيرة بين القصدتين فوضعوا الأولى فى صف المعلقات والثانية مع المجمهرات ، وفى الحق أن شاعرية عمرو فى معلقته أقوى وأبين من شاعرية أمية فى مجمهرته : سواء فى الأسلوب أو المعانى أو الأغراض أو مدى الجودة الفنية ومواهب الشعر .

— ٤ —

ويرى الدكتور طه حسين فى كتابه « الأدب الجاهلى » أنه لا يمكن أن تكون معلقة عمرو أو أكثرها جاهلية ، وقد شك الرواة فى بعضها ، ويرجح أن تكون المعلقة منتحلة ، ونحن لا نذهب هذا المذهب ، فالمعلقة تمثل حياة جاهلية لقبيلة تغلب ، وتمثل شاعراً جاهليا ، وتصور حياة عمرو الفنية والاجتماعية نفسها ، وهى شبيهة بالآثار الباقية من شعر عمرو ، وإن كان هذا لا ينفى أن تكون قد زيدت عليها بعض الأبيات ؛ وقصيدة أمية نفسها تؤيد أن قصيدة عمرو جاهلية وأنها لم تنتحل بعد الإسلام على أيدى الرواة .

ونلاحظ على مجمهرة أمية خلوها من الصبغة الدينية التى اشتهر بها أمية ، ويبدو أنه نظمها فى شبابه قبل أن يقف نفسه ـ وحياته وشعره ـ على الجانب الدينى وحده ، وتقليده فيها لعمرو بن كلثوم يؤكد ذلك وأنها نظمت قبل أن تكتمل شخصية أمية الفنية ، وقد يكون السبب الذى جعل أمية ينظم مجمهرته محتذيا فيها عمراً هو إعجابه بمعلقته أو روايته لشعره أو تشابه موقف الفخر الذى وقفه الشاعران ، ونحن لا نستطيع أن نقول إن الرواة أدخلوا على مجمهرة أمية بعض الأبيات من معلقة عمرو لتشابه الوزن والقافية والخيال والموضوع فى القصيدتين ؛ ذلك لأن مجمهرة أمية ليست طويلة ولأنه إذا حذف منها

الأبيات المتشابهة لا يبقى منها فى مقام الفخر إلا القليل من أبياتها، ولا يعقل أن ينظم الشاعر قصيدة فى الفخر معانيها فيه محدودة أو شبه محدودة . .
ورواية أبى زيد للقصيدتين فى كتابه دليل على إيمانه بصحة القصيدتين أولا، وبأن المعانى المتشابهة فيهما نتيجة لاتفاق الشاعرية أو للتقليد الأدبى ثانيا، وأبو زيد المتوفى عام ٢١٥ هـ راوية ثقة .

وبعد فنستطيع أن نقول : إن أمية قلد فى مجمهرته عمرو بن كلثوم فى معلقته تقليداً فنياً واضحاً ، فأخـذ من المعلقة كثيراً من معانى الفخر وأساليبه ، وصاغ قصيدته على موسيقى وقافية معلقة عمرو . وهـذا التقليد الفنى ليس بعجيب بين الشعراء فى شتى العصور وليس بغريب فى الشعر الجاهلى نفسه فأنت ترى أن الشاعر الجاهلى كثيراً ما يتفق مع شاعر قبله أو معاصر له فى أسلوب أو معنى أو بيت ، وأنت تعرف قول امرىء القيس :

وقوفا بها صحبى علىّ مطيهم يقولون لا تهلك أسى وتجمل

وقول طرفة :

وقوفا بها صحبى على مطيهم يقولون لا تهلك أسى وتجلد

وتعرف غـير ذلك مظاهر التشابه الفنى أو التقليد الأدبى بين الشعراء الجاهليين .

بين الجاهليين والمخضرمين

الشعراء الجاهليون هم الذين عاشوا طول حياتهم فى الجاهلية ، أى قبل ظهور الإسلام ، أو كان إنتاجهم كله فى العصر الجاهلى أو متأثراً بروح العصر الجاهلى وحده وإن عاشوا بعده قليلا أو كثيرا ، فلبيد جاهلى وإن عاش بعد الهجرة أربعين سنة لأنه لم ينظم بعد إسلامه شعراً قط ، وأمية بن أبى الصلت على ما نرجح جاهلى ، وإن عاش بعد الهجرة تسع سنوات لأنه لم يحى حياة إسلامية قط ، ومثله قيس بن الخطيم

والمخضرمون هم الذين عاشوا فى الجاهلية والإسلام ، وتأثروا فى شعرهم بالجاهلية والاسلام معا ، مثل حسان والحطيئة ومعن بن أوس وكعب بن زهير والخنساء وسواهم . .

وأصل الخضرمة أن يجعل الشيء بين بين ، ومن ذلك أن أهـل الجاهلية كانوا يسمون نعمهم فيقطعون جزءا من أطراف آذانها ويتركونه ينوس(١) فتسمى مخضرمة لأن آذانها صارت بين الوافرة والناقصة ، فلما جاء الإسلام أمرهم النبي صلى الله عليه وسلم أن يخضرموا من غير الموضع الذى يخضرم أهل الجاهلية حتى تمتاز نعمهم من نعم مخالفيهم لأنهم أهل حرب فكانت خضرمة أهل الإسلام بائنة من خضرمة أهل الجاهلية ، ثم قيل لكل من أدرك الخضرمتين مخضرم ولكل من كان نصف عمره فى الجاهلية ونصفه فى الإسلام لأن حياته بينهما ومنه الشاعر المخضرم الذى أدرك الجاهلية والإســـلام كحسان بن ثابت وكعب بن زهير ؛ ومن هـذا المعنى قول الشاعر كما رواه صاحب اللسان :

إلى ابن حصان لم تخضرم جدوده   كبير الثنا والخيم والفرع والأصل

والظاهر أن استشهاده بهذا البيت غير سديد لأن سياق البيت يدل على أن معنى لم تخضرم جدوده ليسوا أدعياء لا على أنهم ليسوا بين بين اللهم إلا أن يريد معنى يؤول إلى هذا ، وذلك انه يقال رجل مخضرم أى أبوه أبيض وهو أسود فيكون بين أبيض وسوداء أو مغموز النسب وهو يناسب قوله « إلى ابن حصان » ومنه الطعام المخضرم وهو كما قال ابن سيده الذى ليس بحلو ولا مر ، أو كما قال ابن فارس بين الثقيل والخفيف وعلى كل حال بين بين ، وراء المخضرم بالفتح على الأرجح ولكن قال ابن برى ان أكثر أهل اللغة على كسر الراء لأن الجاهلية لما دخلوا فى الإسلام خضرموا آذان إبلهم ليكون علامة لإسلامهم إن أغير عليها أوحوربوا ؛ ويقال لمن أدرك

---

(١) أى يتحرك

الجاهلية والإسلام مخضرم ، وقال ابن خالويه : خضرم خالط ، ومنه المخضرم الذى أدرك الجاهلية والإسلام، والظاهر ماقالاه لأن اسم المفعول أصله للنعم الموسومة فيكون اسم الفاعل لواسمها (١) وقد وجه ابن برى رأى من فتح الراء فقال تأويله عنده أنه قطع من الكفر إلى الإسلام وأما أقول إن هذا التأويل غير وجيه لأنه يستدعى أن يكون كل المخضرمين مسلمين وليس كذلك فإنهم عدوا كعب بن الأشرف اليهودى الهجاء من المخضرمين مع أنه مات على دينه ، ولو أنه وجهه بأنه قطع من حال من الشعر إلى حال أخرى كان أجود لأن كثيرا من الشعراء وجهوا تيار شعرهم إلى الحكم والمواعظ والأخلاق وترفعوا عن الهجاء بل تغالى بعضهم كلبيد بن ربيعة العامرى وهو من أصحاب المعلقات فترك قول الشعر وبدل به الكتاب العزيز .

وقد توسع الناس بعد فى هذه القسمية فسموا بها كل من أدرك مدتين فقالوا فى مثل بشار بن برد مخضرم لأنه أدرك بنى أمية وبنى العباس. بيد أنهم لايذكرون ذلك من غير إضافة خوف اللبس ، ولذلك يقولون من مخضرمى الدولتين ،وعلى ما قدمنا لا يختص اسم الدولتين بالشاعر وإن اشتهر فيه ولا بزمان البعثة . وبعضهم يشترط فى نعت الشاعر بالمخضرم أن يكون قد قال الشعر فى الزمانين ولهذا لا يسمى لبيدا شاعرا مخضرما بل يعده من شعراء الجاهلية وإن كان مسلماً ويعد كعب بن الأشرف مخضرما وإن كان يهودياً.

صور من الشعر الجاهلى

-- ١ --

قال حاتم الطائى :

أماوى قد طال التجنب والهجر   وقد عذرتنى (٢) فى طلابكم عذر (٣)

---

(١) ومعناه أنه فى عصر الخضرمة

(٢) عذرتنى : أى رفعت عنى اللوم ، ومحت الإساءة وطمستها .

(٣) العذر : جمع عذير ،والعذير هو الحال،وأصله العذر ،ويخفف فيقال عذر

أماوى إن المال غاد ورائح ويبقى من المال الأحاديث والذكر
أماوى إنى لا أقول لسائل إذا جاء يوما : حل فى مالنا النزر(١)
أماوى إما مانع فمبين وإما عطاء لا ينهنهه (٢) الزجر
أماوى ما يغنى الثراء عن الفتى إذا حشرجت(٣) يوما وضاق بها الصدر
أماوى إن يصبح صداى (٤) بقفرة من الأرض لا ماء لدى ولا خمر
ترى أن ما أنفقت لم يك ضائرى وأن يدى مما بخلت به صفر
أماوى إنى رُب واحد أمه أخذت فلا قتل عليه ولا أسر
وقد علم الأقوام لو أن حاتما أراد ثراء المال كان له وفر
أماوى إن المال مال بذلته فأوله شكر وآخره ذكر
وإنى لا آلو(٥) بمالى صنيعة فأوله زاد وآخره ذخر
يفك به العانى (٦) ويؤكل طيبا وما إن يعريه القداح(٧) ولا القمر(٨)
ولا أظلم ابن العم إن كان إخوتى شهودا وقد أودى بإخوته الدهر
غنينا (٩) زمانا بالتصعلك والغنى وكلا سقاناه بكأسيهما الدهر
فما زادنا بأوا (١٠) على ذى قرابة غنانا ، ولا أزرى بأحسابنا الفقر
وما ضر جارا يا بنة القوم فاعلمى يجاورنى ألا يكون له ستر
بعينى عن جارات قومى غفلة وفى السمع منى عن أحاديثها وقر

— ٢ —

وقالت أم الصريح الكندية ترثى بعض قومها :

هوت أمهم ماذا بهم يوم صرعوا بجيشان من أسباب مجد تصرما

---

(١) النزر : القلة (٢) نهنهه : منعه .
(٣) الحشرجة . الغرغرة عند الموت
(٤) الصدى : ما يبقى من الميت فى قبره . (٥) لا آلو : لا أقصر .
(٦) العانى : الأسير (٧) القداح قداح الميسر . (٨) القمر : المقامرة .
(٩) غنينا : غنى بالمكان ، أقام به . (١٠) البأو : الكبر والفخر .

أبوا أن يفروا والقنا فى نحورهم   وأن يرتقوا من خشية الموت سلما
فلو أنهم فروا لـكانوا أعزة (١)   ولـكن رأوا صبرا على الموت أكرما

— ٣ —

وقالت أمية بنت عبد شمس بن عبد مناف فيمن قتـل من قريش فى حرب الفجار :

أبى ليلى أن يذهب   ونيط الطرف بالـكوكب
ونجم دونه الأهـوا   ل بين الدلو والعقرب
وهـذا الصبح لا يأتى   ولا يدنو ولا يقرب
بعقر عشـيرة منـا   كرام الخيم والمنصب
أحال عليهم دهر   حديد الناب والمخلب
فإن أبك فهم عزى   وهم ركنى وهم منكب

— ٤ —

وقالت فاطمة الخزاعية فى رثاء إخوتها :

إخوتى لا تبعـدوا   وابلى والله قد بعدوا
لو تملتهم (٢) عشيرتهم   لاقتناء العز أو ولدوا
هان من بعض الرزية أو   هان من بعض الذى أجد
كل ما حىّ وان أمروا   وارد الحوض الذى وردوا

— ٥ —

وقال عنـترة من معلقته :

لما رأيت القوم أقبـل جمعهم   يتذامرون كررت غير مذمم (٣)

---

(١) أى لا يلامون لوضوح عذرهم . (٢) أى لو عاشوا مليا من الدهر

(٣) يتذامرون : أى يحض بعضهم بعضا على القتال ، حينئذ عطفت عليهم غير مذموم على عملى بل ممدوحا عليه .

يدعون عنتر والرماح كأنها ... أشطان بئر في لبان الأدهم(١)
ما زلت أرميهم بثغرة نحره ... ولبانه ، حتى تسربل بالدم (٢)
فازور من وقع القنا بلبانه ... وشكا إلي بعبرة وتحمحم (٣)
لو كان يدري ما المحاورة اشتكى ... أو كان يدري ما جواب تكلمي (٤)
والخيل تقتحم الخبار عوابساً ... ما بين شيظمة وأجرد شيظم (٥)
ولقد شفى نفسي وأبرأ سقمها ... قيل الفوارس ويك عنتر أقدم(٦)
ذلل جمالي حيث شئت مشايعي ... لبي ، وأحفزه برأي مبرم(٧)
إني عداني أن أزورك ، فاعلمي ... ما قد علمت وبعض ما لم تعلمي(٨)

— ٦ —

وقال لقيط بن يعمر الإيادي وهو شاعر جاهلي قديم مقل ، ذكر ابن

(١) عنتر : أي ياعنترة حذفت التاء للترخيم ، وروى المبرد أنه كان يسمى عنترا أيضا . والأشطان : جمع شطن ، وهي الحبال الطويلة الشديدة الفتل . واللبان . الصدر . والأدهم : فرسه . (٢) أي بثغرة نحره .

(٣) العبرة : تردد البكاء في الصدر قبل أن تفيض الدمعة ، والتحمحم : الصوت المتقطع دون الصهيل ، ويكون من الفرس إذا طلب العطف عليه والرقة لحاله .

(٤) المحاورة : الخطاب . ويروى : ولكان لو علم الكلام مكلمي .

(٥) الخبار : الأرض اللينة . والشيظم : الطويل . والأجرد : القصير الشعر . وهما صفتا حسن للفرس الكريم .

(٦) ويك مركبة من (وي) وكاف الخطاب . ووي تعجب كأنهم قالوا : عجبا لك ! أقدم : أو هي مخففة من ويلك ، أو ويحك .

(٧) الذلل : جمع ذلول ، وهو من الإبل وغير ها ضد الصعب الحرون . ومشايعي قلبي أي متابعي ومشجعي . وأحفزه : أدفعه . والمبرم : المحكم . المعنى : يصف نفسه بأنه رجل أسفار ، وأن جماله لله ، لتعودها السير ، لا يصعب أن يوجها إلى أي أرض . ويصف نفسه أيضا بأنه حاضر العقل لا يعزب عقله في أي حال من الأحوال ، بل هو أيضا يدفعه ويقويه برأي محكم .

(٨) المعنى : صرفني عن زيارتك ماقد علمته من الأسباب ، وما لم تعلميه .

الشجرى أنه كان كاتبا فى ديوان كسرى ، ولم يكن بيد الناس من شعره فى زمن صاحب الأغانى إلا قصيدة كتب بها إلى قومه يحذرهم مااعتزمه كسرى من غزوهم وقتالهم ، وقطع أخرى لطاف متفرقة ، فإذا صحت رواية ابن الشجرى - وفى ماقاله أبو الفرج ما يقويها وإن لم يصرح وكان لقيط قد خدم الأكاسرة وكتب لهم - فهو أقدم من بلغنا خبره ممن أتقن الفارسية من من العرب وأجدرهم بأن يتأثر بها شعره . وليس من المستطاع اليوم وقد ضاع شعر لقيط تعيين ما كان لعلمه بالفارسية واتصاله بخدمة الملوك من أثر فيه ، ولكن القصيدة التى بقيت له وانتهت إلينا تتميز من شعر ذلك العهد بأنها نسق واحد لاخلل فيه ولا اضطراب ، وأنها لا تبدأ معنى حتى تتمه وتستوفيه ولا تنتقل عنه إلى آخر حتى يكون هو الذى أدى إليه واقتضاه . ولعل خير مايدل على مذهب الشاعر ويكشف عن طريقته إثبات أبيات منها ، تجمع إلى وضوح الدلالة كثيراً من الفائدة ، وهذه القصيدة قالها لقيط يحذر فيها قومه عاقبة أمرهم إذا قهرهم الفرس ، ويذكرهم بما يحل بالأمم إذا دارت عليهم الدائرة وغلبهم الأجنبى على سلطانهم ، ويوصيهم باجتماع الكلمة والتشمير للحرب وتقليد زمامهم من توفرت فيه خلال القيادة وتمت له أداتها :

هيهات لا مال من زرع ولا إبل ... يرجى لغابركم إن أنفكم جدعا
لا تلهكم إبل ليست لكم إبلا ... إن العدو بعظم منكم قرعا
لا تثمروا المال للأعداء إنهم ... إن يظفروا يحتووكم والتلاد معا
ياقوم إن لكم من إرث أولكم ... إن ضاع آخره أو ذل واتضعا
ماذا يرد عليكم عز أولكم ... مجداً قد أشفقت أن يفنى وينقطعا
فــلا تغرنكم دنيا ولا طمع ... أن تنعشوا بزماع ذلك الطمعا
يا قوم لا تأمنوا إن كنتم غيرا ... على نسائكم كسرى وما جمعا
يا قوم بيضتكم لا تفجعن بها ... إنى أخاف عليها الأزلم الجذعا
هو الفناء الذى تبقى مذلته ... إن طار طائركم يوما وإن وقعا
هو القناد الذى يجتث أصلكم ... فمن رأى مثل ذا رأيا ومن سمعا

قوموا قياما على أمشاط أرجلكم ثم افزعوا ، قد ينال الأمن من فزعا
وقلدوا أمركم لله دركم رحب الذراع بأمر الحرب مضطلعا
لا مترفا إن رخاء العيش ساعده ولا إذا عض مكروه به خشعا
لا يطعم النوم إلا ريث يبعثه هم تكاد حشاه تحطم الضلعا
مسهد النوم تعنيه أموركم يروم منها إلى الأعداء مطلعا
ما انفك يحلب در الدهر أشطره يكون متبعاً طوراً ومتبعا
وليس يشغله مال يثمره عنكم ولا ولد يبغى له الرفعا
قد استمر على شزر مريرته مستحكم السن لا قحما ولا ضرعا

— ٧ —

وقد كان من أعلام شعراء العصر الجاهلى طائفة كانت تنظم الشعر فى النسيب وحده ، وهم كثيرون ومنهم : المرقش الأكبر م ٥٥٢ م ، وعبدالله ابن العجلان م ٥٦٦ م ومالك ، وعنترة ، ومسعود بن خراشة التميمى وقد أدرك الإسلام ، ومنظور بن زبان الفزارى . ولهم شعر رائع وقصائد كثيرة قصروها على الغزل وحده كما فى قصيدة المرقش الأكبر : سرى ليلا خيال من سليمى . وقد يبدو أن النسيب فن إسلامى بدأه عمر بن أبى ربيعة وجميل وكثير وطبقتهم ، والحقيقة أن هؤلاء كانوا يحتذون مثالا لمن تقدمهم ، وما أظن أحدا بلغ من صفة النساء ما بلغ النابغة حين سأله النعمان أن يصف امرأته المتجردة ، أو ما بلغ المنخل اليشكرى والمرار العدوى وسويد بن أبى كاهل وشعر المرقشين الأكبر والأصغر وعبدالله بن العجلان النهدى وقيس بن الحدادية ، ممن صدقو الحب ونسبوا فى لفظ عفيف ومعنى نزيه مشهور معروف . . . قال المرقش الأكبر :

سرى ليلا خيال من سليمى فأرقنى وأصحابى هجود
فبت أدير أمرى كل حال وأرقب أهلها وهم بعيد
على أن قد سما طرفى لنار يشب لها بذى الأرطى وقود

حواليها مها جم التراقى وآرام وغزلان رقود
نواعم لا تعالج بؤس عيش أوانس لا تروح ولا ترود
يرحن معاً بطاء المشى بدا عليهن المجاسد والبرود
سكن ببلدة وسكنت أخرى وقطعت المواثق والعهود
فما بالى أفى ويخان عهدى وما بالى أصاد ولا أصيد؟
ورب أسيلة الخدين بكر منعمة لها فرع وجيد
وذو أشر شتيت النبت عذب نقى اللون براق برود
لهوت بها زماناً من شبابى وزارتها النجائب والقصيد
أناس كلما أخلقت وصلا عنانى منهم وصل جديد

وقال :

نواعم أبكار سرائر بدن حسان الوجوه لينات السوالف
يهدلن فى الآذان كل مذهب له ربذ يعيا به كل واصف
نشرن حديثاً آنسا فوضعنه خفيضاً فلا يلغى به كل طائف

ولعبد الله بن العجلان :

ألا أبلغا هنداً سلامى فإن نأت فقلبى مذ شطت بها الدار مدنف
ولم أر هنداً بعد موقف ساعة بأنعم فى أهل الديار تطوف
أتت بين أتراب تمايس إذ مشت دبيب القطا أوهن منهن أقطف
أشارت إلينا فى خفاء وراءها سراة الضحى منى على الحى موقف
وقالت تباعد يا ابن عمى فإننى منيت بذى صول يغار ويعنف

وقال :

خليلى زورا قبل شحط النوى هندا ولا تأمنا من دار ذى لطف بعدا
ولا تعجلا لم يدر صاحب حاجة أغيا يلاقى فى التعجل أم رشدا
ومرا عليها بارك الله فيكما وإن لم تكن هند لوجهيكما قصدا

وقولا لها ليس الضلال أجارنا ولكننا جرنا لنلقاكم عمدا

وقال قيس بن الحدادية من قصيدة طويلة :

أجدك إن نعم نأت أنت جازع قد اقتربت لو أن ذلك نافع
قد اقتربت لو أن فى قرب دارها نوالا ولكن كل من ضن مانع
وقد جاورتنا فى شهور كثيرة فما نولت والله راء وسامع
وظنى بها حفظ لغيبى ورعية لما استرعيت والظن بالغيب واسع
فقالت لقاء بعد حول وحجة وشحط النوى الا الذى العهد قاطع
وقد يلتقى بعد الشتات ألو النوى ويسترجع الحى السحاب اللوامع

ومنها :

كأن فؤادى بين شقين من عصا حذار وقوع البين والبين واقع
يحث بهم حاد سريع نجاؤه ومعرى عن الساقين واللوب واسع
فقلت لها يا نعم حلى محلنا فإن الهوى يا نعم والعيش جامع
فقلت وعيناها تفيضان عبرة بأهلى بين لى : متى أنت راجع
فقلت لها : تالله يدرى مسافر إذا أضمرته الأرض ماالله صانع ؟
فشدت على فيها اللثام وأعرضت وأمعن بالكحل السحيق المدامع
وإنى لعهد الود راع وانى بوصلك مالم يطونى الموت طامع

فنصيب هذا العصر من النسيب كما رأيت أوفر وأجود مما توهم الأدباء ، وهو أصل ينتمى اليه بارع النسيب الاسلامى من قريب .(١)

---

(١) راجع الشعراء العشاق فى كتاب تاريخ آداب اللغة العربية لجورجى زيدان ص ١٤٠ – ١٤٤ ج ١ .

حول الادب الجاهلی

حول العصر الجاهلى

- ١ -

عندما نقسم تاريخ الأدب العربى إلى عصور لندرسه على ضوئها ننظر بجد إلى تاريخ الأدب العربى الذى هو تاريخ لقومية الأمة العربية وأخلاقها وعاداتها وحياتها وآمالها وآلامها ولكل ما تأثرت به من مؤثرات حياتها الفكرية والاجتماعية والسياسية والأدبية . ننظر إلى تاريخ الأدب على أنه ليس علما جافا بل فنا أساسه الذوق ودراسة الفنون الأدبية فى الأمة دراسة واسعة . ومؤرخ الأدب يعنى بأن يدرس أسباب رقى الأدب وانحطاطه وتأثر الأدباء بها أو تأثيرهم فيها ،وأن يدرس صلات المحدثين بالقدامى أدباء وشعراء وكتابا وخطباء ونقادا ، وأن يتعمق فى فهم المذاهب والمدارس الأدبية العامة وصلاتها ببعض والعوامل التى أدت إلى قيام كل مدرسة وميزاتها وخصائصها ومدى تأثرها بما قبلها وتأثيرها فيما بعدها من المدارس والمذاهب الأدبية العامة . فهذه المدارس والحركات الأدبية كانت تلعب دورا هاما فى الأدب،ولها من الأهمية فى دراسة تاريخ الآداب مالا يقل شأنا عن دراسات كثيرة فى الأدب ، فتاريخ الأدب ليس سرداً لنصوص أدبية وتراجم عامة ، بل يوضح لنا الصلات بين المذاهب الأدبية ويربط كاتباً بآخر وجماعة بجماعة ومدرسة بمدرسة ،كما يدرس أسباب الانقلابات الأدبية المختلفة فى عصور الأدب وتأثير فحول الكتاب فى نهضة الأدب والشعر وتوجيهها وجهة جديدة . هذا كله فوق دراسة تاريخ الأدب للآثار الأدبية نظما وشعرا ولشخصيات الأدباء شعراء وكتابا وخطباء والإلمام بنشأتهم وحياتهم ونزعاتهم وغير ذلك من مكونات شخصيتهم وطابع كل منهم وسماته التى يتميز بها عن غيره ، فكل كاتب كبير أو شاعر عبقرى يأتى إلى هذا العالم بشىء جديد كل الجدة ذلك هو نفسه ، كما يقول بعض النقاد الغربيين : وكثير من الكتاب الأفذاذ والشعراء الملهمين يخلقون ذوقا جديدا ومرحلة جديدة

فى الأدب، وكما يتأثر الأديب بعصره فهو يؤثر فيه . فالأديب ابن عصره وبيئته ، فكل ما يبعث اتجاها جديدا فى الرأى أو فى منحى الحياة أو فى مجرى السياسة والشعور العام يؤثر فى تكوين الآداب إلى حد كبير ويجب ألا ننسى ظروف الزمان والمكان والبيئة عند دراستنا لأى نص أدبى ، كما أنه لابد من معرفة العوامل التى أثرت فى فن الشاعر والكاتب والأديب وفى ذوقهم وإنتاجهم الفنى وجعلت لهم طابعاً خاصا فى أدبهم . ومهما تكن شخصية الأديب بالغة منتهاها فان روح جنسه وعصره لابد من أن يظهر فيه . وعلى ذلك فتاريخ الأدب يتأثر بمؤثرات قومية كما يتأثر بمؤثرات شخصية ، فظهور الإسلام مثلا له من الأثر البعيد فى الأدب العربى مالا يستطاع حصره .

ومع ذلك فلا يقتصر تاريخ الأدب على دراسة المخلفات الأدبية لمختلف الأدباء والشعراء ، كل كاتب على حدة ، بل لابد فيه من دراسة أدب الأمة جملة واحدة وإظهار مميزاته العامة باعتباره انتاجا لعقلية هذه الأمة التى هى جماعة واحدة ، لها تفكير خاص وشعور خاص وذوق خاص : فكل ماله أثر فى تكوين الأمة له أثر فى نسج أدبها ، فأدب الأمة هو تاريخها الذى دونته بقلمها ليصور لنا رقيها العقلى والخلقى فوق تقدمها الأدبى .

وقد اعتاد مؤرخو الآداب أن يقسموا الأدب إلى عصور مختلفة ، ولم يلجأوا إلى ذلك لسهولة الدرس فحسب ، ومن قبيل تقسيم الموضوع المتشعب إلى أبواب وفصول . . وهناك ما يبرر هذا التقسيم ، فالعصر التاريخى عبارة عن فترة زمنية يسود فيها نوع من الذوق العام ، وعلى ذلك فان أدب ذلك العصر يتسم بصفات خاصة من حيث المادة والفكرة والأسلوب ، وقد تختلف آثار الكتّاب البارزين بقدر ما تختلف شخصياتهم ، ولكن تلك الصفات العامة تظهر فيهم جميعا . ولا ينتهى عصر ويخلفه آخر ، إلا بعد تغيير حاسم فى الذوق العام . ولكنا يجب أن لا نضع الحواجز المتينة بين عصر وعصر ، فليس تاريخ الإنسان أبوابا وفصولا ، ولكنه تيار واحد متدفق يسير حينا ذات اليمين وحينا ذات اليسار ، ليس له بداية معينة ، ولا نهاية

محدودة والعصور التاريخية فى الواقع آخذ بعضها بتلابيب بعض ، وقد يبدأ الرجل عمله فى عصر من العصور ، ولا ينتهى منه إلا فى عصر آخر ، كالمخضرمين بين الجاهلية والإسلام ، وكبشار وابن المقفع بين العصر الأموى والعصر العباسى . ومع ذلك فإن لتقسيم الأدب إلى عصور أهميته الدراسية لأنه يوجه أنظارنا إلى المراحل التى اجتازها الأدب وتميز فى كل مرحلة منها بميزة خاصة ، وهو أهم مايعنى به مؤرخ الآداب .

-- ٢ --

وهناك سؤال لا بد من إيراده ، وهو : ماذا نعنى بالعصر الجاهلى ؟

إنه العصر الذى سبق الإسلام ، فإذا جعلنا حادث الهجرة هو الفاصل بين الجاهلية والإسلام ، كان عام ٦٢٢ م الذى هو بدء التاريخ الهجرى نهاية هذا العصر الجاهلى ، وإذا اتسع أفقنا أكثر من ذلك كانت نهاية العصر الجاهلى عام ٦١٠ م ، وهى السنة التى بعث فيها الرسول صلوات الله عليه إلى قومه وإلى الإنسانية عامة .

أما مبدأ العصر الجاهلى ، فهو غير معلوم تماما ، والقرآن الكريم يشهد للعرب بحضارات سالفة بائدة ، كما يقول الاستاذ ابراهيم مصطفى فقد ورثوا ابراهيم وكانوا على دينه ، لأنه أبو العرب ، وقد أرسل إلى العرب من الرسل هود وصالح وشعيب ، ولكل رسالة دين ، وفى كل دين حضارة وقد شهدت الجزيرة العربية قبل الإسلام حضارات ذات شأن ، وعلى هذا الأصل نحاول أن نحدد أول الجاهلية العربية قبل الإسلام ، وسبيل ذلك أن نعرف آخر حضارة قامت بالجزيرة ونحدد نهايتها فتكون بدء هذا العصر الجاهلى . فإذا اقتصرنا على العصر التاريخى وعلى ما كشف من آثار حضاراته ذكرنا حضارة الانباط ، وقد كانت فى شمال الجزيرة وامتدت من العراق إلى مصر ووصلت فى الجنوب إلى وادى القرى وورثت حضارة ثمود وأبقت آثارا خالدة وصمدت للروم فى حروب شديدة مريرة ـ ثم حان حينها

فأنقضى أمرها على يد « تراجان » سنة ١٠٦ من الميلاد وورثت ‹ كانتها تدمر ووسع سلطانها الشام ومصر وما بين النهرين والأناضول إلى أنقرة وجاء يومها فانقضى ملكها سنة ٢٧١ م على يد أرليان الرومانى أيضا .

وكانت الحروب الطويلة القاسية بين الروم والفرس سبب انقطاع التجارة بينهما ، وكان لا بد للتجارة أن تشق لها مجرى ، فاتخذت سبيلها فى مفاوز البلاد العربية البعيدة عن سلطان الدولتين ، وكان الروم أشد حسرة لانصراف التجارة إلى أيدى العرب .

ولهـــذا تجشموا الأهوال فى القضاء على بطرة وعلى تدمر وحاولوا القضاء على دولة اليمن أيضا وأرسل أغسطس حملته المشهورة بقيادة قائده الياس جلاس فهلك فى الصحراء جيشه وعاد بخيبة سجلها رفيقه وصديقه استرابون ، وأورثتهم يأسا أبديا من أن ينالوا بلاد اليمن عن طريق شمال الجزيرة . وفى القرن الرابع كانت المسيحية قد انتشرت وصالحتهـــا الدولة الرومية البيزنطية واستعانت بها على مد سلطانها ، وكان رسل هذه الديانة قد وصلوا إلى الحبشة وبشروا فيها بدينهم فقامت بها دولة مسيحية حبشية تقابل فى البلاد العربية دولة اليمن اليهودية ، وقامت العداوة بين الأختين ، فأحباش هذه الدولة من أصل عربى يمنى ، ولكن المنافسة فى التجارة والعداوة فى الدين أججت نار الحرب بينهما ، ومن آثار تلك العداوة حديث الأخدود والنار ذات الوقود ، وأرسلت بيزنطة رسلها وسفنها إلى الأحباش فمكنتهم من القضاء على الدولة الحميرية باليمن بعد حروب سجال ، وانتهى بذلك عهد آخر دولة مستقلة قامت قبل الإسلام فى الجزيرة العربية وكان ذلك سنة ٥٢٥ م ، كما يقول ابراهيم مصطفى ، وقد خلت بلاد العرب من دولة تهيمن عليها ، وتؤمن سبلها وتحمى تجارتها ووقعت فى فوضى نرى بعض صورها فى شعر كشعر الحارث بن حلزة إذ يقول :

هل علمتم أيام ينتهب النا　　س غوارا لكل حى عواء
لا يقيم العزيز بالبلد السهـ　　ل ولا ينفع الذليل النجاء

ليس ينجي موائلا من حذار رأس طود وحرة رجلاء

فهذا حد العصر الجاهلي العربي ، وقد كانت آثار المعاقل اليمنية موجودة في شتى أرجاء الجزيرة العربية . فبنو الحارث بن كعب في جنوب الحجاز ، وكانوا يلقبون ملوكا ، والأوس والخزرج في شماله ، وفي نجد طيء وكلب وملوك كندة ، وفي عمان الازد ، وفي تخوم العراق المناذرة ، وفي مشارف الشام الغساسنة ، وكلهم ينتسبون إلى اليمن ، وقد نشبت الحروب بينهم كل يريد الملك لنفسه ، كما فعل قواد الاسكندر في ملكه الواسع من بعده ، وثار العرب من غير اليمن وهم العدنانيون ، وتطلعوا إلى الاستقلال والنفوذ والسلطان واشتعلت الحرب بين العدنانيين واليمنيين ، بل بين بعض العدنانيين والبعض الآخر ، ومضى شعراؤهم يتغنون بفظائع الحرب :

وحليل غانية تركت مجدلا تمكو فريصته كشدق الأعلم
فشككت بالرمح الأصم ثيابه ليس الكريم على القنا بمحرم
فتركته جزر السباع ينشنه يقضمن حسن بنانه والمعصم

يقول ابراهيم مصطفى : إن حياة العرب تعتمد على التجارة ورزقهم منها ولا بد لهم أن يتجروا ليعيشوا ، والاثر الوارد : تسعة أعشار الرزق من التجارة ، والرسول كان منذ الصبا تاجرا وأبوه وعمه وجده تجار وزوجه خديجة ترسل في التجارة أموالها .

فالعصر الجاهلي إذن يبتدىء بفقد حكومة البلاد وضياع أمنها ، واضطراب نظامها في سنة ٥٢٥ ، وينتهي بقيام الحكومة التي تقر السلام وتنشر الأمن في سنة ٦٢٢ . وما بينهما عصر الجاهلية والفوضى والتناحر على السلطان .

فالغساسنة كانوا يتاخمون الروم في الشام قبيل الإسلام ، ولهم مع الدولة البيزنطية صلات مدونة معروفة . وكان أقدم اتصال للغساسنة ببيزنطة في زمن

الحارث الأكبر من سنة ٥٢٩ م إلى سنة ٥٦٠ م إذ أنعموا عليه ، ثم على ولده من بعده ، بلقب بطرق ، وهو لقب حكام الأقاليم عندهم ، ومن ذلك نعلم أن الغساسنة ، وهم يمنيون، كانوا يستمدون سلطانهم من دولتهم اليمنية ، ويجاورون الروم فلما زالت دولة اليمن وجاءهم الحرب من حيث كانوا يلتمسون العون ، اضطروا إلى الاستعانة بالروم واستمداد السلطان منهم... وفي بلاد تخوم العراق كان المناذرة ملوك الحيرة ، وكان لهم اتصال بملوك الفرس من آل ساسان . ونقرأ من أخبارهم أن (يزدجرد) أرسل ولده (بهرام) ليربى في بلاط المنذر بالحيرة ، وأن (يزدجرد) لما مات ثار الفرس رافضين أن يتولى أحد من أولاده لما كانوا يكرهون من حكمه ، وأن بهرام استعان بالمنذر وولده النعمان في جيش قدروه بثلاثين ألفاً ، وبهم تمكن من الجلوس على عرش أبيه ، ولا أرى في هذا صورة التابع الخاضع ، وقد كان ذلك سنة ٤٢٠م ؛ ولكن في زمن كسرى أنوشروان نرى المنذر الثالث يتولى السلطان من يد كسرى ، وحكم كسرى من سنة ٥٣١ م إلى سنة ٥٧٨ م ، والمنذر قتل في واقعة محددة التاريخ سنة ٥٥٤ م ، واستمر الأمر على ذلك يولى الفرس حاكم الحيرة من المناذرة ، وربما ولوه من غيرهم كما ولوا عليها إياس بن قبيصة الطائي . فهذه أسرة يمنية أخرى تبدلت طبيعة اتصالها بجارتها ، بعد أن سقطت دولة اليمن سنة ٥١٥م .

وفي داخل الجزيرة كان امرؤ القيس آخر ملوك كندة ، وقد حاربه المنذر الثالث وحارب أسرته نزاعا على الملك ، وقتل كثيراً من أمراء كندة صبراً ، ويبكيهم امرؤ القيس في شعره :

فلو في يوم معركة أصيبوا ولكن في ديار بني مرينا

فلم يغسل جماجمهم بغسل ولكن في الدماء مرملينا

وإذا كان المنذر يستند إلى سلطان الفرس فان سبيل امرىء القيس أن

يستعين بمنافسيهم الذين ينازعونهم الرغبة فى التسلط على البلاد العربية ، وهم الروم ، ويقصد فى ذلك إلى الحارث بن جبلة ، والحارث قد ولى من سنة ٥٢٩ م إلى سنة ٥٦٩ م ، وهكذا نرى أن ماذكر من تاريخ الحوادث يؤيد هذا التحديد .

فالعصر الجاهلى الذى هذه بدايته وتلك نهايته ، هو العصر الذى ندرسه ، ونعنى بتقيع الأدب شعره ونثره فيه ، وحسبنا ذلك الآن .

آراء حول النثر الجاهلى

— ١ —

النثر أحد ألوان الأدب وأقسامه ، وهو بخلاف الشعر لا يقيده وزن أو قافية ، ويعتمد غالبا على الحقائق ، ويركن إلى صدق التعبير ، وجمال التصوير وجلال التأثير . . فإذا اعتمد النثر على الخيال ، وتعمد إثارة العواطف ، وصيغ فى أسلوب الشعر فذلك هو الشعر المنثور ، والنثر أول ماينشأ يستخدم فى أغراض المعيشة العادية ، ووسائل الحياة الاجتماعية . ثم لا يلبث أن يكثر الاهتمام به ، والإقبال عليه ، وتعظم الحاجة إليه ، ويقبل الكتاب يسجلونه بالكتابة ، فيكثر ذيوعه ، ويزداد انتشاره ، ويؤدى مطالب الحياة وأغراضها الكثيرة فإذا ارتقت الحياة ، وتقدمت المدنية ، ازدادت أهمية النثر ، واتخذ وسيلة إلى أداء بعض الموضوعات التى تؤدى بالشعر ، فيستخدم فى وصف العواطف وإثارة المشاعر . ووصف مظاهر الطبيعة ، وفى الاستعطاف والعتاب والشكر فينشأ النثر الفنى الذى يقصد به الفن ، ويبعث على الاهتزاز والأريحية ؛ ويتعمد فيه تنظيم الفكرة ، وتدقيق المعنى وجودة السبك وجمال الرصف وحسن الأداء .

فإذا ازداد العقل نماء ، والثقافة انتشاراً ، والعلوم سعة ، أخذ العلماء

يدونون بالنثر قواعد هذه العلوم المختلفة ، فينشأ النثر العلمي الذي يعنى به الأدب عناية خاصة ، لأنه منهل من مناهل الثقافة الأدبية ، وأثر من آثار العقلية التي تنشيء الأدب ، ولأن الكثير من هذا النثر العلمي أدب جيد حيث تؤدى الحقائق فيه بلغة النثر الفني ، كما في مؤلفات النقد والتاريخ والسياسة والاجتماع ، ولذلك يعد كثير من مؤلفات هذه العلوم أدبا فنيا رائعا لاشتماله على ميزات الأدب الفني وخصائصه ، فوق أن هذا النثر العلمي يصقل مواهب الأديب وملكاته ويوسع أفقه ويمده بزاخر الأفكار والمعاني والموضوعات .

وأخيراً فالنثر الفني ينقسم إلى خطابة وكتابة فنية ، والكتابة تشمل الوصف والقصص في رأى بعض الكتاب الأوربيين ، ويقسمها بعض كتاب العرب إلى رسائل وقصص ومناظرة وجدل وتاريخ . . أما قدامة بن جعفر فيقسم النثر إلى خطابة وترسل واحتجاج وحديث(١) .

— ٢ —

والأدباء يختلفون في نشأة النثر الفني هل وجد في العصر الجاهلي أو تأخر في النشأة الأدبية إلى العصر الأموي ؟ :

أما أدباء العربية المتقدمون ، والكثير من الأدباء المعاصرين ، فيرون أن العصر الجاهلي عرف النثر الفني ، وأجاده العرب القدماء قبل الإسلام إجادة بالغة ، ونزل القرآن بلغة النثر الفني مفحما لهم ومعجزا(٢) .

وأما المستشرقون ومن تابعهم فيرون أن عرب الجاهلية لم يعرفوا هذا النثر ، كما يشهده عصر صدر الإسلام ، ويقررون إنه إنما نشأ على يد ابن المقفع المتوفى في صدر الدولة العباسية عام ١٤٣ هـ ، وممن ذهب إلى ذلك

---

(١) ص ٩٣ نقد النثر ط ١٩٣٩ .

(٢) وممن ذهب إلى هذا الرأي كذلك صاحب كتاب « الفن ومذاهبه في النثر العربي » ، وكذلك زكي مبارك في كتابه « النثر الفني » .

المسيو مرسيه الفرنسي(١) ، والمستشرق جب الإنجليزي(٢) .

أما الدكتور طه حسين فيقرر أنه لا يستطيع بحال من الأحوال أن يطمئن إلى أن العصر الجاهلي كان له نثر فني(٣) وإن كان له نثر خاص لم يصل إلينا لضعف الذاكرة وخلوه من الوزن(٤) هذا النثر هو الخطابة ، وأن أول القرن الثاني الهجري هو الذي شهد ظهور الحياة العقلية وهو الذي شهد مظهر هذه الحياة العقلية وهو نشأة النثر الفني(٥) ، أما القرآن في رأيه فليس نثراً كما أنه ليس شعراً ، وإنما هو كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير(٦) ، فالنثر العربي الذي ليس هو لغة التخاطب ولا الأحاديث العادية والذي لا يعبر عن عاطفة أو شعور من حيث هما عاطفة أو شعور بل من حيث هما صورة عامة يظهر فيها نتيجة التفكير ، هذا النثر في رأيه هو أثر من آثار الحياة الحياة الإسلامية الجديدة(٧) ، فقد وجد في هذا العصر كما يقول الدكتور النثر بألوانه المختلفة ، فوجد نثر عربي خاص في التاريخ ، وفي مناقشة الفرق المتكلمة ، ووجد نثر عربي خاص في الدين ، ثم وجد نثر عربي تشوبه الثقافة الأجنبية في هذه الكتب التي طلب العرب إلى الروم أو الموالي نقلها إلى العربية(٨) .

ولكننا على أي حال لا نقر هذه الآراء المختلفة التي تجحد وجود النثر الفني في العصر الجاهلي ، وإن كنا نؤمن بأن القرآن الكريم لا يماثله نثر فني في لغة العرب ، كما نؤمن بأن النثر الأدبي بعد الإسلام أخذ ينمو وينهض

---

(١) ٣٨ ج ١ النثر الفني لزكي مبارك .

(٢) ص ٧ و ٩ مجلة الأدب والفن عدد نوفمبر ١٩٤٥ من مقال للاستاذ جب بعنوان خواطر في الأدب العربي .

(٣) ص ٢٥ من حديث الشعر والنثر للدكتور طه حسين .

(٤) ص ٢٦ المرجع (٥) ص ٣٥ المرجع

(٦) ص ٢٥ المرجع (٧) ص ٢٨ المرجع

(٨) ص ٣٦ المرجع .

منذ مطلع القرن الثانى الهجرى . وبلغ منزلة عالية على يد عبد الحميد الكاتب ومن جاء بعده من أفذاذ الأدباء وأئمتهم كابن المقفع والجاحظ وسواهما .

ويقول ابن رشيق فى عمدته : وكان الكلام كله منثورا . فاحتاجت العرب إلى التغنى بمكارم أخلاقها ، وطيب أعراقها ، وذكر أيامها الصالحة ، وأوطانها النازحة ، فتوهموا أعاريض جعلوها موازين الكلام . فلما تم لهم وزنه سموه شعرا(١) .

— ٣ —

هذا ولا يعنى الأدب من النثر الجاهلى إلا ما حلق بأجنحة من الخيال والعاطفة والحكمة حتى ليعد من قبيل الشعر المنثور . ولما كان الحفظ والرواية ـ لا التدوين ـ هما أساس التواتر فى العلم بفرائد النثر الجاهلى ، فقد ضاع الكثير منه ، بعكس المنظوم الذى ساعدت أوزانه وقوافيه على حياته واستبقاء به والنغم أقرب إلى الاستقرار فى الحافظة والتردد على الشفاه .

ونحن نعرف بين الشعر الجاهلى نماذج بديعة سلسة رقيقة بعيدة كل البعد عن الوحشية، فلماذا لا توجد نماذج مثلها من النثر الجاهلى ؟ ولماذا نتعسف وننسب اليها الانتحال ولا ننسبه إلى ذلك الشعر المأثور الذى لولا اطلاعنا السابق لتصورنا أنه من إنتاج عصرنا الحاضر ؟ ومن السهل أن نتفق مع مؤرخى الأدب ونقاده ، على أن النثر الجاهلى الفنى يتنوع إلى حكمة ، ومثل ، وخطابة ووصايا ومحاورات ومنافرات وسجع وكهان . فمن أشهر حكماء العرب الجاهليين :

أكثم بن صيفى التميمى ، وعامر بن الظرب العدوانى ، ولقمان الحكيم الذى اشتهرت حكمه القصصية فى العالم اشتهار أساطير أيوب فى الغرب ، وقد طبعت ودرست فى أوروبا منذ أكثر من قرن ، ومن مظاهر سردها اتباع الجمل

(٢) ص ٥ ج ١ العمدة لابن رشيق طبعة ١٩٢٥ .

الاسمية بدل الفعلية المألوفة فى الأسلوب العربى . ومن أشهر خطباء العرب الجاهليين : قس بن ساعدة الإيادى ، وله كلمات بديعة مأثورة مشهورة بحكمها وأمثالها ، وكان العرب يتحاكمون اليه فى خصوماتهم كما كانوا يتهافتون على خطبه فى سوق عكاظ ، ومن الخطباء أيضا : هانىء بن قبيصة الشيبانى .

ومن أشهر الموصين البلغاء الجاهليين من العرب : ذو الأصبع العدانى ، والأوس بن حارثة . ومن أشهر المحاورين والمنافرين العرب فى الجاهلية : قس بن ساعدة الإيادى ، وعامر بن الطفيل ، وعلقمة بن علاثة ، وكانا يتنازعان الرياسة على بنى عامر ، وكانا يتنافران بالمفاخرة والمناظرة البليغة ، وأقوالهما فى ذلك مشهورة .

ومن أشهر الكهان العرب فى الجاهلية : الكاهنة زبراء .

هذه صور شاهدة بعلو كعب الادباء العرب الناثرين فى العصر الجاهلى . ونثرهم الفنى فى روعته ، لايقل جلالا وجمالا عن شعر الجاهليـة المنظوم ، وهو تراث قيم بالنسبة إلى عصره ، جدير بأن نعتز به ، وأن نلتفت اليه كل الالتفات فى تاريخ الأدب الجاهلى ودراسته .

— ٤ —

وفى هذا المقام ننوه بحكمة لقمان الحكيم ، الذى يجعله كثير من المراجع العربية القديمة عربيا ، ومن بينها كتاب (الأمثال) الميـدانى ، وفى كتب التفسير ذكر للقمان ، وإشارة إلى اختلاف الآراء فيه هل هو عربى أو سريانى أو مصرى أو حبشى أو يونانى ؟ وهـل هو حكيم أو نبى أو رسول ؟ وقد ذكرت ذلك فى كتابى (الذكر الحكيم) . . ويذهب المستشرق الإنجليزى رندل هريس فى كتابه (قصة أحيقار) ـ طبع لندن سنة ١٨٩٨ ص ٧٥ من المقدمة ـ الى أن القرآن الكريم قد أشار إلى أحيقار فى سورة لقمان وأن لقمان هو أحيقار نفسه ، إذ أن كلا من لقمان

وأحيقار يوصف بالحكمة ، وأن كلا منهما كان يلقن ابنه حكما يبدؤها بقوله «يابنى» ، وأن بعض حكم أحيقار تشبه بعض الحكم التى جاءت فى القرآن على لسان لقمان ، فالآية الكريمة : (واقصد فى مشيك واغضض من صوتك إن أنكر الأصوات لصوت الحمير)(١) يناظرها ما جاء فى وصية أحيقار لابنه : (يا بنى احن رأسك ، ورقق من صوتك ، وكن بشوشاً وامش فى الطريق المستقيم ، ولا تك أحمق ، ولا ترفع صوتك بالضحك فإنه لو كان البيت يبنى بالصوت المرتفع لبنى الحمار بيتين فى يوم واحد). ولا شك أن التشابه قوى وواضح ، وقصة أحيقار مشهورة ، وترجمت إلى كثير من اللغات ، وهى إحدى القصص التى كانت شهرزاد ترويها للملك شهريار ، والتى عرفناها فى كتاب ألف ليلة وليلة . ، وقد وردت فى أقدم نصوصها بترجمة آرامية قديمة يرجح أن تاريخ تأليفها قبل نهاية القرن الخامس قبل الميلاد ، ويروى كليمانس الاسكندرى - وهو من كتاب القرن الثانى بعد الميلاد - أن ديمقريطس — الذى كان يعيش فى القرن الخامس قبل الميلاد — قد ألف كتاباً فى المواعظ الاخلاقية البابلية ، تناول فيه ما فى قصة أحيقار من حكمة . ويوجد شبه بين قصة أحيقار وبعض أسفار العهد القديم كأسفار الأمثال ، بل وبين بعض أجزاء العهد الجديد . وقد ترجم السريان قصة أحيقار ، والنص السريانى هو أصل جميع التراجم التى ظهرت للقصة بعد ذلك ويشير عدى بن زيد إلى أحيقار فى شعره :

عصفن على الحيقار وسط جنوده   وبيتن فى لذاته رب مارد

وكان أحيقار وزيراً حكيما لملك أشور ونينوى ، وهو سنحاريب ،

---

(١) سورة لقمان الآية ١٩

وكان أحيقار يتوق إلى أن يرزق بولد يرث حكمته وثروته ، ولكنه لم ينجب من ستين امرأة تزوجها ، لذلك بادر بترك الوثنية إلى عبادة إله واحد ، ولما تضرع إلى الله سمع صوتاً يقول له : « خذ نادان ابن أختك واجعله لك ولداً ، وعلمه علمك وأدبك » ، وكان رضيعاً ففعل ذلك ، وكبر الغلام وكبر أحيقار ، واستخلف سنحاريب الشاب نادان في الوزارة مكان أبيه وعند ذلك أخذ أحيقار في بذل النصح لابنه ، وفي تعليمه تجارب الحياة وعبر الايام التي مرت به ، وكل وصايا أحيقار تبدأ بكلمة « يا بني » . وفي القصة بعد ذلك أحداث ومآس كثيرة ، منها فساد نادان في سياسته وسوء أخلاقه واسترداد أبيه ما وهب له من ثروة ووشاية نادان بأبيه عند الملك واختباء أحيقار في سرداب ووقوع الملك في أزمة سياسية وظهور أحيقار ، وظهور براءته ، وانتحار نادان . وقد ذكر المسعودي لقمان ورجح أنه كان حكيماً من الحكماء ، ولا أستبعد أن يكون هو أحيقار نفسه .

(١) راجع ٣٣ - ٤١ من كتاب تاريخ الأدب السرياني تأليف مراد كامل ومحمد الكردي .

الحياة الادبية فى العصر الجاهلى (١)

نرانا أمام نهضة جليلة فى الأدب العربى تناولت أعرق مدارسه كدار العلوم والأزهر : فنرى فى الأولى جهودا أصيلة موفقة داعية للإعجاب بها كتلك التى يقوم إبراهيم أنيس وحامد عبد القادر فى فقه اللغة وفلسفتها وعلم النفس الأدبى ونرى فى كلية اللغة العربية بالأزهر نظيرا لها كمثل ما يقوم بها محمد عبد المنعم خفاجى الذى شغل بعلم الأدب وبالنقد الأدبى خاصة

والأستاذ خفاجى ظاهرة فذة شائقة فى الوراثة والاطلاع والاستقراء والإنتاج ، فهو سبط الأديب الكبير الشيخ نافع الخفاجى ، وهو من أسرة بنى خفاجة التى تنتمى الى أصول عربية قديمة ومنهم الأمراء الخفاجيون فى إقليم الكوفة . والأمراء الخفاجيون بحلب ، ومنهم الأمير ابن سنان الخفاجى الحلبى ، ومن أشهر النابغين فى مصر من الخفاجيين الشهاب الخفاجى المصرى

وهذا الرجل الذى يحمل أعلى شهادات الأزهر العلمية (وهى شهادة الاستاذية فى الأدب والبلاغة - التى تعادل « الدكتوراه » من الجامعات السامقة كالسوربون مثلا - ، والذى أخرج حتى الآن نحو مائة كتاب فى فنون الادب ، والذى يتولى الأستاذية بكلية اللغة العربية فى الازهر ، والذى يشغل ليل نهار بالتأليف والمطالعة حتى إنه لم يعرف عن أزهرى قديما أو حديثاً أنه اطلع مثل اطلاعه على مئات الكتب القيمة من مخطوطة ومطبوعة ، هذا الرجل العلامة الموهوب الذى لا يكتفى بتراثه العربى فيتعلم الفرنسية والإنجليزية ليقف بنفسه على أمهات التصانيف والمراجع

---

(١) دراسة لهذا الكتاب بعد ظهور الطبعة الأولى كتبها الدكتور المرحوم احمد زكى ابو شادى ، وأذاع بها من صوت أمريكا ، ونقلته عنها محطة الإذاعة البريطانية العربية

الأوربية والأمريكية وليتذوق الأدب العالمى من مناهله الأولى ومنابعه الاصلية ، أصبح الآن مناط آمال الازهريين فى التجديد الادبى .

وإنه لعسير أن يختار المرء كتاباً من كتبه للعرض فى مجال الحديث عن الأدب العربى ، نظراً لكثرتها وتنوعها وتناولها جميع فروع الأدب . والأستاذ خفاجى ليس لغوياً ولا أديباً فحسب ، بل هو شاعر أيضا ، شأنه فى ذلك شأن طـــه حسين ، ولذلك - إلى جانب ثقافته الواسعة التى تلتهم كل معرفة ميسورة - كان طابع كتابته شاعرياً جميلا مع الحرص على الدقة العلمية فى الوقت ذاته . ولذلك نالت تصانيفه احتراما عاما فى جميع الأوساط الأدبية ببلاد العرب وفى دوائر الاستشراق ، بغض النظر عن موافقتنا على آرائه أو مخالفتنا له فيها .

وأمامنا الآن كتابه « الحياة الأدبية فى العصر الجاهلى » وهو الحلقة الأولى من تاريخ الادب العربى المشغول بإخراجه تباعا ، وقد صدق حين قال : إن تاريخ الادب العربى هو تاريخ لقومية الامة العربية وأخلاقها وعاداتها وآمالها وآلامها . ولكل ما تأثرت به من مؤثرات حياتها الفكرية والاجتماعية والسياسية والادبية . ثم استمع إلى قوله : إن تاريخ الادب ليس علماً جافاً . بل أساسه الذوق ودراسة الفنون الادبية فى الامة دراسة واسعة . . . فعلى مؤرخ الادب أن يدرس أسباب رقى الادب وانحطاطه وتأثر الادباء بها أو تأثيرهم فيها ، وأن يدرس صلات المحدثين بالقدامى أدباء وشعراء وكتابا وخطباء ونقادا ، وأن يتعمق فى فهم المذاهب والمدارس الادبية العامة وصلاتها بعضها ببعض ، والعوامل التى أدت إلى قيام كل مدرسة وميزاتها وخصائصها ومدى تأثرها بما قبلها وتأثيرها فيما بعدها من المدارس والمذاهب الادبية العامة . فهذه المدارس والحركات الأدبية كانت تلعب دورا هاما ، ولها الاهمية الكبيرة فى دراسة تاريخ الآداب الذى ليس سردا لنصوص أدبية وتراجم عامة ، ولكنه يوضح لنا الصلات بين المذاهب الادبية ويربط كاتبا بآخر وجماعة بجماعة ومدرسة بمدرسة كما يدرس أسباب الانقلابات

الادبية المختلفة فى عصور الادب وتأثير فحول الكتاب فى نهضة الادب والشعر وتوجيههما وجهة جديدة .

إن هذا الاسلوب المترسل الناصع النافذ مما لا يعرف بين الازهريين إلا فى أفذاذ أدبائهم كالمرصفى ومحمد عبده وسعد زغلول وعلى عبد الرازق ومصطفى عبد الرازق .

وهذا الكتاب الضخم الذى أتى لنا بتحليل جديد عميق للحياة الادبية فى العصر الجاهلى هو أساس متين صالح للدارس الباحث فى موضوعه ، ولو أنه أساس قابل للتعديل حتما فى ضوء البحوث والكشوف والاستنباطات المستمرة وليس مثل الاستاذ خفاجى بالذى يتعالى على شىء من هذا ، بل بالعكس نجده الحريص على الاستقصاء والتحقيق وتعديل نظراته ونقداته على ضوء العلم .

وهكذا سيكون كلامنا عن الحياة الادبية فى العصر الجاهلى دائماً على عمادين: أحدهما كتاب الاستاذ خفاجى إن لم نقل كتبه فى هذا الموضوع الجليل ، إذ له كتب أخرى مكملة أو شارحة مثل (أعلام الشعر الجاهلى) و(الشعراء الجاهليون)وغيرهما ،والآخر الكشوف العلمية الحديثة التى يجب على ضوئها تنقيح نظرياتنا القديمة وتعديلها . وبذلك نخدم تاريخ الادب الجاهلى الخدمة الحقة ونتمكن من حسن دراسة ذلك الادب والاستمتاع به

الحياة الادبية فى العصر الجاهلى

بقلم الاديب الحجازى الكبير عبد الله عبد الجبار

محمد عبد المنعم خفاجى ، اسم لامع فى دنيا الادب فى العالم العربى الحديث وشخصية عجيبة محببة ، هى مزيج من الكبرياء ، والتواضع ، تواضع النفس الكبيرة التى تجامل ، وتغرق فى المجاملة حتى ليحسبها الغبى ضعفا وما هي من الضعف فى شيء ، إنما هى سمة الإنسانية المهذبة المؤمنة بالخير

والفضائل ، والتى تعتقد أن القوة هى أن يتواضع المرء حيث يجب التواضع ، ويتكبر حيث يجب التكبر ، والذين لم يعرفوا صاحبنا الخفاجى ، أو يخالطوه عن كثب سيدهشون حين يرون هذا الحمل الوديع ، وهو ينقلب إلى أسد هصور إذا مامست كرامته أو كرامة بلده ، أو كرامة العروبة ، أو كرامة الأحرار فى أى مكان ، وكيف يذود عن هـذه الكرامة بلسانه وقلمه ، ويعلنها حربا كلامية شعواء ضـــد الطغاة والطغيان ، ويصب عليهم الحمم والقذائف ، لايبالى ماقد تجره عليه هذه الجرأة من وبال ، لأنه تربى على أن لايخشى فى الحق لومة لائم .

وصاحبنا الخفاجى يمتاز بالإنتاج الغزير ، ولا أعرف أديباً فى العالم العربى يدانيه فى هذه الغزارة ، فقد بلغت كتبه التى ألفها وحققها أكثر من مائة كتاب ، وهو لم يتخط الأربعين إلا بقليل .

وقد سمعت صديقنا الناقد الجهير الأستاذ مصطفى السحرتى يقول عنه ذات يوم : « لو أن هـذه الكتب التى أنتجها الخفاجى ، لم يكن له فيها من عمل إلا أنه نسخها وحسب ، لأصابتنـا الدهشة ، وقلنا له : كيف تأتى لك الوقت الذى نسخها فيه ، فكيف وقد ألفها تأليفاً ورجع إلى العدد الكثير من المصادر والمراجع؟ » .

فالخفاجى ـ إذن ـ مكثار ، وهذه المزية يقابلها أصدقاؤه بالدهشة والغبطة ـ ويقابلها منافسوه ـ وهم قلة ـ بالحقد والحسد .

وأنا أقول للذين يعيبون على الخفاجى هـذا السيل الغزير من النتاج ، ويتهمونه بالسرعة فى بعض الأحيان : ألا يكفيكم أن تحتوى هذه المائة كتاب على خمسين كتاباً جيدة جدا ، أو عشرين أو عشرة أو خمسة كتب ممتازة بلغت الذروة فى البحث الأكاديمى ، وكل منها يصلح لأن يكون رسالة « دكتوراه » ممتازة ؟ ألا يكفيكم مثلا كتابه « ابن المعتز » ، أو « الحياة الأدبية فى العصر العباسى » أو « رائد الشعر الحديث » أو « قصـة الأدب فى مصر » ، أو كتابه هذا « الحياة الأدبية فى العصر الجاهلى » ، أو كتابه مذاهب الأدب ،

أو سوى ذلك من العديد من كتبه ودراساته ؛ وإن باحثا منصفا لايستطيع أن ينكر هذه الحقيقة أبدا ، فالخفاجى دكتور مضروب فى عشرة أردنا أم لم نرد . . وهو بهذا الصنيع قد فعل مايفعله عادة أساتذة الجامعات فى كل حياتهم الجامعية التى يخصصونها غالباً لموضوع واحد ، ومادة واحدة . وزاد عليهم مائة كتاب أخرى فى التاريخ والأدب والتصوف والاجتماع والتراجم ، والبحوث الإسلامية والعربية والوطنية ، وأياكان رأى النقاد فيها ؛ فهى - فى نظرى - تحتوى على الجديد العميق من الفائدة العلمية والأدبية ، وألا يكفى أن يطرى بعض هذه الكتب أدباء لهم مكانتهم الأدبية : كالسحرتى ، وسلامة موسى ، وأبى شادى ، ووديع فلسطين ، ورو كس العزيزى ، وأحمد عارف الزين ، والشيخ محمد رضا الشبيبى ، وسواهم من أعلام العالم العربى ، والإسلامى عامة .

ولصديقنا الخفاجى فضل كبير على الأدب المعاصر بدراساته وبحوثه عنه ، وبما جمع ودون من نصوصه ، ومن آراء النقاد والباحثين فيه ، كما فعل فى كتابه « صور من الأدب الحديث » .

وقد نشر عن الخفاجى ثلاثة كتب كبيرة للأساتذة : حليم مترى ، ومحمد رضوان ، وفكرى أبو النصر ، وكتبت عنه مئات البحوث والدراسات والمقالات .

والخفاجى أديب مشرق الأسلوب تمضى فى قراءته دون أن تمل ؛ وهو قادر على تذليل الموضوعات الجافة وتطويعها بقلمه الحى حتى تغدو عذبة سائغة فى النفوس . . وهو ذكى لماح ، سرعان ما يستشف الفكرة الجديدة ، ويتمثلها ويلتمس لها المراجع والمظان ، فإذا هى بعد زمن قصير أو طويل كتاب جديد .

والخفاجى - قد أسهم مع المسهمين فى تغذية الفكر العربى الحديث بالدراسات البكر التى لم يسبق اليها ، وحسبك أن تعلم أن الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر الحالى طلب من رجال إدارته كتباً عن تاريخ الأزهر

ورجاله ، لتقديمها إلى هيئات ثقافية أجنبية فلم يجدوا كتاباً - في صميم الموضوع - غير كتاب الخفاجى (الأزهر فى ألف عام) ، وهو يقع في ثلاثة مجلدات أما كتابه (مواكب الحرية فى مصر الإسلامية) فهو صورة حية لروح التاريخ المصرى حين يجلوها أديب وطنى حر ، وهو جديد فى موضوعه . وما أجدره أن يقرر فى المدارس الثانوية ، فهو خير من عشرات كتب التاريخ الجافة التى تعتمد على السرد ، وليس وراءها أى هدف أو أية غاية وطنية أو قومية . وفى هذا المجال أجدنى حائراً بين كتبه ، أأذكر : (الإسلام وحقوق الإنسان) ، أم (الإسلام رسالة الإصلاح والحرية) ، أم (الإسلام دين الإنسانية الخالد) ، أم (صور من الفكر العربى وتاريخ الإسلام) ، أم كتابه (قصة الأدب فى الاندلس) ، أم (قصة الادب المعاصر) ، أم (الذكر الحكيم) ، أم تفسيره للقرآن الكريم ؛ أم (قصص من التاريخ) الذى نشره محتويا على سبعة كتب من تأليفه ، أم غير ذلك من دراساته ؟ .

أما كتاب (الحياة الادبية فى العصر الجاهلى) الذى يقدمه الخفاجى إلى القارىء العربى بعد تسع سنوات من طبعته الأولى فى طبعة جديدة فريدة ، فهو كتاب واف فى موضوعه . استقصى فيه كل البحوث الهامة التى لا يستغنى عنها دارس هذا العصر ، سواء كانت تمهيدية ، أو أساسية ، ونظرة فى الكتاب تدلك على أهميته ، فبعد التمهيد الشافى الذى عقده لموضوع « الأدب بين الذوق واللغة » تحدث عن المؤثرات فى الادب الجاهلى ، ووصف الجزيرة العربية وأقسامها ، وأصل العرب ، والشعوب العربية وطبقاتها . ثم تناول الحياة السياسية والاجتماعية والدينية والعقلية ، وعقد فصلا ممتعاً للخط العربى فى الجاهلية ، ثم تحدث عن أيام العرب وأثرها فى الادب ، مستشهداً بما أثارته من أشعار حماسية ، ودرس اللغة العربية أصلها ونشأتها وأثر الاسواق العربية فى تهذيب اللغة وترقية الادب ، واختلاف اللهجات العربية ، وخصائص اللغة العربية ، وعوامل نموها ، وفصاحة لغة قريش ،

ثم تناول تطور المناهج فى دراسة الادب العربى وتاريخه ، وتقسيم الادب إلى إنشائى ووصفى . . كل ذلك فى الباب الاول من هذا الكتاب القيم ؛ حتى إذا كان الباب الثانى تحدث عن معنى الجاهلية ، وناقش آراء القائلين بأسبقية الشعر على النثر ، وأثبت أن النثر أقدم من الشعر ، ثم تحدث عن النثر وقسمه إلى : مرسل ، ومزدوج ، ومسجوع ، وذكر خصائص النثر الجاهلى فى معانيه وأغراضه وأساليبه ، وعزز كل ذلك بأمثلة فنية من النثر الجاهلى ، ثم تكلم عن الحكم والامثال ، سواء كانت نثرية أو شعرية حقيقية أم فرضية . ثم تناول الوصايا ونماذجها ، والخطابة ودواعيها ، وأغراضها وأساليبها ، وأشهر الخطباء . وتحدث عن المحاورات والمنافرات والمفاخرات ، والكهانة وسجع الكهانة ، ثم عرض صوراً جميلة من القصص الجاهلى .

فإذا انتقل إلى الباب الثالث الذى عقده للشعر الجاهلى ، استهل حديثه بالحديث عن الشعر عامة وتعاريف القدامى والمحدثين له ، وروى لنا كيف نشأ الشعر عامة ، وتدرج من دور البساطة إلى دور السجع ، ثم إلى دور الوزن ، ثم كيف تطور الشعر الجاهلى من الأبيات القليلة حتى تقصيد القصائد الطوال ، وتحدث عن تأثير الشعر فى النفوس ، ومنزلة الشاعر ، والتكسب بالشعر ، وشاعرية العرب . ثم قسم الشعر إلى : تمثيلى وقصصى ووجدانى ، وبين الغنائية الغالبة على الشعر الجاهلى ؛ ثم تكلم عن تنقل الشعر فى القبائل ، وشياطين الشعراء ؛ وطبقات الشعراء الجاهليين ، ورواية الشعر الجاهلى ، وعقد فصلا ممتعا للشعر الجاهلى بين التجديد والتقليد ؛ وتناول موضوع الصنعة والطبع فى الشعر الجاهلى ، ودافع بحماسة مدعمة بالادلة عن الشعر الجاهلى ؛ ثم أوضح لنا كيف كان الشعر الجاهلى سجلا صادقا لأخلاق العرب وعقائدهم ومعارفهم وحياتهم الاجتماعية ، وعزز آراءه بشواهد بليغة من روائع الشعر الجاهلى .

ثم درس المعلقات وسبب تسميتها بذلك ولخص الآراء المتضاربة ورجح

رأى التبريزى القائل : بأن وجه تسميتها بالمعلقات علوقها بأذهان صغارهم وكبارهم ، ومرءوسيهم ورؤسائهم ، وذلك لشــدة اعتنائهم بهـا . ثم تحـدث عن منزلة المعلقات وشراحها ، وتناولها بالعرض والنقد ، معلقة معلقة .

وعقد فصلا لأغراض الشعر الجاهلى كالمديح والهجاء والفخر والرثاء والحماسة والعتاب والاعتذار والحكمة والاخلاق والوصف والنسيب .

ثم فصل لمعانى الشعر الجاهلى ، وأخيلته وألفاظه وأساليبه ، وتحدث عن الرجز والقصيد ، وكانت لفتة بارعة من مؤلفنا تحدثه عن الشاعرات العربيات فى الجاهلية . ومن أقوى فصول الكتاب الفصل الذى عقده لآراء علماء الادب فى الشعر الجاهلى قديما وحديثا ، وقد ناقش فيه مناقشة بارعة آراء الدكتور طه حسين وطائفة من المستشرقين . ولم ينس المؤلف أن يتحدث عن النقد الادبى فى الجاهلية . ثم تناول الحكومة الادبية بين قصيدتى علقمة وامرىء القيس وعقد فصلا جميلا عن الموازنة بين الشعراء ، ثم قام بتطبيق بارع حين وازن بين شاعرين جاهليين هما زهير والاعشى ، ووازن بين قصائد جاهلية مشهورة ، وعرض صورا من الشعر الجاهلى . . وختم الكتاب ببحث عن العصور الادبية وتحديد العصر الجاهلى ، إلى غير ذلك .

وبعد ، فهذا عرض سريع لرءوس الموضوعات فى هذا الكتاب القيم ، وأشهد أن هذا البحث ـ على كثرة ماقرأت فى هذا الموضوع ـ يعتبر من أحفل البحوث ، وأكثرها شمولا واستيعابا ، وتجلية للحياة الادبية فى تلك الحقبة السحيقة من التاريخ العربى ، ولا يسعنى فى ختام هذه الكلمة القصيرة إلا أن أحيى الاستاذ الخفاجى على جهاده الادبى المتصل ، وجهوده الثقافية المشكورة فى سبيل دعم القومية العربية الوثابة ؟

القاهرة ١٩ يوليو ١٩٥٨ — عبد الله عبد الجبار

خاتمة الكتاب

هذه هي الطبعة الثانية لكتاب « الحياة الأدبية فى العصر الجاهلى » ؛ التى تشتمل على زيادات كثيرة تكاد تبلغ مائتى صفحة ، والكتاب أوسع دراســـة للأدب الجاهلى وفنونه ، وسماته ، وقد لقيت الطبعة الأولى منه كثيراً من اهتمام الدارسين والباحثين .

وبحسبى أن أكون قد مهدت بهذا الكتاب لفهم أصول الأدب ومذاهبه ، وأن أكون قد وضعت المناهج الحقة لدراسة الأدب العربى عامة والجاهلى خاصة ، وفى ذلك مافيه من زيادة نصيبنا من الثقافة الأدبية ، ومن بعث الاهتمام بهذه اللغة الأصيلة ، لغة القرآن الكريم .

ولست فى حاجة إلى القول بأن العناية بالادب القديم عناية بكتاب الله الخالد ، ومؤازرة قوية فى سبيل فهمه والتأثر به . . ومن الله السداد والتوفيق .

محمد عبد المنعم خفاجى

فهرست الكتاب

مؤلفات وتحقيقات د. محمد عبد المنعم خفاجى

ابن المعتز وتراثه في الادب والنقد والبيان
الادب الجاهلي (نصوص ودراسة)
الادب العربي وتاريخه في العصرين الاموي والعباسي
الادب العربي في الاندلس
الآداب العربية في العصر العباسي الاول
اعجاز القرآن (تحقيق) للباقلاني
الاقتصاد في الاسلام
البديع (تحقيق) لابن المعتز
الحياة الادبية في العصر الجاهلي
الحياة الادبية بعد ظهور الاسلام
الحياة الادبية بعد سقوط بغداد الى العصر الحديث
دراسات في الادب الجاهلي والاسلامي
دراسات في الادب العربي الحديث
دراسات في الادب المعاصر.

الفكر الاسلامي بين الاصالة والتجديد
قصة الادب في مصر
القصيدة العربية : دراسات ونقد
المختار في الحديث النبوي الشريف
من تراثنا الخالد.